# تجريف العقول

دكتور
**سعيد إسماعيل على**
أستاذ أصول التربية جامعة عين شمس

٢٠٠٣

عالم الكتب

عالم الكتب

نشر * توزيع * طباعة

الإدارة :

١٦ شارع جواد حسنى - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٤٦٢٦

فاكس : ٠٠٢٠٢٣٩٣٩٠٢٧

المكتبة :

٣٨ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٦٤٠١ - ٣٩٥٩٥٣٤

ص.ب : ٦٦ محمد فريد

الرمز البريدى : ١١٥١٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م

رقم الايداع ١٨٢٨٣ / ٢٠٠٣

ISBN: 977-232-382-6

مطبعة أبناء وهبه حسان

٢٤١ (أ) ش الجيش - القاهرة

تليفون : ٥٩٢٥٥٤٠

الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com

البريد الإلكترونى : info@alamalkotob.com

# مقدمـــــة

المجموعة التى أقدمها فى الكتاب الحالى ، والتى تضم عدد من المقالات التى نُشرت لى على صفحات كثير من الصحف والمجلات المصرية والعربية تختلف عن المجموعات السابقة فى الشكل التنظيمى ، لكنها تتفق معها فى المضمون والمحتوى ، فلقد كنت حريصا دائما على أن أقرن كل مقال بالإشارة إلى تاريخ ومكان نشره إيمانا منى بأن هذا مهم فى فهم النص ، صحيح أن الكاتب واحد ، ومفروض ألا يغير " جلده " ، إذا صح التعبير من مكان إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن ، لكن هناك أمران مهمان ، أولهما أن لكل صحيفة ومجلة توجهاتها وطبيعتها مما يحتم على الكاتب أن يدخل هذا بعين الاعتبار ، وعلى سبيل المثال ، فأنا عادة لا أنشر لا أرسل مقالا للنشر فى صحيفة الأهرام إذا كان يتعلق بالسياسة الداخلية ، وخاصة إذا كان نقدا حادا ، وهو الطابع الذى يلاحظه القارئ على كل ما أكتب على وجه التقريب فيما يتعلق بهذا الشأن ، صحيح أننا أحيانا ما نجد شيئا مثل هذا منشورا على صفحاتها ولكنه عادة لكتابها الدائمين الذين يعملون فيها ، ولا يعنى هذا مرة أخرى أن أرسل إليها مقالات تقول بعكس ذلك ، كل ما هنالك أننى أتجنب هذا الشأن ، وأسعى إلى نشره فى صحيفة أخرى تتحمل سياستها ذلك ، وأخص الأهرام بمقالات فى موضوعات أخرى ...وهكذا

ومن ناحية توقيت الكتابة ، فلأنها بالضرورة تعكس حركة واقع قائم وأحداث تنفعل بها المقالات .

لكننى فى المجموعة الحالية أجد نفسى مضطرا ألا أحقق هذا المطلب بدرجة مائة بالمائة ، مما يوجب على أن أعتذر للقارئ ، فلم ألحق بكل مكان هذه البيانات المطلوبة ، وأصارحه بأنها - ولأول مرة - تاهت منى بين أوارقى المكدسة التى عسر على تنظيمها ، وكل ما استطعت أن أعوضه هو أن أشير فى هذه المقدمة إلى ما استطعت العثور عليه بيانات ، وكان العثور عليها ، بعد أن طبعنا المقالات نفسها ، أو بمعنى أصح بعد أن أنزلناها من على الحاسب الآلى حيث كانت مخزنة منذ أن نشرت ، لكن هناك بعض آخر لم أستطع مع الأسف الشديد أن أعثر على بياناته .

أما وجه الاختلاف الآخر فهو أننى لم أصنف هذه المقالات مثلما فعلت فى المجموعتين السابقتين ( التعليم والتنشئة السياسية ) ، و ( مماليك هذا الزمان ) ، وأصارح القارئ أننى أصبحت أشك فى هذا التقسيم المعروف ، بأن هذه موضوعات تربوية ، وتلك ثقافية ،

والأخرى سياسية ، فالتأمل الدقيق يشير إلى أن كل ما هو تربوى يعكس سياسة بعينها ، وكل ما هو سياسى هو دلالة بدوره على تربية معينة ، وكل من هذا وذاك جزء من ثقافة المجتمع .. وهكذا

ومن هنا جاءت المقالات بغير تصنيف ...

وفيما يلى البيانات الخاصة بنشر الكثرة الغالبة من المقالات ، وأعتذر مرة أخرى عن غياب بعضها ، قاصدا ب : د.ن غياب اسم الصحيفة أو المجلة ، و د.ت ، غياب التاريخ بالتالى :

١- الأبعاد الثقافية للموروث والوافد فى التعليم العربى : د.ن ، د.ت

٢- المسيح معلما : الأخبار ، فى ٢٠٠٢/١/٦

٣- فأنذرتكم نارا تلظى : الشعب ، د.ت

٤- هذا السناريو المخزى ، العربى ، ١٩٩٩/١٠/١٠

٥- ديفوس بين الناس اللى فوق والناس اللى تحت : العربى ، ٢٠٠٠/٢/٦

٦- الإمبريالية من بعد : العربى ، د.ت

٧- تحذير لا تخويف : العربى ، ٢٠٠٠/٢/١٣

٨- ليست من أساطير الأولين : العربى ، ١٩٩٩/٩/٥

٩- كيف نقدم التاريخ لأبنائنا ؟ د.ن ، د.ت

١٠- اليمين المتطرف والعنصرية ، العربى ، ٢٠٠٠/٢/٢٠

١١- العروبة والعرب وخلط الأوراق : د.ن ، د.ت

١٢- تحيا القوة : د.ن ، د.ت

١٣- وهم السلام بين " المواجع " و " الفواجع " : العربى ، د.ت

١٤- يا دكتور عاطف .. إذا كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ العربى ، ٢٠٠٠/١/٢٣

١٥- الفقر خطر يهدد التنمية البشرية : الهلال ، د.ت

١٦- البعثات التعليمية فى عهد محمد على : أحوال مصرية ، العدد (١٥) ، شتاء ٢٠٠٢

١٧- حوار حول الخطابة : الهلال ، سبتمبر ١٩٩٩

١٨- السينما المصرية بعيون تربوية : الهلال ، د.ت

١٩- أصداء العولمة فى عالم التعليم ، مجلة العربى الكويتية ، مايو ٢٠٠١

٢٠- عل خدع الرجل المرأة ؟ الأهرام فى ٢٠٠٠/٣/٢

٢١- استاذى الذى كان يبيع الجرائد : العربى ، ٢٠٠٠/٣/١٩

٢٢- التعددية الثقافية بين الشرائح الاجتماعية : صوت الأزهر ، ٢٠٠٠/١٠/٦

٢٣- التعليم عاملا من عوامل التوحيد فى الثقافة العربية : العربى الكويتية ، أكتوبر ٢٠٠٠ ، وصوت الأزهر ، ١٤، ٢٨ / ٢٠٠٢

٢٤- أبعاد سياسية واجتماعية لخصخصة الثقافة : قدمت إلى شعبة الثقافة بالمجلس القومى للثقافة والفنون والإعلام ، د٠ت

٢٥ - كتاتيب : الميدان ، ١٩٩٩/٨/٢٧

٢٦- آثار الحكيم بعيون تربوية : الكواكب ، ١٩٩٩/١١/٩

٢٧- بين الوجد والوغد : الكواكب ، ٢٠٠٠/٢/١

٢٨- رحيل عالم نفس عظيم : الأهرام ، ٢٠٠١/٥/١٤

٢٩- العقل العشوائى : الأخبار ، ٢٠٠١/٢/٢٣

٣٠ -ويل للمطففين : الوفد ، ٢٠٠١/٣/٢٩

٣١- أليس منكم رجل رشيد ؟ : العربى ، ٢٠٠٠/٢/٢٧

٣٢- عولمة التعذيب : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١١/١٥

٣٣- كليات الطب فى الجامعات المصرية : د٠ن ، د٠ت

٣٤- صناعة الطغيان : العربى ، ٢٠٠٠/٤/٢٣

٣٥- إمبريالية وليست صليبية : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١٠/١٨

٣٦- أنا والغريب على أخويا وابن عمى !! : آفاق عربية ، ١١/٨/ ٢٠٠١

٣٧- تحديد إقامة الإسلام : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/٧/١٣

٣٨- المسلمون ٠٠بقر مجنون : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/١٠/٢٦

٣٩- المكافأة : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١١/١

٤٠- لماذا ننجح فرادى ونفشل مجتمعين ؟ القاهرة ، ٢٠٠٢/٤/٢٥

٤١- أبناؤنا والمسألة الجنسية : القاهرة ، د٠ت

٤٢- الحج / العمرة ، وأزمة الدولار : صوت الأزهر ، ٢٠٠٠/٤/٧

٤٣- أنا ٠٠٠والإرهاب : آفاق عربية ، ٣، ١٠/ ٢٠٠٢

٤٤- فى إسرائيل وليس فى أفغانستان : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١/٢٥

٤٥- الخوف من الحرية : الحقيقة ، ٢٠٠١/١/١٤

٤٦- القنبلة السكانية الفلسطينية : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/٤/٢٧

٤٧- موت مجلة : الأهرام ، ٢٠٠١/١٢/٢٧

٤٨- الغزو المضاد : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/٧/٦

٤٩- مناظرة : مصرية أو عروبة ؟ صوت الأزهر ، ٢٠٠١/١٢/١٤

٥٠- المستقبل الغامض : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/٤/٢٠

٥١- ٢٨سبتمبر : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/١١/٥

٥٢- ماذا فعل الساسة باللغة العربية ؟ د٠ن ، د٠ت

٥٣- الشوكة الإسلامية فى أوربا : آفاق عربية ، ٢٠٠٢/٦/٢٠

٥٤- تجريف العقول : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١٢/٦

٥٥- تسطيح العقول : آفاق عربية ٢٠٠٢/١/١٧

٥٦- رسالة إلى المندوب السامى الأمريكى : آفاق عربية ، ٢٠٠٣/١٠/٢

٥٧- العقاد يتهم الخولى : صوت الأزهر ، ٢٠٠٢/١/١٨

٥٨- شعلة لا تنطفئ : صوت الأزهر ، ٢٠٠٢/٣/٨

٥٩- ٠٠حتى بروتس ! الوفد ، ٢٠٠٢/٢/٢٢

٦٠- الأمريكان يعلمون المسلمين الدين الإسلامى : الوفد ، ٢٠٠٢/٢/١٢

٦١- من ينقذ هذه الأم ؟ الأخبار ، ٢٠٠٢/٣/٢٩

٦٢- المخزومون : آفاق عربية ، ٢٠٠١/١/٢٤

٦٣- من المحاصر ؟ آفاق عربية ، ٢٠٠٢/٢/٧

٦٤- مثل المار يحمل أسفارا : الأخبار ، د٠ت

٦٥- " أنا بكره المدرسة " : الأهرام ( بريد ) ، د٠ت

٦٦- سلافة النديم : صوت الأزهر ، ٢٠٠١/٢/١

٦٧- أزمة نظام أم أزمة حكومة ؟ آفاق عربية ، د٠ت

٦٨- " الويلات " المتحدة الأمريكية : آفاق عربية ، د٠ت

٦٩- أسود علينا ، وفى الحروب ؟ ! آفاق عربية ، ٢٠٠٢/١٠/٢٤

٧٠- رأس المال والثقافة : الوفد ، ١٩٩٩/٢/٢٢

٧١- "٠٠٠إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " ، آفاق عربية ، د٠ت

٧٢- النظام عندما يشيخ : آفاق عربية ، ٢٠٠٢/٦/٢٠

# الأبعاد الثقافية للموروث والوافد
# فى التعليم المصرى

من بين العديد من المعانى التى تفسر بها الثقافة فإن المعنى الذى تستند إليه الدراسة الحالية هو ذلك الذى ينظر إليها على اعتبار أنها طرق المعيشة المختلفة التى توصل إليها الإنسان طوال عصور التاريخ ، السافر من هذه الطرق والمتضمن ، العقلى واللاعقلى ، وتكون هذه الطرق هاديات وموجهات لسلوك أفراد المجتمع .

وإذا كانت الثقافة لا تعتمد فى استمرارها على فرد واحد أو جماعة واحدة من جماعات المجتمع ، وأنها مع ذلك ليست قوة فى ذاتها تعمل مستقلة عن وجود الأفراد ، كما أننا لا نراها فى ذاتها ، وإنما نراها فى سلوك الأفراد وفى المعانى المختلفة التى تكسب ما يتناولوه من أدوات وأشياء وظائف مختلفة فى حياتهم بحيث يمكن القول بأن الثقافة ما هى إلا أنماط سلوكية عامة تميز أعضاء المجتمع تمييزا عاما عن غيرهم فى المجتمعات الأخرى ....

وإذا عرفنا أن العملية التعليمية هى تلك العملية الاجتماعية الخلقية التى يضطلع بها المجتمع من أجل بناء شخصيات أفراده على نحو يمكنهم من مواصلة حياة الجماعة وتحريرها وتطويرها ، بالإضافة إلى تنمية شخصياتهم المتفردة للقيام بأدوار اجتماعية متكاملة الوظائف والمسئوليات ، أو بمعنى آخر ، هى تلك العملية الواعية الموجهة توجيها قائما على بصر من أجل إحداث تغييرات مرغوب فيها فى سلوك الفرد وكذلك فى سلوك الجماعة .....

نقول إذا عرفنا هذا ، فالنتيجة المنطقية التى تترتب على ذلك هى أن مجال العملية التعليمية هو محتوى الثقافة بقيمها وعناصرها واتجاهاتها وأبعادها الماضية والحاضرة والمستقبلة ، وأن الأفراد الذين هم حملة ونقلة الثقافة هم أيضا داخل هذا المجال .

إن معنى هذا هو الارتباط الوثيق بين الثقافة والتعليم ، فأفلاطون – مثلا – عندما أراد أن يؤسس مجتمعا تتسم ثقافته بتحقيقها لمثل الخير والحق والجمال – كما

تصورها – التجأ إلى التربية والتعليم يرسم بطرائقها ونظمها منهجا اعتقد أنه يمكن أن يحقق هذه الأمانى والأحلام .وبالتالى ، فنحن لا نبالغ فى قليل أو فى كثير إذا قلنا أن الدور الذى قام التعليم به – وما زال –فى المحافظة على الموروث ، أو تَعليم الوافد الأجنبى الجديد ، إنما يصب فى النهاية فى نهر الثقافة فتغلب فيها – أو تقل – عناصر الموروث أو الوافد .

ولعل أقدم الأمثلة التى تشير إلى بداية الوفود الثقافى الأجنبى إلى مصر عن طريق معاهد التعليم ، الدور الذى قامت به مدرسة الإسكندرية منذ بداية العصر البطلمى ، الذى بدأ فى العام ٣٢٣ ق.م، فعن طريق هذه المدرسة أقبل على الإسكندرية العلماء والشعراء والفلاسفة من شتى أنحاء العالم المعروف وقتئذ ، يعلمون ما سبق أن عرفوه من ثقافة وينتجون ويضيفون ما يستجد عليها ويذيعوه على طلاب المعرفة الجدد ، وعلى المهتمين على وجه العموم .

وكان طبيعيا فى ظل الهيمنة البطليمية على مصر أن يفد كثيرون من الإغريق الذين سعوا إلى أن تكون لهم مؤسساتهم التعليمية الخاصة . ولم يكن المقصود بكلمة التعليم فى هذه الفترة مجرد تلقين الصبى فى خلال فترة محدودة من حياته المبادىء الأولية للآداب والعلوم ، بل كافة الجهود التى تبذل طوال حياته سعيا وراء بلوغ الكمال مستهديا بالمثل الأعلى للإنسان . وهكذا أصبحت كلمة التعليم تعنى الثقافة ، ولكن ليس بمعنى العقل المتخم بالمعلومات ، وإنما بمعنى العقل الذى نما نموا كاملا .

وقد احتل التعليم مكان الصدارة بين كل ما يَعنى إغريق مصر فى العصر الهيلينستى ، وبخاصة إغريق المهجر ، فقد كانوا يعيشون منعزلين فى بلاد غريبة عنهم ، وكان همهم الأول أن يمكنوا أبناءهم من الحفاظ على السمات المميزة للطابع الإغريقى . وقد كان التعليم الكلاسيكى أساسا وسيلة للاطلاع على أسرار أسلوب الحياة الإغريقية ، ولتشكيل الطفل والصبى وفقا للتقاليد القومية ، ولصقل عقلهما بتراث الحضارة الإغريقية ، ومن أجل هذا ، حيثما نزل الإغريق – سواء فى المُدن الإغريقية التى كانوا يقيمونها ، فى مصر أو فى بلاد ما وراء النهرين أم فى غيرها – كان همهم هو أن يقيموا منشآتهم التعليمية للمحافظة على الثقافة الإغريقية .

وعندما فتح عمرو بن العاص مصر معلنا بداية عصر جديد فى البلاد تستظل فيه بالمظلة العربية الإسلامية كانت الثقافة العربية الإسلامية ، بمستواها وصورتها فى ذلك الوقت تعتبر ثقافة وافدة ، ذلك أنها كانت مباينة تماما لما كان سائدا فى مصر من ثقافة ، وأبرز عناصرها بطبيعة الحال اللغة . ومن هنا كان من الضرورى لمؤسسات التربية الإسلامية أن تنتشر فى طول البلاد وعرضها للتمكين لهذه الثقافة الجديدة الوافدة ، وكان فى مقدمة هذه المؤسسات : المسجد ، فهو لم يكن مجرد مكان للتعبد فقط ، وإنما اتخذ كذلك معهدا تعليميا ، حتى لقد مثلت المساجد الكبرى ، جامعات تعليمية ، وفى مقدمتها كما هو معروف " الأزهر الشريف" .

وبجانب المساجد انتشرت " الكتاتيب " فى كل مكان ، فينتشر بها تعلم القرآن الكريم واللغة العربية ، حتى أصبحت الثقافة العربية الإسلامية " موروثا " ثقافيا وليست " وافدا " ، خاصة وأن عددا من الصحابة قد استقر به المقام فى مصر ، يعلم فيها ويضيف اجتهادات جديدة ، وبرز عدد ممن أسلم من المصريين ، أو وفدوا من أقطار إسلامية وعربية أخرى ، أظهروا تفوقا ملحوظا فى الإضافة إلى الثقافة الإسلامية .

ولعل أعظم الخدمات التى أدتها معاهد التعليم فى مصر للثقافة الإسلامية ، هى أن إسلامها كان بلا تعصب ولا طائفية فكرية ، ونحب أن نرد هذا إلى خصلة أصيلة لمصر ، وطبع لها مألوف ، فمصر القوية التمدين ، الواسعة الأفق الدينى ، مصر التى هذا شأنها ، لم تهش معاهدها كثيرا للجدل العقائدى فى الإسلام ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل وأرباب المقالات الإسلامية مهما اشتدت عناية المسلمين بها فى غير مصر ، ومهما تظفر فعلا بشىء من ذلك فى مصر تحت تأثير العاوامل المختلفة ، كما حدث بالأزهر فى العهد الفاطمى ، فإنها لا تلبث أن تفتر , ولا تترك من الاتفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة فى المقالات الإسلامية أو يجعلها وطنا خاصا لفرقة من الفرق ، كما كانت إيران مثلا ، مركز التشيع قديما وحديثا ، أو كانت اليمن موطنا للزيدية ...أوما إلى ذلك ، بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة ، أى بالجوهر الخالص واللباب من الدين ، وهو الوسط العدل .

وإذا استقرأنا تطورنا الثقافى الذى عاشته مصر فى العهود المتأخرة ، منذ العقود الأخيرة فى عصر المماليك ، والشطر الأكبر من العهد العثمانى ، فسوف نجد أن الثقافة القائمة صبغت التعليم بلونها وقيمها واتجاهاتها وأساليبها ليصبح تعليما دينيا أخلاقيا بمعنى معين ، يعد الفرد ، لا لهذا العالم الذى يضطرب بألوان الحياة والذى يعيش فيه هذا الفرد ، بل يعده لعالم مغاير صنعته له أفكار وتفسيرات أبعدته ، فى كثير من الأحوال ، عن صحيح الدين . وإذا كانت الثقافة بهذا قد شكلت التعليم ورسمت مجراه ، فهو من جهة أخرى لعب دروه فى تجميد هذه الثقافة عندما جمد هو وتحجر مقتصرا على الدراسات اللغوية والدينية وبعض الدراسات المدنية المساعدة بنفس الطرق والأساليب التى كان يتعلم بها الناس فى عهود الجمود والضعف .

وعندما تولى محمد على حكم مصر فى عام ١٨٠٥ عرف أنه لا بيارق الصوفية والزمور والأعلام ، ولا مجرد الأذكار والدعوات ، تعد وسيلة ناجحة يمكن أن تبنى بها ثقافة وحضارة حديثة تجعل من مصر دولة كبرى تقف موقف الند لغيرها من الدول التى تطمع فى غزوها والسيادة عليها . ومن ثم شرع ينظم الدولة على الأسس التى كانت تقوم عليها الدول الأوربية ، ويقتبس الأنظمة الإدارية والاقتصادية والحربية منها . ثم تبين له أن تنظيما كهذا يحتاج إلى جهاز بشرى تجرى فى عروقه الدماء الجديدة والروح الحديثة بحيث يمكن أن يضطلع بما يمكن أن يناط به من الأعمال الفنية فى الجيش والمصالح المدنية .

ولما كان الأزهر بمعاهده هو المنبع الوحيد فى ذلك الوقت لإعداد الجهاز البشرى المتعلم ، فقد كان من الممكن أن يتجه إليه لتحقيق هذا الغرض . بيد أن التعليم فيه لم يكن مما يعين على إعداد هذا الجهاز بالشكل الجديد المطلوب . ولعل محمد على قد استشعر باليأس من إمكان إصلاح هذا التعليم القائم وتوجيهه إلى المسارات الجديدة التى تجعله ذا فاعلية وإيجابية فى تحقيق الغرض المرجو تحقيقه ، أو لعله أشفق من بطء عملية الإصلاح التدريجى وقد كان يتعجل النهضة ، هذا بالإضافة إلى أن عملية التغيير قد تثير عليه ثائرة رجال الدين فى ذلك الوقت ، وهو بحاجة إلى تعضيدهم ومساندتهم ، فكان أن تحول عن الأزهر إلى معاهد التعليم الأوربية الحديثة يرسل إليها البعوث للدراسة فى مختلف العلوم والفنون ، ثم يشرع فى محاكاتها فى البلاد ،

ويستقدم عددا من العلماء والخبراء لينظموا ويعلموا ، وتبدأ حركة ترجمة تركز عملها فى العلوم والفنون الغربية الحديثة فى مجالات العلوم العسكرية والرياضية والفيزيائية والكيميائية والهندسية والإدارية .

تمت هذه الحركة كلها فى الميدان التعليمى الحديث لتعليم الوافد الغربى ، وبقى الأزهر والمساجد الأخرى والكتاتيب المنتشرة فى أنحاء البلاد تسير سيرتها الأولى تعلم الموروث .

لكن الأزهر ظل يجتذب العدد الأكبر من التلاميذ ، وساعده فى ذلك عوامل كثيرة ، منها أن الثقافة الدينية القائمة على تحفيظ القرآن فى الكتاتيب ودراسة علم الكلام والفقه فى الأزهر كانت لا تزال تستهوى عقول الناس ، فقد كان الشعور الدينى قويا متمكنا من نفوس الناس وعقولهم . وهناك عامل آخر هو أن الحكومة لم تنشىء مدارس حديثة فى أنحاء البلاد كلها ، بل اقتصرت على عدد محدود من المدارس فى حاضرة البلاد وعلى عدد آخر من المكاتب فى المدن ، بينما كانت كتاتيب الفقهاء القليلة النفقة ، البسيطة التكوين منبثة فى المدن والقرى .

وقد رأى مفكر نابه مثل على مبارك أن عقل الأمة يمكن أن ينشطر إلى شطرين متباينين بفعل الانشطار الثقافى الذى بدأ يحدث من خلال نوعين متباينين من مؤسسات التعليم ، أحدهما يقتصر على الموروث الثقافى ، فى الأزهر وما يتصل به من مساجد وكتاتيب ، والآخر يركز على الوافد ، فى مدارس الدولة التى قامت وفقا للنمط الأوربى الحديث . ومن هنا جاء جهده فى إقناع الخديوى إسماعيل فى إنشاء معهد تعليمى جديد يحاول من خلاله بناء جيل جديد يجمع فى بنية عقله كلا من الموروث والوافد ، عددا من العلوم الغربية الحديثة مع عدد من العلوم الدينية الإسلامية وعلوم العربية ، هذا المعهد هو " دار العلوم " .

ومنذ عهد الخديوى سعيد بصفة خاصة ، تزايدت الوفود التعليمية الغربية ناثرة فى أنحاء البلاد نوعا من التعليم يشهد من التباين والاختلاف ما بين البلدان الغربية من تباين واختلاف ، مدارس يونانية ، وإنجليزية ، وأمريكية ، وإيطالية ، وفرنسية ، كل منها يقدم من التعليم ما يتفق مع التعليم الذى يقدم فى بلد المنشأ ، بعيدا تماما عما يعلم فى مصر ، وكانت الامتيازات الأجنبية تغل يد السلطة التعليمية فى مصر أن

تقرب من هذه المدارس ، بحيث مثلت تلك المدارس مؤسسات لصناعة مخرجات بشرية تشكلت عقولها وتربت شخصياتها وفقا للثقافة التى تنتمى إليها كل جنسية ، إلى أن حدث لها تمصير منذ عام ١٩٥٦ .

إن وجه الخطورة التى مثلها خريجو المدارس الأجنبية فى مصر ، يتمثل فى أن الجمهرة الكبرى منهم كانوا من أبناء الشرائح الاجتماعية ذات المستويات الاقتصادية المرتفعة ، والنفوذ السياسى الضاغط ، مما مكنهم بالتالى من أن يحتلوا مراكز متميزة فى مواقع العمل المختلفة ، فينقلوا عن طريقها أساليب تفكير وأفكار واتجاهات وقيم مما تعلموه فى بيئات اختلفت إلى حد كبير عما كان سائدا فى المجتمع المصرى فى ذلك الحين ٠وفضلا عن ذلك فهناك عناصر ثقافية متعددة انتقلت عبرهم إلى الشرائح التى تليهم فى البنية الاجتماعية ، مما يتصل بالملبس والشراب ولغة التخاطب ، وكثير من العادات والاتجاهات التى تستلزمها المعاملات اليومية فى الحياة الجارية ٠

وشهد الأزهر جهودا متصلة لإدخال تعليم العلوم الحديثة فيه ، وأبرزمن قاد هذه الجهود الشيخ محمد عبده الذى لقى مقاومة عنيفة من بعض الذين أرادوا الاقتصار على تعليم الموروث الثقافى ، إلا أن محمد عبده لم يعدم الوسائل كى ينفذ بعض ما دعا إليه ، وكمثال على ذلك فقد تحاشى اعتراض البعض فى الأزهر على تعليم ( علم الطبيعة ) بحجة أن ذلك يؤدى إلى القول بالمذهب الطبيعى فى الخلق ، أو " النيتشرية " ، كما كان يسمى فى ذلك الوقت ، فسمى ( علم الطبيعة ) : " علم خواص الأشياء التى أودعها الله فى الأجسام" ، حتى تبطل حجة هؤلاء المعارضينحيث أن زعمهم كان غير صحيح بطبيعة الحال ٠

وعندما تمكنت قوى المعارضة للتحديث من إخراج محمد عبده من الأزهر قال فى حديث لتلميذه الشيخ مصطفى عبد الرازق : يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيبا لشهواتهم ترتع حيث تشاء ، إلا أننى ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لن تنطفىء ، إن لم تلتهب اليوم أو غدا فستلتهب فى ثلاثين عاما . وقد تحقق ما توقعه محمد عبده على يد عدد من علماء التطوير والتحديث ، حتى بلغ التحديث ذروته بقانون الأزهر عام ١٩٦١ .

والمستقرىء لأحداث ووقائع تطور الفكر التربوى فى مصر ابتداء من القرن العشرين لا يمكن أن يغفل عن ذلك الأثر الكبير الذى تركته الفلسفة البرجماتية الأمريكية على التعليم المصرى ، وذلك من خلال عدد من الرواد الأوائل للتربية الحديثة فى مصر مثل إسماعيل القبانى ومحمد فؤاد جلال وغيرهما ، خاصة وأنهما صارا وزيرين فى سنوات ثورة يوليو الأولى ، وكان معمل التفريخ الأساسى للوافد التربوى الأمريكى هو معهد التربية العالى للمعلمين الذى أنشىء عام ١٩٢٩( كلية التربية بجامعة عين شمس الآن ) ، فقد اطلع القبانى على تجارب البراجماتيين التربوية ، وأعجب بها فبذل جهودا ضخمة للسير على منوالها فى مصر . وبحكم موقعه فى المعهد ، وأحيانا فى موقع السلطة التعليمية طير البعوث واستقدم الأساتذة والخبراء ، وحث تلايمذه على ترجمة بعض الكتب التى كتبها فلاسفة التربية البراجماتية ، حتى أصبح صوت هؤلاء يعلو على غيره من الأصوات فى ساحة التعليم المصرى .

والدارس للإنتاج الفكرى التربوى المصرى منذ ذلك الوقت يستطيع أن يلمس ذلك بوضوح ، فلم يحظ فيلسوف على سبيل المثال بترجمة عدد كبير من كتبه إلى اللغة العربية مثلما حظى " جون ديوى " . ولعبت مؤسسة أمريكية للنشر كانت تدعى " فرانكلين " دورا ضخما فى تيسير سبل نشر الفكر التربوى الأمريكى فى صورة طوفان واضح . والملحوظة المثيرة للدهشة حقا أن الكم الأكبر من هذا كان يتم فى فترة الستينات حيث كان هناك مد اشتراكى وعلاقات سياسية سيئة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية .

ولعل هذا يفسر سببا هاما من أسباب عجز التعليم عن أن يواكب عملية التغيير الاجتماعى منذ الخمسينات ، فقد كانت القوانين والقرارات والأحداث تسير فى اتجاه سياسى واجتماعى واقتصادى يتباين تباينا كبيرا مع ما كان يقر فى العقول والقلوب التربوية التى كانت لها سلطة التعليم والتربية وإعداد المواطنين .

وطوال فترة الأربعينات والخمسينات كانت المدارس النموذجية مثل ( النقراشى ) و( الأورمان) وغيرها معملا ضخما طبقت فيه وجربت العديد من الآراء البراجماتية .

وتكرر ما يشبه ذلك فى السبعينات والثمانينات ، فقد كانت بعثات قد أوفدت إلى بلدان اشتراكية للتخصص فى علوم التربية وعلم النفس وإعداد المعلمين ، وعندما عاد المبتعثون إلى مصر متأثرين بما عاشوه وتعلموه ، إذا بالاتجاه العام يتحول تحولا تدريجيا كبيرا، ليعيش قطاع كبير من تعليمنا ذلك الازدواج بين فكر فى العقول يتجه يمينا أو يسارا ، وواقع مباين ومغاير إلى حد كبير . إن وجه الخطورة لا ينبع من قبلية مهنية نريد إبرازها ، ولكنها تتضح إذا تنبهنا إلىأن أساتذة التربية هم معلمو معلمين ... تلاميذهم : آلاف المعلمين الذين يتشرون أفكارهم واتجاهاتهم بين مئات الألوف من الأطفال والمراهقين فى طول البلاد وعرضها عبر سنوات طويلة .

ولعلنا بعد هذا نجد ضرورة للإلحاح على أهمية اتساق فلسفة التعليم مع الخطوط الرئيسية العامة التى تحكم الإطار المجتمعى ، خاصة وقد أصبحنا نعيش عصرا جديدا يتسم بما يسمى " السيولة المعرفية " وزحف سياسات " الكوكبة " و" العولمة " ، مما يتطلب الالتزام الصارم بدقة الموازنة بين " الذاتية الثقافية " والانفتاح الثقافى على مختلف الحضارات .

# المسيح .. معلما

من القسمات الرئيسية فى الديانة السماوية على وجه العموم أنها تستهدف إعادة تكوين وتشكيل جذرى فى شخصية الإنسان ، من حيث معارفه وقيمه واتجاهاته ، وهذا عمل تربوى من غير شك ، فما التربية إلا عملية تشكيل وتكوين لجماع المكونات الأساسية لشخصية الإنسان ، ومن هنا يمكن القول بأنه قد توافرت فى المسيحية بصفة خاصة المقومات الأساسية كى تكون رسالة تربوية بالدرجة الأولى . وما كان لها أن تحرز هذا النجاح الباهر من حيث الذيوع والانتشار إلا بفضل ما توافر فى المبشر بها ، المسيح عليه السلام من المقومات ما جعل قوله وفعله يعرفا طريقهما إلى القلوب والعقول ، فتتفجر فى الشخصيات المؤمنة بالرسالة طاقات هائلة غيرت من ملامح المجتمع الإنسانى بحيث أصبح ظهور هذا الرسول العظيم علامة تاريخية نفرق بها بين ما كان قبله وما كان بعده .

وإذ يملك السيد المسيح هذه المقومات ، فإنه بذلك يكون معلما ، ليس مختصا بتعليم فئة محدودة من الناس أطرافا بعينها من المعارف ، ولكن معلما بالمعنى الواسع الذى يجعل منه " مربيا " للبشرية يأخذ بيدها إلى سواء السبيل ، وقد سمى بحق " المعلم " ونودى بهذه الصفة فى مختلف المجامع والمحافل لأن مهمته الكبرى كانت إعادة تشكيل الإنسان عن طريق التعليم . وقد نودى المسيح بالمعلم فيما روته الأناجيل عدة مرات ، كذلك فإن تلاميذه نادوه بهذه الصفة ، بل إن بعضا من خصومه ، ومن كانوا يستمعون إليه دون أن يكونوا من تلاميذه وحوارييه نادوه بالمعلم أيضا .

وكان من يستمعون إليه يوقنون بأنه ذا علم واسع بما كان من قبل من كتب وأسفار ، وتبدى هذا فى حرصه على الاستشهاد بها والتعليق عليها ، ويشير ما بين أيدينا من الأناجيل إلى أنه كان يرتل المزامير ، فضلا عن حفظه لكتب أرميا وأشعيا وحزقيال ، وأيضا الأسفار الخمسة المكونة للتوراة .

ولعل ما كانت عليه لغة الحديث لدى السيد المسيح ما جعلها أداة تعليم وتربية لا مثيل لها من قبل من حيث سرعة النفاذ إلى القلوب وتحريك الوجدان وتنشيط العقول ، وبفضل ما كانت عليه من بساطة ويسر ووضوح ، فضلا عن كونها مركبا من عبارات النثر المرسل والشعر المنظوم .

وكانت له عليه السلام أدواته ووسائله فى الدعوة والتعليم ، فمن ذلك :

– فأحيانا ما كان يلجأ إلى استخدام الحكايات الرمزية ليقرب بها معان يريد أن يلقنها الناس فيعملوا بما توحى به ، ومثال ذلك ما ذكره من خروج زارع ليزرع ، وبينما هو فى الطريق سقط بعض البذور ، فجاءت طيور السماء وأكلته ، وسقط بعضها فى مكان ذا طابع حجرى به صلابة ، خفيف التربة ، فنبت على الاثر ثم لم يلبث أن أشرقت عليه الشمس فاحترق ، ولما لم يكن له عمق فى جوف الأرض كان لابد أن يصاب بالجفاف ، وسقط بعض البذور بين الشوك فطلع الشوك وخنقه فلم يثمر ، وسقط غيرها فى الأرض الجيدة فأعطى ثمرا يصعد وينمو ، فأتى واحد بثلاثين وآخر بمائة ٠"من له أذنان للسمع فليسمع"!

ففى هذا النداء الأخير نلمس حرصا على حث للإنسان أن يمعن تأمل هذه الحكاية الرمزية التى تتعلق بسلوك الإنسان ، قولا وعملا ، ومراتب هذا السلوك من حيث الكيفية والنتيجة ، وعلى الإنسان أن يختار ما يقربه إلى الله ويصلح حاله فى الحياة ٠

– و " الحكمة " هى القول الجامع للبصر النافذ إلى أعماق الحقيقة ، والمرشد العملى إلى صحيح السلوك وسواء الفعل ، فهى " مبدأ " للتربية ، وقاعدة للعمل المؤدى إلى الرشد ، ومن هنا يستخدم السيد المسيح المعلم الحكمة فيقول " بالكيل الذى تكيلون يُكال لكم " ، مما يستتبع أن نعامل الناس بما نحب أن يعاملونا به ، ويقول أيضا : " يا أيها المداوى داو نفسك " ، فلابد أن نفتش داخل أنفسنا لنعالج ما قد يكون بها من أمراض قبل أن نتجه للآخرين ناصحين مرشدين ، حتى نكون قدوة حسنة ، وكذلك : " من ثمارهم تعرفونهم " ، فشخصية كل إنسان تشير إليها أفعاله وأقواله ، وكما قالوا " كل إناء بما فيه ينضح " !!

– ولجأ السيد المسيح إلى استخدام " القياس " الذى يشير إلى حكم معلوم مطلوب أن نطبقه على حالة مماثلة حكمها مجهول ، وهى وسيلة تستخدم فى المناقشة والتعليم المبنى على الإقناع ، ومن ثم يقول عليه السلام : " إن كنتم تحبون من يحبونكم فأى فضل لكم ؟ " ٠ وعندما وجه إليه البعض لوما بزعم أنه أحيانا ما يصحب خاطئين ، قال : " لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب ، وإنما المرضى يحتاجون إلى الأطباء " !

– واستخدام التشبيه طريقة معروفة فى أساليب التربية والتعليم ، ذلك أن هناك بعض المفاهيم والمعانى التى قد تتسم بالتجريد أو الغموض ، فيكون الاعتماد على عقد رابطة بين المفهوم أوالمعنى وبين وقائع ملموسة فى حياة الناس ، فتنبسط المسألة وتدلف إلى الأذهان بيسر ، ومن ثم إلى القلوب ، فمن ذلك قوله عليه السلام " أنتم ملح الأرض فإن فسد الملح فبماذا يصلح ؟ إنه لا يصلح إذن إلا لأن يلقى على التراب ويداس ٠ أنتم نور العالم ، ولا خفاء بمدينة قائمة على رأس جبل ، وما من سراج يوقد ليوضع تحت المكيال ولكنه يرفع على المنار يستضىء به جميع من فى الدار "

– وهناك تلك الوسيلة القائمة على استثمار ما يكون من تقابل بين أضداد ، فالأذن تطرب لهذا التنظيم والترتيب فى الحديث ، وارتباط الحديث بالارتياح النفسى والإعجاب طريق ممهد لا شك فيه لفهم ما يقال ، تمهيدا للاقتناع به ، ومن ثم العمل وفقا له ، ولهذا نجده عليه السلام يقول : " يرون القذى فى أعين غيرهم ولا يرون الخشبة فى أعينهم " ، ويقول : " يحاسبون على البعوضة ويبلعون الجمل " !!

– وكان النجاح حليف السيد المسيح عندما استثمر طريقة المناقشة فى هداية الناس وإرشادهم ، بحيث تجىء هذه الهداية وهذا الإرشاد ليؤكدا للسامعين أن التعاليم الدينية لا تجىء أبدا عن طريق القسر والإرغام ، وإنما بالحب والفهم والاقتناع ، وغالبا ما دارت المناقشات فى مناخ تسدوه الألفة ويغلب عليه الود والتعاطف ، وتظهر فيه نزعة التقبل عن رضا واقتناع لدى السامعين فى لحظة هادئة واتجاه إيجابى للاستماع ، وربما دارت المناقشة على ربوة تل ، أو على شاطىء مجرى مائى ، أو تحت شجرة ظليلة ، أو فى أحد المنازل ٠

ولقد كان لهذه النزعة التربوية للسيد المسيح أثرها الكبير على حركة انتشار المسيحية ، وتلاقى هذا مع طبيعة المسيحية من حيث أنها دين تبشيرى لابد لانتشاره من التعليم ، ومن ناحية أخرى أصبح التعليم عنصرا أساسيا من عناصر حياة الجماعة المسيحية ومقوما أساسيا من مقومات وجودها واستمرارها ٠وقد تبدى هذا أكثر بالنسبة للكنيسة المصرية حيث كان التعليم ، منذ عصور الفراعنة موضع اهتمام واضح من المصريين ، وكانت شهادة " يوسابيوس Eusebius " مؤرخ الكنيسة فى القرن الرابع دليلا هاما على صحة هذا الذى نذهب إليه ، فقد أكد " أنها كانت عادة المسيحيين أن ينشئوا المدرسة فى كل مكان ينزلون فيه " ، وفقا لما نقله عنه زميلنا الراحل الفاضل د٠سليمان نسيم ٠

ألا إن السيد المسيح كان نعم المعلم ، ونعم المرب ٠٠

## ٠٠٠فأنذرتكم نارا تلظى !

صور عدة ، تنضح بالبشاعة ، وتبث الرعب ، وتثير التقزز ، لأحداث عام ( نيابى ) مضى :

– مطبخ ( الحكومة ) المسمى ( بالشعب ) الذى تطبخ فيه أخطر القوانين ، فى آخر جلسات الدورة البرلمانية ، قصدا ومع سبق الإصرار ، والتى تسير فى اتجاه يضعف الذاتية الحضارية ، ويقوى الذيلية الاقتصادية ٠

– ملهاة ما يسمى بانتخابات (الشورى ) ، المجلس الذى لا يعرف أحد له وظيفة إلا أن يكون ( مكلمة ) ، تلك الانتخابات التى تزعم الداخلية أن الذين أدلوا بأصواتهم فيها هم بالملايين ، وتصرخ كل معطيات الواقع أنهم مئات ألوف !

– استمرار مأساة أن يمارس أعضاء مزيفون دورا نيابيا ، بينما أعضاء حقيقيون ما زالوا يقفون خارج أسوار مجلس ( الحكومة ) ٠

تجمعت هذه الصور مرة واحدة أمام عينى صاحبنا فى الهزيع الأخير من ليلة صيف حزين ، فخرجت منه صرخة موجوع ، أفزعت من حوله فهرعوا إليه يظنون أنه فى نوم عميق ،،لابد أن يكون قد واجه كابوسا مزعجا ، لكنه ، أبدا ، لم يكن نائما ، ولم يكن يحلم حلما مزعجا ، بل هى الحقيقة المفزعة التى أخرجت صرخة الفزع، وصيحة الألم ٠٠٠

سقطت ورقة التوت ، وظهرت سوأة الحكم ، عارية ، لا تسر الناظرين ٠٠

السياط التى كانت مخفاة داخل الثياب ظهرت لتلهب ظهور أصحاب الرأى الآخر : تسيل دماؤهم ٠٠ تشوه أجسادهم ٠٠ يغيبون داخل السجون ٠٠ تستخرج من أفواه البعض ما ليس فى قلوبهم ، قسرا وضغطا ، خرجت إلى الشارع لتمارس هواية الممسكين بها ، ولتعلن أن الشعار الذى رفعه مؤسس دولة مايو الراحل ، هو نشيدها القومى : ديموقراطية الأنياب !

سنوات غير قليلة مضت ، وأنهر المقالات والدراسات ، وميكروفونات الإذاعة وشاشات التلفاز ، طالما حاصرتنا آناء الليل وأطراف النهار ، بأحاديث لا أول لها ولا

آخر ، عن شباب متدين أو ادعى التدين ، قد تطرف فأصبح العنف منهجه ، فإذا بأحداث أخرى متكررة ، تكشف لنا أن القضية ليست قضية ( شباب) ، وإنما قضية (أطفال) و( صبية) و(رجال) و( كهول) ، كذلك ..

وإذا بأحداث كثيرة تكشف لنا أن القضية ليست قضية ( نفر) قد غلا فى تدينه أو زيف ، وإنما هى قضية (جمهرة كبرى) فى أكثر من موقع ، وفى أكثر من مجال ، تترك الحوار بالقلم واللسان جانبا لتتحاور باليد ، وبالعصا والحجارة ، والبارود والسكاكين ..

مصر التى طالما تغنى كثيرون ، بالداخل والخارج ، بما عرفت به من ( سماحة ) و( طيب معشر) و( وداعة ) .. أصبحت ساحاتها الآن مجالا للضرب والركل واللعن والشتم والتدمير والقتل والحرق ..

لقد شهدنا فى ألستينات تحويلا لمجرى نهر النيل لأول مرة فى تاريخ مصر المكتوب ، وها نحن اليوم فى أواخر التسعينات نشهد تحولا جذريا فى مجرى الحياة المصرية ..

الأول : تحول جاء لنا بضمانات تقينا سود الأيام ..

والثانى : جاء لنا بكلاب مسعورة تنهش الأجساد وتبث الرعب وتنشر الإرهاب الأسود ..

لقد أصبح ( التطرف) و( الإرهاب) نهجا حياتيا ، يلفح لهيبه وجوهنا ، أينما توجهنا ، وحيثما كنا .. إلا من عصمه الله !!

فالصحف أصبحت تحدثنا من حين إلى آخر عن زوجات يقتلن أزواجهن ، بعد أن كانت صورة (سى السيد) هى المنبئة بجبروت الرجل وسلطانه الشهير ..

والأحداث تنقل إلينا من وقت إلى آخر صور أمهات وآباء يقتلون أولادهم الذين هم " زينة الحياة الدنيا " ، بعد أن كان الآباء والأمهات يقتلون أنفسهم ليحيا أبناءهم ..

والأخبار تنبؤنا بمئات الألوف من مختلف الأعمار ، يدمنون أشكالا جديدة من المخدرات ينفقون عليها ملايين الجنيهات ، حتى صار الحديث عن ( الحشيش) و( الغرزة) حديثا عن ( لعب عيال) ، يتضاءل أمام الجبار الجديد ..

والأنباء تفزعنا بخطف بنات وسيدات ، بعد أن كانت (شهامة) الرجال تحرسهم ، وبعد أن كان من سمات الرجل (الجنتلمان) أن يدافع عنهن ..

أما النقابات فأمر حديثها يطول ، بدءا بنقابة المهندسين التى أغتيلت بليل ، ومرورا بنقابة الأطباء التى دفع ببعض أعضائها فى غياهب السجون العسكرية ، وانتهاء بنقابة المحامين ( المعتقلة ) .. حراس (الحقوق) ، وحملة رايات الحريات .. ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولا تنس حديث المال المسروق من البنوك ، فهو حديث مألوف لا يتوقف ، وقرينته ، شركات ثعابين ، ومشروعات لصوص ظهرت فى الثمانينات ( تكنس) ما فى جيوب الجماهير ، ابتداء من الجنيه ، حتى الملايين من الجنيهات .. إنها صور أخرى من التطرف (الاقتصادى) ، لا تقل خطورة عما أسلفنا الإشارة إليه من تطرف (اجتماعى) .

العنف إذن ليس سلوكا ناشزا لنفر من الشباب ، وإنما هو الآن قد تحول إلى (نمط) للتعامل ، على مستويات كثيرة من الأعمار والفئات والمجالات وكثير من الأوقات ..

لقد أصبح العنف إذن ظاهرة مستحدثة فى الحياة المصرية المعاصرة ..

وإذا أردت أن تفهم سر هذا التحول الاجتماعى التاريخى ، فعليك بدراسة د. مصطفى حجازى الشهيرة عن التخلف الاجتماعى وسيكلوجية الإنسان المقهور ، ودراسة عبد الرحمن الكواكبى عن طبائع الاستبداد

إن العنف هو آفة نمطين من المجتمعات :

مجتمع بلغ أقصى ما يمكن أن يصل من الترف والرفاهية ، فتحول إلى عبادة (اللذة) ، وانهارت لديه قيم اجتماعية وأخلاقية كثيرة ...والعنف الذى يشيع فى هذا النمط من المجتمعات هو الوجه الآخر للحرية المفلوتة المبالغ فيها .

ومجتمع متخلف ، مع أهمية أن نفهم التخلف بالمعنى الحضارى الذى يجعل منه تخلفا فى منهج التفكير ، وذيلية فى الإرادة الوطنية ، ونهما استهلاكيا وندرة إنتاج ، وشيوع أمية ، وتسطيحا فى التعليم...والعنف الذى يشيع فى مثل هذا النمط من المجتمعات ، هو الوجه الآخر من القهر .

ومجتمعنا اليوم هو من النوع الثانى .

إن المواطن المصرى يخضع لسلطة تقوم علاقتها به على القهر المتضمن هدرا لإنسانيته وتبخيسها لكرامته ، فالعلاقة بين عنف الجماهير وإرهاب السلطة وقهرها ، علاقة نتيجة بسبب: كلما زادت السلطة فى قهرها وإجحافها ، كلما زادت الجماهير فى عنفها وعدوانيتها ٠

إن بنية المجتمع المصرى فى هذا الزمن المكدود ، تزداد تهرؤا وذيلية ، وبالتالى تزداد جمودا وصلابة : صلابة تحجر فاقد للحياة ، لا صلابة قوة وحياة ، وكلما زاد جمود البنى الاجتماعية نتيجة سيطرة سلطة قاهرة ، زادت عدوانية المقهورين ، أملا فى الفكاك من ضغط القهر ٠ لكن المأساة تستمر ، فكلما زادت عدوانية الجماهير المقهورة ، ضاعفت السلطة القاهرة والحكم المتسلط من الإرهاب والقهر ٠

وهكذا ، فإن علاقة القهر والاستبداد ، بما تتضمنه من قمع وتضليل ، تخلق وضعية خاصة جدا : تولد العنف بمختلف وجوهه : فى السياسة ، فى الاقتصاد ، فى الحياة الحزبية ، فى الحياة الدينية ، فى العلاقات الاجتماعية ٠

ولقد سبق الكواكبى أن حلل (الاستبداد) حين عرفه بأنه " تصرف فرد أو جماعة فى حقوق قوم بلا خوف تبعة " ٠ وفى هذا التعريف رد على من يتصور أن وجود حزب وانتخابات وبرلمان ودستور وجمهورية ، ينفى بالضرورة أن يكون هناك قهر واستبداد ٠

إن القهر ، كما يكون ممكنا مع حكم الفرد المطلق الذى يتولى الحكم بالسطو أو الوراثة ، يمكن أن يأتى أيضا من الحاكم الفرد المقيد أو المنتخب ، متى كان غير محاسب ، وكذلك يشمل حكومة الحزب ، لو كانت منتخبة ، لأن الاشتراك فى الرأى لا ينفى الاستبداد وإن كان يمكن أن يخفف منه ٠وإذا كان يمكن أن يكون أرشد من استبداد الفرد ، فإنه يمكن أن يكون أكثر إضرارا بالأمة وقهرا للجماهير ، لأنه قد يستخدم سلطة التشريع التى يمسك بزمامها ليكبل الجماهير بترسانة من القوانين التى تتيح له فرصة الضرب والاعتقال والسجن باسم القانون ٠

ويستحيل أن يخف هذا الاستبداد ما لم يكن المنفذون مسئولين لدى قوة التشريع ، ويقوم هؤلاء فعلا بواجب المحاسبة ٠ ولكن هؤلاء لن يقوموا بذلك إلا إذا توافرت جماهير ذات وعى تستطيع أن تراقب وأن تحاسب ، وأن تعاقب ٠

من هنا يحرص الحاكم القاهر على أن يزيف وعى الجماهير حيث تتيح لـه أجهـزة الإعلام الحديثة كافة الإمكانات والحيل التى تسهل له غرضه ، كما يمكن لنظـام تعليـم مشوه ، أن يلعب دورا أخطر على هذا الطريق ، عندما يكون منحازا لأغنيـاء وصلـوا إلى ما وصلوا إليه بالنهب والسـرقة ، لا بإنتـاج وعـرق وكـد وعمـل ، وعندمـا يكـون تعليما تابعا يقوم بدور ( الحبل السـرى ) الـذى يغـذى الجمـاهير بمثـل وقيـم وأسـاليب ومناهج النموذج الأصل الإمبريالى ٠

٠٠ وهكذا نظل فى هذه الدائرة ٠٠

ولكن تجربة التاريخ تؤكد أن دائرة القهر والعدوان عندما تستمر فى الدوران ، تضيق شيئا فشيئا ، فيحدث تكثيف يؤدى إلى شرخ فى الدائرة ، قد يعالج بمسكنات فيطول عمر الدائرة ، لكنها لابد أن تنكسر فى النهاية ، ونكون بالفعل أمام نار تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذب وتولى ٠

# هذا السيناريو المخزى !!

نصارح القارىء بأن القصة التالية هى قصة افتراضية ، لكن الكاتب أحيانا ما يحتاج إلى مثلها لا ليُقنع ويوضح ، بقدر ما يؤكد ويعزز منطقا هو واضح ومعروف ، لكن لكن دعاة الهزيمة والاستسلام من المروجين لسياسات التطبيع مستمرون فى غيهم وتزييفهم للحقائق والوقائع ، على الرغم من زعمهم بأنهم إنما ينهجون فى السياسة نهجا عمليا واقعيا عكس أمثالنا الحالمين ، الثابتين على أمور يزعمون أنها قد أصبحت من أساطير الأولين .

فافرض أن شخصا كانت لديه قطعة أرض مساحتها على سبيل المثل مائتى متر ، ثم استطاع مغامر، قاطع طريق أن يستولى على نصف هذه المساحة بكل السبل والطرق التى تقوم على القوة الغشوم ، والغش والتضليل ، وظل صاحب الأرض يدعو ، ويكافح ، ويتصل ؛ من أجل إعادة حقه إليه ، لكن بمرور الوقت ، ولأسباب عدة ، اكتسب الغاصب شرعية عامة فى ملكيته للنصف المغتصب .ثم استطاع المغتصب فى فترة تالية أن يستولى على النصف الثانى ، فإذا بصاحب الأرض يتخلى عن دعواه الأولى باستعادة النصف الأول ، ويكرس جهده كله لاستعادة النصف الثانى .

ويدخل صاحبنا فى مفاوضات ومباحثات واتصالات حتى اقتنع بالاكتفاء باستعادة ٤٠٪ من هذا النصف الثانى . كان المتر وقت الاتفاق يساوى ألف جنيه ، لكنهم أرغموه على أن يدفع عشرة آلاف جنيه عن المتر .. كان لسان حاله يقول ، شىء خير من لا شىء ، و: ما لايدرك كله لا يترك كله ! وينبهه كثيرون ، دون جدوى : أى نعم من المهم استعادة أى شبر ، ولكن السؤال هو : بأى ثمن ؟!

ودفع صاحبنا الثمن كاملا قبل أن يتسلم الأرض ، فإذا بالغاصب يناور ، ويمكر ، ويراوغ ، ويكذب ، ويدعى أن صاحب الأرض قد أخل بشروط هامة ، كى يستند إلى هذا الزعم الباطل فى التراجع عما اتفق عليه ، ويكتفى بتسليم صاحب الأرض أجزاء غاية فى الصغر .

وتتكرر نفس المشاهد للسيناريو ، اتصالات هنا وهناك ، وزيارات ، ومقابلات ، ومحادثات ، وخطابات ، لحل المشكلة الجديدة ، ويستغرق هذا شهورا طويلة قد تمتد

سنة أو سنتين ، ويشعر صاحب الأرض أنه قد أُرهق ، ويعلن الغاصب النصاب عن موافقته على إعادة ٢٠٪ من الأرض ، ويضطر صاحبنا الساذج ، صاحب الأرض إلى الموافقة تحت شروط جديدة ، إذ فُرض عليه أن يدفع ثمن ال٢٠٪ ، وبسعر جديد يتفق والمتغيرات الجديدة فى السوق ، على الرغم من سابق دفعه ثمنها فى الاتفاق الأول ، باعتبار أن " ما فات مات " و " عايزنا نرجع زى زمان ؟ قل للزمان ارجع يازمان " !!

ويتراخى المغتصب قاطع الطريق مرة أخرى فى التسليم بما اتفق عليه ، فلا يعيد إلا ما هو أقل منه بكثير ، فيتكرر السيناريو ، من حيث الاتصالات ، والمفاوضات ، والوساطات ، والمساومات ، والزمن يمر فى صورة شهور وراء شهور ، ويتم اتفاق جديد على إعادة ١٠٪ من الأرض فى نظير أن يدفع صاحبنا الغافل المسكين ، المغلوب على أمره ، ثمن هذه المساحة مرة ثالثة ، لكن وفقا لمعدلات الأسعار الجديدة ٠٠ أصبح المتر بألف وخمسمائة جنيه ، لكن الثمن الذى طولب بدفعه هو خمسة عشر ألفا !! وكان هذا الثمن هو كل ما أصبح صاحبنا يملكه ، بعد أن دفع ودفع عدة مرات ، ولا ندرى ماذا سيفعل ، إذا تكرر السيناريو مرة رابعة ، إذ ماذا يملك ليدفعه ؟!

تلك هى ببساطة شديدة صورة " دراميـة " لما يحدث على الساحة الفلسطينية ، منذ مدريد ١٩٩٢ ، وحتى كتابة هذه السطور ٠٠٠

كانت التهمة الرائجة الموجهة إلى العرب عامة والفلسطينيين خاصة ، من خارج الوطن العربى ومن داخله ، أنه مغرم بالرفض ٠٠ رفض ما يُعرض عليه ، وتمر السنون ، فيعلن قبوله بما كان يرفضه بالأمس ، فيُعرض عليه ما هو أقل ، فيرفض ، وهكذا ٠ لكن ما يحدث الآن ، ومنذ مدريد ، يرينا أن العكس هو الحادث ، فالفلسطينيون يقبلون ما يُعرض عليهم ، لكن الجانب الصهيونى يراوغ ويناور ، ليهبط بما سبق أن عرضه ٠٠وهكذا ٠

كان من المفترض أن يُفتتح يوم الأحد الثالث من أكتوبر ما سُمى بالممر الآمن بين القطاع والضفة ، وجاء يوم الأحد ولم يتم التنفيذ ، ما السبب ؟ عثرات أمنية ! المفاوض الإسرائيلى لم يشبع مما يحصل عليه من ضمانات أمنية ٠٠ الدولة التى

تملك عشرات القنابل الذرية ، والدولة التى تملك وتملك مما ينوء المقال بالإشارة إليه من مظاهر القوة وأسبابها ، تحتاج إلى المزيد والمزيد من الضمانات الأمنية ممن لا يملكون سلاحا ولا قوة ولا نفوذا ولا دولة .

وتترامى إلينا أنباء صباح الثلاثاء الخامس من أكتوبر أن الاتفاق على التغلب على مشكلات الممر( الآمن ) على وشك أن يتم ، فالفلسطينيون الذين يرغبون فى استخدام الممر لابد أن يحملوا بطاقة عبور ممغنطة ، فمن يصدرها ؟ ونتصور أن المفاوضين الفلسطينيين قد عادت إليهم المشاعر الوطنية ، وأنهم لم يعودوا يستسلمون للمطالب الإسرائيلية ، ويُداخلنا ارتياح مؤقت ، سرعان ما يتبخر عندما نرى أن السلطة سوف تتحول إلى " ساعى بريد " يتلقى الطلبات من راغبى المرور ، لكن الذى يفحص أمنيا ويبت فى الطلبات ويصدر البطاقات هم الإسرائليون ، حتى " يضبطوا " المسألة ولا تُتاح الفرصة " للإرهابيين " - كذا - أن يتخذوا من الممر مُسهلا لحركتهم .

أما بالنسبة لاحتمال أن يُتخذ الممر مصيدة اعتقالات من الجانب الإسرائيلى ، فقد " طمأن " الإسرائليون الفلسطينيين بأن هذا لن يحدث ، ولابد أن يصدق الفلسطينيون ذلك لأن تعاملهم عبر نصف قرن من السنين قد أكد لهم أن الإسرائليين أصحاب عهد ومحافظة على المواثيق والاتفاقات !!

وهكذا أصبحت المهمة الأساسية للسلطة الفلسطينية هى أن تحمى إسرائيل من غضب إرهاب الفلسطينيين ومؤامراتهم . مفاوضات مرهقة ومضنية للإفراج عن بضع عشرات من المعتقلين الفلسطينيين فى السجون الإسرائيلية ، لكن السلطة ، فى مقابل ذلك تعتقل الكثيرين ممن ما زالوا يمسكون بشعلة الكفاح والنضال ، وهكذا يتم الإفراج عن فئات وتعتقل فئات على يد السلطة ، لتفريغ الساحة الفلسطينية ممن يؤمنون بضرورة استمرار الكفاح ، الذين أصبح لسان حالهم يقول ، مع نابليون بونابرت فى مقولته الشهيرة : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

إننى أصارح القارىء بأنه ما من مرة أسمع فيها أن مفاوضات ستبدأ بين العدو الصهيونى والسلطة الفلسطينية ، إلا وأُصاب باكتئاب شديد ، فمن خلال التجارب السابقة ، أشعر بأن كل مرحلة مفاوضات إنما تعنى تنازلا عن حق ، وتفريطا فى واجب ، وتضييقا لابد أن يحدث على حملة راية الكفاح .. والغريب فى الأمر ، وقد

لا يكون غريبا ، أن هذا كله يحدث ، بمثل ما بينا من صراحة ووضوح ، والعالم العربى يقف يمارس هوايته فى " الفرجة " ، غير عابىء ، غير مبال ، بل وربما ، مؤيدا ومشجعا ، بحجة أن أصحاب القضية أنفسهم ما داموا راضين ، فهل نتشدد أكثر منهم ؟ وكل ما يملكه آخرون هو مجرد مصمصة الشفاه ، حتى لقد أصبح لسان حالنا يردد إزاء هذا الموقف ، مثلما يفعل فى معظم المواقف فى عصرنا الحاضر : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء وإنما نسألك اللطف فيه !

# " ديفوس " بين الناس اللى فوق والناس اللى تحت !

فى كلمة ل" جيمس أوربنسكى " رئيس المجلس الدولى لمنظمة " أدباء بلا حدود " قال إنه لمن السخرية حقا أن يجتمع الأغنى والأقوى فى العالم فى " دافوس " بسويسرا ، التى كانت فى الماضى منتجعا لمرضى السل الأثرياء ، فى الوقت الذى لا ينفق فيه إلا القدر القليل على تمويل الأبحاث المتعلقة بهذا المرض الذى أصبح مرض الفقراء ! وبالفعل فقد شهد هذا المنتجع السويسرى أعمال القمة الاقتصادية العالمية السنوية التى شارك فيها هذه المرة ثلاثون من قادة ورؤساء الدول والحكومات ، وأكثر من ١٥٠٠ شخصية اقتصادية وسياسية عالمية وكبار رجال الأعمال والإعلام لوضع أجندة الاقتصاد العالمى فى المرحلة المقبلة فى مواجهة تحديات العولمة ، وأطلق على لقاء العالم الحالى اسم " بدايات جديدة " .

ولعلنا لم ننس بعد تلك المظاهرات التى فجرتها اجتماعات " سياتل " فى الولايات المتحدة التى أكدت أن هناك كثيرين لا تخفى عليهم هذه التوجهات التى تسير بالاقتصاد العالمى فى صالح الأغنياء على حساب الفقراء ، وفى صالح الدول الصناعية الكبرى ، على حساب الدول النامية الفقيرة ، وكيف أن مظاهر الاحتجاج هذه تفجرت بين فئات من ذوى الضمير الحى داخل هذه المجتمعات الصناعية نفسها ، وكان أولى أن نرى مثلها ، وأقوى منها فى الدول النامية نفسها ، لكننا إذا تذكرنا كيف أن تكميم الأفواه هو السمة العامة لسياسة النظم القائمة فى الدول النامية ، أدركنا سببا رئيسيا لتخلف هذه الدول وفقرها !

وكان الغضب - وما زال - يتجه إلى منظمة التجارة العالمية WTO ، خليفة الجات فى تنظيم التجارة الدولية فى عصر الكونية ، وهى المنظمة التى تراها الولايات المتحدة وبعض الدول الغنية ضرورة من أجل تنظيم التجارة وحماية العمال ، وترى جماعات المعارضة بحق أنها منظمة مثقلة بالتعقيدات البيروقراطية تفتقر قراراتها إلى الشفافية ، تهدف - على رأى د٠ليلى تكلا - إلى سيطرة رأس المال وسحق الضعفاء ، والخلاف حول منظمة التجارة العالمية لا يقتصر على الخلاف بين

المشاركين فى اجتماع سياتل والمتظاهرين على اختلاف مشاربهم وأغراضهم ، بل لقد قام كذلك بين " حيتان " العالم !

وعلى مدى ثلاثة أيام ناقش المشاركون فى منتدى دافوس قضايا متنوعة فى مقدمتها مواجهة تحديات العولمة وإقامة اقتصاد جديد يعتمد على التكنولوجيا المتطورة وإسقاط ديون الدول الأكثر فقرا ،وفى محاولة لتهدئة المخاوف من انفجار أعمال عنف جماهيرى واسعة النطاق مثل التى وقعت فى سياتل اتخذت السلطات السويسرية إجراءات أمن مشددة ، وقال " كلاوس شواب " رئيس المنتدى أن لقاء دافوس مختلف عن اجتماعات منظمة التجارة العالمية ، وأنه يهدف إلى إجراء مناقشات مفتوحة حول إدماج الأبعاد الاجتماعية والإنسانية والبيئية فى الاقتصاد العالمى ، وادعى فى تصريحات تلفزيونية أن منتدى ديفوس شكل ضمير الاقتصاد العالمى على مدى سنوات !!

وفى هذا السياق نفسه قال " شواب " فى حديث صحفى لعزيزة سامى ، أن القرن الحادى والعشرين سوف تقوده إلى حد كبير التطورات التكنولوجية التى لابد أنها ستتزايد دون توقف ، ولكن لابد من كبح جماح هذه التطورات بحيث يستفيد منها كل سكان العالم وبصفة خاصة التطورات المعلوماتية والوراثية . وفضلا على ذلك فإن الأسواق المالية أصبحت اليوم ضخمة للغاية ، كذلك حجم رؤوس الأموال الذى يتحرك يوميا فى العالم بدون ضوابط كافية مما يعرض النظام المالى العالمى للخطر فى أى لحظة ، وأكد شواب أننا لم نستطع حتى الآن التحرك بسرعة كافية لتحويل الدروس المستفادة إلى سياسات دولية وقومية تتجنب تكرار هذه الأزمات فى المستقبل .

ولا ينبغى أن ننس أن المنتدى الاقتصادى العالمى هو صاحب فكرة المؤتمر الإقليمى لما سمى بالتعاون الاقتصادى للشرق الأوسط وشمال إفريقيا والذى يهدف إلى دعم دمج إسرائيل والدول العربية من خلال التعاون الاقتصادى ، وبذلك يمكن النظر إلى هذه المؤتمرات التى تنعقد تحت هذه المظلة باعتبارها محاولة للفصل بين المسار الاقتصادى والمسار السياسى الذى يقتضى التوصل إلى " سلام عادل " بين دول المنطقة هذا السلام الذى يرفض أن يحصل المعتدى على مكاسب تمكنه من تثبيت ما اغتصبه واستولى عليه .

وقد برزت فى هذا الإطار الاقتصادى العالمى مجموعة الكوميسا ، وهى تمثل السوق المشتركة لدول شرق وجنوب إفريقيا ، وهى تشكل أكبر تجمع اقتصادى فى إفريقيا من حيث عدد الدول أو السكان ٠ وترجع أهمية ذلك التجمع إلى كون التبادل التجارى له – فيما صرح به عمرو موسى فى كلمته أمام منتدى دايفوس – يبلغ ٤,٢ بليون دولار ، ويشهد نموا سنويا قدره ٢٠٪ ، وتشكل الزيادة فى معدلات التبادل لاتجارى مع دول العالم الثالث نحو ٧٪ سنويا ٠ وسوف تستضيف القاهرة يومى ٢٨و٢٩ فبراير المؤتمر الأول لمجموعة الكوميسا ، ووجه وزير الخارجية الدعوة لجميع المشاركين باجتماعات دافوس للمشاركة فى مؤتمر القاهرة ٠

وحول وضع الاقتصاد الدولى أجمع أغلب رؤساء الحكومات والشركات العالميةعلى أن الاقتصاد العالمى يشهد نموا قويا ، إلا أنه يجب النظر فى قائمة المستفيدين والخاسرين من حالة الازدهار الحالية ، وقال بولنت أجاويد رئيس الوزراء التركى أن التناقضات فى توزيع الثروة بين المجتمعات قد وصلت إلى درجة مزعجة ومقلقة ٠

وقال " جوزيه يوف " أحد زعامات المزارعين الفرنسيين المناهضين للعولمة أنه رفض الدعوة لحضور اجتماعات المنتدى لاعتباره فخا منصوبا ضده ، وقال فى تصريحات نشرتها صحيفة " ليبراسيون " أن الشركات العالمية متعددة الجنسيات تعطى لنفسها حق قيادة الدول ٠

أما منظمة أطباء بلا حدود فقد أطلقت دعوة إلى قادة العالم والاقتصاديين المجتمعين فى دافوس لتبنى خطة عمل تتيح توفير الأدوية الأساسية للفقراء ٠ وقال بيان المنظمة أن عشرة آلاف شخص يموتون يوميا فى العالم بسبب السل ، وأن ٩٥٪ من هذه الوفيات تقع فى الدول النامية بسبب الفقر الشديد الذى ينتشر بين سكانها ٠

وفى الوقت ذاته أصدر تسعة من قادة النقابات العمالية بأوربا وأمريكا الشمالية بيانا وُجه إلى منتدى دافوس دعوا فيه إلى الالتزام بالعمل من أجل تحقيق العدل الاجتماعى على مستوى العالم ، وذكر البيان ، الذى وقع عليه " بيل جوردان " رئيس الاتحاد العاملى لنقابات العمال الحرة فى جنيف ، و " جون سوينى " رئيس اتحاد عام

نقابات العمال الأمريكية ، إلى جانب قادة النقابات العمالية فى ألمانيا وبريطانيا وكندا ، أن المنتدى يجب أن يهدف إلى وضع استراتيجية اجتماعية للاقتصاد العالمى الجديد يحفظ له وجهه الإنسانى ، كما طالب البيان بالتركيز على نظم الحماية الاجتماعية داخل الدول واحترام معايير الحقوق العالمية على مستوى العالم .

إن الإعصار قد بدأت حركته عاتية كاسحة ، فكيف يمكن أن نشهد هذا التكالب المخزى من عدد من الدول العربية لإقامة علاقات مع إسرائيل ، وتتكاسل وتتباطأ فى اتخاذ الخطوات الضرورية للوفاق العربى العربى من أجل إقامة السوق العربية المشتركة ؟!

# الإمبريالية ... من بعد !

نحن نعرف بان لكل عصر عملته اللفظية التي بها يتم تبادل الأفكار ، تماما كما يحدث فى عالم التجارة إذ تكون هناك عملة نقدية عن طريقها يمكن تبادل السلع المختلفة شراء وبيعا . وبطبيعة الحال فإن العملة النقدية التى كانت أساس التعامل فى العصور الإسلامية – مثلا – لا تصلح للتعامل بها فى وقتنا الحاضر مهما حملت جوانحنا الكثير من آيات التقدير والإعجاب بهذه الحقبة من الزمن .نفس الشىء اذن يمكن قوله بالنسبة للفكر حيث تشكل جملة الألفاظ والمصطلحات ( عملة التداول الفكرى) ، إذا صح هذا التعبير، بمعنى أنه ، إذا كان من العملة اللفظية المتداولة فى مصر فى القرن الماضى ألفاظ مثل : سعادتلو ، وأفندينا ، وإذا كان مما كان يتداول فى العهد الملكى ألفاظ مثل : حضرة صاحب المقام الرفيع ، و الشماشرجى، فلا ينبغى ، بناء على هذا أن نستخدم مثل هذه الألفاظ. فى عصرنا الحاضر. والمسألة ليست أن القانون يمنع مثل هذه الألفاظ وإنما لأن مسمياتها نفسها لم يعد لها وجود.

فهل يا ترى نستطيع أن نقول شيئا مثل هذا على مصطلح (الإمبريالية) ، حيث نلاحظ أنه قد بدأ يختفى منذ انهيار منظومة الدول الاشتراكية ( ١٩٨٩-١٩٩١)؟

الحق أننا لو سلمنا بذلك ، فإن هذا معناه أن ( الإمبريالية) كانت وهما روجت له الدول الاشتراكية من أجل اجتذاب دول العالم الثالث ومحاربة الدول الرأسمالية .

لكن استقراء الواقع يؤكد لنا أن الإمبرالية لم تكن وهما وإنما حقيقة مؤكدة ، وأنها لم تختف حتى الآن ، ولكنها تلبست ثوبا أو أثوابا أخرى ، أما هذا الاختفاء للفظ فإنما لأن الولايات المتحدة الأمريكية ، زعيمة الامبريالية الجديدة هى القوة المنفردة بالعالم المعاصر ، وهى المسيطرة أو الموجهة لكثير من القوى الاعلامية الكاسحة على المستوى الدولى ، فضلا عما نعلمه من نواقص البشر عندما يخطبون ود ( السيد) المهيمن فلا يستخدمون من الكلام ما يغضبه ن فهل يأذن لنا القارىء أن نحثه عن ( الإمبريالية) ؟

فى التعليم ..لم يعد الأمر يقتصر بالضرورة ، علي أن يتخذ شكل قاعة يجلس فيها تلاميذ مع معلم ، في أوقات محددة يوميا ، وإنما دفعت الظروف المستجدة إلي ظهور صيغة جديدة تجعل بالإمكان أن يتعلم الإنسان وهو في موقع عمله ،أو في بيَته (ربات البيوت)، باستخدام أجهزة الاتصال الحديثة ، فأصبح التعليم بهذه الصيغة يسمي : التعليم ..من بعد.

وفي المنزل ، يستطيع الواحد منا ، وهومسترخ على الأريكة ، أو على سرير نومه أن يضغط علي أزرار جهاز صغير بيده ، لينتقل ، عبرمشاهدة قنوات التلفزيون ، بين أنحاء مختلفة من العالم ، لا من حيث المكان فقط، وإنما كذلك من حيث الزمان ، وفقا للفترة التي يتحدث عنها موضوع المشاهدة ... من بعد.

وفي محطات مخصوصة ، في بعض البلدان المتقدمة ، يجلس علماء ، يحركون ، من بعد ، وهم جالسون في أماكنهم سفن فضاء ، خارج الكوكب الأرضي ..من ..وهكذا.

عشرات الأمثلة التي يمكن أن نسوقها مما يشير إلي أن التوجيه الآن لايَتم بالمواجهة المباشرة ، وإنما ..من بعد!

هذه الحقيقة المعاصرة تكشف لنا زيفا معاصرا يروج له كثيرون في ذلك العالم الذي سوف نساير التسمية الشائعة له بأنه ( العالم النامي)، فهم يشيرون –بقدر كبير من الفخر والاعتزاز – بأن زمن الاحتلال الأجنبي قد ولى ، ولم يعد هناك ( مندوب سامي) يملي علي القيادات ما يريد ، فأصبحت الإرادة الوطنية هي وحدها صاحبة القرار!

لكن مزيدا من الفحص الميكروسكوبي للنسيج السياسي والاقتصادي والثقافي ، يشير إلي أن الاستعمار الذي رحلت جنوده وضباطه ، وولت دباباته وطائراته ، وانطوت صفحة معسكراته وقواعده ، قد عاد في صورة عصرية ، ليوجه ..من بعد ، موهما السذج والغافلين أن الأمر قد أصبح بأيديهم ، فالقرارات تصدرها القيادات الإقليمية ، والدماء التي تسيل هنا وهناك ، إنما تمسكها أيدي وطنية ، والحكام والوزراء والرؤساء والمديرون ..هم من أبناء البلاد!

منذ سنوات ، كانت الأحداث تكشف ، في بعض الأحيان ، عن شخصية كبيرة الموقع ، تكون قوي البغي الخارجي قد زرعتها بجوار هذا الحاكم أو ذاك ، لكن هذا كان عملا أقرب الي "التجسس " ، أما الآن ، فقد تطور الأمر ليصبح أمر " صناعة قيادات" وزرعها في مواقع الصف الأول ، وعلي قمة الهرم ، بنفس الأسلوب المتدرج البطيء ذي الطريق الطويل ، الذي تستخدمه أجهزة المخابرات ، عند تجنيد مواطن من غير دولتها ، حتي تصل به إلي درجة أن يكون تحت السيطرة ، فيصبح هو الذي يكتب ، وهو الذي يتكلم ، وهوالذي يعمل .. ولكن ، من بعد!

فإذا ما وضعت ( الرأ س ) تحت السيطرة ، أمكن لهذه الرأس أن تقوم بنفس الدور الذي لعب معها ، تجاه الآخرين ، تصنعهم ، وتختارهم ليحتلوا مواقع الصفوف التالية ، فيتم الانسجام والتوافق في الجهاز الحاكم ...

لكن ، ماذا بالنسبة لملايين المواطنين ؟

هنا تبرز حقيقة مؤلمة ، فكما أن هناك من يستثمر الطاقة الذرية في التعمير والعلاج ، هناك من يستثمرها في القتل والتدمير .. كذلك معظم مستحدثات العلم والتكنولوجيا حتي ليصح النا القول : " ..ومن العلم ما قتل"!!

فهذا التقدم المذهل في وسائل الاتصال ، أتاح الفرصة لقوي البغي والاستغلال أن تستثمر هذه المؤسسة الجهنمية الرهيبة ( الإعلام ) في إعادة صياغة العقول وتكوين الاتجاهات ، وزرع المفاهيم ، وتلوين الميول ، وفقا لما تريد ، عبر أ شكال جذابة ، مبهرة : تمثيلية ، فيلم ، أغنية ، مسرحية ، أخبار .. تعليقات ، أحاديث ، تحقيقات ..كل هذا ، ببطء وتدرج ، وبغير مباشرة ، ليجد المواطنون أنفسهم ، بعد سنوات ، قد أصبحوا يفكرون بغير ما كانوا يفكرون بالأمس .. يصادقون أناساونظماودولا ، كانوا بالأمس ، يعادونها ، ويعادون أناسا ونظما كانوا بالأمس يصادقونها !!

ولأن سجلات التاريخ قائمة ، فإن نفس الأجهزة تبرز المبرر العصرى الشهير : نعم كنا بالأمس ، واليوم نحن غير ذلك ، لأن هناك متغيرات عالمية جديدة !! وتحت هذه المظلة أصبح الانسان يخشى أن يجيء من يقول لنا : إذا كنا من قبل نحكم بأن ١+١ = ٢ ، فإن المتغيرات العالمية الجديدة تشير لنا بقول غير ذلك !

كان العدو بالأمس يلبس ملبسا عسكريا ويتشخص أمامنا جسدا وعتادا ومعسكرات ، فسهل علينا أن نواجهه ونحاربه ونفك القيود ونكسر الأغلال ونتحرر..أما اليوم ، فقد تحول إلى خلايا فى نسيج جسمنا السياسى والاقتصادى والثقافى ، لنحب ونكره ونفكر ونحكم وفقا لنوع هذه الخلايا ووظائفها ، ومن هنا كانت حالة الاستسلام المشاهدة لدى كثيرين الآن ..كأننا قد أصبحنا أمام صورة أخرى من صور الإيدز ... فقدان المناعة القومية !!

# تحذير لا تخويف !

أحرص حرصا شديدا على متابعة الكثير مما يتصل بهذا العدو الرابض بجوارنا فى الشمال الشرقى (إسرائيل)، وكلما تعرفت إلى معلومة جديدة ، وخاصة فى مجال التقدم التكنولوجى والعسكرى كلما ضربت كفا بكف متسائلا فى حسرة عميقة : كيف يتأتى لهذه الدولة أن تحرز كل مظاهر القوة هذه ، وما زال المحيط العربى الكبير فى طريقه ليتحول إلى بحر من العسل يشجع على النوم والغفلة والاسترخاء ؟! وعلى الفور أتذكر تساؤلا مماثلا قديما لا أذكر من وجهه ، ولا إلى من ؟ كان التساؤل عقب هزيمة ٤٨ مضمونه : كيف لدولة واحدة أن تهزم سبع دول ( عدد الدول العربية فى ذلك الوقت )؟ فكان الرد أن التساؤل يحمل الإجابة : لأنها دولة واحدة ، ونحن سبع دول ! ووفق هذا المنطق فإن الدول العربية عندما تصبح واحدا وعشرين تكون الهزيمة أكثر احتمالا وأشد قسوة .

وبطبيعة الحال فقد تعودنا فى مثل هذه المواقف أن نبادر إلى القول بأن الولايات المتحدة هى التى تمدها بأسباب القوة ، ونحن لا ننفى ذلك ، ولكن ما نود التأكيد عليه هو أنهم فى إسرائيل يحسنون استثمار ما يتلقوه من مساعدات استثمارا يُفعل ما لديهم من إمكانات ، على عكس ما يحدث على الأرض العربية التى تهدر الكثير مما لديها من ثروات وإمكانات ، وبالتالى تتحقق السنة الإلهية القائلة " وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " وإذن الله المقصود هنا هو " وفقا لسنة الله فى كونه " ، وأقوى دليل على هذا أن المسلمين فى غزوة " أُحد " قد هُزموا ، حتى مع وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه معهم ، لأن الانتصار له أسبابه ، والبيوت لابد أن تُؤتى من أبوابها ، ألا وهى القوة : المادية والمعرفية .

ولعل الإشارة لبعض الحقائق القائمة أمر ضرورى حتى يظل الحذر قائما ، وحتى نشعر بشئ من الخزى يحتمل أن يدفعنا إلى التحرك العملى ، إنطلاقا من أنه ، حتى ولو سلمنا بما يسمى الآن بالسلام فإن هذا لا يمنع من التحوط والاستعداد ، ولنا فى إسرائيل – بكل أسف وأسى – أسوة حسنة !!

فإذا كانت صناعة المعلومات هى قمة التكنولوجيا المعاصرة ، فمن المؤشرات التى تبين لنا مدى ما أحرزته شركات الكمبيوتر وصناعة المعلومات الإسرائيلية ، وفقا للمختارات الإسرائيلية التى يصدرها الأهرام ، أن أكثر من خمسين شركة عاملة فى مجال التكنولوجيا المتطورة ، كانت عام ١٩٩٥ ، مدرجة فى بورصة (ناسداك) الأمريكية التى تركز فى تعاملاتها على الشركات الواعدة بالنمو السريع ، وكانت قيمة أسهم هذه الشركات الإجمالية آنذاك تبلغ ٧,٢ بليون دولار ، احتلت على إثرها إسرائيل المركز الثالث ، فى ترتيب الدول الأجنبية التى تطرح أسهم شركاتها فى البورصات الأمريكية ، بعد كندا وبريطانيا ، وهو ما يعنى توفير منافذ مباشرة لهذه الشركات إلى السوق الأمريكى ، لم يتوافر لغيرها من كبريات الدول الصناعية فى العالم ٠

كذلك فتشير البيانات إلى تطور صناعة البرمجيات فى إسرائيل تطورا ملحوظا خلال التسعينيات ، فقد أُعلن أن سوق تصدير البرمجيات الإسرائيلية ينمو بمعدل من ٢٠إلى ٢٥بالمائة سنويا ٠ كذلك تشير المعلومات إلى أن هناك أكثر من ٢٠٠ شركة برمجيات مختلفة الحجم فى إسرائيل يعمل فيها أكثر من سبعة آلاف عالم ومهندس ينشطون فى مجال التطوير والأبحاث ٠ وتشير أيضا إلى وجود نحو ١٥ الف مختص فى مجال الكومبيوتر ، بينما يشير تقرير اقتصادى آخر إلى أن إسرائيل كانت تمتلك – منتصف التسعينيات – ما يزيد على ١٢ ألف مبرمج ، نصفهم حاز خبرة عملية رفيعة بالاشتغال فى الشركات الأمريكية ، بالولايات المتحدة ٠ وكان للهجرة الضخمة ليهود الاتحاد السوفيتى ، عقب انهياره ، أكبر الأثر فى مضاعفة عدد المتخصصين العاملين فى صناعة برامج الكومبيوتر وملحقاته فى إسرائيل ٠

وللدكتور نادر فرجانى دراسة مفزعة حقا من حيث ما تعرضه من حقائق ، وعلى سبيل المثال : ففى مجال الاتصالات ، صدرت شركة " تاديران " للإلكترونيات أول معدات اتصالات " قافزة التردد " Frequency - hopping فى عام ١٩٧٦ ، وأطلقت إسرائيل أول قمر صناعى للاتصالات فى عام ١٩٩٦ ، يغطى الشرق الأوسط ووسط أوربا ٠

ومن حيث الشركات الغربية المهمة فى التكنولوجيا والعاملة فى إسرائيل ، فقد أنشئت " موتورولا- إسرائيل " كأول فرع أجنبى للشركة المعروفة عام ١٩٦٤ ، وأنشئت I.B.M - إسرائيل فى عام ١٩٧٤ ، وقامت " مايكروسوفت - إسرائيل فى عام ١٩٨٩ . ونشأت " بيوسنس " Biosense - إسرائيل الأمريكية فى عام ١٩٩٣ ، لتصميم وإنتاج أدوات متناهية الصغر للحركة داخل الجسد لأغراض التشخيص والعلاج . وتضم القائمة أيضا " هولت باكارد " HP و " فيشاى " Vishai ( موردة مكونات لمركبات الفضاء والطائرات الحربية المتقدمة ) ، الأمريكيتين ، و" سيمنس " Siemens الألمانية وغيرهما .

وتقدر الإدارة الأمريكية حجم مخزون البلوتونيوم الإسرائيلى الصالح لصنع سلاح نووى بـ٣٠٠ حتى ٥٠٠ كيلوجرام . جاء ذلك فى وثيقة سرية لوزارة الطاقة الأمريكية ، وقد صدرت هذه الوثيقة فى مجلة " بوليتين للعلوم الذرية " . وذكر الخبراء بالمجلة أنه من اجل إعداد أسلحة نووية - قنبلة أو رأس صاروخ - مطلوب من ٢-٤ كيلوجرامات بلوتونيوم للاستخدام العسكرى . وطبقا لمتوسط ثلاثة كيلوجرامات للسلاح ، تقدر الأسلحة النووية بحوزة إسرائيل بـ١٠٠ - ١٦٥ سلاحا ، والاكتفاء بكيلوجرامين للرأس المتفجرة يرفع التقدير إلى ٢٥٠ سلاحا نوويا . ويماثل هذا التقدير تكهنات خبراء أجانب صدرت قبل ذلك .

وفى مجال الصناعة العسكرية ، فوفقا للتقرير السنوى لمعهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن فى العام الماضى ، ما زالت إسرائيل واحدة من أكبر خمس دول مصدرة للسلاح فى السوق الصناعى ، على الرغم مما تسجله الأرقام من انخفاض مبيعاتها العسكرية إلى ١,٣مليار دولار

هذا وقد رصد التقرير القوة العسكرية الإسرائيلية وفقا للأرقام التالية :

جنود : ٥٩٨ ألفا　　دبابات : ٣٨٠٠

حاملات جنود مدرعة : ٥٧٠٠

مدفعية : ١٨٥٠　　طائرات مقاتلة : ٨٣٨

منصات صواريخ : ٢٠ على الأقل .

أما بالنسبة لمصر ، فأرقام التقرير تقول :

جنود : ٧٠٤ آلاف ٠ دبابات : ٣٨٥٥

حاملات جنود مدرعة : ٣٢٠٥

طائرات مقاتلة : ٥٨٣ غواصات : ٤

سفن حربية : ٥٠

وفى نهاية مقالنا لسنا فى حاجة إلى التذكير بأن البصر بجوانب القوة فى " الآخر " ، لا يمكن أن يأتى من باب بث اليأس والخوف ، ولكنه يأتى على سبيل التنبيه إلى أنه إذا كان ما يسمى بـ " ثقافة السلام " لا يترتب عليها أن تغمض إسرائيل أعينها عن بث دماء القوة فى عروقها ، أفلسنا أولى بمثل هذا ؟

# ليست من أساطير الأولين !!

عندما تم الاتفاق بينى وبيـن الأستاذ عبد اللـه إمـام علـى الكتابـة فـى العدد الأسبوعى للعربى وبدأت أفكر فى القضية التى أفتتح بها هذه السلسلة من المقالات كانت هناك " قضيـة " أثيرة لدى أخذت تلح بشدة على ذهنى ٠٠ إنها قضية الصراع العربـى الإسـرئيلى ، فمثلـى مثل ملايين من أبناء الأمة العربية ممن تفتحت أعينهم على هـذه القضيـة التـى استنزفت – وما زالت – من جسد هذه الأمة دما متصلا منذ الثلاثينيات ، ويزيد على هذا فرصـة دراسة أكاديمية مطولة عن جذور التربية الإسرائيلية التاريخية ، ليست منفصلة – على الرغم من قدمها الزمنى – عما يحدث اليوم ، فهى من ثم تفسر وتوضح أن الخيط موصول والصـراع مستمر على الرغم من تلك الدعاوى المتخاذلة المزيفة التى تزعم بأن " الصراع " فى طريقه إلى الانتهاء، وأن التحدث عنه فى زمن العولمة وانتهاء صراع القطبين العـالميين إنمـا هـو إصرار على العيش فى كهف ماض انقضى ، من شـأنه أن يتحـول إلـى " أسـاطير " سياسية لساسة وعسكريى الأمس!!

وعلى الرغم مما تحتله هذه القضية من صدارة فى عقلى وفى قلبى ، فإننى منـذ سنوات أجد نفسى فى حالة غريبة ٠٠ فما أن يبدأ مذيع النشرة الإخبارية فى إذاعة ما يتصل بهـا ، إذاعة أو تلفازا ، حتى أشيح بأذنى أو بعينى بعيدا ، لا كراهيـة لهـا وإنمـا لأن كل مـا يـذاع على وجه التقريب أصبح يمثل لى فترات مـن التعذيـب النفسـى وكـأننى أسـمع أو أشـاهد مـا يذكرنى بالهزيمة والخزلان ، ويؤكد لى على مظاهر الضعف المخزى والتفسخ المؤلـم الـذى أصبحنا عليه ! تماما مثلما حدث من بعد وفاة أمى منذ عدة عقود فقـد وجدت نفسـى عازفـا عزوفا غريبا عن أن أطل على صورتها ، فما من مرة وتصادف أن وقعت عيناى علـى هـذه الصورة ، حتى ترقرقت فيها الدموع ، وأصبحت الأم وكأنها لم تمت إلا منذ لحظات ، ويـأخذ شريط طويل من أفضالها ونضالها وكفاحها من أجلنا يتتابع أمـامى ٠ ونفـس الشـىء حـدث منذ شهور، حيث فقدنا زميلا فى الكلية ما أحببنا أحدا مثلـه ، وحـرص البعـض علـى تعليـق صورة له فى الغرفة التى كان يجلس فيها مع بعض الزملاء ، فإذا بى دائما أتحاشـى دخـول هذه الغرفة حتى لا تقع عيناى على الصورة !!

ولقد استطعت أن أقاوم إلحاح القضية على ذهنى وقلبى مـن حيث الكتابـة فـى الأسبوع الماضى ، فتناولت قضية مما يتصل بالهم التعليمى فى مصر ، وعبثا أحاول هذا الأسبوع أن أواصل هروبى ، فإذا بى أفشل ، وإذا بالطرق تنسد أمام عقلـى وقلمـى فـلا أجـد أمـامى مـن

القضايا ومن الموضوعات إلا هذه القضية وكأن هموم الدنيا كلها قد تمركزت فيها ، وكأنى لا أعرف أى شىء عن أى شىء إلا عن هذه القضية مهما ضؤل وقل .

إن أكثر ما يعتصر قلبى ألما ليست فقط صور القهر الإسرائيلى المستمر للفلسطينيين ، فهذا أمر مفهوم وطبيعى ، أقصد أنه من الطبيعى أن يفعل الإسرائيليون ما يفعلوه بالأرض المحتلة ، لأنهم نتاج تربية صهيونية عنصرية قامت على العنف المسلح والاستغلال والاستعباد والتزييف ، ولكن المؤلم حقا ، هذا الذى يتكرر كل يوم على وجه التقريب من تصريحات " متفائلة " من القادة والزعماء العرب وفى مقدمتهم قادة السلطة الفلسطينية أنفسهم ، وكأن " باراك " هو المنقذ الذى سوف ينتشل ما يسمى بقضية السلام من وهدتها وما تعثرته فى عهد سلفه غير المأسوف عليه " النتن ياهو " ، مع أن الرجل " باراك " كان أمينا وصادقا مع نفسه ومع الجميع عندما لم يخف وجهه العنصرى القبيح فأعلن بكل وضوح تلك اللاءات الشهيرة ، لكل الآمال والطموحات الفلسطينية ، وهى أن القدس عاصمة أزلية لإسرائيل ، وأنه لا يمكن إزالة المستوطنات الإسرئيلية ، وأنه لا عودة للاجئين الفلسطينيين إلى أرض فلسطين ، فحق العودة هو فقط لكل يهودى ، حتى ولو لم يكن مولودا على أرض فلسطين ، لكنه غير مسموح لأى فلسطينى ولد على أرضها وهاجر مكرها أن يعود مرة أخرى ، وأن الدولة الفلسطينية ، حتى إذا اضطروا إلى السماح بقيامها ، يجب أن تقوم مغلولة اليد عن أن تكون صاحبة سيادة فعلية ولو على الأرض التى تقوم عليها !!

ومن المفروض أن قادة السلطة أنفسهم أدرى الناس بمن هو باراك ، الذى تخفى فى زى امرأة واستطاع أن يغتال ثلاثة من أفضل قادة المقاومة الفلسطينية الذين كانوا مقيمين فى لبنان وقت الحرب الأهلية ، وكيف أنه هو الذى قاد تلك العملية الشهيرة والتى قام فيها باغتيال " أبو جهاد " ذلك القائد العسكرى الفذ والذى فقدت حركة المقاومة من بعده الكثير من قدراتها التخطيطية . وما لا يقل عن ذلك أهمية أن باراك هو الذى كان مسئولا عما سمى بفريق " المستعربين " ، حيث استطاعت المخابرات الإسرائيلية أن تجند عددا من اليهود العرب ، ممن يتقنون اللغة العربية ولهجاتها المختلفة كى يندسوا بين الناس فى الأسواق وغيرها ويقومون بعمليات اغتيال لقيادات عرفت بعدائها ونشاطها المقاوم للاحتلال الإسرائيلى .

بل إننى واحد من الناس ممن يرى أن القضية الفلسطينية قد فقدت الكثير بذهاب النتن ياهو !! فميزة هذا الرجل أنه كان يتحدث بما يبطن ، وسافرا فى عدائه للسلام ، ومشهور بتراجعاته عما يتفق عليه مع الفلسطينيين ، فكأنه بهذا يكسب الفلسطينيين دعما بلا حدود

من كل القوى والأطراف السياسية على المستويين الإقليمى والمحلى ، ويستنفر قوة المقاومة والقتال فى النفوس العربية ، أما باراك فعلى الرغم من لاءاته إلا أنه استطاع أن يبث تصرفات وتصريحات مخدرة تصوره وكأنه سيصلح ما أفسده سلفه ، وأنه هو المبشر والنصير لسلام مأمول يدوم فى المنطقة ، بينما هو بالفعل لا يختلف عن سلفه من حيث الفلسفة والأهداف ٠إن الزعيمين وكأنهم اتفقا على الحكم بالموت على شخص ما ، فهذا يريد تنفيذ حكم الموت بإطلاق النار عليه ، أوبتعليقه على حبل المشنقة ، والآخر يرى أن يتم ذلك بالسم البطىء ٠ تعددت الأسباب والموت واحد ٠ وإن هذا ليذكرنى بالراحل " خورشتشوف " عندما كان رئيسا للاتحاد السوفيتى فى أول الستينيات ، وسأله صحفى عن رأيه فى الفرق بين اثنين كانا يتنافسان على رياسة الولايات المتحدة ، فقد كان رده أنه نفس الفرق بين فردتى الحذاء ، فهل الفردة اليمين أفضل أم الشمال ؟ !!

إننى لا أخفى على القارىء تشاؤمى الشديد من كل حلقة من حلقات المفاوضات ، فبعد جهد مضن ، وأسابيع وربما شهور ، ومعاناة ، دائما ما ينتهى الأمر بتنازل فلسطينى ، فى مقابل فتات ، ويتمحور الأمر فى معظم المرات على ما يسمى باتفاق أمنى ٠٠ المزيد من المراقبة الفلسطينية والمطاردة لكل تلك القوى التى ما زالت تؤمن بأن السلاح هو الطريق الأساسى فى الحصول على الحقوق ، حتى خالج هذه القوى شعور بأن اليد الرسمية الفلسطينية أصبحت تشهر السلاح فى وجهها هى بدلا من أن تشهرهفى وجه العدو الأصلى ، ونتذكر على الفور مقولة نابليون الشهيرة : اللهم احمنى من أصدقائى أما أعدائى فأنا كفيل بهم!

# كيف نقدم التاريخ لأبنائنا ؟

كنت قد دعيت للتعقيب على بحثين فى ندوة عقدت يومى ( ١٩-٩٨/٥/٢٠ ) بعنوان " العنف السياسى والدينى فى مصر " ، وكان من أفكار أحد البحثين أن مناهج التاريخ التى تقدم للطلاب فى مرحلة التعليم الأساسى تساهم فى بذر بذور العنف فى أبنائنا ، وذلك بتجاهلها ذكر الأقباط ، إذ هى بذلك - كما يقولون - تساهم فى تأكيد نظرة أحادية الجانب لا ترى فى أبناء مصر وتاريخها إلا العنصر الإسلامى وحده .

ومن الملاحظ أن هناك نفرا من الكتاب والباحثين فى مصر يكثفون القول فى هذه المقولة التى يرددون فيها الزعم بأن أقباط مصر مضطهدون ، وبالتالى يقفون فى خندق واحد مع هذا النفر المتعصب فى الكونجرس الأمريكى الذين استطاعوا أن يستصدروا هذا القانون المشبوه الذى يحول الولايات المتحدة إلى ولى أمر العالم فتحكم بأن هذا البلد به اضطهاد فيتعرض للغضب الأمريكى ، وهذا يعيش تسامحا فينعم بالرضا الأمريكى !

كانت الفكرة التى رددها البحث المشار إليه أن تاريخنا المصرى إذ يقدم لأبنائنا التاريخ الفرعونى القديم ثم العهدين اليونانى والرومانى ، وبعدهما العصر الإسلامى ، فالعصر الحديث ، فإنه بذلك يقفز على العهد القبطى دون ذكر له .

والحق أن هذه الفكرة تستند إلى أساس خاطىء ، فتقسيم التاريخ إلى عهود وفترات لا يتم غالبا على أساس دينى وإنما على أساس سياسى ، وقد كان الحكم الرومانى فى مصر مسيحيا منذ اعتراف الدولة الرومانية بالعقيدة المسيحية ، وكان ذلك فى عام ٣١١م عندما أصدر الامبراطور قسطنطين مرسوم التسامح الدينى . والتاريخ الأوربى كله منذ ذلك الوقت مسيحى دون أن ينص على ذلك فى تسمية العهد تسمية دينية . أما تسمية فترة معينة من تاريخنا بأنها إسلامية فهى تسمية الكتاب والباحثين على اعتبار أن مصر كانت تابعة لحكام يستندون إلى الدين وإن كان البحث الدقيق يمكن أن يكشف عن أنها لم تكن فى الحقيقة دولة دينية .

وعلى أية حال لماذا يحرص الذين يرددون هذه المقولات على إثارة مثل هذه البلبلة ولا يتجهون إلى الطريق الصحيح لتعليم التاريخ الذى يجنبنا كل هذا ؟

إن التاريخ الذى نقدمه لتعليم أبنائنا تاريخ حكام ونظم سياسية وزعماء سياسيين ، والأصح أن يتحول إلى تاريخ حضارى ، ثقافى ، يتناول حركة الإنسان فى كل المجتمع ، بكل مجالات أنشطته السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية والاقتصادية ، ويكون المحور هو العمل البارز والنشاط ذو الأثر ، هنا سيجد كل من خطا بالثقافة المصرية خطوة تاريخية مكانا يستحقه ، وبغير نظر إلى دينه ونوعه ولونه ومذهبه .

والحق أن هذه قضية على جانب كبير من الأهمية ، فعندما ننظر فى بعض الفترات التاريخية نجد عجبا ، فتاريخ عباس الأول وسعيد فى أواخر القرن الماضى يحتل صفحات عدة ، بينما تاريخ رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك يحتل بضعة سطور ، وعندما نتساءل عن قيمة كل من هؤلاء سوف نجد أن الأولين هدما أجزاء من البناء المصرى أما الآخران فقد أضافا الكثير إلى العقل المصرى والثقافة المصرية . إنه تحيز بغيض لا ينطلق من منطلق طائفى وإنما من منطلق طبقى مقيت .

إن سيد درويش قد قام بدور رائع وعظيم فى ثورة ١٩١٩ ولكن ذكره فى كتب التاريخ المقررة على أبنائنا إذا جاء ، يجىء فى سطور وربما فى جملة أو جملتين ، بينما يجىء ذكر عدلى يكن وحسين رشدى بمساحة أكبر بكثير ، وفقا لنفس المنطق :هؤلاء هم السادة ، والآخر من عامة الناس ، ولو كان مفكرا أو فنانا عظيما ..

إن حركة الزحف الديموقراطى التى قلبت الكثير من المفاهيم والموازين فى عالم السياسة يجب أن تقتحم كذلك عقولنا وتفكيرنا . لقد انتهى زمن احتكار الحكم وصار " شعبيا " ، أبناء الأمة هم الذين يختارون حكامها ، ولفترات محدودة ، ليجىء غيرهم ، والتعددية السياسية أصبحت حاكمة ، فلا ينفرد بالرأى والتوجيه بعض دون بعض !

وشىء مثل هذا لابد أن يحدث فى تعليم التاريخ . لابد أن يكون تاريخ ( أمة ) وتاريخ (ثقافة ) ، وكل من الأمة والثقافة لايمثلهما فقط زعماء السياسة وقادة الحروب ، وإنما يمثلهما كذلك الاقتصاديون والأدباء والفنانون والمفكرون والعلماء، وعامة الناس ، فبهذا وحده يكون التاريخ تاريخا " ديموقراطيا " حقا . إن الديموقراطية ليست فقط نظاما للحكم وإنما هى طريقة حياة ، لابد أن تتخلل كافة مناشط حياتنا حتى يمكن أن نقول أن أمتنا تعيش عهدا ديموقراطيا حقا .

# اليمين المتطرف والعنصرية

تسبب السياسى النساوى الشاب " يورج هايدر " المولود فى ٢٦ من يناير ١٩٥٢فى مدينة " بادجويسوم " النمساوية فى أزمة خانقة لبلده ، ففى إجراء لم يسبق له مثيل للاتحاد الأوربى أن اتخذه ضد أحد من أعضائه ، نفذ الاتحاد تهديداته وفرض عقوبات سياسية فورية على النمسا ، وبعد أقل من ساعة من حلف الحكومة النمساوية الجديدة اليمين الدستورية جمدت فنلندا علاقاتها مع النمسا ، مع توقع أن تحذو دول أوربية أخرى حذوها ! ويحاول المسئولون فى الاتحاد الأوربى تذكير النمسا بالمبادئ الأساسية للاتحاد حتى لا تتعرض لما تعرضت له اليونان فى الماضى ، ففى عام ١٩٦٣ كان قد وقع اتفاق بين اليونان والسوق الأوربية المشتركة ، لكن تم تجميده بين عامة ١٩٦٧ و١٩٧٤ أثناء الحكم العسكرى فى اليونان ، لكن مع عام ١٩٨١ تم استقبال اليونان كعضو مرة أخرى فى الاتحاد الأوربى بعد سقوط الحكم العسكرى فيها .

لماذا هذا بالنسبة للنمسا ؟ لأن هايدر استطاع أن يحصل لحزبه " الأحرار " على ما نسبته ٢٧٪ فى الانتخابات الأخيرة ، ويشارك فى حكومة ائتلافية ! هو إذن لم يصل إلى المشاركة فى الحكم عن طريق انقلاب عسكرى ، ولا عن طريق استخدام العنف المسلح ، وإنما عن طريق اللعبة الديمقراطية نفسها ، فماذا كان يمكن لرئيس النمسا أن يفعل إزاء هذه النتيجة إلا النزول على إرادة الناخبين ؟

قالوا أن الرجل عنصرى ، متعصب ، يذكرهم بهتلر الذى صعد إلى الحكم عن طريق انتخابات ، لكنه سرعان ما التف على الطريق الديمقراطى ليصبح رمزا للتسلط والقهر والعنصرية ، ومن هنا فقد أعلن متحدث باسم قصر ماتينيون ( مقر رئاسة الوزراء ) أن فرنسا ستتبع بدقة الإجراءات التى ستتخذها دول الوحدة الأوربية ضد النمسا ، بل إنها ستذهب إلى أبعد من ذلك وتتخذ إجراءات أخرىفى فترة لاحقة . وقد صبت مختلف وسائل الإعلام الفرنسية غضبها الشديد على ما يحدث فى النمسا ، وقالت صحيفة " ليبراسيون " أن التاريخ يأتى إلينا بخطى حثيثة لا نكاد نسمعها ، ثم نفاجأ فى اليوم التالى بظهور هتلر جديد يجر العالم إلى ويلات جديدة .وفى واشنطن

، أكد " جيمس فولى " المتحدث باسم الخارجية الأمريكية أن بلاده ستعيد النظرفى علاقتها مع النمسا بعد وصول حزب الحرية للحكم ، وقال أن بلاده تشعر بقلق شديد لانضمام الحزب للتشكيل الحكومى قبل الإعلان عن موقفه !

وعلى الرغم من محاولات بعض المحللين السياسيين عندنا التقليل من شأن الدور الإسرائيلى فى تأجيج نيران الأزمة ، إلا أن الوقائع تؤكد أن شرارة الأزمة انطلقت من إسرائيل ، وذلك فى أكتوبر الماضى ، فى نفس اليوم الذى أجريت فيه الانتخابات النمساوية ، وأفادت نتائجها بفوز حزب الأحرار بالمركز الثانى ، فصدرت على الفور وبعد ساعات قليلة التصريحات النارية بالهجوم من إسرائيل على النمسا وتحذيرها من اشتراك هايدر وحزبه فى الحكم ، مما أدى إلى اختلاق أزمة كانت مرتعا واسعا وأرضا خصبة لوسائل الإعلام العالمية التى ألبست النمسا ثوبا مختلفا عن الحقيقة بدا أكبر من الحجم الحقيقى بكثير ، حيث ضخمت من هذه التصريحات التى زعمت أنها مجدت العهد النازى من جانب هايدر وهونت من جرائمهم وأشادت برجال البوليس الألمانى الخاص ( الجوستابو ) .

لكن الرجل أسرع إلى الحديث عن أنه ليس معاديا للسامية ، وهو كذلك لا يمكن أن يكون هتلرا جديدا مؤكدا على أنه يقف فى صف الاندماج مع أوربا بدليل أن حزبه كان من أوائل من أيدوا هذا الاندماج . وذكر هايدر أيضا أنه أوروبى ، يسير فى الطريق الذى أرساه الفرنسى ديجول والألمانى أديناور ، ولم ينكر أنه يتخذ مواقف متشددة من الأجانب .

والحق أن التركيز على تشبيه هايدر بهتلر مبالغ فيه إلى حد كبير ، فالنمسا الصغيرة ليست ألمانيا ، ولا هايدر يملك ما كان يملكه هتلر من وضوح الإيديولوجيا والشخصية الكارزمية ، والعالم فى بداية القرن الحادى والعشرين ليس هو عالم الثلاثينيات من القرن العشرين ، واليهود لهم الآن دولة تستطيع أن تُفزع العالم ، كما يحدث بالفعل ، دفاعاً عنهم إذا وقع لهم مكروه ، حتى ولو بالقول !

وثمة أمر لا ينبغى أن يغرب عن انتباهنا ، ألا وهو أن كثيرين من الزعماء الأوربيين الذين وقفوا بقوة ضد حكومة النمسا هم أنفسهم الذين يغازلون الناخبين فى بلادهم بتبنى أفكار قومية متعصبة ضد المهاجرين من العالم الثالث ، وآية ذلك أن

# العروبة .. والعرب .. وخلط الأوراق !

فى عام ١٩١١ هاجمت إيطاليا منطقة طرابلس فى ليبيا ، التى كانت فى تلك الفترة تقع فى منظمة الدولة العثمانية ، فارتفعت أصوات عدة فى مصر تنادى بضرورة الوقوف إلى جانب الليبيين . ومن هنا اتبرى أحمد لطفى السيد ، قطب حزب الأمة فى ذلك الوقت . والرائد الفكرى الكبير ينتقد هذا الاتجاه ، ونجد تعبيرا عن ذلك فيما كتبه فى ( قصة حياتى ) : " .. فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو إليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين . وقد أخذت أنبه - على استحياء - إلى واجب مصر فى هذه الحرب ، وهو أن تكون على الحياد " ص ١٢٩ ( طبعة كتاب الهلال ، فبراير ١٩٦٢ ) .

ويستوقفنا هنا قول مفكرنا أن كان ينبه ( على استحياء) ، ذلك أن المشاعر العامة كانت قد عبئت بين الجمهرة الكبرى من المصريين لمساندة الليبيين . ومن المعروف أن عزيز المصرى اشترك فى هذه الحرب قائدا عسكريا .

وعلى الرغم من أننا قد لا نتفق مع الرأى الذى ساقه لطفى السيد ، إلا أن الرجل كان يستند إلى مبدأ بعينه هو ( المصرية ) ، والتى رأى وجوب استقلالها عن ( العروبة ) ، ولم يبرر ذلك بالاستناد إلى سلوك أشخاص عرب ، أو بعض البلدان أو الزعماء .

وفى أول الخمسينات - إن لم تخنى الذاكرة - كتب إحسان عبد القدروس فى مجلة روز اليوسف مقالا بعنوان ( مصر أولا) أثار عليه هجوما كبيرا داخل مصر وخارجها ، ومع ذلك فقد كان الرجل ، فيما يقول ، صاحب مبدأ ، لا يعلقه على سلوك بعينه من ( عرب ) .

ثم أخذت بعض الأصوات فى مصر ، وخاصة منذ الانقلاب الانفصالى السورى على الوحدة فى أواخر سبتمبر ١٩٦١ ، تردد نفس النغمة ، ولكن من خلال منطق مجروح فى صحته ، فمثل هذه الأصوات كانت ترتفع عادة بعد فترة نشهد فيها مدا واضحا للعروبة وكتابات تشيد وتنظر وتؤيد وتؤكد ، ثم يحدث خلاف أو انكسار ، فتنقلب الآية ، لنجد هذه الأصوات تهاجم الرابطة العربية ، داعية - إن لم لم يكن صراحة فضمنا - إلى "المصرية " المتميزة عن الجسم العربى .

وهكذا تكرر الموقف عقب نكسة يونية ١٩٦٧ ، وأيضا بعد الموقف العربى المغاير نتيجة زيارة السادات لإسرائيل عام ١٩٧٧ ، وما تلا ذلك من توقيع اتفاقية كامب ديفيد ١٩٧٩ . ومقاطعة معظم الدول العربية لمصر .

إن وجه الاعوجاج فى هذا المنطق – وهو ما لم يكن موجودا فى الدعوات السابقة عند مدرسة لطفى السيد ومن سار على منوالها مثل سلامة موسى وإحسان عبد القدوس وطه حسين وغيرهم – هو ذلك الخلط الخطير بين ( المبدأ) وبين أخطاء ورجال رفعوا راية هذا المبدأ ٠

لقد علمنا علماء هذه الأمة ضرورة التبقظ إلى أن ( الرجال يقاسون على الحق ولا يقاس الحق على الرجال ) ٠ وعلى سبيل المثال ، إذا كان مبدأ ( الإيمان بالله ) يعنى ضمن ما يعنى فى حقيقته : التحرر من عبودية غير الله ، والسعى إلى إعمار الأرض ، والجدال بالتى هى أحسن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفق الشروط التى اتفق عليها علماء الدين ، والتزام الأمانة والصدق والعفة فى التعامل مع الآخرين ، والتكافل الاجتماعى ، والعدل بين الناس ٠٠ إلى غير هذا وذاك مما هو معروف فى الكتب السماوية ، فإن انحراف هذا أو ذاك من الناس عن هذا المبدأ يجعلنا نستنكر عمل هذا المنحرف ، دونَ أن نتخلى عن ثقتنا فى صحة المبدأ نفسه ٠ أما الذى يسرع بالتخلى عنه ، لأن هناك من يسلك سلوكا منحرفا عنه ، فهو يخلط فى الأوراق ، بل يمكن أن نعتبر هذا اعوجاجا فى التفكير ينبغى أن يناقش ويبحث ٠

وهكذا الأمر بالنسبة للعروبة ٠٠

بل إننا هنا إزاء ما هو أكثر وضوحا وأشد إلحاحا ٠ فعلى الرغم من أننا لا نفاضل بين الإيمان بالله والعروبة ، وإذا حدث ، فلابد أن نغلب الأول ، إلا أننا نقر فى الوقت نفسه أن هناك من يستطيع ألا يؤمن ( ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ، لكن لا يستطيع أحد منا ، نحن أبناء الأمة العربية أن نخلع عروبتنا ، وإلا فكيف ننزع لساننا العربى ؟ وكيف نهرب من تاريخنا العربى ؟ وكيف نغفل قيمنا وتقاليدنا وأعرافنا التى تربط بيننا ؟ وكيف نستطيع هجران بلداننا الجغرافية المتاورة المتداخلة المتجانسة المتكاملة ؟ وكيف ٠٠ وكيف ٠٠ وكيف ؟

العروبة دم يسرى فى خلايا ونسيج جسم أمتنا ، ومن ثم ، فواهم هذا الذى يتحدث أو يكتب مهاجما لها معلنا تخليه عنها ، أو حتى إمكان ذلك ! لقد تعودنا ، عبر العقود الماضية ، أن نسمع الأصوات المضادة للعروبة من البعض فى مصر بصفة خاصة ، ولم يحدث مثل ذلك – غالبا – فى أى بلد عربى آخر ، إذا استثنينا البعض فى بلدان المغرب العربى ، لظروف الفرنسة نتيجة الاحتلال ٠

حتى جاءت حرب الخليج ٠٠ وعايشنا الوضع المزرى الحالى لمجموع الدول العربية ٠٠

فمن الآثار السلبية الخطيرة لحرب الخليج ، أن بدأنا نسمع بعض أصوات فى الخليج عامة ، وفى الكويت خاصة ، تهمس بأن منطقة الخليج لها طابعها المميز ، وأن العروبة لم تأت إلا بالغزو ، وأن الوحدة العربية حلم ينبغى التخلى عنه !!إننا نستطيع أن ( نفهم ) : لماذا يقول هذا من يقولوه ، فقد أتى الغزو للكويت من جار عربى كبير ، كان يعيش فترة من الزمن على مساعدات الخليج وتمويله ، فى حربه مع إيران خاصة ، وقامت أطراف عربية ، إن لم يكن بمباركة الغزو صراحة ، فإنها لم تدنه صراحة وعملا .

ومع ذلك فلا نستطيع أن نخفى قلقنا من وجود أصوات ( لا عروبية ) . إنها تجعلنا ندعو الله أن تكون تلك ( حالة عارضة ) ، خاصة وأن الكويت كانت تمثل معقلا خطيرا للعروبة ، على الرغم من صغر حجمها ، فقد كانت جمعياتها الفكرية والعلمية ومجلاتها وكتبها ومنتدياتها وصحفها تبشر وتدعو وتتحدث عن العروبة بأكثر مما كانت تفعل للكويت نفسها !

إن المسألة هنا هى مسألة مبدا لا حياة لنا إلا به ، وجريمة هذا أو ذاك ، لا ينبغى بأى حال من الأحوال أن تدفعنا إلى تصور إمكان التخلى عنه ، إذ أبسط ما يقال هنا : إذا كان هذا أو ذاك قد غزا وبارك ، فإن هناك أطرافا أخرى وقفت بجانب الكويت ، بل وحاربت وجاهدت ، فلماذا نبصر الكوب نصفه ( خال ) من الماء ، ولا نبصره نصف ( ممتلىء ) ولو أن الجزء الممتلىء أكبر من الخالى ، لكن منطق ( التمثيل ) قد اقتضى ذلك .

ونفس الشىء بالنسبة للوضع المزرى الراهن ، وهو بطبيعة الحال مرتبط بالمسألة الأولى ..

كيف يستسلم الجميع لتجويع شعب بكامله ثمانى سنوات نتيجة تهور قيادته السياسية ؟ وشعب من ؟ شعب العراق العظيم ، مبدع الحضارتين البابلية والآشورية .. مهد الدولة العباسية التى تمثل أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية ! إنها ليست عملية إذلال بشعة لشعب عربى بعينه وإنما هى عملية تركيع وإذلال لكل الأمة العربية " اضرب المربوط يخاف السايب " .

وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا .. ويصل الأمر بأمين عام جامعة الدول العربية أن يطلب إذنا بزيارة ليبيا من الولايات المتحدة الأمريكية المتسترة فى لجنة الأمم المتحدة ، فترفض و يستسلم هو، فيسافر برا ، فى الوقت الذى سافر إليها رؤساء أفارقة بكل شجاعة ، إذ ماذا سيفعلون لأمين عام الجامعة لو كان قد سافر بالفعل بطائرة ؟

وكيف نكتفى بحالة " الفرجة " على ما يحدث فى السودان من حرب مستمرة تقطع أوصاله وتشرد آلافا من أبنائه وتستنزف طاقاته ، ليستمر متخلفا فقيرا ؟

إن حالة التخاذل المحزنة هذه تضغط على كثيرين إلى الدرجة التى بدأ البعض يشعر عندها بخجله أن يكون عربيا !!وهنا يحدث الخلط ، فالمخزى هو تلك النظم الحاكمة التى هى أقرب إلى أن تكون " وكالات سياسية " لا أكثر ولا أقل ٠٠ وليست العروبة بأى حال من الأحوال ٠

لقد كنا نقول للاعروبيين فى مصر ، إن العروبة ليست قميصا ترتديه مصر فى بعض المناسبات ، وتخلعه فى أخرى ، وإنما هى نسيج حياتنا وهوية جماعتنا ٠ واليوم نعود لنكرر نفس المقولة لكل من يشعرون بحالة الانكسار ويتصورون أن التخلى عن العروبة ممكن ، وبالتالى يتحررون من الشعور بالمذلة ! إننا لا نناقش هنا ( الأسباب) التى جعلت هؤلاء وهؤلاء يقولون بهذه الدعوة الانفصالية ، فنحن نفهم جيدا هذه الأسباب ونقدرها ، ولكننا نحذر ونرجو عدم الخلط بين " عروبة " و" عرب " ٠٠ العروبة مبدأ وهوية لابد أن نعمل به وله ٠٠ حتى ولو كان هناك عرب ينحرفون ويخطئون ويتحاربون ، ويطأطئون الرأس ، مذلة وانكسار ٠

# تحيا القوة !!

من الكلمات المشهورة للزعيم سعد زغلول : " الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحكومة " ، ولو فتش أبسط الملاحظين السياسيين علما فيما حوله ، لوجد العكس ، أى عكس مقولة سعد زغلول تماما ، على الساحتين العالمية والعربية :

فعلى الساحة العالمية ، سيجد أن القوة هى التى فوق الحق !

وعلى الساحة العربية ، سوف يجد الحكومة فوق الأمة !

ولأن الأمة تحت أقدام الحكومة ، فإنى أعتذر للقارىء عن عدم مناقشة هذه المقولة ، خوفا ، وإيثارا للسلامة ، وليقتنع منى بمناقشة المقولة الأولى ، إذ لن يشكل كاتب هذه السطور خطرا عللى القوى الكبرى الميهمنة على العالم ، ومن ثم فسوف يتركوننا ( نفضفض ) عن أنفسنا !!

فلقد كثرت الشكوى بين الأفراد والحكومات فى عالمنا السعيد النامى ، بأن النظام العالمى الجديد يكيل بمكيالين ، فامتلاك دولة لا ترضى عنها الولايات المتحدة الأمريكية قدرة نووية أمر يستوجب العقاب الجماعى الدولى ، لكن امتلا دولة غربية لهذه القدرة ، أمر مباح ومشروع ٠ وذبح آلاف من مسلمى البوسنة ، أمر معقد يستوجب التفكير والتشاور عدة سنوات ، لكن ( الزعم ) بأن ليبيا تسببت فى إسقاط طائرة أمريكية عليها ركاب ، أمر يستوجب محاصرة الشعب الليبى كله وتجويعه عدة سنوات ، علما بأن الولايات المتحدة نفسها سبق لها أن أسقطت طائرة ركاب إيرانية عام ٨٨، عليها أكثر ما مائتى فرد ، ولم يفكر أحد أبدا بأن هذه القوة العظمى قد أخطأت ، وبالتالى تستحق العقاب !

أما إسرائيل ، فحدث عنها ولا حرج ٠ فقتلها العشرات من الفلسطينيين ، وتشريد المئات ، واستيلائها على الأراضى العربية ، وامتلاك عشرات القنابل الذرية ، فكل هذا يتأتى تحت بند ( مشروعية الدفاع عن النفس ) ، أما لو فعلت دولة أو جماعة عربية واحا على ألف من هذا ، فلا بد من الكم عليها بأنها " إرهابية " !

وإذا كان قد شاع على ألسنتنا وأقلامنا هذا ، فلابد من إعادة النظر فى منهج تفكيرنا لنقر بأن هذه التصرفات ( منطقية ) و(طبيعية ) ، ذلك أننا نمارس نفس ازدواجية المعايير بيننا داخل منظومة الدول العربية ، كما نمارسه داخل الدولة الواحدة ، بل وعلى المستوى الفردى ، ومن هنا جاء قول القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين *السخط تبدى المساوئا*

وإلى هذا وذاك ذهب المثل الشعبى القائل :

( حبيبك يبلع لك الظلط وعدوك يعد لك الغلط ) ٠

قيل هذا وذاك قبل ظهور النظام العالمى الجديد ، وقبل ظهور الولايات المتحدة ٠٠٠

إنه صراع القوة ٠٠٠

انظر إلى أى لجنة ، أو أى إدارة ، ، أو أى قسم ، عندما يعقد اجتماعا ، فسوف تجد ( الرئيس ) – غالبا – هو صاحب ( الرأى الوجيه ) و ( المنطق المعقول ) و ( الحكمة الثاقبة ) ٠

ولهذا أيضا سخرت الحكمة الشعبية من هذا المنطق ، معبرة عن ذلك بقولها :

لما كلب الأمير مات ، راحت الناس تعزيه ، ولما الأمير مات ، ملقاش حد يعزى فيه

٠ فى الحالة الأولى كانت " السلطة " قائمة ، إذا ، فلابد من الهرولة حتى ولو كان الميت ( كلبا ) ، أما فى الحالة الثانية ، فقد اختفت "السلطة " ، إذا فلا تعزية ، حتى ولو كان الميت ( أميرا) ٠

وانظر إلى ( جيب ) الإنسان ، فسوف تجد أن ما معه من ( الحق) إنما يتناسب مع مقدار رصيده المالى والعقارى ٠

وهكذا يحدد كل من ( الكرسى ) و ( الجيب ) درجة الحق والصدق

لقد تشعبت اتجاهات المفكرين والفلاسفة إلى ثلاث ، فى بحثهم عن المعيار الذى يجب أن يتوافر فى الفكر حتى يكون ( حقا) ، فذهب ( العقليون) إلى أن المعيار هو فى ( الاتساق المنطقى ) بين أجزاء الفكر ، واتساق النتائج مع المقدمات ٠ وذهب ( التجريبيون ) إلى أنه : مدى التطابق بين المقولات النظرية ، وبين ما تخبر عنه من معطيات الواقع ٠ وذهب ( البراجماتيون ) إلى أنه فى ( مدى الفائدة ) و ( النفع )

الذى تحمله الفكرة .  وفى راينا أنه لابد من إضافة معيار رابع ، هو : مقدار ما تستند إليه الفكرة من ( قوة ) .. لا نقول قوة منطق وإقناع ، وإنما قوة عسكرية ، أو مالية ، أو سلطوية ..

بطبيعة الحال ، أتوقع استنكارا من كثيرين ، مما يجعلنى أنبه إلى أننا – جميعا – قد نتفق على أن هذا الذى قلت " لا ينبغى أن يكون " ، ولكنى أصف واقعا حادثا ، لعلنا نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب والعويل والنواح من ظلم " النظام العالمى الجديد" ، ونوقن بأن هذا هو منطق الحياة طوال قرون عدة ، وأن الأسى والأسف والبكاء والشكوى ، لن تكسب الحق شرعيته ، ولن تخلع عن الباطل زيفه ، ومن ثم ، ومن ثم ، فإن الحل الحتمى والوحيد ، هو أن نكون أقوياء ... وتحت بند ( القوة ) هناك عشرات التفاصيل : امتلاك المعرفة ، والقوة المسلحة ، الديموقراطية ، التنمية ، الذات الثقافية .. وهكذا .

ولأن منطق الحياة نفسه يؤكد أن من يعطى ، يملك أن يمنع ويسحب ، فإن انتظار أن يمنحنا الغير مظاهر القوة هذه وغيرها ، لن يغير من واقع الحال المزرى الذى نعيش فيه ، وإنما يغيره ، أن يجىء امتلاك هذه القوة بجهد ذاتى ، مع التسليم بأن هذا الطريق مفروش بالألغام والأشواك ...

ومن هنا ، فإن ما يروج الآن على مستويات شتى من أحاديث حول ما يسمى " بالعولمة " و" الكوكبة" يصبح " تسويقا " مفضوحا ، لصورة جديدة من صور الهيمنة الباغية ، تريد أن تتخفى وراء أستار بعض المقولات المعاصرة ، الناتجة عما يعيشه العالم المعصر من حالة ( سيولة ) فى المعلومات ، ذلك أن " العولمة " و" الكوكبة" بين دول بلغت درجة مخيفة من القوة العسكرية والاقتصادية ، ودول أخرى ما زالت تعيش حالة تخلف مزر ، إنما هى أشبه بتحالف بين مجموعة من الأسود والنمور وبين مجموعة من الشياه .

قال صاحبى عندما قرأ مسودة هذا المقال : أنت تحلم .

قلت : أرجوك ، لا تحرمنى من حق الحلم ... فمن يدرى ؟

# وهم السلام بين " المواجع " و" الفواجع " !

لم يكن فى النية أبدا المشاركة فى الحديث عن تلك المهزلة التى ما زالت فصولها تعرض على مسرح الشرق الأوسط باسم ما يسمى " بالسلام" منذ عام ١٩٩٢ على مسرح مدريد ، فقد كان التوقيت يعلن بذاته ، عن النتيجة ، فماذا يمكن أن تأخذ أمة سلمت مسئولية إدارة أزماتها إلى آكليها ومصاصى دمائها كما ظهر على مسرح أحداث حرب الخليج الثانية المشهورة باسم " غزو الكويت " ؟

لكن يبدو أنه لا مهرب من المشاركة وإن جاءت متأخرة ، وأنه ، بالفعل ، قد كتب علينا القتال وهو كره لنا ٠٠٠٠

فمنذ فترة ، وأنا أشعر بأنه قد أصبح مطلوب منا أن نعيش بلبلة مفاهيمية ، تجعل الأبيض أسودا والحرام حلالا ، وتؤكد أن الأسود إنما هو أبيض ، وأن ما نتصوره حلالا إنما هو الحرام بعينه ، فإذا ما رفع مثلى يده احتجاجا وصوته معترضا ، سارع متطوعون يرموننا بالجمود والتخلف وأننا - فيما يبدو - قد تيبسنا ، عجزا عن مسايرة ومعايشة " النظام العالمى الجديد " ، الأمر الذى جعل مثلى - أيضا - لا يجد ما يدعو به الله فى صلاته إلا أن يرسل طيرا أبابيل ترمى هذا النظام العالمى الجديد بحجارة من سجيل لتجعله كعصف مأكول !

لقد هربت منذ فترة ، من الوقوع فى فخ قنواتنا التلفازية التسعة ، بعد أن اقتنعت بأنها تبرهن على صحة نظرية الاستنساخ قبل ظهور النعجة الشهيرة ، فأسرعت إلى ( الطبق الفضائى ) ، فإذا بى أضع نفسى فى ( جب ) مأساة شبه يومية تبثها شاشات التلفاز إعلانا عن ممارسات يومية تنضح بالعدوانية والعنف والإرهاب والعنصرية ، تصفع أعيننا وتوجب الاستنفار الفكرى ، كشفا عن حقائق كانت قد بدأت تغيب عن أنظارنا فى السنوات الأخيرة ، تسير كلها فى اتجاه واحد هو أننا لسنا أبدا أمام جار ( صديق) ، وإنما نحن بالفعل أمام ( قاطع طريق ) متربص ، لا يقنع أبدا بما أكل من لحم أمتنا ، وإنما يريد أن يلتهم مستقبلنا كذلك ٠

ولا شىء يصيبنى بالغثيان مثل تلك الأنباء التى أصبحت مقررا يوميا ، عبر شهور طويلة ، عما يسمى "بإنقاذ عملية السلام " ٠

وأشد ما يبعث على الغثيان أكثر هو استمرار المشاركة الفلسطينية فى هذا العبث السياسى ، والحج إلى واشنطن من حين إلى آخر ، أملا فى أن يساعد الذئب الحمل!!

لقد فزع العرب عندما جاء نتنياهو إلى الحكم ، ثم تنادت أصوات تطالب بإعطائه فرصة للحكم عليه ، وكلما مرت الشهور ، تأكدنا جميعا أن الإسرائيليين يزدادون تعنتا لسبب بسيط ، فما الذى يجبرهم على التنازل للسلطة الفلسطينية عن شىء ما ؟

نفس السلطة الفلسطينية ، فى حيرة من أمرها ، فقد تنازلت عن الكثير حتى لم يعد لديها ما تتنازل عنه إلا أن تعلن بصراحة عن الهدف من العملية كلها ، وهو أن تتحول السلطة إلى ذراع للأمن الإسرائيلى لتغتال ما بقى من روح المقاومة لدى حماس والجهاد ٠

هل أفتئت على بنى اسرائيل فيما أقول ؟ افتح العهد القديم ، سفر اشعيا ، الإصحاح الأول ، فسوف تقرأ :

" اسمعى أيتها السموات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم ، ربيت بنين ونشأتهم ، أما هم فعصوا على ٠٠ شعب لا يفهم ٠٠٠ استهانوا بقدوس اسرائيل وارتدوا إلى وراء ٠٠٠ لماذا لى كثرة ذبائحكم ؟ ٠٠رؤوس شهوركم وأعيادكم تبغضها نفسى ٠٠٠ أيديكم ملآنة دما ٠٠"

وبدون استطرادات أخرى ، فلتسمحوا لى بتسجيل الملاحظات التالية :

١ – الحوار مع الآخر أمر لا ينبغى أن يجادل فى أهميته أحد ، فالمؤمن بفكرة ، عندما يقوم إيمانه بهذه الفكرة على أسس وطيدة من أدلة الواقع وبراهين المنطق واستنباطات العقل ، لا يخشى الحوار ، فهو إن حاور الآخر ، فلربما قربه إليه ، فإن لم يحدث هذا ، ظل على إيمانه ٠ أما الخوف من التأثر بالآخر ، فإنما هو دليل ضعف منطقى ومظهر تشوش فكرى ٠

لكن ( التفاوض أمر مختلف ٠٠٠ التفاوض يكون بين أطراف تملك تغيير الواقع ، بناء على ما تصل إليه من نتائج المفاوضات ، ومن هنا كان ( الحوار ) مجالا للمثقفين ، أما التفاوض ، فهو مجال السياسيين و( ملعبهم) الذى يجيدون اللعب على

أرضه ٠ ومن بدهيات التفاوض التى يعلمنا إياها خبراء السياسة وعلماؤها أن المفاوضات التى تجرى على الموائد إنما تعكس حقائق وموازين القوة على الأرض ٠ فإذا ألقينا نظرة سريعة على هذا الجانب ، فسوف نجد أنفسنا للأسف الشديد فاقدين للكثير من الأوراق التى يمكن اللعب بها ، وهو الأمر العكسى بالنسبة للطرف الآخر ، فماذا إذن يمكن أن تكون نتيجة التفاوض إلا أن يملى علينا الآخر ما يريد ؟

٢ – وهذا ينقلنا إلى الملاحظة الثانية ، فالبعض يسارع إلى الرد علينا بقوله : إذن تريد لنا أن نحارب ؟ الحق أن هذه ليست النتيجة المنطقية للمقدمة السابقة ، فرفض التفاوض لا يعنى بالضرورة أن يكون البديل هو الحرب ، لأن هذا الرفض ، إذا كان مبنيا على الإقرار بافتقاد شروط القوة ، فكيف يؤدى إذن إلى التفكير فى الحرب ؟ إن النتيجة المنطقية حقا للمقدمة السابقة ، هى ضرورة استنفار القوى المجتمعية جميعها للأخذ بأسباب القوة ، وعملية مثل هذه لا تتم فى أجواء حرب ٠

٣ – إن السلام هنا يصبح ضرورة ٠ لكن القول بالسلام مع الآخر ، لا يستلزم بالضرورة التعامل متعدد المجالات فيما يسمى بمصطلح العصر ( التطبيع ) ، لأن المعاملات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، إنما هى صورة من صور التفاوض التطبيقى الذى من شأنه أن يكسب الآخر مزيدا من القوة ٠ إن هناك عددا من الدول ليست بيننا وبينها حالة حرب ، ومع ذلك فقد لا تكون بيننا وبينها معاملات اقتصادية وثقافية أبدا ، وإن وجدت فهى طفيفة للغاية ٠

٤ – إن الآخر الإسرائيلى يتحرك ويحيا " بالتاريخ " و" بالدين " ، فما حدث منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد عند نشأة إبراهيم عليه السلام ، يعيش حيا فى الحياة الإسرائيلية المعاصرة ، وبالتالى لا مجال لديهم لمقولة " الزمن الذى يتغير " ، ومن ثم قابلية تغيير الأحكام والمواقف ٠ وفى المقابل فنحن أساتذة مقولة " اللى فات مات " و " عفا الله عما سلف " ، وآخر مصائبنا ألا نعلم تلاميذنا فى الثانوية تاريخ بلادهم إلزاما !!

وهم يسمحون بأحزاب دينية وتشارك فى الحكم ، بل إن اسم الدولة نفسه له دواعيه الدينية ، ومعظم القضايا المثارة يتعاملون معها من منطلقهم الدينى ، ولكننا نفعل العكس ، لا معهم فقط وإنما مع أنفسنا ، فكيف إذن يستقيم أن تتعامل مع الآخر

وأنت ترمى وراء ظهرك متغيرين أساسيين يتعامل الآخر معك وفقا لهما : التاريخ والدين ؟

٥ – كيف يمكن لى أن آمن الآخر الاسرائيلى الذى يعيش تاريخه ودينه ليل نهار وأنا أقرأ فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين فى التوراة قوله على لسان ( الرب ) :

" فى ذلك اليوم قطع الرب مع ( إبراهيم ) ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ٠٠٠"

لقد أصروا على أن تحذف منظمة التحرير الفلسطينية من ميثاقها ما قيل إنه يعنى العمل على القضاء على إسرائيل ، فماذا نقول أمام هذا النص المقدس الذى أوردناه ، والذى لا يملك أحد تغييره ، ولا حتى الوعد بذلك ، وهو يعنى بصريح العبارة أن جارنا غير العزيز مطالب بألا يكتفى بالأرض التى هو عليها الآن ؟ لا ينبغى أن يقول أحد أن ذلك ( تراث ) مضى فالتراث اليهودى ، كما كررنا ، ليس ما ضيا بقدر ما هو خريطة للمستقبل !

٦ – وحين أشاهد ما أشاهد من عشرات الصور لجرارات تزيل بيوتا لفلسطينيين ، منذ اتفاق أوسلو المشأوم ، دون توقف ، وحين أشاهد العنف المستمر والعدوانية المستعرة ، والعنصرية البغيضة ، كيف لى بعد ذلك أن أثق وأصدق هذا الآخر فى صداقة مزعومة ورغبة فى الشراكة والتعاون ؟ لماذا أطالب أنا برفع شعار ( عفا الله عما سلف ) ويظل الآخر مرددا نفس المقولات التى بدأت معه منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى الآن ؟

لعل القارىء قد فهم الآن ما قدمت به هذا المقال من تردد فى الحديث عن ( الهم الفلسطينى) و( الغم الإسرائيلى ) ، ومع ذلك فها أنذا قد اضطررت إليه ، فمعذرة أيها القارىء إذ استحضرت لك "مواجع " الماضى وشددت انتباهك إلى " فواجع" الحاضر ، حتى لا نحصر تفكيرنا فى " ذرائع" يمكن أن تغرقنا فى آمال متوهمة لمستقبل لا نملك خريطة واضحة للوصول إليه !!

## يا دكتور عاطف ..

## إذا كان هذا هو القط فأين اللحم ؟!

زعموا أن " جحا " عاد يوما من عمله بعد غروب الشمس ، وأراد أن يكافىء نفسه بما يخفف عنه ما بذله فى العمل من جهد ، فاشترى وهو عائد إلى منزله كيلووين من اللحم ، ولما دخل إلى منزله ناولهما لزوجته طالبا إعدادهما شويا للعشاء ، وأثناء هذه الفترة فهو مضطر إلى أن يخرج مرة أخرى لقضاء بعض المصالح ..

وبعد أن خرج جحا من منزله ، إذا بنا نجد عشيقا لزوجته يسارع بالدخول ، ولم تجد الزوجة غير الأمينة ما ترحب به بهذا العشيق إلا أن تقدم له اللحم المشوى ، ولديها من القدرة على الخداع ما يمكنها من التصرف مع زوجها عند عودته .

ولما عاد الزوج المخدوع المسكين ، شمر عن ساعديه ، وسن أسنانه ، وبدأت أمعاؤه ومعدته ولعابه فى الاستعداد لاستقبال العشاء اللذيذ ، لكنه فوجىء بامرأته تقدم له شيئا آخر ، خبزا وجبنا ، فكان أن سألها بطبيعة : وأين اللحم يا امرأة ؟ فأجابت : أكله القط الذى بالمنزل !! وهنا عمد جحا إلى القط وقام بوزنه فوجده يقرب من كيلووين ، وهنا سألها مستنكرا ثائرا : إذا كان هذا هو القط ، فأين اللحم ؟ وإذا كان هذا هو اللحم ، فأين القط ؟! وسارت هذه الحكاية مثلا !

لقد تذكرتها عندما قرأت تصريحا للدكتور عاطف عبيد بأن الدولة لن تتراجع عن مجانية التعليم !! أقول الحق : لقد ضحكت عندما سمعت هذا ، ولكنه مما يدخل فى باب : إنه ضحك كالبكا ! فإذا كانت هذه هى مجانية التعليم ، فأين إذن تذهب ألوف الجنيهات التى يدفعها أولياء الأمور تعلميا لأولادهم ؟ وإذا كانت هذه هى ألوف الجنيهات المدفوعة تكلفة لتعليم الأبناء ، فأين هى مجانية التعليم ؟

كان هذا التصريح قد نشر منذ عدة أسابيع ولم أستطع أن أعلق عليه فى حينه ، فقد داهمتنا أحداث أخرى ملحة كان لابد من التعليق عليها ، وعلى العموم فما حمله هذا التصريح ، هو مقولة تتكرر كثيرا فى التصريحات الحكومية ، وفى البيانات الوزارية ، رغم علم الجميع : المتحدثين وسامعيهم ، الذين يكتبون ومن يقرأون لهم ، بأن مجانية التعليم قد أصبحت وهما ، وجزءا من تاريخ مضت أيامه !

أعلم أننى أكاد أسبح ضد التيار ، فقد تكاثر أعداء مجانية التعليم ، بل وكثيرا ما يردد البعض مقولة غير صحيحة ، بأن ما حدث للتعليم من مشكلات وتدهور إنما بسبب مجانية

التعليم ، ومع ذلك فليسمح لى القارىء بأن أستمر فى إعلان إيمانى بضرورة هذه المجانية ، وإن كان الأمر يتطلب ضوابط وشروطا ليس الآن محل مناقشتها ٠

وتتعدد الآن السبل ، وتتنوع المهام التى تستنزف من جيب الأسرة المصرية مبالغ ضخمة تنوء بها كواهلها وخاصة إذا علمنا أن ما لا يقل عن ٤٠٪ من مجمل السكان ما زالوا تخت خط الفقر ، فمن ملابس ، وأدوات تعليم ، وكتب دراسية ، ورسوم قيد ، ومواصلات ، وأنشطة ، تتزايد تكلفتها عاما بعد عاما بسرعة تفوق سرعة تزايد المرتبات ، لكننا نتوقف عند أضخم السبل ألا وهى الدروس الخصوصية التى قدرت جهات رسمية بأن جملة ما تتحمله الأسرة المصرية منها قد تجاوز العشرة مليارات من الجنيهات !

أعرف أسرة مصرية كانت قد هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى ممن هم على قدر جيد من التدين والولاء الوطنى ، فلما كبر أبناؤها ، خشى الأبوان عليهم مما هو شائع بين المراهقين الأمريكيين ، مما يصعب حصره ، فاختارت الزوجة أن تعود بالأولاد إلى مصر ، فإذا ما استطاعوا الاستقرار ، لحقهم الأب فى العام التالى ٠

وألحقت الأم الأولاد بالمدارس وكانوا ثلاثة : بنتين وصبى ٠ وبعد فترة قصيرة فوجئت الأم بأن الأبناء جميعا يطلبون دروسا خصوصية ، وهم لم يكونوا بحاجة إليها فى المدارس الأمريكية ، ولم يكن الأمر بسبب ضعف فى اللغة العربية ، فقد كان الأبوان حريصين على ربطهم بها منذ نعومة أظفارهم ٠ كذلك لم يكن الأمر أمر ضعف قدرة على التحصيل ، فما كان يحصلونه من تعليم فى المدارس الأمريكية كان ثريا ومرتفعا ، وكانت قدراتهم ، فضلا عن ذلك ، مرتفعة ، فماذ يمكن إذن أن يكون السبب ؟

ليس هنا أيضا مكان مناقشة القضية تفصيلا ، وإنما وجدت الأم أن هناك إلحاحا من بعض المدرسين ، إلحاحا قد يصل فى بعض الأحيان إلى تهديد خفى مبطن بتحذير من مخافة الرسوب ، كما لاحظت أن جهدا كافيا لا يبذل من جانبمعظم المعلمين فى تعليم الأولاد ٠ وأهم من هذا وذاك ، أن ما يوجه للأولاد من أسئلة وامتحانات لم يتعودوا عليها ، فهى ليست لقياس الفهم وسرعة البديهة والثقافة والقدرة على التحليل والاستنباط والربط والمقارنة ، وإنما هى موجهة لقياس القدرة على الحفظ والاستظهار، وهذه القدرة بالذات هم ضعفاء فيها ، ولم يسع التعليم السابق بأمريكا لأن ينميها لديهم ، مما حتم أن يتلقوا دروسا خصوصية ، على الرغم من تميزهم عقليا ونفسيا وتعلما !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ٠٠ فقد تباينت مواعيد المدرسين الخصوصيين ، واختلفت أماكنهم وتباعدت ، فكان على الأم ، وهى الأستاذة الجامعية ، أن تذهب بواحد ، مثلا إلى مكان ، وتظل جالسة فى سيارتها فى الشارع إلى أن ينتهى لتسرع به إلى البيت ، ثم تذهب

بالثانى ويحدث نفس الشىء ، وربما تداخلت المواعيد وتضاربت ، ولا تنتهى الأم من هذه الدوامة إلا عند منتصف الليل على وجه التقريب !

كانت الأم تجيئنا أحيانا فى يوم عطلة شاكية تكاد تبكى ، لا من ألوف الجنيهات التى تدفعها ، ولكنها كانت تبكى حال هذا الوطن الذى تعشقه وجاءت فى شوق إلى أن تعيش بأولادها على ترابه وفى أحضانه ، وكان الموقف مؤسفا حقا أن تواجهنى مثل هذه المشكلة فلا أستطيع لها حلا ، وأنا فى نظرها أستاذ تربية ، وكان الأمر يحتاج منى أحيانا أن أشرح لها أنها أكبر من قدرة أساتذة التربية مجتمعين ، بل ربما أكبر من القيادة التعليمية نفسها ... إنها ، بكل الأسف وبكل الأسى مشكلة مصر بكافة أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

إن كثيرين عندما يرون مثلى ينتهى من التحليل إلى هذه النتيجة يقولون أننى " أضع العقدة فى المنشار " ، وأصل بالحديث إلى " حيطة سد " ، لكن ، ماذا أفعل وهذه هى الحقيقة المرة والمؤلمة ؟ وها نحن ، ومنذ سنوات نسمع ونشاهد ونرى جهدا تلو الجهد على طريق تطوير التعليم ، فهل حصدنا ثمارا فعلية ؟ لو سألنا أى مواطن عادى نصادفه فى الشارع فسوف يجيب بالنفى ، ومن هنا فإن الحلول الجزئية مضيعة للوقت وللمال وللجهد ، ولابد من الحلول المجتمعية المنهجية العلمية الجذرية التى تطول أساسيات فى بنية النظام القائم ، مهما كلفنا هذا من وقت ومن جهد ومن مال !

بقى أن تعرف أن الأم اضطرت إلى العودة بأبنائها مرة أخرى إلى أمريكا وقلبها يقطر ألما ، وبذلك نفقد كفاءات بشرية - تخصم من ثروتنا البشرية لتضاف إلى ثروة الآخرين ... الأعداء !!

# الفقر خطر يهدد التنمية البشرية

مع بداية تسعينات القرن الحالى ، حيث بدأ العالم يلتقط أنفاسه بعد سنوات طويلة أمضاها فى حرب باردة ، تصاعدت موجة من الآمال ، تطلعت البشرية فى ظلها إلى عملية تحول جذرى فى نهج التعامل مع الموارد الطبيعية والبشرية ، فبدلا من تسخيرها لتغذية آلة الحرب الجهنمية أصبح من الضرورى تسخيرها من أجل التنمية .

وإ ذا كان التركيز فى التنمية من قبل قد اتجه إلى التنمية الإقتصادية ، ثم تعالت الأصوات منادية بضرورة أن ترافق التنمية الاقتصادية تنمية اجتماعية ، فإن الفكر التنموى قد أدرك بعد مسيرة طويلة من التجارب ، أن هذا الجمع بين نوعين من التنمية لم يكن كافيا لرأب الصدع فى التنمية ، وأن الطريق الرشيد إنما هو فى تنمية الإنسان نفسه ، فيما أصبح معروفا فى الأدبيات المعاصرة " بالتنمية البشرية " ، على أساس أن الإنسان هو وسيلة التنمية وغايتها فى آن واحد .

ومن هنا برز الاتجاه قويا إلى شن حرب شاملة على " الفقر البشرى " باعتباره الخطر الحقيقى الذى يهدد التنمية البشرية ، ونحن نطرق أبواب القرن الحادى والعشرين ، وتبدى هذا فى مناقشات وتوجهات وتوصيات العديد من مؤتمرات واجتماعات القمة العالمية ، من حيث الحاجة الملحة للقضاء على الفقر . ومن أبرز المؤتمرات التى ركزت على هذا مؤتمر القمة العالمى للتنمية الاجتماعية الذى عقد فى كوبنهاجن فى عام ١٩٩٥ بحضور ١٨٥ حكومة و ١١٧ من رؤساء الدول أو الحكومات فى مشاركة لم يسبق لها مثيل .

ولعل هذا ما جعلنا نتفهم لماذا أدار تقرير برنامج الأمم المتحدة الإنمائى لعام ١٩٩٧ عن ( التنمية البشرية ) حديثه حول قضية محاربة الفقر من أجل التنمية البشرية ، فأهم رسالة يطرحها هذا التقرير هى أن الفقر لم يعد شرا لابد منه ، فالعالم لديه من الموارد المادية والطبيعية ، ومن الدراية الفنية ومن البشر ما يمكنه من أن يحقق عالما خاليا من الفقر ، وأن يجعل ذلك حقيقة واقعة فى أقل من جيل واحد .

بيد أن هذه الآمال المتصاعدة والطموحات المتفائلة ينبغى ألا تصرف أنظارنا عن بعض الحقائق المؤلمة فى واقع عالمنا المعاصر ، فصحيح أن عددا من البلدان قد استطاع بالفعل أن يشهد انخفاضا حادا فى معدلات الفقر ، لكن ربع سكان لا يزال يعيش فى حالة من الفقر الشديد . فإذا عرفنا أن الاقتصاد العالمى يبلغ حجمه ٢٥ ترليون دولار ، لأدركنا مقدار الظلم الفاحش الذى يعيشه العالم المعاصر بفضل ما يعيشه من تفاوتات مخزية ، وأوجه فشل لا تغتفر فى السياسات الوطنية والدولية .

ويرصد تقرير التنمية البشرية المشار إليه آنفا بعض الأرقام المجردة التى تلخص كشف حساب الفقر قرب نهاية القرن العشرين :

* إذا كان هناك أكثر من ربع سكان العالم النامى لا يزالون فى حالة من الفقر وفقا لمقياس الرقم القياسى للفقر البشرى المقدم فى التقرير ، فإن هناك نحو الثلث – ١,٣ بليون نسمة – يعيشون على دخول تقل عن دولار واحد يوميا .

* يوجد أشد الناس تأثرا بالفقر البشرى فى جنوب آسيا . وتضم هذه المنطقة أكبر عدد من السكان ممن يعانون من فقر الدخل : ٥١٥ مليونا ، وتضم منطقة جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا والمحيط الهادى مجتمعة ، أكثر من ٩٥٠ مليون نسمة ، من بين مجموع سكانها البالغ ١,٣ بليون نسمة ، يعيشون فى حالة من فقر الدخل .

* وفى إفريقيا جنوب الصحراء توجد أعلى نسبة من السكان الذين يعانون من الفقر البشرى ، وأسرع معدل لنمو الفقر البشرى . وهناك نحو ٢٢٠ مليون نسمة فى المنطقة يعانون من فقر الدخل . والواقع أن سكان إفريقيا جنوب الصحراء وأقل البلدان نموا الأخرى منكوبون بالفقر –ويقدر أنه بحلول عام ٢٠٠٠سيكون نصف سكان إفريقيا جنوب الصحراء ممن يعانون من فقر الدخل .

* وفى أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبى يعد فقر الدخل أكثر انتشارا من الفقر البشرى ، حيث يؤثر على ١١٠ ملايين الناس – ولا يزال آخذا فى الازدياد .

* وشهدت أوربا الشرقية وبلدان رابطة الدول المستقلة أكبر تدهور خلال العقد الماضى . وتفشى فقر الدخل من جزء صغير من سكانها ليبلغ نحو الثلث – حيث يوجد ١٢٠ مليون نسمة يعيشون دون خط الفقر المحدد بمبلغ ٤ دولارات يوميا .

* وفى البلدان الصناعية ، يعيش أكثر من ١٠٠ مليون نسمة دون خط فقر الدخل المحدد على أساس متوسط الدخل الفردى ، وهناك سبعة وثلاثون مليونا من العاطلين .

* وفى داخل هذه الجماعات العريضة ، يعانى بعض الناس أكثر مما يعانى غيرهم - لا سيما الأطفال والنساء والمسنون .

والأطفال أشد تأثرا بصفة خاصة - حيث يصابون بسوء التغذية والمرض ، فى الوقت الذى تتشكل فيه عقولهم وأبدانهم . وهناك نحو ١٦٠ مليون طفل ممن يعانون من سوء التغذية بدرجات تتراوح بين المعتدلة والحادة . وهناك نحو ١١٠ ملايين طفل غير مقيدين بالمدارس .

والنساء يعانين من الفقر بدرجة غير متناسبة - وفى أحيان كثيرة يجردن من قدرتهن ويحملن بأعباء الإنجاب والولادة ورعاية الأطفال وغير ذلك من المسئوليات المنزلية والمجتمعية . ويؤدى افتقارهن إلى فرص الحصول على الأراضى والائتمانات وفرص العمل الجيد إلى إضعاف قدرتهن على تجنب الفقر هن وأسرهن ، أو التحرر من ربقته .

أما المسنون ، الذين يشكلون فئة متزايدة فى جميع المناطق ، فإنهم غالبا ما يعيشون سنواتهم الأخيرة فى حالة من الفقر والإهمال .

وما أن تبدأ إمكانات إحراز التقدم فى التزايد أكثر من أى وقت مضى ، حتى تؤدى ضغوط عالمية جديدة إلى خلق المزيد من حالات الفقر ، أو التهديد بخلقها ، وتتمثل بعض مظاهر الخطر فيما يلى :

- تباطوء النمو الاقتصادى ، والركود ، بل والكساد فى نحو ١٠٠ من البلدان النامية والبلدان التى تمر بمرحلة انتقالية .

- استمرار المنازعات فى ٣٠ بلدا ، معظمها فى إفريقيا .

- بطء التقدم فى مجالات رئيسية مثل التغذية .

- ازدياد التهديدات التى تشكلها أمراض مثل الإصابة بفيروس نقص المناعة البشرية / الإيدز .

وقد أدى الاهتمام المستمر بتحديد الناس المتأثرين بالفقر إلى السعى حثيثا لمحاولة قياسه ، لكن الاندفاع على هذا الطريق قد حجب حقيقة هامة طالما غابت عن كثيرين ، ألا وهى أن الفقر أعقد من أن يكون له بعد واحد من أبعاد الحياة البشرية بحيث يسهل قياسه • وفى ظل النظرة الخاطئة ذات البعد الواحد أصبح من الأمور الشائعة بالنسبة لبلدان كثيرة أن تحدد خطا للفقر استنادا إلى مستوى الدخول أو مستوى الاستهلاك •

إن وجه الخطأ فى هذا البعد الواحد أنه لا يعطى إلا صورة جزئية للعديد من السبل التى يمكن أن تبتلى بها حياة البشر ، فقد يمكن لشخص ما أن يتمتع بصحة جيدة وأن يعيش عمرا طويلا ، لكنه أمى ، وبذلك يكون مقطوع الصلة عن التعليم وعن الاتصالات وعن التفاعل مع الآخرين • وربما يكون هناك شخص آخر غير أمى وعلى درجة كبيرة من التعليم لكنه معرض للموت المبكر لأسباب وبائية أو استعداد جسمانى • وربما يكون هناك شخص ثالث تمثله فتاة محرومة من المشاركة فى عملية اتخاذ القرارات الهامة التى تؤثر على حياتها ، فالحرمان الذى تمثله أى حالة من هذه الحالات لا يمكن قياسه تماما على أساس مستوى الدخل •

ومن هنا فقد ركز الرقم القياسى للفقر البشرى الذى عرضه تقرير التنمية البشرية على أوجه الحرمان فيما يتعلق بثلاثة عناصر أساسية للحياة البشرية تنعكس بالفعل فى دليل التنمية البشرية ، وهى : العمر الطويل ، والمعرفة ، ومستوى المعيشة اللائق •

ويتعلق النوع الأول من أنواع هذا الحرمان بالبقاء – وإمكانية التعرض للوفاة فى سن مبكرة نسبيا – وتمثله فى الرقم القياسى للفقر البشرى النسبة المئوية للأشخاص الذين يتوقع وفاتهم قبل سن ٤٠ •

ويتعلق البعد الثانى بالمعرفة – ومدى الاستبعاد عن عالم القراءة والاتصالات – ويقاس بالنسبة المئوية لعدم معرفة القراءة والكتابة بين البالغين •

ويتعلق الجانب الثالث بمستوى المعيشة اللائق ، ولا سيما توافر الموارد الاقتصادية عموما • ويمثل هذا الجانب عامل مركب من ثلاثة متغيرات هى النسبة المئوية للأشخاص الذين تتوافر لهم فرص الحصول على الخدمات الصحية ، والنسبة

المئوية للأشخاص ال١ين تتوافر لهم فرص الحصول على المياه المأمونة ، والنسبة المئوية للأطفال دون سن الخامسة الذين يعانون من سوء التغذية .

وفى ضوء هذا ربما يكون مفيدا أن نقف على الوضع الدولى المتعلق بمجالين أساسيين : الصحة ، والتعليم :

= فبالنسبة للصحة ، يموت نحو ١٧ مليون نسمة فى البلدان النامية كل عام من جراء الأمراض المعدية والطفيليات التى يمكن معالجتها كالإسهال والحصبة والملاريا والسل . وتستأثر البلدان النامية بنسبة ٩٠٪من بين المصابين بفيوس نقص المناعة البشرية / الإيدز فى جميع أنحاء العالم وعددهم ٢٣ مليون نسمة . وتستأثر إفريقيا جنوب الصحراء بنحو ثلثى جميع المصابين ، بما يقارب ٤١ مليون نسمة . أما جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا والمحيط الهادىء فيوجد بها نحو ٥,٢ مليون من المصابين بالمرض ، وتتزايد أعداد المصابين بمعدلات أسرع منها فى أى منطقة أخرى .

وتبدأ مظاهر الحرمان فى مجال الصحة بانعدام فرص الحصول على الرعاية الصحية والخدمات الأخرى . وقد طرأ تحسن كبير فى خدمات الرعاية الصحية خلال العقود الثلاثة الماضية ، ويتمتع الآن قرابة ٨٠٪ من سكان البلدان النامية بفرص الحصول على الخدمات الصحية – مع أن نسبة ٥٠٪ من السكان فى إفريقيا جنوب الصحراء لا يتمتعون بهذه الفرص ، وفى البلدان النامية يوجد طبيب واحد لكل ٦٠٠٠ شخص فى حين يوجد طبيب واحد لكل ٣٥٠ شخصا فى البلدان الصناعية . وفيما بين المناطق النامية يتراوح المعدل بين طبيب واحد لكل ١٨٠٠٠ نسمة فى إفريقيا جنوب الصحراء ،إلى قرابة طبيب واحد لكل ١٠٠٠ نسمة فى أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبى .

وفيما بين الفترتين ١٩٧٥ – ١٩٨٠ و ١٩٩٠ – ١٩٩٦ ، زادت حصة سكان البلدان النامية ممن يتمتعون بفرص الحصول على المياه المأمونة بأكثر من النصف ، أى من ٤١٪ إلى ٦٩٪ . وفى شرق آسيا يتمتع ٩٤٪ من السكان بفرص الحصول على المياه المأمونة ، أما النسبة فى إفريقيا جنوب الصحراء فهى ٤٢٪ . ومنذ العام ١٩٨٠ زاد نصيب الفرد من إنتاج الأغذية فى البلدان النامية بنسبة ٢٢ ٪ ،

وهى نسبة ساهم فى تراجعها انخفاض نسبة ٣٪ فى إفريقيا جنوب الصحراء ٠ وانخفضت حصة الأطفال ناقصى الوزن دون سن الخامسة فى البلدان النامية من ٤١٪ إلى ٢٢٪ فى التفرة ما بين ١٩٧٥ و ١٩٩٠ - ١٩٩٦ ٠ وفى البلدان العربية هناك نسبة ٥١٪ تقريبا من الأطفال دون سن الخامسة يعانون من نقص الوزن ٠ وفى جنوب آسيا ٥٠٪ ٠ ولكن تايلاند ، من خلال اتباع سياسات أحسن وضعها وتنفيذها ، تمكنت من التغلب بشكل كبير على سوء التغذية ٠ ويعانى أكثر من نصف النساء الحوامل فى البلدان النامية من فقر الدم ٠ ورغم أن النسبة تتراوح ما بين ٢٥٪ فى شرق آسيا و ٧٨٪ فى جنوب آسيا ، حيث لا يشرف الموظفون الصحيون المدربون إلا على ثلث حالات الولادة ٠

وهناك تراكمات صحية هائلة فى البلدان النامية ، ذلك أن قرابة ٨٠٠ مليون نسمة يفتقرون إلى فرص الحصول على الخدمات الصحية ، منهم ٢٦٤ مليونا فى جنوب آسيا و٢٩ مليونا فى الدول العربية ٠ وهناك قرابة ١,٢ بليون نسمة لا يتمتعون بفرص الحصول على المياه المأمونة ، منهم ٤٠٠ مليون تقريبا فى شرق آسيا مقابل ٥٤ مليونا فى الدول العربية ٠

وتواجه البلدان الصناعية أيضا مشكل صحية ، فهناك أكثر من ٣٠٠ شخص من بين كل ألف شخص يحتمل أن يموتوا بسبب أمراض القلب بعد سن الخامسة والستين ، بينما يحتمل لأكثر من ٢٠٠ شخص أن يموتوا بسبب السرطان ٠ وهناك قرابة ٢ مليون شخص مصابون بفيروس نقص المناعة البشرية ٠ ويمارس أكثر من ٤٠٪ من الذكور البالغين عادة التدخين التى هى السبب فى كثير من الأمراض التى تهدد حياة الإنسان ٠ كما أنه لا يوجد هناك دائما دعم للمرضى - ففى الولايات المتحدة هناك أكثر من ٤٧ مليون نسمة بدون تأمين صحى ٠

بل إن الوضع الصحى أسوأ حالا فى بلدان أوربا الشرقية ورابطة الدول المستقلة ، حيث ارتفع معدل الوفيات بين البالغين والرضع على السواء فى عدد من البلدان ٠ وبالإضافة إلى ذلك ، هناك ٢ مليون حالة وفاة منذ عام ١٩٨٩ يمكن أن تعزى إلى الزيادة الحادة فى أمراض القلب وفى أعمال العنف ٠ وهناك تزايد أيضا فى حالات سواء التغذية ٠ وفى أوكرانيا تدهور بشكل كبير متوسط المستوعب اليومى من

السعرات الحرارية من أكثر من ٣٥٠٠ سعر حرارى فى عام ١٩٨٩ إلى ٢٨٠٠ سعر حرارى فى عام ١٩٩٤ ٠ وكانت الوطأة أشد على الأطفال ٠ وزاد ظهور الحالات الجديدة من الدفتريا بين الأطفال الروس بما يعادل ٢٩ مرة – أى من ٥٠٠ حالة فى عام ١٩٨٩ إلى ١٥٠٠٠ حالة فى ١٩٩٣ ٠ ومعظم الناس غير مطمئنين على مستقبل رعايتهم الصحية – فالمرافق الصحية آخذة فى التدهور ، وهناك احتمال ضئيل لتجديد المعدات ٠

= أما بالنسبة للتعليم ، ففى الفترة ما بين ١٩٧٠ و ١٩٩٥ ، انخفضت نسبة الأمية بين البالغين فى البلدان النامية بنحو النصف – أى من ٥٧٪ إلى ٣٠ ٪ ٠ وشهدت الدول العربية أسرع نسبة انخفاض حيث انخفضت نسبة الأمية بين البالغين من ٧٠٪ فى عام ١٩٧٠ إلى ٤٣٪ فى عام ١٩٩٥ ، وسجلت منطقة جنوب آسيا أبطأ انخفاض – من ٦٨٪ إلى ٥٠٪ فى الفترة ما بين ١٩٧٠ و ١٩٩٥ ٠

ومع ذلك لا تزال هناك تراكمات هائلة ٠ ففى العالم النامى الآن هناك قرابة ٨٤٠ مليونا من البالغين ممن لا يعرفون القراءة والكتابة ، منهم ٥٣٨ مليونا من النساء ٠ ولا تزال نسبة الأمية بين الإناث تمثل نحو ٤٠٪ فى البلدان النامية ٠ ويوجد قرابة نصف الأميين البالغين فى العالم النامى فى جنوب آسيا – منهم ٣٨ مليونا فقط فى جنوب شرقى آسيا والمحيط الهادىء ٠

وفى البلدان النامية ، هناك نحو ١١٠ ملايين طفل ممن هم فى سن التعليم البتدائى و ٢٧٥ مليون طفل ممن هم فى سن التعليم الثانوى غير مقيدين بالمدارس ٠ وهناك تباينات إقليمية كبيرة ، فعلى المستوى الابتدائى يوجد نحو نصف الأطفال غير المقيدين بالمدارس ( ٥٠ مليونا ) فى جنوب آسيا ، ويوجد ١٠ ملايين فى الدول العربية ٠ ومع أن البلدان الصناعية بلغت معدل التعليم الشامل تقريبا وكادت تبلغ نسبة ١٠٠٪ فى معرفة القراءة والكتابة ، فإن أكثر من نسبة ١٥٪ من الأطفال فى سن الالتحاق بالمدارس الثانوية غير مقيدين بالمدارس ٠ وفى العالم الصناعى تبلغ نسبة القيد فى كليات العلوم الطبيعية والتطبيقية ٣٠٪ ، وهى أقل منها فى شرق آسيا حيث تبلغ ٤٧٪ ٠ وفى بلغاريا وروسيا انخفضت نسبة القيد فى المدارس الابتدائية والثانوية معا بما يتراوح ما بين ٤ و ٦٪ فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٥ ٠ وفى

ستة بلدان من بلدان أوربا الشرقية هناك أكثر من ٢٠٪ من الأطفال فى سن الالتحاق بالمدارس الثانوية غير مقيدين بالمدارس ٠

وفى البلدان النامية هناك ٢٠٠ جهاز راديو لكل ألف شخص ، وهو خمس النسبة فى البلدان الصناعية ، كما يوجد ١٤٠ جهاز تلفزيون لكل ألف شخص ، وهى نسبة تزيد قليلا على ربع النسبة فى البلدان الصناعية ٠ ويتراوح النطاق الإقليمى بين ٢٥ جهاز تلفزيون لكل ألف شخص فى إفريقيا جنوب الصحراء و ٢٠٠ جهاز فى أمريكا اللاتينية ٠ وفى البلدان الصناعية هناك ٣٥٠ خط هاتف أساسى لكل ألف شخص ، أى أكثر من أربعة أضعاف النسبة فى البلدان النامية ٠

إن الفقر ليس حالة ثابتة بحيث إذا قضينا عليها نستطيع أن ننام مطمئنين هادئى البال ، وإنما هو دائم التجدد ، وهذا يفرض على الجميع التزام اليقظة ، ومن هنا يقترح تقرير التنمية البشرية عددا من الأولويات بالنسبة للبلدان النامية تشير إليها الخطوط العامةالتالية التى يحتاج كل منها إلى تفصيل ، يضيق المقام عن إيراده هنا :

= استعادة النمو الاقتصادى والتعجيل به ، لاسيما فى إفريقيا جنوب الصحراء ، والبلدان المنخفضة الدخل فى أمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبى ، وبين الدول العربية التى تمر بمرحلة ركود أو هبوط ، والاقتصادات التى تمر بمحلة انتقالية فى أوربا الشرقية ورابطة الدول المستقلة ٠

= تعزيز النمو المناصر للفقراء لتحسين الدخول والإنتاجية فى الزراعة القائمة على الحيازات الصغيرة ، ولا سيما فى المناطق فقيرة الموارد ، وفى المشاريع الصغرى فى المناطق الحضرية والريفية ٠

= عكس مسار التدهور البيئى ، لا سيما فى مناطق الأراضى الحدية التى يعيش عليها أكثر من ٥٠٠ مليون نسمة من الفقراء ٠

= وقف انتشار فيروس نقص المناعة البشرية / الإيدز بين الفقراء عن طريق انتهاج البرامج المتعددة القطاعات والتى يكون محورها الإنسان ٠

= التعجيل بالانتقال الديموجرافى فى البلدان التى لا تزال معدلات الخصوبة مرتفعة فيها ، لا سيما فى إفريقيا جنوب الصحراء ، وجنوب آسيا ، والدول العربية ٠

= وضع الصكوك التى من شأنها تحسين عمليات بناء السلم ، وحل المنازعات ، ومنع نشوبها – وأيضا لمساعدة النازحين ٠

وينبغى أن يكون تعزيز قدرات الفقراء على مكافحة الفقر – وعلى تعزيز مواردهم – هو الأساس الذى تقوم عليه استراتيجية القضاء على الفقر ٠ وبالإضافة إلى الجهود التى يبذلها الفقراء أنفسهم ، فان الأمر سيقتضى إجراء تغييرات متعلقة بالسياسات وتغييرات مؤسسية لتحقيق :

٠ ضمان وصول الفقراء إلى الأصول الاقتصادية الهامة كالأراضى ، والائتمانات ، والإسكان ٠

٠ ضمان حصول الفقراء على الخدمات الصحية وفرص التعليم التى يمكن لها أن تعزز النمو المناصر للفقراء

٠ تهيئة بيئة للسياسات التى تعزز النمو المناصر للفقراء

ولا شك أن هذه الاستراتيجية تتطلب بيئة عالمية مواتية فضلا عن التعهد بالتزامات سياسية وإحداث تحولات فى السلطات داخل كل بلد ، وهى متطلبات قد تبدو عسيرة ، لكن لا مفر من السعى نحو توفيرها ، وإلا فسوف يلتهم الفقر جهودنا نحو التنمية والتقدم ٠

# البعثات التعليمية :
# أداة للاتصال والنهوض الحضارى
# فى مصر محمد على

كيف تأتى لهذه النهضة الحضارية الكبرى التى جرت على أرض مصر مدة تقرب من نصف قرن من الزمان ، غايرت جذريا ما ظل سائدا فى مصر عدة قرون ، أن تجىء على يد ضابط لم يحصل من التعليم إلا على قدر غاية فى البساطة لا يثمر ولا يغنى من جوع يقف عند حد تعلم القراءة والكتابة ؟ ومتى ؟ فى السابعة والأربعين من عمره ؟! سؤال هام حار كثيرون فى الإجابة عنه ، ولم يبق لدينا إلا ذلك التفسير الذى يرى أن رجاحة العقل وحسن التقدير والوعى الدقيق أمور لا ترتبط بالضرورة بأن يكون صاحبها قد تخرج من معهد تعليمى كبير، وكم رأينا فى قرانا فى سنوات نشأتنا الأولى رجالا لم يلحقوا بمدرسة لكن الواحد منهم كان يملك عقلا " يزن بلدا " حسب ما كنا نعبر فى ذلك الوقت ٠فضلا عن أن " الثقافة " ليست فقط هى " الثقافة المكتوبة" ، إذ لابد أن نذكر كذلك " الثقافة المعاشة "

وقد كتب القنصل الإنجليزى بورنج Bowring ، فى تقرير له يقول أنه " ما من شىء ساعد على تكوين شخصية محمد على مثل ما امتاز به من الشغف بتحصيل العلم ، فقد أمر بأن يترجم له عدد كبير من المؤلفات التى قامت بطبعها " جمعية نشر الثقافة النافعة " بانجلترا ، وما من سائح واسع المدارك زار مصر إلا اتصل به حتى يضيف جديدا إلى ما لديه من علم ومعرفة ، فحبه للاستطلاع لا يقف عند حد ، كما أن لديه ما لا يتوافر إلا للقليلين من لباقة تساعده على أن يقتنص من زائريه ما حذقوه من فروع العلم " ( محمد فؤاد شكرى وآخرون : بناء دولة مصر محمد على ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٨ ، ص ٦٨٧) ٠

ولقد أدرك محمد على نتيجة ماعايشه طوال سنوات الحملة الفرنسية على مصر أن البيوت لابد أن تؤتى من أبوابها ، فإذا أردنا أن نحسن التعامل مع العصر فلابد من معرفة لغة هذا العصر ، وقد اتضح لمحمد على أن لغة العصر هى " القوة " ٠ القوة ببعديها الأساسيين ٠٠ قوة اقتصاد ٠٠ وقوة عسكر ٠٠ ومثل هذه القوة تتطلب

أمرين اثنين مرتبطين أشد الارتباط : الأمر الأول هو " العلم " ، إذ لم تعد القوة قوة كر وفر ، ولم تعد القوة قوة " عضلات " وسيوف ورماح ، وإنما قوة تفكير وقوة معرفة . الأمر الثانى يتعلق " بالبشر " الذين سيديرون وينظمون ، وجمع الأمرين إنما يكون بأن يكون الجهاز البشرى الذى سيقود النهضة على علم وعلى دراية بفنون العصر .

فى البداية .. وجد محمد على الساحة خالية من " الرجال" ذوى النوعية التى تمكنه من أن يعتمد عليهم فى عملية النهوض الحضارى ، فكان لا مفر من أن يمد يده للخارج ليأتى بمن يريد من الرجال المنشودين . إنه يحكم بلدا عربيا إسلاميا ، أى أن لغته هى العربية ، وديانته الشائعة هى الإسلام ، فهل يتجه إلى منبع تكون لغته العربية وديانته هى الإسلام ؟ لقد اعترف الرجل بينه وبين نفسه أن العالم العربى بطوله وعرضه كان يغط فى نوم عميق منذ زمن طويل مع الأسف..سقطت شعلة الحضارة من يده . ولم يكن هناك من مجال كى يفكر فى الاستعانة بالدولة القائدة .. الدولة العثمانية ، فهى الحاكمة منذ قرون ، ولو كانت تستطيع أو تريد بالبلاد المصرية نهوضا لفعلت ، لكنها على العكس من ذلك وضعتها فى جب التخلف وقاع الجمود .

هنا كان من الطبيعى أن يتجه بنظره إلى ما وراء البحر المتوسط .. إلى أوربا . بطبيعة الحال لم تكن تجربتنا هى الأولى فى الاتصال بالغرب ، فعبر عدة قرون حَدث اتصال ، لكنه كان اتصالا ساخنا على أسنة الرماح .. غزو وحرب وقتال واحتلال أثناء ما عرف بالحروب الصليبية ، ثم جاء الاتصال الآخر مع الحملة الفرنسية ، ساخنا كذلك ، عبر بارود ومدافع ونيران وقتال وسفك دم واحتلال ، فكان من الضرورى أن ينظر الناس إلى الآخر الأوربى نظرته إلى غادر وسفاح ولص . ولأول مرة فى التاريخ ، يتغير الأسلوب ويتبدل النهج . نحن الذين سنذهب إليهم ، بغير عدة حربية ، برغبة فى المعرفة والتعلم ، ونحن الذين ندعوهم لأن يأتوا بلادنا بغير مدافع أو بارود ، بالكتب والأقلام والمعامل والورش .. إنه لقاء حضارى ، رغبة فى التلاقح الثقافى .

استدعى محمد على بعضا من الأوربيين الذين استعان بهم فى إدارة دفة ما استحدثه من منشآت ومؤسسات ، لكنه بعد فترة من التجربة ، أدرك أن الإكثار من الأجانب قد لا يكون فى مصلحة البلاد دائما ، فهم يجهلون اللغة العربية ، مما يضطر الدولة إلى الاستعانة بمترجمين فى بعض الأحيان ، وهذا فى حد ذاته أمر مكلف ، فضلا عن المرتبات الباهظة التى كان الموظفون الأجانب يتلقونها ، وخزانة الدولة ليست باليسر الذى يمكنها من تحمل ذلك ، خاصة وأن أمامها مشوعات ومهام جسام تتطلب نفقات باهظة ، كما شعر محمد على أن الكثير منهم لم يكن مدركا لأهداف الدولة ، بل ربما يعرقل هذه الأهداف بحسن نية أو بغير ذلك .

الأخطر من هذا أن عددا من الأجانب الذين بدءوا يفدون على البلاد لم يكونوا من أهل العلم والخبرة المناسبين لما يكلفون به من أعمال ، فظهر مستغلون ونصابون ، وفى ذلك يقول المسيو هامون Hamont ناظر مدرسة الطب البيطرى عن الأطباء الأجانب الذين استخدموا فى الإدارة الصحية أول إنشائها : " إن منهم من كان ممرضا وعامل تلغراف وصانع أحذية فى مرسيليا وجرسونا فى مقهى بالقاهرة ، وإن ثلثى أولئك الأطباء لا يحملون دبلومات ، ومن مائة صيدلى عشرة فقط حائزون للدبلومات ، وإذا ما هبط أوربى مصر وليس له حرفة يحترفها سرعان ما يعين صيدليا أو طبيبا " ، وإن كان هذا لا ينفى بطبيعة الحال أن وجود نماذج أخرى مغايرة تماما مثل الكولونيل سيف وكلوت بك وغيرهما ( أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٨ ، ص ٣٢).

من هنا اتجه محمد على إلى فكرة إرسال نفر من الطلاب إلى بعض البلدان الأوربية لتحصيل التخصصات المطلوبة ، وكانت هذه الخطوة هى الأولى من نوعها حقا ، والتى شكلت قناة هامة وأساسية أتاحت الفرصة لنقل الثقافة الغربية الحديثة إلى مصر وتشكل بالتالى مجرى ثقافيا يختلف اختلافا جذريا عن ذلك المجرى العام الأساسى الذى كان سائدا ، مجرى الثقافة الدينية التقليدية كما كان يقدمها الأزهر وتوابعه من مساجد أخرى وكتاتيب .

كانت القبلة الأولى لأول بعثة هى إيطاليا ، ذلك لأن الإيطاليين كانت لهم حتى أوائل عهد محمد على جاليات كثيرة فى ثغور مصر والشام ، كما كانت اللغة الإيطالية هى

اللغة الأجنبية الأكثر شيوعا وتداولا ، بل لقد كانت لغة المخاطبات الرسمية حتى بين القنصليات غير الإيطالية ، وكان هؤلاء الأيطاليون يعرفون العربية ، كما كان عامة الأهالى فى الثغور المصرية وبخاصة فى الإسكندرية يتكلمون الإيطالية (مايسة على محمد : البعثات التعليمية فى القرن التاسع عشر وآثارها الثقافية والاجتماعية على المجتمع المصرى ، رسالة دكتوراه ، بنات عين شمس ، ١٩٨١، ص ١٣) . وهكذا سافر إلى إيطاليا أعضاء البعثات الأولى : سافروا إلى ليفورن ، وميلان ، وفلورنسا ، ، وروما ، وغيرها من بلاد إيطاليا ، ولم يعرف منهم غير " نقولا مسابكى " الذى أرسل إلى ميلان مع ثلاثة أطفال من رفقائه حوالى سنة ١٨١٥ لتعلم فن سبك الحروف وصنع قوالبها ودراسة فن الطباعة ، وبعد أن أقاموا بها أربع أو ثلاثة سنوات عادوا ومعهم آلات وحروف صنعت فى إيطاليا ( تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٣٤) .

وابتداء من سنة ١٨١٨ بدأ يتضح أن محمد على قد تحول عن الاتجاه نحو إيطاليا فى سياسة بعثاته التعليمية واتجه إلى فرنسا فأرسل إليها مجموعة من الطلبة لم يعرف منهم سوى عثمان نور الدين الذى أرسل سنة ١٨١٩ وذلك بغرض إتقان الفنون الحربية والبحرية ، وقد عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ وتولى منصب رئيس للعمارة البحرية المصرية سنة ١٨٢٨ .

وإلى عثمان نور الدين يرجع الفضل فى إيفاد بعثة سنة ١٨٢٦ الكبرى إلى باريس ، وذلك أنه اتصل أثناء تلقيه العلم فى فرنسا بالمسيو جومار Jomard أحد علماء الحملة الفرنسية وعضو المجمع العلمى الفرنسى ، فأعجب به جومار ، ثم تحدث إليه عن الوسائل التى يمكن بواسطتها إعادة الصلة العلمية بين فرنسا ومصر على أسس قوية وثيقة . ولقد اقترح عليه مسيو جومار أن تفكر مصر فى إيفاد بعض تلاميذها لتلقى العلم فى فرنسا ، وحمل عثمان نور الدين هذه الرغبة إلى محمد على وظل يحبذها لديه حتى وافق ، وأرسلت البعثة الكبرى وعهد إلى مسيو جومار بالإشراف عليها وعلى البعثات المصرية إلى فرنسا عموما ( مايسة على محمد ، ص ٢٢) .

وكان عدد أعضاء هذه البعثة أربعين ، وهى البعثة التى ألحق بها " إمام " هام وكبير ، يفاجأ الدنيا بعد ذلك بأنه قد تفوق على من سافروا ، من حيث التحصيل

العلمى والاستفادة من الحضارة الغربيـة رغم أن لـم يكـم عضـو بعثـة ، إنـه الشـيخ " رفاعة رافع الطهطاوى " رسول الثقافة الغربية عامة والفرنسية خاصـة إلـى مصـر !! وكان من بين أعضاء البعثة اختص أربعـة أعضـاء بدراسـة الإدارة المدنيـة ، ومثلهم فـى الإدارة الحربيـة ، وثلاثـة لإدار البحريـة ، وعضـوان لدراسـة العلـوم السياسـية ، ومثلهمـا لقـوى المـاء ( الهيدروليكـا " ، وعضـو لدراسـة العلـوم الميكانيكـة ، وثلاثـة أعضـاء للهندسـة الحربيـة ، وعضـوان للمدفعيـة ، وآخـران لصـب المعـادن ، وصنـع الأسلحة ، ومثلهما للطبع بأنواعه والحفر ، وأربعة أعضاء لدراسـة العلـوم الكيائيـة ، وعضـوان للطـب والجراحـة ، ومثلهمـا للزراعـة ، وثلاثـة أعضـاء للتـاريخ الطبيعـى والمعادن ، وعضو للترجمة ( تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، ص ٤٣٦) ٠

وفى أول يناير سنة ١٨٣٠ وصلت بعثة مصرية كبيرة إلى أوربا مؤلفة من ثمانيـة وخمسين تلميذا لتلقى الفنون الآلية ( الصنائع ) ، كان من بينهم أربعة وثلاثون تلميذا أرسلوا إلى فرنسا للتخصص فى صناعات مثل : آلات الجراحة – صناعة الساعات – نسج الأقمشة الحريرية – طبـع السيـوف – الأحذيـة – البنـادق والطبنجـات – إنشـاء السفن – النقش والدهان – الصياغة والجواهر ٠٠ الـخ ، وأربعـة إلـى النمسـا لتعلـم صناعة نسج صوف العبايـات ، وعشـرون إلـى انجلـترا لتعلـم صناعـة آلات البوصلـة ومـيزان الهـواء والمنـاظير " النظـارات " ومقـاييس الأبعـاد وآلات الدوائـر المنعكسـة وأمثال ذلك ، ولتعلم صناعة الآلات الهندسية ، والنجادة والفراشة ، والصينى والفخار ، وصناعة صب المدافع والقنابل وما يتبعها ( الأمير عمر طوسون : البعثـات العلميـة فـى عهـد محمـد علـى ثـم فـى عهـدى عبـاس الأول وسـعيد ، مطبعـة صـلاح الديـن بالإسكندرية ، ١٩٣٤ ، ص ٦٥)٠

وفى حديث بين محمد على والقنصل الإنجليزى " بورنج " ، ذكر الباشا للقنصل : " إن بلادكم ، أعنى انجلترة ، إنما بلغت مكانتها الحاليـة بفضـل جهـود أجيـال كثيـرة ، وليس فى مقدور أية دولة أن تطفر دفعة واحدة نحـو العظمـة والازدهـار ٠ ومـع هذا فقد أديت لمصر بعض الشىء ، وبدأت أعمل على إصلاحها ، حتى إنه لمن الممكن أن نوازن من بعض الوجوه بينها وبين دول أوربية ، لا بينها وبيـن دول شـرقية فحسـب ٠ إن أمامى وأمام شعبى شيئا كثيرا يجب أن نتعلمـه ٠ وقـد أرسـلت إليكـم أدهـم بـك

ومعه خمسةعشر شابا ليتعلموا ما تستطيع بلادكم أن تلقنهم إياه من العلوم ، وإن عليهم أن يروا بأعينهم ، ويعملوا بأيديهم ، ويتعرفوا أسرار صناعتكم ، كما أن عليهم أن يعرفوا كيف تفوقتم علينا وأسباب هذا التفوق ، حتى إذا أمضوا بين ظهرانيكم مدة كافية ، عادوا إلى بلادهم وتولوا تعليم شعبى " ( بناء دولة مصر محمد على ، ص ٦٩٠) .

ولسنا بصدد التسجيل الشامل لكل البعثات، لكن ما يهمنا الإشارة إليه هو ذلك الاختلاف الذى نجد عليه عددا من المؤرخين والباحثين بصدد العدد الكلى لأفراد البعثات ، فعبد الرحمن الرافعى يحصر فترتها بين ١٨١٣و١٨٤٧، ويرى أنّ عدد المبعوثين كان ٣١٩ ( عبد ارحمن الرافعى : عصر محمد على ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ٤٧٩) ، ويتفق معه على نفس الرقم كل من جورجى زيدان وأمين سامى ، وإن اختلفا بعض الشىء فى نهاية فترة البعثات ( جورجى ١٨٤٩ - أمين سامى : ١٨٤٧) ، ويرى عبد الله النديم أن العدد كان ٢٩٠ ، والمؤرخ الإنجليزى "هيوراث دن " ٣٤٩ ، والأمير عمر طوسون ٣٣٩ .. وهكذا ( أنور عبد الملك : نهضة مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣، ١٣١) .

ومن الملاحظ أن التخصصات التى كان يرسل الطلاب لها تتركز فى المجالات العسكرية والطبية والصناعية والعلوم الطبيعية والرياضية أكثر من غيرها ، ويقدر إبراهيم أبو لغد تخصصات المبعوثين على النحو التالى : ٣٥٪ للعلوم العسكرية والبحرية ، ٢٧٪ للفنون الصناعية ، ١٨٪ للفنون الهندسية ، ٧٪ للطب ، ٧٪ للإدارة والحقوق والسياسة ، ٤٪ للزراعة وعلومها ، ٣٪ للعلوم ( الكيمياء ) ( المرجع السابق ، ص ١٣٢) .

وكان من أعضاء البعثات ، المصريون و" المتمصرون " الذين دخل آباؤهم فى خدمة الوالى ، وبذلك ارتبطت حياتهم ومصالحهم بالبلاد التى يعيشون فيها ، فمن التلاميذ المبعوثين فى البعثة فرنسا ١٨٢٦ - غير رؤسائهم الثلاثة - أربعة من المسيحيين الأرمن وثلاثون من المسلمين ، منهم ثلاثة من المشايخ وثمانية عشر طالبا ولدوا بمصر ، وستة عشر ولدوا خارج مصر ، وثمانية عشر من أصل عثمانى ، ومن هؤلاء العثمانيين اثنا عشر جاءوا إلى القاهرة مع أهلهم ، أما الستة الآخرون

فقد ولدوا بمصر ( تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على ، ص ٤٣٦)٠ بل وكان ممن أرسلوا إلى فرنسا فى بعثة تالية ، ثلاثة ممن كانوا عبيدا أحباشا ، مثل " محبوب الحبشى " الذى أرسل سنة ١٨٣٢ وكان مما يتعلمه هناك اللغة العربية والفرنسية والإيطالية ، واشتريت له كتب فى علم الجغرافيا ، ولم ينص على ما أرسل لأجله ٠وأيضا " مرسال الحبشى " و" بلال الحبشى " ( عمر طوسون ، ص ١٢٠)٠

وقد أظهر كثيرون تفوقا ملحوظا فى دراستهم ، ففى سنة ١٨٣٢ ذهب كلوت بك إلى باريس وبصحبته إثنا عشر تلميذا مصريون منتخبون من متقدمى تلاميذ مدرسة الطب بأبى زعبل ، وقد عقدت لهم الجمعية العلمية الطبية الفرنسية امتحانا " بحضور عظماء العلماء الأوربيين ، فأسفر هذا الاختبار عن نجابة هؤلاء التلاميذ وعلو همة أستاذهم فى التعليم " ، وكانت إجابتهم باللغة الفرنسية لأنهم انوا يتعلمونها فى مصر ٠ وقد مدح " البارون ديبويترن " فى عديد من التلاميذ وقال عن أحدهم وهو " حسين أفندى الههياوى " : " أنه كان ذا حافظة عجيبة حتى أنه فى مدة دراسته بباريس كان يحفظ الدرس من أول مرة والتلاميذ الفرنسيون يصححون دروسهم منه ويكملونَ ما نقص منها عليه ٠ وكان يملى عليهم ما قيل فى الدرس كما ألقى بألفاظه وحروفه " ( المرجع السابق ، ص ١٤٤)٠

وكان ذلك نتيجة ما أصبح معروفا عن حرص محمد على على متابعة طلاب البعثة وحثهم على الجد والمثابرة ، فمن ذلك رسالته الطريفة التالية التى أرسلت إلى طلاب بعثة باريس فى سبتمبر ١٨٢٩رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز ، دراسة وتحقيق : محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣، م٢ ، ص١٨١) :

" قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس لتحصيل العلوم والفنون ، زيد قدرهم ٠٠ ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة باريس ، التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم

غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنا غما كثيرا ، فيا أفندية / ما هو مأمولنا منكم ! فكان ينبغى أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته ٠٠" ٠

ويحرص " الباشا " حرصا ملحوظا على الالتزام بالعادات والتقاليد العربية الإسلامية ، فمن ذلك أنه لما أرسل " أدهم بك " فى البعثة المشار إليها آنفا إلى انجلترا ، تزيا بزى الإنجليز وحاكاهم فى أحوالهم وعاداتهم ، فعلم بذلك محمد على ، فأرجعه مغضوبا عليه وقال : إننى بعثته ليعاين فابريقاتهم ( مصانعهم ) ويقف على صنائعهم لبثها فى مصر ، لا ليقلدهم فى ملابسهم وعاداتهم ٠ ثم عفا عنه بشفاعة حفيده عباس باشا وعينه مديرا للمدارس خلفا لمصطفى بك مختار الذى فصل منها ، وكان ذلك فى مايو ١٨٣٩ عمر طوسون ، ص ١٦٣) ٠

وتبلغ ذروة الاهتمام حد إنشاء مدرسة مصرية حربية بباريس ليتعلم فيها التلاميذ المصريون العلوم الحربية ، وجعلت المدرسة تحت رئاسة وزير الحربية الفرنسى ، فعين هذا ناظرها وأساتذتها من رجال فرنسا الحربيين ، وقد وضع للمدرسة نظام كان من قواعده ( المرجع السابق ، ص ١٧٦) :

- على التلاميذ أن يحترموا الأساتذة والمعيدين والموظفين ويطيعوهم ويحيوهم بإشارة التعظيم العسكرى عند مقابلتهم ٠
- ألعاب النرد والورق والميسركلها ممنوعة ٠
- لا يسمح لأى تلميذ أن يدخل شخصا أجنبيا فى المدرسة ٠
- ليس لتلميذ أن يترك حجرة التدريس قبل انتهاء الدرس وقبل الإيذان بالفراغ منه ٠
- محرم على التلاميذ أن يتلفوا أى شىء من الأشياء التى توزع عليهم أو يستعملوها فى غير وجوهها

وقد تلقى وزير الحربية الفرنسية خطابا من محمد على فى ١٨٤٤/١٠/٢٧يبدى فيها ملاحظاته عن الوضع الذى كان قائما فى المدرسة الحربية المصرية تؤكد لنا قراءته بعدا هاما ، وهو حرص محمد على على مبدأ " المساواة " وتكافوء الفرص بين فئات الطلاب الذين يختلفون من حيث الأصول الاجتماعية ، فقد كان الطلاب

المصريون ينقسمون إلى ثلاث طبقات : الأمراء( حيث كان من بين المبعوثين أمراء ) ، والبكوات ، والأفندية ٠ وكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة له مساكن ومعاملات خاصة تختلف باختلاف المرتبة ، فالأمراء لكل منهم غرفة للنوم وبهو وغرفة مكتب ٠ وكل من البكوات له غرفة نوم ، ولهم جميعا بهو خاص يجتمعون فيه ٠ والأفندية ، لكل جماعة منهم غرفة نوم واسعة غير مزينة ، ولكنها مفروشة فرشا لائقا ( المرجع السابق : ص ١٨٤) ٠

ولكل أمير فراش لخدمته وللبكوات جميعا فراش واحد ، وللأفندية فراشان ٠ ومائدة الأمراء مشتركة بينهم وبين البكوات ، وهى تزود بالأطعمة الفاخرة الوافرة ثلاث مرات فى اليوم ، وأما الأفندية فيتناولون الوجبتين الأوليين مثل الأمراء ، وفى العشاء يقدم لهم الحساء ، وصفحتان من اللحم ، وصفحتان من الخضر ، ثم الجبن والفاكهة ( بالنسبة للأمراء والبكوات : الحساء وأربع صحاف من الأسماك واللحوم والطيور فى البداية وأربع صحاف أخرى من الأطعمة الخفيفة من الخضر والبقول غير المقلويات والحلوى) ٠ ونقل عن الأطباء أن هذه الأطعمة مضرة بالصحة نظرا لكثرتها والتأنق فى اختيارها ٠

وهكذا لاحظ محمد على أن كل شىء فى المدرسة يصرخ بالتباين بين الطبقات الاجتماعية ،سواء فى المسكن أو الملبس أو المعيشة :" فمظاهر هذا المعهد مناقضة لإرادة ولى الأمر التى أبداها بجلاء ، وليس فى الإمكان الآن المساواة بين الأمراء والبكوات ، والأفندية الذين لا يتساوون إلا فى قاعات الدراسة ومقاعد الجلوس فيها ٠ ولأجل تنفيذ إرادة الوالى كان يجب أن يكون هذا المعهد مؤسسا تأسيسا خاليا من الأبهة والرونق ، وكان يجب تجرده من كل زخرف ، ولكن عوضا عن ذلك أنفقت عليه نفقات طائلة خصوصا فى محال الاستقبال حتى أصبحت كأنها من بيوت الأمراء وأضحى قاطنوها كأنهم نازلون ضيفانا عند ملك ٠ وبالاختصار إن هذا المعهد صار قصرا من قصور العظماء ، وليس بينه وبين المدارس الحربية أو أية مدرسة أخرى أقل مشابهة " ( المرجع السابق ، ص ١٨٥ )٠

حقيقة إن الإنسان ليقف مبهورا أمام هذا المستوى من التفكير المبنى على الوعى المستنير بما يتطلبه حسن التعليم من تكافوء فى الفرص ، وخاصة عندما نلمس هذا

لدى وال اشتهر بالاستبداد !! وكان على المسئول عن المدرسة أن يرسل إلى الوالى ما يفيد أنه سيعمل على تلافى هذا الذى لاحظه من تفاوت فى المعاملات حتى تحقق المدرسة ما يأمله منها ٠

وكان محمد على يرى أن أول واجب على العائدين من البعثات ، ترجمة العلوم التى درسوها فى أوربا ، فإن نقل هذه العلوم إلى العربية أو التركية يمكن الحكومة من متابعة إصلاحاتها ، فضلا عما كان هذا يعنيه من توسيع دائرة العلم الغربى الحديث بين المتعلمين المصريين ، وتلقيح الثقافة المصرية بعناصر معاصرة من الثقافة الغربية الحديثة ٠ لذلك كان أول عمل أسند إليهم إمدادهم بالكتب والتنبيه عليهم بسرعة ترجمتها ٠ وقد بلغ من حرص الحكومة على أن يكون لديها أكبر قدر من الكتب المترجمة فى أقصر وقت أن كانت تقدم لهم الكتب وهم لا يزالون مقيمين فى المحجر الصحى ٠ ثم كانت تحتجزهم فى مكان خاص ولا تدعهم يخرجون إلى أهلهم حتى يتموا ترجمة ما عندهم من الكتب ٠ وكثير منهم كانت الترجمة تشغله عن واجبات وظيفته التى يتقلدها ( تاريخ التعليم فى مصر فى عصر محمد على ، ص٤٢٨) ٠

وقد شرع محمد على بالفعل فى جمع الكتب من مختلف البلدان ، وأخذ يوزع منها مايصلح للتدريس فى مدارسه على المترجمين لترجمته حتى تكون بأيدى التلاميذ والأساتذة على السواء طائفة من الكتب التى لم يكن لهم غنى عنها ، كما صار ينتقى كتبا أخرى يريد أن تترجم له خاصة ٠ ويذكر " أنطوان بيترونى" أن الباشا كلف عضو البعثة الأول عثمان نورالدين بأن يحضر من الكتب الفرنسية ما يبلغ ثمنه حوالى الف روبل ، على أن تبحث هذه الكتب فى أصول العلوم والفنون والاقتصاد السياسى ٠ وفى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٢٤ كتب الجنرال " بوييه " من القاهرة إلى الجنرال " بليار " فى باريس يقول أن الجناب العالى يريد جماعة من ضباط المدفعية وغيرهم " وأنه يحتم أن يحضر هؤلاء معهم جميع الكتب التى تتناول أصول الفنون العسكرية التى تخصصوا فيها " ( سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ٣٠٣)

والمتأمل فى جملة الكتب التى ترجمت يجد أن أكثر ما ترجم كان فى الفنون الحربية والبحرية ، فقد ترجم فيها ١١١ كتابا ، وهذا أمر بديهى لا يحتاج إلى تعليل ، فالجهود الحربية استنفدت معظم وقت محمد على وحكومته ، ويلى هذه الفنون ، الطب البشرى ، فقد ترجم فيه ٣٤ كتابا ، وذلك للصلة الوثيقة بين مدرسة الطب والجيش . أما الطب البيطرى ، فقد ترجم فيه ١٢ كتابا ، والعلوم الرياضية بفروعها المختلفة ترجم منها ٣١ كتابا .

أما الدراسات الأدبية فلم تبلغ من العناية قدر ما لقيت العلوم والفنون العملية ، ومع هذا فقد كان التاريخ أكثرها فترجم فيه ٢٤ كتابا ، وتليه الجغرافيا وما يتصل بها من علوم كالرحلات والجيولوجيا وترجمت فيها ٨ كتب . وكانت العلوم النظرية البحتة أقل خطرا من غيرها ، فترجم فى الأدب كتاب ، وفى المنطق كتاب ، وفى الاجتماع كتاب ، ولعل تفسير ذلك أن الثقافة المصرية كانت بحاجة إلى تلك النوعية من العلوم التى كانت تفتقرها بالفعل ، ولا تتصادم مع موروثاتها ، وهو الأمر الذى كان على غير ذلك بالنسبة للعلوم الإنسانية ( المرجع السابق ، ص ٣٠٤).

وقد أفاد بعض شيوخ من المحررين المراجعين والمترجمين لهذه الكتب العلمية المترجمة وكسبوا لأنفسهم معارف جديدة واسعة وأضافوا إلى ثروتهم اللغوية ثروة جديدة لكثرة ما قلبوا الكتب باحثين ومنقبين ، ولكثرة ما نحتوا واشتقوا واقتبسوا من ألفاظ ومصطلحات جديدة ، وخير مثال لذلك ما كتبه الشيخ محمد عمر التونسى فى مقدمته لكتاب ( الجواهر السنية فى الأعمال الكيماوية ) للدكتور " براون" ، يقول : " .. يا من تتصاعد إليه الأرواح وتتسامى ، وتذوب الأجسام من هيبة جلاله ، وعلى باب عقده تترامى ، تنزهت ذاتك العلية عن التركيب والتحليل ... " الخ ( المرجع السابق ، ص ٣١٥).

وهكذا يمكن القول مع أنور عبد الملك أن محمد على هو أول رئيس دولة شرقى يواجه بطريقة حازمة متطلبات التحديث ، فعبد الرحمن الرافعى ، وهو عدو معروف للأسرة المالكة السابقة ، يرى هذا الرأى ويتحدث عنه واصفا إياه بال" عبقرية " . كذلك فإن " برنارد لويس " ، المتخصص فى التركيبات ، الصهيونى المتشدد بالنسبة لمصر ، يوضح أن عمل محمد على الذى سبق إيران ، أجبر السلطان محمود الثانى

على إرسال أول بعثة دراسية تركية مكونة من ١٥٠ طالبا إلى أوربا عام ١٨٢٧ فقط ، على الرغم من المعارضة الدينية ٠ بقى أيضا أن المثقفين والإداريين المصريين الدارسين فى أوربا فى إطار هذه البعثات سيصبحون خميرة النهضة المصرية ، ويكونون بمثابة جسر يصل بين امبراطورية محمد على التى تنهار ابتداء من ١٨٤٠ بين السيادة المصرية التى تزول فى ١٨٧٩ - ١٨٨٢ ، وبين مقدمات ثورة ١٩١٩ والمرحلة الثانية فى نهضة مصر الوطنية ، ولم يفعل الوالى من الناحية الموضوعية أكثر من إقامة دولة مستقلة ، وصناعة حديثة وقوة مسلحة ، وقد دفع هذا إلى تكوين وبروز الأجيال الأولى من المثقفين الثوريين العصريين المصريين ( نهضة مصر ، ص ١٣٣) ٠

# حوارحول عصر الخطابة

كتب الأستاذ الجليل الدكتور " محمد رجب البيومى " مقالا مهما بهلال يوليو ١٩٩٩ تساءل فى عنوانه : هل مضى عصر الخطابة ؟ ولا أظن أن عالمنا الفاضل فى حاجة إلى شهادة منى على عمق تفكيره ودقة تحليله وبلاغة أسلوبه ، فالمقال بنفسه هو الشاهد على ذلك ، لكن أروع ما يكون فى كتابة الكاتب حقا أن تستثير تفكير الآخرين فتدفعهم دفعا إلى أن يشمروا عن سواعدهم ليدلوا بدلوهم فى القضية المثارة ٠وإذ تدفعنى قراءة المقال يوم الثلاثاء السادس من يوليو إلى أن أبادر فأكتب وجهة نظرى فى القضية التى يثيرها د٠البيومى فى اليوم التالى مباشرة ، ففى هذا علامة من علامات جدية المقال وقدرته على استثارة أفكار الآخرين ٠

وأخشى أن أكون صادما لعالمنا الفاضل إذ أقول : نعم ، لقد مضى عصر الخطابة ! وإن شئنا الدقة فنحن نشهد أفوله ٠ والحمد لله أن د٠ البيومى لا يعرفنى معرفة شخصية وإلا لكان من الممكن أن يهمس فى أذنى قائلا : لعلك سعيد بهذا حيث أنك ، طوال حياتك ، لم تمارس الخطابة ، ولم تملك مؤهلاتها وكنت تتوارى دائما عن " الميكروفونات " والمحافل العامة ، وتفضل أن تقول رأيك مكتوبا ! لكنى أؤكد لكاتبنا الجليل أن حديثى الحالى هذا لا يعنى بأى حال من الأحوال ازدراء للخطابة وتقليلا من شأنها وإنما هى سنة التطور التى تدفع بأمور إلى دائرة الاهتمام وتدفع بأخرى إلى دائرة التعتيم ، وتدفع أحيانا بأشياء إلى الوجود ، وتدفع بأخرى إلى الاختفاء ، وأشهر الأمثلة التى يمكن أن نسوقها لذلك ، " الطربوش " الذى كان له عصره الذهبى وما كان يحمله من معانى وما يدل عليه من مستويات اجتماعية وثقافية ، وهكذا الأمر فى كثير من الأمور ٠وإذا كان هذا المثال ينتمى إلى دائرة الأشياء والمخترعات ، فهناك فنون فى الأدب حدث لها نفس الشىء ، وعالمنا الفاضل أعلم منى بهذا ٠٠ ونفس الشىء بالنسبة لبعض التقاليد والتنظيمات الاجتماعية ٠

والكثير من الأسباب التى أشار إليها المقال أسباب حقيقية ، وعسى أن يزيد مقالنا الأمر إيضاحا ، ويغطى نقاطا لم تسعف المساحة التى احتلها حديث عالمنا الفاضل على أن تفى القضية حقها من البحث والدراسة ٠وربما يدفعنا التخصص إلى البدء بالقضية الخاصة بالتعليم عامة وبالمدرسة خاصة ، تلك المؤسسة التى كثيرا ما نحملها أوزارا لا ذنب لها فيها ، فالمدرسة مؤسسة اجتماعية بالدرجة الأولى ، أوجدتها الجماعة البشرية لتأدية

وظائف معينة حددتها لها ، والجماعة البشرية هى التى تمد هذه المؤسسة بالوسائل والأدوات التى تمكنها من أداء وظيفتها ، مالا أو مواد أو بشرا ، وعلى ذلك فالمدرسة نبت أيدينا إن فسدت فالرحم الاجتماعى هو الذى يفسدها ، وإن حسنت ، فنفس الرحم هو الذى يعينها على ذلك ، وإن كنا لا نستطيع أن ننكر ما تقوم به المدرسة من أدوارر تقوم على الإيجابية والمبادأة ، ولا داعى لأن ننزلق إلى نقاش يدور حول من الذى يفسد أو يحسن الآخر : المدرسة أو المجتمع ؟ فهذا نوع من الجدل السوفسطائى مما ينتمى إلى الجَدل الخاص بالبيضة أولا أم الدجاجة ؟ !

وأسوق مثالا على ظلم كثيرين للمدرسة مما يتصل بقضيتنا ٠ فغير خاف على أحد أن الخطابة تقوم بالدرجة الأولى على امتلاك ناصية اللغة التى نتحدث بها ، فما الذى حدث للغة العربية التى هى لسان خطابتنا ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى حديث طويل ، لكننا نكتفى هنا بما حدث من سنوات عندما خفضت الدرجة المخصصة للغة العربية فى السنتين الثانية والثالثة فى المدرسة الثانوية من مائة وعشرين درجة إلى خمسين ! لقد وجد كثير من الطلاب فى السنة الثانية ، أو الثالثة أمامهم مادة تقدر بخمس وعشرين درجة ، وصعبة وبها فروع متعددة ، ومواد أخرى أسهل ، ولا فروع لها وتقدر بأكثر من ذلك فماذا يفعلون وهم أمام سباق المجموع للالتحاق بالجنة المأمولة ٠٠ الجامعة ؟ الإجابة معروفة ٠٠أهملوا تعلم اللغة العربية٠ إن هذا التغيير المخرب لأهم مقوم للذاتية الثقافية للأمة فرض على المدرسة فرضا وعندما كان يتصدى أحد لهذا التخريب ، ما كان يسمع له ، وكان من المفروض أن تهب كتيبة الكتاب والمثقفين والمفكرين ، ولم يتم التراجع إلا عن جزء بسيط من هذا الذى حدث بفضل كتابات الكاتبة المناضلة حقا د٠ نعمات أحمد فؤاد ، وكم أشعر بالخجل حقا عندما أتذكر أن أساتذة تربية كبار دافعوا عن الوضع الخاطىء الذى كان ، وهم يعلمون فى قرارة أنفسهم مقدار جنايته على الذاتية القومية ، ولكنه نهج " المسايرة " الذى رزئنا به ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ومنذ أكثر من عشرين عاما أخذت كليات التربية تغذى مدارسنا بنوعية رديئة من معلمى اللغة العربية ، مع الاعتذار الشديد للزملاء أعزاء " يجاهدون " فى سبيل تعليمهم تعليما جيدا ، لكن المشكلة أن هؤلاء الطلاب يقضون أربع سنوات جامعية فقط ، ينفق منها ما يقرب من العام فى دراسة العلوم التربوية والنفسية مما يخفض من مستوى إعدادهم ، فضلا عن ظروف أخرى متعددة تعزز من هذا التخفيض ، وبدلا من أن ينشروا العلم باللغة العربية ، بدءوا ينشرون الجهل بها ، وسل مثلى عن هذا ، وسوف تجد الكثير مما هو مؤلم ومحزن حقا ! لست متخصصا فى اللغة العربية ، ولا ضليعا فيها كما قال الراحل سليمان

نجيب ، ومع ذلك فلا أكاد أقرأ فقرة واحدة فى إجابات وبحوث خريجى كلية التربية تخصص اللغة العربية بدون أخطاء لغوية ، فإذا كنت كغير متخصص وأكشف عن هذا الكم ، فماذا يكون كم الأخطاء لو صحح لهم متخصص ؟ ! أشرف على باحث ماجستير متخرج من هذا التخصص بالكلية ، يعمل مدرسا للغة العربية بإحدى مدارس الحكومة للغات عندما أسأل عنه بالمدرسة لا أستدل عليه إلا إذا قلت " أريد ( المستر ) حمدى " !! أما إذا قلت " الأستاذ " حمدى ، فقد لا يعرفه أحد !

لكن : هل يقع اللوم على المدرسة هنا فقط ؟ كم ساعة يجلسها الطالب فى المدرسة ؟ ست ساعات على الأكثر ٠ وكم ساعة يعيشها فى المحيط العام ؟ أضعاف ذلك بطبيعة الحال ، هذا المحيط العام ، المتخم بما تبثه الإذاعة والتلفزيون والصحافة وشرائط الأغانى ، حيث تنتهك حرمة اللغة العربية ساعات طويلة يوميا على أعتاب آذان شبابنا ، فلو أن المدرسة تقوم " بالواجب " ، فسوف ينهار هذا أمام الطوفان الخارجى المدمر لكل هذه المقومات ، ولا أريد أن أتكأ جرحا آخر فأشير إلى الأسماء الأجنبية التى أصبحت تكتب باللغة العربية للمحلات والشركات المصرية !!

ولا يستطيع أحد أن ينكر ما للنشاط المدرسى من دور جوهرى فى إضفاء جو من الحيوية على التعليم فى المدرسة ، وكيف كانت هناك بالفعل جماعات للخطابة وفنون للغة العربية ، وعلى رأسها الشعر ٠ لكن ، ماذا كانت تفعل المدرسة ، والمجتمع قد قتر عليها فى الإنفاق سنوات طوال ، بحكم الضائقة الاقتصادية ، فألغيت جمعيات النشاط ، لأن الجدول المدرسى اختزل حتى تتسع المدرسة للعمل أكثر من فترة واحدة ؟

لكن المسألة لا تقف عند هذا الحد ، فعندما بدأ النشاط يعود إلى بعض مدارسنا لم يفكر أحد فى جمعية للخطابة ، لأن سنة التطور قد دفعت الكثير من أبنائنا إلى أن يفكروا فى مجالات أخرى ، يأتى على رأسها " الكومبيوتر " ساحر العصر ، وفارسه الأول بغير جدال ، وبعض الأنشطة " العلمية " المتخصصة ، فضلا عن اكتساح الأنشطة الرياضية لاهتمامات معظم الشباب ٠

ولعل من أهم مواقع الخطابة التى ما زالت قائمة الآن ، المساجد ، وخاصة فى صلاة الجمعة ٠ لكن ، لظروف معلومة للجميع أصبح خطباء المساجد موظفين فى وزارة الأوقاف ، واختفى هؤلاء الخطباء المتطوعين ، وليس هذا فحسب بل أصبح الحديث فى كثير من الموضوعات مما يعتبر دخولا فى مناطق ملغومة ، وخاصة تلك التى تتصل بالقضايا الجماهيرية ذات التأثير العام ، فتضطر الجمهرة الكبرى إلى الحديث عن " مجردات " و " ينبغيات " : أهمية الصدق – التحاب بين الناس – عذاب القبر ٠٠وهكذا، فينصرف اهتمام

المصلين عن الخطيب ، و" يسرحون " إذا أتوا مبكرين ، أو لا يأتون إلا وقد أوشك على الانتهاء من الخطبة ، هربا من سماعها ، لأنهم لايجدون فيها ما يستأثر باهتمامهم .

ولقد تضاءل مستوى هؤلاء الخطباء تضاؤلا ملحوظا ، وأذكر بهذه المناسبة مسجدا بالنزهة بمصر الجديدة أصلى فيه ، وأسمع الخطيب يعلو بصوته متحمسا ، لكنه " يكسر " معظم قواعد اللغة العربية ، فتتلاشى قيمة ما يقول ويفقد أثره ، وبلا مبالغة يمكن أن تسمعه ، وهو بكل الحماس الممكن يقول ، غير آبه بأصول اللغة : إن المسلمون ، يعيشون الآن متخلفون لأنهم لا يتمسكون بكتاب ( ناصبا الباء الثانية ) الله .. وهكذا ، يسترسل مكتسحا هذه القواعد . وقد يقول قارىء ربما كان هذا الخطيب نشازا ، فأجد مثالا آخر في مسجد آخر عندما أذهب لبعض الوقت إلى الإسكندرية ، ونقل لي بعض الزملاء ملاحظات شبيهة ، عن مساجد أخرى .

كذلك من مواقع الخطابة التى بدأت تتضاءل ، المرافعات أمام المحاكم ، إلا في القضايا الكبرى ، وقد أصبح الأمر اليوم أمر مذكرات تكتب يطلع عليها القاضى ، دون ضرورة المرافعات التى نرى صورة لها فى أفلامنا القديمة بصفة خاصة فيتصور معظم الناس أن التعامل مع المحاكم يستتبع بالضرورة مثل هذه المرافعات ، ومن هنا عرفت الثقافة المصرية الحديثة عددا من كبار المحامين الذين اشتهروا بمهاراتهم الخطابية ، حتى لقد روى عن المحامى الشهير إبراهيم الهلباوى ، أنه ، نظرا لكثرة انشغالاته ، نسى أمام المحكمة وانطلق كمدفع رشاش يسوق الأدلة والبراهين على براءة الشخص المفروض أن يترافع ضده ، فأسرع وكيله بتمرير ورقة صغيرة ينبهه إلى ذلك ، لكنه فوجىء باستمرار الهلباوى فى اتجاهه ، وبعد فترة ، اصابت الدهشة الحضور لقول الهلباوى : هذا ياحضرات القضاة ما يتصوره ( خصمنا ) من أدلة ، أما أدلتنا نحن فهى .. ثم عاد يبرهن على براءة موكله!!

ولا شك أن الحياة الحزبية التى كانت قائمة فى العهد الملكى ، مع إقرارنا بما كانت عليه من سوء حال ، كانت تشهد دائما صراعات فى سبيل الوصول إلى كرسى الوزارة ، وكان من مظاهر هذه الصراعات ، تلك الجولات التى كان يقوم بها زعماء الأحزاب فى مختلف أنحاء البلاد ، وهو الأمر الذى اختفى تماما من حياتنا السياسية ، حيث لم نعد نعرف ما اصطلح على تسميته " بتداول السلطة " .

وكانت بعض التنظيمات السياسية والدينية تعتبر " مدرسة " حقيقية للتدرب على الخطابة ، وعلى رأس هذه التنظيمات " مصر الفتاة " طوال مراحل تغيرها المختلفة ، حيث كان زعيمها نفسه ، أحمد حسين خطيبا يشتعل حماسا ينتقل بالعدوى إلى جمهور سامعيه .

وبالنسبة للإخوان المسلمين ، أذكر أننى ، وقد كنت فى صف يقابل الصف الثالث الإعدادى الآن ، فوجئت بأن زميل " حارة " قد أسرع عقب انتهائنا من تأدية صلاة الجمعة ، يقف خطيبا بين الناس ، ولما سألته بعدها مندهشا كيف يجرؤ على مثل هذا الأمروهو مازال صبيا صغيرا يلبس " الشورت " ، كما نقول عادة ، فكان رده أن رؤساءه فى الجماعة قد كلفوه بهذا ، وأنه عندما أبدى تخوفه من مواجهة هذا الموقف ، شجعوه ، وأنهم بهذا يسلكون معه مثل هذا الذى يقذف بك فى الماء ، فتجد نفسك مضطرا للعوم فتتعلمه !!

ولعل جملة الظروف التى أحاطت بمصر طوال ثورة يوليو ، مع وجود زعيم وطنى فريد ، مثل جمال عبد الناصر ، كانت من أسباب ازدهار خطابته هو بصفة خاصة ، فما أن يقال أنه سيلقى خطابا حتى يترك الجميع كل ما بيدهم من أعمال ليستمعوا له ، بل قل ، الجمهرة الكبرى من أبناء الأمة العربية ، حتى هؤلاء الذين كانوا لا يحبونه ويحاربونه ، يسمعونه ، وكثيرا ما كانت خطبه تشكل دافعا للتغيير ، وهل ننسى خطبته التى أعلن فيها تأميم القناة ؟ وخطبته أثناء حرب السويس على منبر الأزهر ؟ وعقب الوحدة مع سوريا أسقطت خطبة له وزارة فى العراق !!

لكن الظروف تغيرت إلى حد كبير ، منذ السبعينات ، واختفت الخطبة السياسية التى كانت هى صاحبة القدح المعلى ، وأصبحنا أمام " حديث " يلقى أمام جمهور منتقى ، يجلس فى مكان مغلق ، ولم تعد هناك تلك المؤتمرات الشعبية التى يحضرها من يريد ، ويقف فيها الخطيب أمام الميكروفون ، بدون ورق يقرأ منه، فتجىء الخطبة مشتعلة بحماس الجماهير ومشعلة لها .

إن إيقاع الحياة المعاصرة أصبح على درجة مذهلة من السرعة ، حتى أصبح من المعتاد أن يكون هناك إلحاح دائم على " الاختصار " فى الكلام ، مكتوبا كان أو شفهيا ، إلى الدرجة التى علت عندها تلك العبارة الشهيرة التى تفاجأ بها على لسان مستمعك : " هات من الآخر " !! ولو حدث أن أطال المتحدث فى حديثه بعض الشىء " والطول هنا مسألة نسبية " ، يمكن أن نسمع من يقول " هل ستعطينا خطبة ؟ " وكأن الخطبة قد أصبحت " مودة " قديمة غير مطلوبة ! وكم من عبارات أصبحنا نسمعها تسير فى هذا الاتجاه : " شبعنا خطبا ، ونريد الكلام المفيد " ! فهذا اتهام مباشر للخطبة بأنها كلام غير مفيد . وأنا إذ أقول هذا فلا يعنى أننى أؤيده ، وإنما أسجل ظواهر أصبحنا نعايشها .

وفى نفس التيار أصبحنا نشاهد اختفاء تدريجيا " للرسائل " التى يرسلها المسافرون إلى ذويهم أو تلك التى تكون بين الأصدقاء أو بين المفكرين والأدباء ، فانتشار وسائل الاتصال الأخرى ، يكاد يقضى عليها ، مثل الاتصال التليفونى ، الذى توج " بالمحمول " ، والفاكس ،

والبريد الإلكترونى ، ومثل هذه الوسائل تنهج نهجا " تلغرافيا " ٠ حتى العشاق والمحبون ، لم يعودوا يتراسلون ، وإنما يتقابلون مباشرة ، أو يتحادثون بالهاتف ٠٠ ومثل هذه الأمور تشكل جزئيات تسهم فى إيجاد مناخ لا يستسيغ أسلوب الخطابة ، ويرجح تلك الأحاديث التى تلقى بصوت هادى يخلو من الكلمات البلاغية ٠ وأكرر أننى لست ضد هذه الكلمات ، بل إننى اتهمت مرة فى أحد المؤتمرات بأن أسلوب البحث الذى ألقيته كان ممتلئا بالعبارات والأساليب والكلمات " البلاغية " ، وأن هذا يتنافى والمنهج العلمى !!

ولابد لى أن أسجل شجاعة عالمنا الفاضل فى تلك الكلمات التى ساقها عن حسن البنا ، ذلك أن ظروفا عديدة لا داعى للخوض فيها ، حيث أن هذا ليس محله أو مناسبته ، دفعت كثيرين إلى تحميل الرجل كل ما شهدته المنطقة من صور تطرف وإرهاب منذ أن بدأ نشاطه يتجه اتجاها سياسيا ٠ لم تتح لى الظروف أن أسمع الرجل أو أراه ، لكنى لا أنسى مقالا كتبه يوسف السباعى فى مجلة " الرسالة الجديدة "فى أواسط الخمسينات ، أثناء الحملة الضخمة التى شنت على جماعة الإخوان ، عقب محاولة الاعتداء على القائد العظيم جمال عبد الناصر ٠ كان يوسف السباعى يستهدف النيل من البنا فإذا به يرفع قدره بطريق غير مباشر ، ودون أن يدرى ، من حيث كونه زعيما فريدا وخطيبا ساحرا حقا ، فقد كتب أنه كان يسير مرة فى اتجاه ميدان فى الحلمية حيث كان موقع المركز العام للإخوان المسلمين ، فسمع حسن البنا يخطب ، فوقف ، من باب الاستطلاع يستمع إليه ، فإذا بنحو ثلاث ساعات تمر عليه وهو لا يتحرك من مكانه ، ودون أن ينتبه إلى طول الوقت والتعب الذى أصاب قدميه ، واستنتج من ذلك أن الرجل كان يملك من قوة البيان والقدرة على أسر لب السامعين ما يجعلهم عجينة طيعة فى يده يوجهها نحو الإرهاب !! فالغريب أننى بعد مقال يوسف السباعى هذا أخذت أبحث عن كتابات البنا لأقرأها ، مع أنها كانت ممنوعة فى ذلك الوقت ، فأعجب بفكره دون أن أنخرط فى تنظيمه ٠

# السينما المصرية بعيون تربوية

العملية " التربوية "، فى أبسط صورها هى عملية إكساب المولود البشرى ، بالتدريج ، جملة من المعارف والمهارات والاتجاهات والقيم والعادات التى تمكنه من أن يحسن التعامل مع المتغيرات المحيطة بكفاءة واقتدار ، وهذا بدوره يساعده على أن يكون مطورا لشخصيته وللجماعة التى ينتمى إليها بمختلف مستوياتها وعبر تطور الزمان. والعلمية التربوية بهذا تختلف عن العملية " التعليمية " التى تركز جهدها فى نقل مجموعة من الأنساق المعرفية فى صورة " مقررات " ، وما قد يصاحبها من مهارات تطبيقية .

وعلى هذا فإن العملية التربوية أشمل معنى وأوسع دائرة من العملية التعليمية ، وهى تتصل بدرجة أعلى وأكثر فاعلية " بالسلوك " الأخلاقى ، وقد عبر المثل الشعبى عن أولوية العملية التربوبية على التعليمية فى قوله " الأدب فضلوه على العلم " ، فالأدب هنا ليس هو فنون القصة والشعر والمقال وإنما هو السلوك الأخلاقى ، ولذلك سمى العرب العلمية التربوية بعلمية " التأديب " ، وسموا المعلم " بالمؤدب " .

وهى بهذا المعنى الشامل لا يمكن أن تكون مهمة المؤسسة التعليمية وحدها ، وإنما تشارك فيها كل تلك الأجهزة المؤسسات والنظم التى من شأنها أن تسهم فى بناء الشخصية الإنسانية ، من أسرة ، ومعاهد تعليم ، وأجهزة إعلام ، وفنون ، وترفيه ، ودور عبادة ، ومؤسسات سياسية ... الخ .

وقد أصبح واضحا فى أيامنا هذه تقدم أجهزة الفن والإعلام على كثير من مؤسسات التنشئة والتربية ، ومن بين هذه الأجهزة والمؤسسات تتميز السينما ببعض الخصائص التى تجعل منها قوة مربية ، فهى تقوم بالدرجة الأولى على ما يمكن تسميته " بالحدوتة " .. قصة ، ذلك اللون المحبب لكل الأعمار ، مما يجعل الجميع يقبلون عليها إقبالا ملحوظا . وهم فى إقبالهم هذا عليها ، يكونون على استعداد للتأثر بها وتقبل ما تجىء به من رسالة.

كذلك فإن مما يكسب السينما قوة تأثير فى السلوك أن الإنسان يذهب إليها حرا مختارا ، وهو فى اختياره ، عادة ما يتجه إلى ما يهوى من موضوعات ، وما يحب من فنانين . ويضاعف من هذا وذاك أن تكتسب " الحدوتة " حركة مرئية ومسموعة ، وبألوان جذابة ، وبصاحبها موسيقى تعبر بالنغم عن كثير من المواقف والانفعالات والحوارات ، ولها أوقاتها المتنوعة التى تتيح للمشاهد فرصة اختيار واسعة ، ولا ننسى أن المشاهد يعرف مقدما أنه

لن يُمتحن فيما يشاهده مثلما هو الأمر فى معاهد التعليم ، فيشاهد غير واقع تحت ضغط وتهديد ! من هنا فلا عجب إذا أن ينظر التربويون إلى السينما باعتبارها قوة تشكيل للسلوك وتوجيه له .

وإذ نقول ونقر بهذا التأثير الضخم للسينما على تكوين الشخصية ، فغنى عن البيان أن هذا التأثير قد يكون إيجابيا وقد يكون سلبيا ، وبالتالى فهى يمكن أن تكون قوة بناء وتنمية ، كما يمكن لها أن تكون قوة تدمير وتخريب . ونحن نعلم أن هناك نسبية فيما يعد بناء وتنمية وفيما يعد هدما وتخريبا ، إذ المفروض أن هناك رقابة لا تسمح بما يهدم ويخرب .

ومن المفروض أن هذه الرقابة تنوب عن المجتمع فى المحافظة على معاييره العامة المتفق عليها ، لكن ربما يرى المشتغلون بالتربية أمورا قد تمر بسهولة على الرقيب ، الذى يركز انتباهه أكثر على ما يقولون أنه يخدش الحياء العام ، لكن ربما يكون هناك حوار أو منظر يخلوان من هذا الخدش لكنهما يؤثران بالسلب فى بناء الشخصية . وغالبا ما تحرص الرقابة على التضييق على ما يمس الجوانب السياسية ، بينما يتمنى المربى أن يتسع المجال فيها لمزيد من المواقف وتعرية ما نعانيه من سلبيات وتوسيع دائرة المناقشة للقضايا السياسية !

ولما كانت الأشياء بأضدادها تتمايز ، كما يقولون ، فإننا نستأذن القارىء فى أن نسجل له فيما يلى عددا من الصور والأساليب والمفاهيم والتوجهات التى تؤثر سلبا فى شخصية المتفرج على وجه العموم ، وصغار المتفرجين على وجه الخصوص . ولا شك فى أن الجوانب التى سوف نشير إليها تحتاج إلى نماذج وأمثلة من أفلام مصرية ، لكن هذا تنوء به مهمة هذا المقال ، ويحتاج إلى دراسة مطولة ، وبالتالى فنحن إنما نعتمد على ما سوف يحدث لاشعوريا بالنسبة للقارىء ، إذ ، غالبا ، سوف تستدعى ذاكرته بنفسها مثل هذه الأمثلة معفية إيانا – مؤقتا – من هذا الجهد !

ونود أن ننبه منذ البداية أن بعض ما سوف نعرض له كان شائعا فى السينما المصرية القديمة ، ولم يعد مطروحا الآن ، لكننا نلح عليه ونستمر فى الحديث عنه تربويا لأن الأفلام القديمة تعرض دائما على شاشة التلفزيون ، ويقبل الناس على مشاهدتها إقبالا عجيبا ، وبالتالى ، فإن الجوانب التى نشير إليها ما زالت مستمرة فى ممارسة تأثيراتها على الناس . وقد يتصور البعض أن الإقبال على الأفلام القديمة يكون عادة من جانب كبار السن ، تعلقا منهم بكل ما يذكرهم بالماضى ، لكن العجيب أن الصغار لا يقلون غراما بمشاهده هذه النوعية من الأفلام ، خاصة أفلام إسماعيل يس ، على الرغم مما تقوم عليه من سذاجة

وسطحية واضحتين ، مما يحتاج إلى دراسة وتفكير . وقد يسرع البعض إلى القول : لأن هذه الأفلام القديمة أفضل من الحديثة ، وهذا تفسير ليس سليما فى كل الأحوال !

من هذه الصور التى نود إبرازها :

= " فالصدفة " تلعب دورا كبيرا فى توجيه مسار الأمور فى كثير من الأفلام ( قيام القطار قبل أن يلحقه من بيده الحل – عدم وصول خطاب مهم – أو وقوع خطاب مهم فى يد من لا يجب أن يقرأه – وفاة شخص بيده سر مهم له دور حاسم فى تفسير الموقف ... وهكذا .

إن هذا من شأنه أن يبعد التفكير عن النهج العلمى الذى يقوم على التسلسل المنطقى والرابطة السببية وحسن التخطيط والتدبير والقصدية ، وبالتالى يغرس فى النفوس روحا سلبية تجعل الإنسان يظل منتظرا إلى أن يأتيه الحل " بالصدفة " .

= وأحيانا ما يصل تعقيد المشكلة إلى ذروته فى الفيلم ، ويتم الحل فجأة بتنصت شخص مهم على حوار يتضمن جملة الحقائق الأساسية ، فيظهر الشخصص المعنى ليعلن أنه قد سمع كل شىء ..!!

هذا الموقف الذى يتكرر كثيرا فى أفلامنا يرسخ سلبيتين : أولاهما ، أن التنصت قد حل المشكلة ، وبالتالى فإن هذا من شأنه أن يكسبه قيمة إيجابية وفضلا ملحوظا ، مما يتناقض تناقضا واضحا مع معيار أساى من معايير الأخلاق الاجتماعية ، فالتنصت اقتحام بغير استئزان لخصوصية الإنسان ، بل ويمكن النظر إليه باعتباره " سرقة " من نوع خاص . ثانيهما ، فجائية الحل ، والذى لا يأتى نتيجة مواجهة وتفكير ومحاولات الكشف عن السبل السليمة ، بل يجىء وفقا لمنطق المعجزة ، وهذا سبيل سىء فى تنمية التفكير .

= وعندما تضيق حلقة المشكلات على س أو ص من أبطال الفيلم ، نجده يهرع إلى كباريه أو إلى احتساء الخمر ، أفلا يغرس سلوك شائع مثل هذا فى نفوس الأبناء أن " الخمر هى الحل " ؟ وأن " الملاهى الليلية هى " الصدر الحنون " الذى يمكن أن نرتمى عليه لننسى أحزاننا وهمومنا ومشكلاتنا ؟ وأضعف الإيمان – إذا جاز هذا التشبيه – التدخين بشراهة ، حتى أن هناك الكثير من المواقف التى نجد فيها دخان السجائر لا يكاد ينقطع ، مع كل ما هو معروف عنها من أخطار مدمرة أجمع عليها الأطباء . وإذا كنا مغرمين بتقليد السينما الأجنبية عموما والأمريكية خاصة ، أفلا نتنبه إلى أنه قلما نرى فيها تدخينا ؟ !وماذا نقول لأبنائنا الذين يسمعون منا الكثير من الأوامر لنهيهم عن التدخين وهم يرون من يعشقون من الممثلين يدخنون دائما وبشراهة ؟

ترى ، هل يمكن أن نرى من يتأزم يهرع كى يصلى ركعتين لله أو يقرأ بعض آيات القرآن الكريم ، مصداقا لقوله تعالى : ألا بذكر الله تطمئن القلوب ؟ ، أو آيات من الإنجيل

إن كان مسيحيا ، أو يذهب إلى المسجد أو الكنيسة التماسا لجو السكينة والخشوع وتذكر الله ؟!

= عندما تتصدى السينما لموضوعات ، فهى فى كثير من الأحيان تسير وفق منطق ( الهوجة ) ، فمنذ أن أثارت القيادة السياسية قضية المخدرات فى الثمانينات ، تحت شعار " الصحوة الكبرى " ، إذا بمعظم الأفلام ، طوال سنوات ، عدة تلف وتدور حول المخدرات ٠ ولأن عجلة الإنتاج لابد أن تدور لتظهر عشرات الأفلام ، تتنوع الأساليب ، حتى وكأنهم يفتحون أعين الناس على أساليب لم تكن لتخطر ببالهم ، سواء كانت هذه الأساليب أساليب تهريب أوتوزيع المخدرات أو تعاطيها ٠وعندما أثيرت قضايا فساد اقتصادى ، وخاصة ما يتصل بتهريب السلع الفاسدة ، انتشرت أفلام عن ثراء اللصوص والكسب غير المشروع ٠ إن مواكبة هموم المجتمع أمر ضرورى من غير شك ، لكن الإلحاح على قضية بعينها عدة سنوات ، وفى صورة " زفة " ، يفقد السينما التأثير المطلوب ، ويؤذن بإفلاس فكرى ، كما يرسخ فكرة أن السينما لا تملك زمام المبادرة فى كل الأحوال ٠

= وهذا ينقلنا إلى مثال آخر ، على طريق " الهوجة " ، فإذا ما كانت حوادث الإرهاب الآثمة قد تمت على يد عدد ممن ادعوا التدين ، أو فهموه فهما خاطئا ، وروعوا الناس وعوقوا التنمية ، مما كان لابد منه لظهور أفلام تتناول هذه القضية ، إلا أن هناك نفرا آخر ممن يركبون الموجة ، فقد أسرع كثيرون لحشر مواقف يبدو فيها الافتعال واضحا ، إذ يظهر فجأة ، وبدون مناسبة عدد من لابسى الجلاليب البيضاء وذوى اللحى ،دائما : نصابون وقتلة ، فهل لا سبيل إلى التنفير من الإرهاب باسم الدين إلا بعرض النماذج السلبية ؟ أفلا يمكن أن نعكس الطريق بمعنى أن نعرض نماذج إيجابية ، فيظهر متدينون يتسمون بالتسامح الفكرى ، والكلمة الطيبة ، وحلو المعشر ، ونبذ العنف ، والسعى إلى الإصلاح ، والانشغال بالعمل الجاد ، والجهد الإنتاجى ؟

= ونحن نشكو من ندرة الأفلام التى تتناول قضايا خاصة بالأطفال ، ولا نقصد بذلك ما يسمى بسينما الأطفال ، وإنما موضوعات يكون بطلها طفلا ، كما نذكر على سبيل المثال ذلك الفيلم الذى تناول رسالة أرادت طفلة أن ترسلها إلى الله ، وفيلم دار حول طفلة تمر بأحداث كثيرة عندما خرجت لتشترى دواء لأبيها اللمأزوم مرضيا ٠٠ وهكذا ٠ إن مثل هذه النوعية لا يحتاجها الأطفال وحدهم ، وإنما يحتاجها الكبار كذلك حتى يحسنوا التعامل مع قضايا أبنائهم ٠ولو خاطبنا الإخوة السينمائيين بلغة الشباك وعدد الجمهور ، فهل نذكرهم بأن عدد الأطفال يبلغ حوالى ٤٠٪ من جملة السكان ، وبالتالى يصل عددهم إلى خمس وعشرين مليونا على الأقل ، والأطفال لديهم وقت فراغ أكثر من الكبار للذهاب إلى السينما

، فكيف يمكن أن نهمل هذا الجمهور العريض ؟ أم أن المسألة ، فيما يبدو ، هى ندرة الكتاب الذين يستطيعون أن يكتبوا لهم ؟!

= ونستطيع أن نقيس على هذا الكثير من المجالات التى تقل فيها الأفلام كثيرا ، مثل : قضايا المرأة – مجتمع الحرفيين – قطاع الطلاب والشباب والمراهقين – الشحاذون – المعلمون – الباعة الجائلون .. إلخ

إن هناك بطبيعة الحال أفلاما تعرض لبعض هذه المجالات ، لكنها تتناولها عرضا ، وما نود التأكيد عليه أن يكون مجال من هذه المجالات هو الموضوع المركزى للفيلم ، فمن خلال هذا التنوع تتعزز الروابط بين المواطن وهموم الأمة والوطن بحيث لا يختزل المجتمع فى التجار وأصحاب القصور والفيلات وداخل المدن وأحياء بعينها .

= ومن الموضوعات التقليدية المتكررة ، خاصة فى الأفلام القديمة ، ذلك المديح المتصل للفقر والفقراء ، والسخرية من الغنى والأغنياء . إن هذا قد يخدع الملاحظ لأول وهلة فيظن أن فى هذا تعبيرا عن انحياز طبقى نحو الفقراء والمستضعفين فى الأرض ، لكنه فى الحقيقة يخدر الفقراء ، فيوحى إليهم بالرضى بما هم عليه من سوء حال ، بزعم أنهم هم وحدهم أهل الشرف والمروءة والأصالة ، وأن لهم الجنة !! إنها معالجات تنحو نحو السلبية ، ولا تبصر النهج الصحيح لمعالجة التفاوتات الطبقية، ثم ، من قال أن كل من هو فقير هو بالضرورة صاحب مروءة وشرف وعزة نفس ؟ ومن قال أن كل من هو متيسر ماديا هو بالضرورة خسيس وجبار ونذل ؟ إن هذا تبسيط مخل لتموجات الواقع وتضاريس المجتمع !

= وهذا ينقلنا كذلك إلى طرح تساؤل عن مفهوم " البطولة " ، وإن كنا نسجل أن السينما بدأت لا تتقيد بحصر البطولة فى " شخص " معين يتميز بالوسامة والوجاهة ، وبطلة تتسم بالحسن والجمال ، لكن من المهم التأكيد على التوجه الجديد بتوسيع دائرة البطولة وبتوسيع مفهومها ليشمل " مواقف " ، بحيث يمكن أن يكون البطل طفلا أو عجوزا أو حتى " كلبا " ، كما شاهدنا فى بعض الأفلام ، فمثل هذا يعزز معيار البطولة " الموقفية " لا " الشخصية " ، وبالتالى تتعزز الثقة بالذات ، ويتوارى التفكير الأسطورى ، وتبرز حقيقة أن البطولة ليست حكرا ، وإنما هى متاحة للجميع بقدر ما يقدمون من عطاء .

= وإذا كان من المسلم به أن من حق السينما أن تذكر الأخطاء لكننا نلاحظ أن المتخصص فى اللغة العربية ، غالبا ما يكون شخصا محل استهزاء وسخرية ، ويظهر المأذون شيخا منهوما بالأكل والأجر ، متحدثا بفصحى هزلية ، ولسنا فى حاجة إلى كثير شرح للإشارة إلى ما يرسخه هذا من سخرية باللغة القومية ، ومعروف أن اللغة القومية

ليست مجرد وسيلة اتصال بين النـاس ، بل هى " عقل " الأمـة ، وطريقـة تفكيرهـا ومـرآة موروثها الحضارى ٠

وبعـــــد ٠٠

فهذه مجرد أمثلة ، كل جانب منها ربمـا يشـمل قضيـة تسـتحق مناقشـة تقـوم بذاتهـا ، مستقلة ، مثيرة حوارا ، وكلها تصب فى النهايـة فـى قيمـة كـبرى نستشـعرها جميعـا ، فـى قدرة السينما على التشكيل والتوجيه لسلوك الإنسان وشخصيته ، بكل ما تقوم عليه من قيـم واتجاهات ومفاهيم ٠ ومن المؤكد أن هناك العديد مـن الأمثلـة العكسـية ، أى تظهـر توجهـا إيجابيا نوده وندعوا إليه ، لكننا ركزنا على الأمثلة السلبية ، لا للتنديد بأحد ، ولكن لتجنيب أفراد أمتنا من صور خلل قد تتسرب إلى سلوكهم فهم أغلى ثروة تملكها مصر حقا ٠

# أصداء العولمة فى عالم التعليم

حملت إلينا الأنباء الثلاثاء الثانى عشر من سبتمبر ٢٠٠٠ ، أنه على غرار ما حدث فى أثناء المؤتمر الوزارى لمنظمة التجارة العالمية فى مدينة سياتل الأمريكية فى أواخر العام الماضى ، تسبب الآلاف من المتظاهرين الرفضين للعولمة ، والذين يتهمون المنظمات الاقتصادية والتجارية العالمية بالعمل لصالح الأغنياء فقط على حساب الفقراء فى تأخير بدء اجتماعات المنتدى الاقتصادى العالمى التى استضافتها مدينة ملبورن الاسترالية . وفى رأينا الشخصى أن هذه الصور الاحتجاجية التى نراها تظهر فى الغرب بصفة خاصة ، المستفيد الأول من العولمة لهى صيحة ضمير أو قل ، صيحة تحذير ، تصدر من هذا العالم الذى نبتت فى تربته تربة العولمة توقظ الجمهرة الكبرى من الناس - وخاصة فى عالمنا العربى - إلا أن الأمر ليس قدرا مكتوبا لابد أن ننصاع له ونرضخ ، وأن الأمر ليس خيرا للجميع فى كل الأحوال ، ويحتاج إلى مراجعة وفحص ونقد ، بل وصل الأمر بأحد المفكرين السويسريين أن يصف منظمة التجارة العالمية بأنها " امبريالية اقتصادية " ، على الرغم من أن مصطلح " الامبريالية " قد اختفى من عالم السياسة والثقافة منذ أن انهارت منظومة الدول الاشتراكية ، بداية من انهيار سور برلين فى نوفمبر عام ١٩٨٩ ، وانتهاء بتفكيك الاتحاد السوفيتى وخروجه من عالم " الاشتراكية " كى يدخل فى " عصمة " الرأسمالية لتنحسم المواجهة التى بدأت عقب الحرب العالمية الثانية لصالح المعسكر الغربى الرأسمالى ، دون طلقة رصاص واحدة .ولو صدر هذا التوصيف المعاصر بالإمبريالية من واحد من أمثالنا لهب البعض موجهين إلينا تعلقا بأساطير الأولين ، وترديدا لمقولات عفى عليها الزمن .. فها هو شاهد من أهلها يؤكد ما نشعر به ونؤمن !

فمنذ سنوات قليلة ونحن نشهد أنهرا من المداد أصبحت تجرى على صفحات الجرائد والمجلات والكتب ، حديثا عن العولمة ، مفهوما وتحليلا وتتبعا للعوامل المنشئة ، والآثار الناتجة ، والواجبات المنتظرة ، مما يعفينا إلى حد كبير من التوقف عند كثير من هذه النقاط كى ندلف بسرعة إلى جوهر موضوعنا ، وهو موقف التعليم من هذا التوجه المعاصر ، أو ( قل سفينة نوح ) التى نرى وجوب اعتصام التعليم بها إزاء طوفان العولمة .

١ - وبداية فإن أحد معانى العولمة أننا بصدد عالم على وشك أن يصبح سوقا واحدة ، تنزاح فيه الحدود بين الأسواق المحلية ، ليصبح محك مرور السلعة هو مدى توافر المواصفات القياسية فيها . والسلع المشار إليها هنا ليست فقط السلع المادية ، من غذائية

وهندسية مثلا وإنما يمتد مفهوم السلعة ليشمل الإنسان ، وبمعنى أصح ، عمل الإنسان ، تفكيره ومهاراته ، فإذا كان جواز المرور لسلعة دوائية هو مدى توافر الشروط المتفق عليها ، بحيث لا يجوز لسلطة محلية أن تمنع دخولها البلاد بحجة أن هناك إنتاجا محليا بحاجة إلى الحماية ، فكذلك الأمر فى القوى العاملة ، فإذا كان هناك ، مثلا ، طبيب إنجليزى يتوافر فى إعداده ما هو مطلوب فله أن يحصل على ترخيص بالعمل فى أى بلد يريد .

وأمر مثل هذا يستتبع بالضرورة أن نأخذ هذا المبدأ الذى بدأنا نسمع عنه منذ سنوات فى مجال التجارة والصناعة ، فى مجال التعليم كذلك ، ألا وهو مبدأ " الجودة الشاملة " ، وإن كان من الحق أن نقول أن عالم التعليم قد عرف منذ عدة سنوات مبدأ مشابها ألا وهو : " التعليم للإتقان " ، وحرص كثيرون على أن يقوم التعليم على تحليل للكفايات اللازمة للمهارات المطلوبة لأى عمل ، والكفايات هنا مقصود بها مجموعة " الأداءات " الكفيلة بأن يتم العمل على أحسن ما يمكن الوصول إليه ، فإذا كان العمل المطلوب هو عمل من الأعمال المتصلة بالكومبيوتر على سبيل المثال فإن هذا العمل يحلل إلى مجموعة من الكفايات التى لابد من التعليم وفقا لها ، ولابد للطالب من تعلمها إلى درجة الإتقان .

لكن مثل هذا الأمر إذا كان تعليمنا قد عرفه ، فقد عرفه على مستوى " البحث والدراسة " ، حيث أجريت دراسات كثيرة فى مجاله ، من مستوى درجتى الماجستير والدكتوراه ، فضلا عن بحوث ودراسات قام بها أساتذة فى العلوم التربوية والنفسية وخبراء فى التعليم ، وعلى مستويات فردية ، بينما المفروض أن يتحول إلى " اتجاه " و " سمة " تعم كافة أشكال التعليم ومستوياته من الحضانة إلى الجامعة ( وهو الأمر الذى لم يحدث ) ، وإلا فكيف يمكن أن يتنافس خريجو معاهدنا التعليمية مع خريجى المعاهد الأخرى فى الدول المتقدمة ؟ إننا كثيرا ما نستسلم ونقول أننا لن نستطيع منافسة الولايات المتحدة واليابان وألمانيا ، مثلا فى صناعة السيارات ، أو الصناعات الثقيلة ، أو أننا لن نستطيع منافسة الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا وروسيا فى صناعة السلاح ، لظروف متعددة لا محل هنا للإشارة إليها ، لكننا نستطيع – إذا أردنا – أن ننافس فى مجال التعليم وإعداد القوى البشرية ، إن لم يكن فى مختلف القطاعات ، ففى بعضها على الأقل ، وفى أسوأ الفروض أن نضيق الفجوة شيئا فشيئا .

وللأسف الشديد فإن جهودنا فى هذا الكلام يغلب عليها الاتجاه " الدعائى " أو " الإعلانى " ، إذا صح هذا التعبير ، ففى كثير من التصريحات والكتابات التى تصدر من جهات رسمية يصور ما يحدث على أرض التعليم فى كل دولة من عالمنا العربى وكأننا قد تقدمنا العالم كله ، وفى نفس الوقت تتصاعد الشكوى من قطاعات متعددة من سوء مستوى التعليم ، وأن

مستوى الخريجين لا يتجه إلى التحسن إلا فى قطاعات محدودة للغاية . أقول هذا وأنا أؤكد للقارىء أننا نمارس التدريس منذ أول الستينات ويلفت نظرنا بالفعل تلك المقارنة المؤلمة التى يمكن أن نعقدها بين خريجى كل عقد من الزمان ، حيث تكون النتيجة غالبا فى صالح الأقدم ، لا نقول هذا بحكم الحنين التقليدى من كل إنسان إلى الزمن الماضى ، وإنما من واقع شواهد وبراهين وقياسات ، وإن كان هذا لا يجعلنا ننكر وجود عكسه أحيانا فى بعض المواقع التعليمية .

إن الأعداد تتكاثر ، ومجموع الدرجات يرتفع . وهذا صحيح ، لكن ، من قال أن هذا مؤشر على التعليم الجيد ؟ ويبدو أنه من الضرورى أن نذكر القراء بأن تعليمنا فى معظمه يدور حول امتحانات لا تقيس إلا مدى تذكر الطالب لمجموعة من المعلومات التى شبهها " هوايتهد " يوما بأنها معلومات " ميتة " وقصد بذلك أنها ليست من ذلك النوع الذى يتفاعل مع مفردات الحياة الاجتماعية والطبيعية فيدفع بها إلى التغير والتطور ، فكأننا ونحن نعلم مثلنا مثل البائع أو المنتج الذى يضع فاكهة أو خضارا أو أى سلعة من السلع داخل صندوق ، ثم يأتى وقت لنفرغ ما فى الصندوق ، فهل يتصور أحد إمكان حدوث تأثر السلعة بالصندوق ، أو تأثر الصندوق بها ؟ كلا .. هكذا ما نعلمه للتلاميذ ، إنه عملية " تخزين " لا يستتبعها تفاعل بين المتعلم والمعلم ، ولا بين المتعلم وما يتعلمه ، ولا بين المتعلم ، وما يتعلمه ، ومتغيرات السياق الحياتى الذى يجرى من حوله .

وعلى هذا فهناك من ريد أن يتخذ موقفا من العولمة فى هذا السبيل بالمخاصمة والرفض ، وهذا سبيل العاجزين ، وإبقاء الحال على ما هو عليه ، كما أن هناك من يرفع الراية البيضاء ويتصور أنه "لا فائدة " ، وبالتالى يدعو إلى فتح الأبواب على مصراعيها للقوى العاملة الأجنبية ( الغربية ) ما دامت تتوافر لديها شروط الجودة ، وهذا أيضا منطق المتخاذلين القانطين ، لكن المنطق الإيجابى حقا هو أن " نستنفر " الطاقات كلها كافة ، ونجيش الجهود كى تصل قوانا العاملة المتعلمة إلى أقصى ما يمكن تصوره من إتقان وجودة ، خاصة – كما أكدنا – أن هذا هدف لا يقع فى مجال المستحيلات ، ف" لله عبادا إذا أرادوا أراد "!

٢ – ومن الأمور الأخرى التى لابد من أن يواجهها التعليم فى بلادنا، هذا المبدأ الذى اصطلح على تسميته " بالشفافية " ، أو قل " المكاشفة " و " الصراحة " و" الصدق " ، فما من تعليم فى أى مجتمع ، فى أى فترة من الزمان إلا ويعانى من مشكلات ، وأزمات ، وهذا لا يشين مجتمعا ما ، إنما الذى يشين المجتمع أن يسود الخطاب التربوى فيه حديث عن غير ما يحدث ، وتغطية وتعتيم على ما يحدث . ولعل المثال الشهير الذى يمكن أن نذكر

القارىء به ، هذا الذى أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية فى أوائل الثمانينات عن حالة التعليم فيها ، وكيف أنه " مأزوم " بحيث جعل الولايات المتحدة ، أقوى دولة فى العالم " أمة فى خطر " ! هل عاب هذا أمريكا ؟ هل تضاءلت مكانتها فى أعين العالم ؟ العكس هو الذى حدث .

هذا فى الوقت الذى رفعنا نحن – فى مصر على سبيل المثال عام ١٩٨٧ – شعارا يقول " أمة لها مستقبل " ، حيث كانت عبارة لها رنينها اللفظى دون أن يكون لها مضمونها المحرك لحركة الواقع ، فما من أمة إلا ولها مستقبل ، المهم هو : أى صورة من صور المستقبل ؟ بل إن كل حجر ، وكل حيوان له مستقبل ، لكن : ماذا سيكون عليه شكل هذا المستقبل ؟!!ومن ثم فلا ينبغى أن نخشى أن نفعل شيئا من الشفافية والمكاشفة ، خاصة وأن شبكة الانترنيت أصبحت شبكة من العيون التى تتسلل إلى كل بقعة من بقاع العالم ملقية عليه الضوء وكاشفة الغطاء عنه ، حتى أصبح عالمنا عالما مكشوف الغطاء ، وأصبحت القنوات الفضائية قادرة على أن تسمعنا وترينا كل ما كان خافيا علينا ، فى التو واللحظة .

ولابد من الكف عن تلك النغمة التى أصبحت اسطوانة مشروخة ، عندما تتاح الفرصة لرأى من الآراء أن يعبر عن رأيه المناقض للرأى الرسمى السائد فنتهمه بأنه يريد الإساءة إلى الوطن ! تأمل فى حالة إنسان عزيز عليك : أخ أو أخت أو أم أو أب أو صديق ، أصيب بمرض من الأمراض ، وتصور أن هناك من يريد التعتيم على هذا المرض ، وآخر يريد الكشف عنه ، فمن الذى يريد الإضرار بمن تحب وتعتز ؟ الإجابة معروفة .. إنه هذا الذى لا يصارح ويكشف .

ويتصل بهذا مدى توافر " المعلومات " عن كل صغيرة وكبيرة فى التعليم . إننا مع الأسف الشديد ما زلنا نتعامل مع البيانات والإحصاءات بمفهوم أمنى متخلف ، كانت له دواعيه فى فترة مضت بحلوها ومرها ، ومع ذلك فما زالت هناك بعض القوانين والقرارات التى تقيد الباحثين عندما يريدون الحصول على بيانات تخص جانبا من جوانب التعليم ، وكما يقولون " يدوخ " الباحث من مكتب إلى مكتب ، ليصل فى النهاية مقطوع الأنفاس ، ودون أن يحصل على " كل " ما كان يأمل فيه ، خاصة وأن هناك جوانب لا تغطيها الإحصاءات الرسمية ، وتقف عند عموميات بحيث تضعف قدرة الأرقام عن أن تكون ميكرسكوبا حقيقيا يكشف عن حقيقة الواقع . وأبسط مثال يساق لذلك أن يحصل باحث على رقم يقول بأن رواتب المدرسين قد أصبحت كذا ، فهذا الرقم يكون خادعا ، إذا لم يرتبط به رقم آخر عن القوة الشرائية فى الفترات الى نقارن بينها ، فقد يكون المرتب البالغ خمسين

جنيها شهريا فى فترة أكثر كفاية من مرتب يبلغ مائتى جنيه فى فترة أخرى ٠ وكذلك عندما يقال أن ميزانية التعليم قد أصبحت كذا مليار من الجنيهات ، فهذا الرقم لا دلالة له إلا إذا ارتبط كذلك بأرقام أخرى تتصل بسعر العملة المحلية ، وبالأسعار القياسية لمختلف السلع والتجهيزات الرأسمالية التى يحتاجها التعليم ، وهكذا الأمر فى كثير فى كل ما يتصل بالتمويل والتكلفة والإنفاق ٠

٣ – ومبدأ " المشاركة " ليس مجرد مبدأ سياسى يفرض مشاركة كل القوى والمؤسسات فى ما يتصل بالقضايا الكبرى التى تخص مستقبل الأمة ، ولكنه مبدأ " ديموقراطى " يشكل نهجا للحياة التعليمية ، أيا كان مجال التعليم ، وأيا كان المستوى ، يفرض ألا ينفرد بالقرار أحد ، " فالأمر شورى " بين الجميع ، وفق قواعد وأصول يتفق عليها ، ففى أمور التعليم الهندسى ، مثلا ، لا يشارك إلا من هم أهل لذلك ، وهم أعضاء المجتمع الهندسى الجامعى ، ومن لهم صلة بهذا المجال فى مجتمع العمل الهندسى الخارجى ٠٠ وهكذا ، لكن هناك أمورا عامة مشتركة تقتضى مشاركة كافة أطراف التعليم ٠

ويمكن أن نسوق مثالا مما تفرضه العولمة من تسيد لمبدأ المشاركة فى مجال التعليم ، ما يتصل بالإدارة ، وما يتصل بالعملية التعليمية ، ففى مجال الإدارة ، نحن نعترف بأن هناك مجالس على كافة المستويات ، لكن المشكلة أن تكوين هذه المجالس يكون عادة بيد المسئول ، بحيث يشيع معيار للتقريب والاستبعاد يقوم على الخواطر أحيانا ، والعلاقات والمواقف الشخصية أحيانا أخرى ، وعلى تفضيل السائرين على " نهج المسايرة " واعتبارهم " متعاونين " ، أما السائرون على نهج " المغايرة " فيحوطهم الشك عادة ، وينظر إليهم باعتبارهم " مشاغبين " ، ولا يملك الأعضاء سلطة المحاسبة والمساءلة ، مما يجعل كثيرا من هذه المجالس " غطاء " يضفى المشروعية والتبرير على بعض القرارات ، وبالتالى فلابد من التفكير فى كيفية أن تكون سلطة تشكيل هذه المجالس وإقرار أو رفض ما تصل إليه فى غير يد الوزير القائم بسلطة التعليم ، حتى يمكن ضمان أن يجئ تشكيلها ضاما آراء مختلفة ، وأصحاب مواقف متنوعة ، فيثرى الفكر التربوى ، وتتعدد زوايا الرؤية ، ونقترب أكثر من الحق ومن الحقيقة ٠

أما بالنسبة للعملية التعليمية ، فنجد من المستهجن أن يقف المعلم وحده فى الفصل أو قاعة المحاضرات باعتباره مصدرا وحيدا للمعرفة ، والطلاب مجرد " سميعة " ٠٠كأن المعلم ، مثلما شبهه المفكر التربوى البرازيلى الشهير " باولو فرير " هو " مودع " أموال فى بنك ، وبعد فترة يجئ كى يسترد ما أودعه من مال ، حتى لقد أطلق على هذه النوعية من التعليم الذى يقوم على التلقين بالتعليم " البنكى " وإذا كان هذا التعليم " البنكى يقوم على "

الإيداع " ، فإن عالمنا المعاصر ، فضلا عن عالم الغد يستهدف تعليما يقوم على " الإبداع " ٠ عالم العولمة الذى يتطلب تنشئة شخصية منفتحة مبدعة مبادئة محاورة ، يتطلب معلما يقف عند حدود دوره كمنظم لعملية تعليم وتعلم ، ربما يقف هو معلما فى موقف ، ويستعد لأن يكون متعلما فى موقف آخر ، إذا حرص على إشراك الطلاب فى الحصول على المعلومات وإبداء الرأى ، وبالتالى لا يكون هناك ما يمنع أبدا أن يكون هناك من الطلاب " المتعلمين " من يمكن أن يمارس مهمة " تعليم " ، ولو لبضع دقائق ، بمعلومات يكون قد حصلها هو بمجهوده الخاص خارج قاعة الدرس ، وخارج نطاق " المقرر" ٠

٤ – وتقودنا النقطة السابقة توا إلى الهدف الأساسى الذى ينبغى أن تركز عليه عملية التعليم ، ألا وهو " التفكير " على وجه العموم ، و(الناقد ) منه على وجه الخصوص ٠ لقد أصبح الرأى مستقرا الآن فى الفكر التربوى ، بل وقبل أن يتعالى التصايح باتجاه العولمة ، أن المهم فى التعلم ليس هو " ماذ يتعلم التلميذ ؟ " ، ولكن المهم أكثر هو " كيف يتعلم ؟ " وهو الأمر الذى تعبر عنه الحكمة الصينية الشهيرة القائلة بأنك إذا وجدت جائعا فليس المهم أن تعطيه سمكة وإنما المهم أن تعلمه كيف يصطاد ! فتعلم كيفية التفكير ، يعنى تزويد الطالب بالأداة التى تمكنه من أن يفتش ويبحث ويدقق وينظر ويستنتج ويلاحظ ، والأكثر أهمية ألا يكون التفكير أى تفكير وإنما يكون من ذلك النوع الذى يقوم على الشك ٠٠ الشك المنهجى الذى لا يسلم بصحة ما يسمع أو يقرأ إلا إذا توافر لديه الدليل على ذلك ، ومن ثم فهو يقف أمام كل شىء ليرفع شعارا على جانب كبير من الأهمية : هل هذا صحيح ؟!

لقد قيل بحق أن " جاليليو " قد قفز بالفكر الإنسانى خطوات ضخمة إلى أمام عندما توقف أمام آراء لفيلسوف اليونان الشهير " أرسطو " وسأل نفسه : " هل هذا صحيح " ؟ إذ أنه ، لكى يجيب بالنفى أو التأييد ، كان لابد أن يجرب ، وعندما جرب اكتشف أن رأى أرسطو الذى سارت وراءه الإنسانية عدة قرون كان رأيا خاطئا ، وتم تصحيح المسار ٠٠ صحيح لقد حُكم على جاليليو بأحكام قاسية من السلطة القائمة فى زمنه ، لكن البشرية كسبت الكثير والكثير ٠

إن البعض من الطلاب يقف أمام الكلمة المطبوعة فى الكتاب المقرر وكأنها قد اكتسبت قداسة تبعد بها عن احتمالات الشك ، وكيف لا ؟ ألم يكتبها أساتذة عظام ؟ وراجعها أساتذة كبار ؟ لكن لابد من تذكر أن فوق كل ذى علم عليم ، و" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " و " جل من لا يسهو " ٠٠ وهكذا ، فالخطأ محتمل ، وكذلك تغير ما تصورناه حقائق وفقا للتطور المعرفى المتزايد ٠ ونفس الشىء بالنسبة لما يقوله المعلم ٠ إن أهمية هذا الأمر

أنه يمتد بالطالب الذى تربى على التفكير الناقد كى يتعامل بنفس المنهج مع ما قد يسمعه أو يقرأ عنه من خرافات أو إشاعات أو معلومات مرسلة ، خاصة وأننا نردد ليل نهار أننا فى عصر المعلوماتية وتدفق المعارف ، فمثل هذا السيل الجارف يتطلب عقلا يحمل " فلترا " ينقى به ما يتلقاه ليميز الصحيح من الزائف ، ويقوم بترتيب للأولويات .

٥ – وإذا كان العالم باتجاه أن يكون عالما واحدا ، ذا حضارة واحدة ، فلا يعنى هذا ، الذوبان وفقدان معالم الذاتية الثقافية ، وإلا تحولت العولمة إلى صورة من صور الإمبريالية فى ثوب جديد ، وهو الأمر الذى يشعر به معظم أبناء شعوب العالم النامى ، والذى يحمل قدرا من الحقيقة ، على الأقل من وجهة نظرنا الخاصة . وما نريد التأكيد عليه أن الانفتاح على الآخر ، لا ينبغى أن يكون مدعاة للتفريط فى الهوية القومية والذاتية الثقافية ، ولعلنا فى عجالة نشير هنا إلى ما يحدث بالنسبة لتعليم اللغة فى بعض البلدان العربية فى السنوات الأخيرة ، فهناك زحف واضح نحو تعلم اللغة الإنجليزية ، والتعليم بها ، ولا بأس أبدا بالنسبة للمسألة الأولى ، بل هى حتمية ، لكن لماذا يستتبع هذا ، التفريط بهذه الصورة المؤسفة فى تعلم اللغة العربية والتعليم بها ، حتى أصبحت كليات كثيرة حريصة على اجتياز طلاب الدراسات العليا امتحان " التويفل " للاطمئنان إلى معرفتهم باللغة الإجليزية ، فى الوقت الذى لا يزعج فيه أحد أنه ما من رسالة للماجستير أو الدكتوراه تخلو كل صفحة فيها من أخطاء مشينة فى اللغة العربية ؟ بل وصل بنا الأمر إلى ما هو أدهى وأمر ، أن عددا غير قليل من بحوث أعضاء هيئة التدريس بعدد غير قليل من الجامعات أصبحت " معوجة " اللسان " ، منحرفة القواعد ! ألا يمكن أن نتعلم من جارتنا " غير العزيزة " إسرائيل ، التى أحيت لغة ميتة هى " العبرية "، وفرضتها على ملايين جاءوا من أنحاء شتى من دول العالم ، حيث كان كل منهم يتكلم لغة مختلفة عن الآخر؟ ألا إن هذا مظهر من مظاهر قوة هذا العدو اللعين ، إذ ليست القوة فقط فى الأسلحة والمعدات العسكرية ، ولكنها كذلك فى قوة الثقة بالذات .

وهل نتحدث أيضا عن التراجع الذى شهده تعليم التاريخ ؟ إن الأمر بهذه الصورة قد يطول بنا ، ويكفى هنا أيضا أن نشير إلى أن تعليم التاريخ فى إسرائيل قضية حيوية فى كل مراحل التعليم وكافة أنواعه ، ولم يقل أحد منهم أن العناية بالتاريخ " بلا فائدة " ، أو أنها عودة إلى الكهف ، بل إن الوعى التاريخى لديهم هو من أحد مظاهر القوة ، ويتبدى هذا جيدا فى أثناء المفاوضات التى تجريها بعض الأطراف العربية معهم . إن الاهتمام بتعليم التاريخ ليس مرادفا للعودة إلى وراء ، وإنما هو اهتمام بتوافر الوعى بالذات ، فتعليم

التاريخ عندما يكون صحيحا يمد المتزودين به بعنصر قوة ٠٠ لا ينسحبون للتوقوقع فى كهف التاريخ وإنما يسحبون منه ما يمكن أن يعزز ثقتهم بالذات ويصوب المسار ٠

ومن ثم فإن التأكيد على الذاتية الثقافية لا ينبغى أن يحمل على أنه دعوة إلى التقوقع ، فهذا قد أصبح مستحيلا حتى لو أردناه ٠ إن الأمر مثله مثل حالنا كأفراد عندما يتعامل بعضنا مع بعض ، فكل منا يستهجن أن يكون " إمعة " لا يملك من أمره شيئا وما عليه إلا أن يستحسن ما يستحسنه الآخرون ويستهجن ما يستجنهوه ، ولابد لكلمنا من " شخصية " تميزه بالفعل ، حتى يكون التعامل والتفاعل مع الآخرين منتجا ، وإلا أصبح ما نفعل وما نقول مجرد نسخة من الآخر لا تضيف جديدا ٠

إننى أصارح القارىء بأن ليس هذا هو كل ما يمكن أن يقال فى الموضوع ، وإنما هو مجرد " عينة " لما يمكن أن يقال ، عينة لعدد من (الأمصال) التى لابد من أن " نتطعم " ونحن نواجه طوفان " العولمة " ، وبذلك نكون متمثلين للدعاء العظيم : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكنا نسألك اللطف فيه ! وقديما قال أحد الفلاسفة المسلمين فى مقدمة كتاب له ، أن مصنف الفن ليس عليه أن يستوفيه جميعه وإلا ما ترك السابق للاحق شيئا !!

# هل خدع الرجلُ المرأة ؟

استيقظ الأب فى صباح يوم من أيام يونية الحارة فى أواخر الستينيات متجها إلى المطبخ ، بعد أن انتهى من الحمام ، يريد أن يُعد لنفسه كوبا من الشاى ، لكنه وجد أن كل الأدوات المطلوبة فى " الحوض " بحاجة إلى تنظيف ، فشمر عن ذراعيه وأخذ ينظفها ، وأثناء عمله هذا جاءت ابنته الصغيرة التى لم تكن تتجاوز من العمر إلا سنوات تقل عن أصابع اليد الواحدة ، تناديه ، فلما وصلت إلى باب المطبخ لاحظ أن حاجبيها قد ارتفعا ، واتسعت حدقتا عينيها ، مما يشير إلى حالة دهشة شديدة لدى الإبنة ، فسألها الأب : ماذا بك يا بنيتى ؟ أجابت بكل تلقائية وعفوية : هوه انت ماما ؟

لم تكن إلا ثوان معدودة انتابت الأب فيها حيرة بسبب هذا التساؤل الغريب ، فعاد ينظر إلى نفسه سائلا الإبنة : لماذا يا حبيبتى تسألين هذا السؤال ؟ ثم واصل هو توجيه السؤال إليها مبتسما بكثير من الحنو : ألا ترين هذا الشنب فى وجهى ، والبيجامة التى ألبسها ؟ لكن الأب ، وبسرعة ملاحظة ، انتبه إلى أن الإبنة تطيل النظر إلى ما بيديه من أوانى يقوم بغسلها ، فأدرك بنفسه مغزى السؤال الأول ، وأراد أن يتأكد فسألها : ألأننى أقوم بغسل الأوانى المتسخة ؟ وصح توقعه ، إذ أجابت : نعم !! وعكست هذه الإجابة تصورا يتجاوز مستوى الظن إلى مستوى اليقين لدى الطفلة أن هذه مهمة " ماما " المرأة ، وليست مهمة " بابا " الرجل !

أمهل الأب ابنته حتى ينتهى مما فى يده ، ويعد الإفطار لكليهما ، وأثناء تناوله أخذ يشرح لها الأمر قائلا : أنا ياحبيبتى وماما " شركة " نتعاون معا فى حياتنا ، وهى الآن تؤدى امتحاناتها ( كانت الأم ما زالت طالبة تدرس فى كلية الآداب بجامعة عين شمس ) ، بينما أنا غير مشغول بعمل عاجل ومُلح ( كان الأب فى ذلك الوقت مدرسا مساعدا بالجامعة ) ، عملى يقوم على القراءة والكتابة فقط حيث لا أقوم بالتدريس ، وهذا العمل يمكنَ أن يتأجل من الصباح إلى المساء أو حتى إلى غد أو بعض غد ، أما عمل ماما فلابد أن يتم اليوم ، وفى الساعة المحددة ، فإذا كان هناك عمل لابد من إنجازه فى المطبخ ، فهل أقوم به أنا أم هى ؟

لم تكن قضية " التفهيم " والإقناع سهلة ، فمحصول الخبرة لدى الطفلة الصغيرة ، عند جدتها ، وخالتها ، وجيراننا ، وخاليها ، وكل من يزوروهم ويشاهدوهم ، ترى المرأة دائما صاحبة الموقف والمسئولة عنه فى المطبخ ، والرجل هناك ينتظر فى مكان ما بالمنزل حتى

تأتى إليه الأم بالمشروبات أو المأكولات ، كذلك فهى ترى الضيوف عندما يأتون يجلسون فى " الصالون " ومعهم الأب ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويضحكون عندما يكون هناك ما يستدعى الضحك ، بينما الأم هى التى تعد لهم " التحية " ، فما بالك إذا كان الأمر أمر " عزومة " على الغداء أو العشاء ؟

حتى هذا الأب نفسه الذى وضح لنا أنه على قدر عال من الوعى المستنير بما يجب أن تكون عليه العلاقة بينه وبين زوجته من " تشارك " و " تعاون " ، عندما مرت الأعوام وصار أستاذا ، كان يذهب هو وزوجته ، التى أصبحت مدرسة جامعية ، إلى إحدى الكليات الإقليمية يُدرسان سويا فى يوم واحد عددا من المحاضرات ، وعندما يعودان مرهقين سويا مساء يجلس هو يقرأ فى الصحف مسليا نفسه إلى أن تنتهى الزوجة من إعداد الطعام ، وكان يدرك تماما أنها لا تقل عنه تعبا وإجهادا ، لكنها بقايا ثقافة اجتماعية تقليدية تكبل تفكيره وتحول بين ضميره وبين الرؤية السوية الصحيحة ، وتجعله متقبلا أن يجلس هو ليستريح ، وتظل الزوجة واقفة على قدميها تعد الطعام!!

ألا إنها لقضية بحاجة إلى نظر وتفكير ، وتأمل وتدبير ...

إن هناك مبدأ شهيرا يقول ما معناه أن الذى " يمنح " هو الذى يستطيع أن " يمنع " ، كما أنه هو الذى يضع شروط المنح واستمرار سريان بعضها أو تعليق تنفيذ بعضها الآخر ، أو سحبها كلية ، ولو راجعنا تاريخ الجهود التى بُذلت سعيا لتحرير المرأة فى مصر فسوف نجد أن خطواتها الفكرية الأولى جاءت على يد الرجل ، وتستطيع أن تجد أمامك كما ضخما من الكتابات ، سواء فى كتب أو مقالات صحفية ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، خاصة فى قصة " علم الدين " التى كتبها على مبارك ، و" المرشد الأمين للبنات والبنين " الذى كتبه رفاعة الطهطاوى ، ثم كتابى قاسم أمين : " المرأة الجديدة " ، و " تحرير المرأة " ، وكتابات كثيرة متفرقة لأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، ثم من سار على دربهم ، حتى بدأت بعض الكتابات النسائية فى الظهور ، مثل ملك حفنى ناصف ، ونبوية موسى ، ودرية شفيق ، وأمينة السعيد وغيرهن ، ربما بعد بضع سنوات من بدايات القرن العشرين .

لم تكن أوضاع المرأة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فضلا عن طبيعة النظام السياسى القائم ، عبر القرون التى سلفت ، تمكنها من أن تقوم بحركة نضال وكفاح لتنتزع حقوقها الإنسانية بنفسها ، دون انتظار لمن يمنحها إياها ، فقام عنها فى البداية بهذا ، بعض الرجال المستنيرين ، ممن أدركوا أهمية " التشارك " بين النوعين ، ولهذا السبب – مع غيره من أسباب أخرى – حرص الرجل على أن يكون التحرير بالصورة والدرجة

والمقدار الذى لا يجور على مصالحه هو ، فسمح بهذا أو ذاك من أنواع التعليم وأنواع العمل ، ومنع غيره .

لكن أهم ما ينبغى لفت النظر إليه أن التحرير والمساواة لهما مقتضيات وتوابع لم يكن هناك حرص على توفيرهما مما جعل ممارسة بعض الحقوق أمرا عسيرا ، رغم أن القانون يبيحها ، وعلى سبيل المثال ، فلقد صدرت القوانين التى تفتح أبواب أعمال كثيرة أمام كل من الرجال والنساء على السواء ، لكن ماذا عن الأطفال الصغار الذين تُترك أمر مسئولية رعايتهم على الزوجة وحدها ؟ صحيح أن هناك قوانين تتيح للأم أن تحصل على إجازة رعاية طفل حتى ست سنوات ، لكن هناك مئات الألوف من النساء العاملات بحاجة إلى المرتب ، فلا تسمح لهن حالتهن الاقتصادية أن يحصلن على هذه الإجازة .

لقد كان من المفروض أن نشهد حركة إنشاء لدور حضانة ورياض أطفال واسعة النطاق بحيث تغطى الجمهرة الكبرى من أبنائنا ، لكنها ، حتى الآن ، من حيث العدد قد لا تستوعب أكثر من ١٠٪ ، مما أتاح للبعض أن يستغل الموقف فتظهر " شقق " تفتح أبوابها باعتبارها دار حضانة ليُحشر فيها أطفال ويتكدسون ، بغير مراعاة لقواعد وأصول هذا العمل ، بل ربما كان القائمون على الأمر على عكس هذه القواعد والأصول !

فى أثناء تدريسى لطلبة وطالبات " الدبلوم الخاص " فى كلية التربية بجامعة عين شَمس ، مستوى " دراسات عليا " ، أحيانا ما تجىء لى دارسة قبل المحاضرة ، ومعها طفلة صغيرة أو طفل ، لتستأذننى فى أن تجلس معها فى المحاضرة واعدة بأنها لن تفتح فمها بكلمة ، لأنها لا تدرى أين تودعها عندما تأتى إلى الكلية بعد الظهر لحضور المحاضرات ، وأسألها : وأين الأب ؟ لماذا لا تجلس الإبنة معه ؟ فترد بأنه يقول لها أنه غير مسئول ، وأن رعاية الطفلة مسئوليتها هى ، وأن هذه دراسات عليا ، أى مسألة " ترفية " ، ويمُن عليها قائلا : أنا لا أمنعك من أن تواصلى دراستك ، لكن عليك ألا تقصرى فى تلبية احتياجاتى الشخصية ومطالب البيت وعلى رأسها الأولاد !

وأحيانا ما أواجه حالات تكون فيها الدارسة لدرجة الماجستير أو الدكتوراه متزوجة ذات أبناء صغار ، فتشكو من أنها لا تستطيع أن تذهب إلى المكتبات العامة مثلما يفعل الذكور لأن زوجها أيضا يردد نفس المنطق ويأبى أن يشارك فى " رعاية " الأبناء ، والأكثر من ذلك ، أنها حتى لا تستطيع أن تقرأ وتكتب طالما الزوج والأولاد بالمنزل مستيقظين ، وتضطر أن تنتظر حتى يناموا وتبدأ هى القراءة ، أو تستيقظ بعد النوم ساعتين أو ثلاث ، مع أنها هى التى يُطلب منها أن تستيقظ قبل استيقاظ الجميع صباحا ، وربما فجرا ، كى تعد لهم الإفطار والملابس قبل الخروج إلى المدرسة والعمل ...

وهكذا خرجت المرأة كى تدرس وتتعلم ، وتعمل ، لكننا ما زلنا نطلب منها كافة المهام والمسئوليات التى كنا ننتظرها منها وقت أن كانت متفرغة فى المنزل ، فأصبحت تنوء بالعديد من الأعباء والمسئوليات المركبة المتراكمة ، إلى درجة لابد أن تنتهى بها إلى أن تبدو " مُقصرة " فى كل واحدة منها ، فيشتد النقد واللوم ، وتصدر أصوات من هنا وهناك مرددة : آدى نتيجة تحرير المرأة !! بل وتصدر أصوات من داخل الدائرة النسائية نفسها تطالب بالعودة إلى البيت ، حيث لا ترى فى المسألة إلا أنها سوف تستريح من " المواصلات " ، وتحكم الرؤساء فى مواقع العمل " واللى يسوى واللى ما يسواش " ! ولا تنبته إلى عديد من المكاسب الشخصية المعنوية والعقلية والاجتماعية لخروجا للعمل أو للدراسة .

وهكذا نعيد طرح السؤال : هل خدع الرجلُ المرأة عندما ظاهرها فى المطالبة بحقوق العمل والدراسة ؟ فى ظنى ، أن الإجابة هى بالإيجاب ، فكما أشرنا ، ونعيد التأكيد على ذلك ، أن ممارسة حقوق التحرر لها شروط وضمانات ومتطلبات وتوابع ، بدونها يصبح التحرير عبئا كبيرا لا تتناسب ثمرته مع ما يُدفع له من ثمن ، والخاسر الأول هو المرأة نفسها ، وكذلك الأبناء بكل الأسف وبكل الأسى .

إنها ليست دعوة للتراجع ، فعقارب الساعة الزمنية لا تعود بحركة عكسية ، ولكنها دعوة إلى حماية المرأة وهى تمارس حقوقها حتى لا تتحول إلى شماعة يعلق عليها الجميع أخطاءهم وتقصيرهم !!

# أستاذى .. الذى كان يبيع الجرائد !!

من بين كثير من النعم التى أنعم الله بها على كاتب هذه السطور ، أن هيأ لى فرصا عديدة للتلمذة على يد عدد من فحول المعرفة ، وفطاحل الثقافة ، فى آداب القاهرة ، قسم الفلسفة ، أواسط الخمسينيات ، حيث كان المد الوطنى والآمال العريضة فى مستقبل مشرق لنهضة الأمة ، يكفى أن أشير إلى أن كان منهم ، الدكاترة : زكى نجيب محمود ، ومصطفى سويف ، وعثمان أمين ، ويوسف مراد ، وأحمد فؤاد الأهوانى ، ومحمد عثمان نجاتى ، ومصطفى الخشاب ، وتوفيق الطويل . ومن قبل هؤلاء ، صف آخر طويل من خير المعلمين ، ابتداء من فقيه الكتاب ، مرورا بمعلمى المدرسة الابتدائية ، فالمدرسة الثانوية . وبتعدد هؤلاء وتنوعهم تعددت ثقافتهم وتنوع علمهم ، وتباينت مؤهلاتهم العلمية ، بدءا من مجرد حفظ القرآن الكريم ، ربما بغير فهم لدى فقيه الكتاب ، مرورا بشهادات متوسطة فى الأولية والابتدائية ، فعالية فى الثانوى ، فدكتوراه فى الجامعة .

كل واحد من هؤلاء ، استطاع ، من غير شك ، أن يضع لبنة أو أكثر فى البناء الفكرى والشخصى لكل فرد من جيلنا ، مثلما حدث لأجيال سابقة وأجيال لاحقة ، وكل واحد فعل هذا من هؤلاء المعلمين ، له كل التقدير والاحترام والعرفان بالجميل مما لا طاقة للإنسان أن يفى بمقابله حق الوفاء .

لكن ، فليسمح لى القارىء أن أخص بالذكر ، مُعلما لى ، لم يكن يحمل شهادة من تلك الشهادات المعروفة لنا ، علت أو توسطت أو حتى انخفضت . بل لم يمر بمدرسة من المدارس ، إلا مجرد فك الخط ، لكن فضله الكبير على التكوين الفكرى والشخصى لكاتب هذه السطور يستحيل حصره حقا بغير ما مبالغة ، ذلك أن المؤثر الأقوى على التكوين الفكرى والشخصى ، لم يكن هذه القطع المنتظمة من الأنساق المعرفية فى صورة مقررات دراسية ، ولكنها تلك الأزهار ، مختلفة الأنواع ، متعددة الألوان ، متباينة الرائحة ، من معارف الإبداع الفكرى فى بستان الثقافة العامة .

لم يُعلمنى هذا الرجل هذه الألوان المتنوعة من الثقافة ، ولكنه " يسر " لى هذا وأتاحه بكل السبل ، بحيث أستطيع أن أقول : لولاه ما كنت أكون إلا حامل شهادة ، وفرق كبير بين أن يكون الإنسان حامل شهادة وأن يكون حامل ثقافة منفعلا بها ، وهذا ملمح هام تستطيع به أن تفرق تفرقة واضحة بين تعليم الأمس وتعليم اليوم ، فقد كان كثير من طالبى التعليم بالأمس - بتشجيع معلميهم وأساتذتهم ومؤسسات التعليم - حريصين على الوظيفة

التثقيفية ، بجوار الوظيفة التعليمية ، أما اليوم ، فنكاد نحلم بأن يحصل الأبناء على الوظيفة التعليمية كما نأمل أن تكون !!

إنه " عبد الرحمن " .. هكذا فقط – مع الأسف الشديد – ما عرفته من اسمه ، بائع الجرائد الذى كان يقف على مدخل محطة " كوبرى الليمون " ، عندما كانت محطة لراكبى القطار القادم من أو الذاهب إلى بلدتنا ، المرج .

كان ذلك بدءا من عام ١٩٥٠ ، تلك الفترة التى يمكن أن نقول أن سوق الثقافة فى مَصر قد شهدت فيها فيها ازدهارا كان له دوره فى إنضاج الثمرة ..ثمرة الثورة التى نفجرت فى يوليو ١٩٥٢ . ليست المسألة فى " كمية " ما كان يُطبع ويُوزع من صحف ومجلات فى هذه الفترة ، ولكن فى هذا التنوع المذهل فى الاتجاهات والمواقف الفكرية . كل مطبوعة كانت لها بصمتها المختلفة تماما عن الأخرى ، ويكفى أن تعى الذاكرة منها : من الصحف الماركسية ، الملايين ، والكاتب ، ومن صحافة الإخوان المسلمين : مجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح عشماوى ، فمصر الفتاة والعهد الاشتراكى المعبرتان عن حركة مصر الفتاة ، وجريدة المصرى ، لسان حال حزب الوفد ، والأساس ، للحزب السعدى ، ودار النداء الوفدية ، لياسين سراج الدين ، التى كانت تصدر جريدة النداء مقلدة لأخبار اليوم ، وسلسلة كتب للجميع ، وسلسلة للقصص القصيرة ، ودار الهلال بمطبوعاتها المعروفة : المصور ، والكواكب ، والهلال ، وكتاب الهلال ، وروروايات الهلال ، والإثنين ، وإن اختفت الأخيرة ، وكانت لا تحاول أن تتخذ موقفا سياسيا محددا ، كما كان أمر الأهرام فى ذلك الوقت ، ودار مسامرات الجيب ، بمجلتها التى كانت تحمل نفس الإسم ، لعمر عبد العزيز أمين ، والتى أصدرت كذلك ( روايات الجيب ) ، تلك السلسلة البوليسية التى ما أظن أن متعلما فى مصر لم يدمن قراءتها ، وخاصة روايات أرسين لوبين ، وسلسلة الكتاب الذهبى التى كان يصدرها نادى القصة ، والتى عرفتنا بفرسان الرواية المصرية .وكانت هناك أيضا جريدة الزمان المسائية.. كل هذه ، مجرد " عينة " ، وغيرها كثير وكثير .

كنا نهبط من قطار المرج ، متوجهين إلى مدرستنا الثانوية بالفجالة ، فإذا بعبد الرحمن ، من مرة وأخرى يلمس أننى " غاوى " قراءة ، لكن لا أشترى إلا القليل ، وأدرك الرجل المشكلة ، فالتلميذ الذى يمر عليه كل صباح لا يأخذ من أبيه إلا قرش صاغ واحد يوميا ، تضاعف ليصبح قرشين عندما التحق بالجامعة – بدون مواصلات – فأتى له أن يقرأ كل هذا ونظراته يشيع منها علامات نهم وتطلع لا يخفيان على أحد .

وإذا بهذا الرجل العامى البسيط يبسط يده فى العطاء فيعطى التلميذ ما يريد من مطبوعات ، أما ثمنها " فحين ميسرة " !! وليدفع ما تيسر اليوم أو غدا أو بعد غد : قرش ، قرشين ،

بقدر ما يستطيع ٠ وحتى لا يتراكم عليه الدين ، يقترح البائع أن يرد التلميذ المجلة ، بعد قراءتها فى اليوم التالى نظير ملاليم معدودة ٠ وتنبه أصحاب الجرائد والمجلات إلى هذه الظاهرة ، وأطلق أحدهم مصطلح " لصوص الثقافة " ، أى الذين يقرءون ، دون أن يدفعوا الثمن الفعلى الذى تُباع به المطبوعة ، فحرصوا على أن تُباع المجلات " غير مفتوحة " الصفحات ، لكننا لم نعدم وسيلة للتغلب على ذلك !!

لم يكن عبد الرحمن مجرد مُوزع ، بل كان كثيرا ما يدلنى على ما يجب أن أقرأه ، فقد سلمنى مثلا ، مجلة ترددت كثيرا فى قراءتها ، ، فقد كانت متواضعة الشكل والطباعة ، فإذا بى بعد قراءتها أتعرف على عالم فسيح رائع حيث كانت تلك المجلة تنشر لجماعة الأمناء برعاية ناظر المدرسة ، العظيم ، أمين الخولى ، ولم يكن لدى من قبل أية فكرة عنها ، وكذلك الأمر بالنسبة لمجلتى الرسالة والثقافة ٠٠ وهكذا فعل معى بالنسبة لعديد من المطبوعات التى لم يتوافر لى ، لا داخل الأسرة ولا بالمدرسة ، ولا بين الزملاء والأصدقاء – إلا ما ندر – من يرشدنى ويُعلمنى بهذا النبع الثقافى أو ذاك ، فكان عبد الرحمن هو المرشد وهو الموجه !

ولشد ما يؤلمنى حقا أن فرقت بيننا الأيام وباعدت ، فلا أعرف إلى أين انتهت بهذا المعلم الكبير لى كى أندفع إليه أحنى رأسى له ، مقبلا يده ومقدما له آيات التقدير والعرفان بالجميل ، ولم أجد ما أستطيع أن أفعله إلا أن أكتب هذه السطور التى قد تبدو لأول وهلة حديثا عن الذات ، لكن ، أبدا ، ما قصدت هذا ، بقدر ما قصدت أن أسجل " حالة " لإنسان عادى من جموع أبناء هذه الأمة قام بدور ، ربما يعجز عن القيام بمثله أساتذة يحملون الدكتوراه !

يا عبد الرحمن ٠٠ متعك الله بالصحة والعافية ، إن كنت حيا ، ووسعتك جنة الله ورحمته إن كنت بجوار العلى العظيم ٠

# التعددية الثقافية بين الشرائح الاجتماعية

## المنطلـــــــق :

التباين والاختلاف سنة من سنن الله فى خلقه ..

تلك حقيقة تدخل فى عداد المسلمات التى لا تحتاج إلى مزيد من المناقشة والجدل ، وإن احتاجت إلى قدر من التأكيد والإيضاح ، حتى يمكن الانطلاق مما هو معلوم بالضرورة إلى ما قد يكون غير معلوم بالاحتمال ، أو بعبارة أخرى ، حتى يمكن الانتقال مما هو متفق عليه إلى ما قد يكون مختلفا عليه .

فلو تأمل أى منا فيما بينه وبين أى مجموعة تصادف وجوده بينها للاحظ فى التو واللحظة تباينا واختلافا فى الشكل . فإذا تحادث وتحاور وتعامل ، تأكد أن التباين والاختلاف لا يقف عند حد الشكل وإنما يتعداه ليشمل المفاهيم والعادات والقيم والمعايير وزوايا الرؤية والقدرة على الطرح .. إلى غير هذا وذاك من جوانب وملامح ، ومن هنا يجىء قوله تعالى : " ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين " ( الروم/٢٢) ، وقوله : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .." ( الحجرات/١٣) ، وكذلك : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين " ( هود/١١٨) .

وقد فسر الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار بأن هذا يعنى أن الله خلق الناس مستعدين للاختلاف والتفرق فى علومهم ومعارفهم وآرائهم وشعورهم ، وما يتبع ذلك من إراداتهم واختيارهم فى أعمالهم ، ومن ذلك ، الدين والإيمان والطاعة والعصيان .. فالاختلاف طبيعى فى البشر ، وفيه من الفوائد والمنافع العلمية والعملية ما لا تظهر مزايا نوعهم بدونه ..

وأسس ابن خلدون على هذه الحقيقة مقولته فى " الاجتماع البشرى " ، فلو لم يكن بنو البشر على هذه الدرجة من التنوع والاختلاف فى القدرات والاستعدادات والمهارات والمعارف ، لما احتاج بعضهم لبعض ، لكنهم ، وفقا لهذه الحقيقة الفطرية ، يسعى بعضهم إلى بعض ، ويكونون الجماعات والطوائف والروابط ، ويتبادلون المصالح والمنافع ، فتنشأ من ذلك الجماعة البشرية فى هذه الصور الاجتماعية المتعددة .

ومع الإقرار بهذه الحقيقة ، إلا أن هناك حقيقة أخرى لابد وأن توضع فى الاعتبار ..

فجسم الإنسان ، على سبيل المثال ، يضم عددا من الأجهزة المتباينة التكوين والشكل والوظائف ، لكنها ، جميعا ، تعمل فى إطار " وحدة جسمية " فطرية تتأطر بإطار " شخصية " تشكل فى مجموعها كذلك " وحدة نفسية " ، مما يمكن صاحبهما من التعامل مع الناس ، وييسر لهؤلاء الناس أن يتعاملوا وفق توقعات ، ما كان لها أن تكون لولا تحرك الفرد وَفق " وحدة شخصية " ، فإذا انفرط عقدها وسمنا الفرد " بالخلل وتحاشيناه ، وربما نبذناه .

هكذا الأمر فى كل شىء على وجه التقريب ...

ففى مهنة التطبيب ، لكل طبيب أسلوبه وابتكاراته ، وطرائقه التى تجعل منه محط إقبال - أو العكس - لكن الأطباء جميعا تجمع بينهم أسس عامة وأخلاقيات أساسية وعلوم متعددة .. وهكذا مما يجعلنا نميز هذه المهنة عن غيرها من المهن . ونستطيع أن نقول هذا عن مهن أخرى ، إلى أن نصل إلى الوحدة المجتمعية الكبرى التى يتشكل منها " الوطن " ، وبالتالى تصبح إحدى علامات الصحة المجتمعية مدى توافر الوعى بالنسبة السليمة بين درجة التنوع والاختلاف ، ومجالاته ، وأساليب ممارسته ، وآثاره ، وبين ضرورة الإطار الكلى وأهمية المجرى العام للجماعة البشرية ، بحيث لا تطغى الأولى فيتشرزم المجتمع ، ويبدد طاقاته فى معارك داخلية ، ولا تطغى الثانية ، فيسود التنميط الثقافى الحاد ، تحت مقولة " الكل فى واحد " !

## التشريح الاجتماعى :

وإذا كان المجتمع المصرى - مثله فى ذلك مثل سائر المجتمعات - يشكل وحدة مجتمعية لها شخصيتها ، مما يجعلنا نقول ، هذه عادة مصرية ، مثلا ، أو هذه أغنية مصرية ، أو هذه نكتة مصرية .. إلخ ، فإنه ، ككل جسم ، يمكن أن نحلله إلى جملة من العناصر ، وفقا لمعايير التحليل والتصنيف ، فقد يكون المعيار اقتصاديا ، وقد يكون نوعيا ، وقد يكون وفقا للعمل ، وقد يكون وفقا للتعليم ، وقد يكون وفقا للدين ، وقد يكون معيارا فكريا ، ومن هنا ، هناك الأغنياء والفقراء ، والوسط ، وهناك رجال ونساء ، وهناك عمال وفلاحون ومهنيون ، وهناك متعلمون وأميون ، وهناك مسلمون ومسيحيون ، وهناك يمين ويسار ووسط ، وكذلك كبار وصغار ، وبينهما شباب .. وهكذا .

ومن المؤكد أن لكل فئة من هذه الفئات ، أيا كان معيار التصنيف ، عاداتها وتقاليدها ومفاهيمها وأساليب التعامل فيما بينها ، وفيما بينها وبين غيرها ، ومعارفها المتخصصة والعامة ، ومفرداتها اللغوية ، ومعايير التفضيل لديها . ومن هنا فقد تتداخل الفئات والمستويات ، فالأميون ، على سبيل المثال منهم أغنياء وفقراء ، ونساء ورجال ،

ومسلمون ومسيحيون ، وبدو وسكان مدن ، وفلاحون . وهذا ما يقيم جسورا بين فئات التنوع الثقافى .

ولا شك أن اختصاص كل فئة أو شريحة اجتماعية بثقافة نوعية أو فرعية يوفر للعضو شعورا بالهوية الخاصة بالفئة واعتزازا بها ، وسهولة فى التعامل ، ويفتح الطريق للتضامن أو التكافل الاجتماعى على مستوى هذه الفئة ، كما أن هذا من شأنه أن يوفر للعضو قدرا من الأمن النفسى ، وبأنه ليس وحده ، لكن كل هذا لابد أن يكون له مقابل من العضو نفسه من حيث المساهمة والتعاون والتآزر والالتزام والمدافعة . ونعود لنكرر أنه حتى فى داخل الشريحة أو الفئة الواحدة لابد من اختلاف وتعدد ، وفقا للمقولة المعروفة " تنوع وتعدد فى إطار الوحدة " .

وإذا كان لكل شريحة أو فئة ثقافتها النوعية ، لكن مما لا ينبغى إغفاله ، أن هناك تنوعا فى مواقع ومستويات " القوة " داخل كل منها ، وغالبا ما يكون أصحاب الموقع والمستوى الأقوى هم الموجهين لمسارات الثقافة النوعية فى اتجاه يعزز مواقعهم قوة ومصلحة ونفوذا . ولعل أبرز ما يمكن أن يساق توضيحا لذلك أن أصحاب النفوذ السياسى المتميز، والقوى الاقتصادية الغالبة ، وأصحاب المواقع الإدارية المؤثرة ، يسعون إلى تسييد مفردات وقيم واتجاهات ومعلومات ثقافية تتفق ورؤاهم ومصالحهم ، يساعدهم على ذلك ما أصبحت أجهزة الإعلام والتعليم تتكلفه من مبالغ باهظة لا يستطيع تحملها إلا هم ، وبالتالى نجد أنفسنا أمام نوع من الثقافة المهيمنة ، لا من قوة خارجية ، وإنما من مواقع داخلية صاحبة سطوة وتسلط ونفوذ ، وتستدمج هذه الثقافة الآخرين ، فيتبنى المستضعفون ما يراه الأقوياء .

وإذا كان هذا مما يمكن أن يحدث داخل الشريحة الواحدة ، فإنه يمكن أن يحدث كذلك بين الشرائح المختلفة ، كما نرى من حرص رجال على تسييد رؤاهم ومفاهيمهم على النساء ، ولا تجد النساء أمامها إلا الانصياع ، بحكم ما يملكه الرجال دائما من سطوة ونفوذ وقوة ، وكما نرى لدى شرائح الطبقة الوسطى من حرص شديد على تقليد بعض أنماط استهلاك الأغنياء وسلوكهم ، وهو ما كنا نراه كذلك من حرص شرائح اجتماعية مصرية زمن السيادة التركية على مصاهرة الأتراك وتقليدهم ، وهو ما يتكرر دائما إزاء كل غالب ، اتساقا مع مقولة ابن خلدون الشهيرة بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب .

ولعل ما يمكن الإشارة إليه هنا إلى ما يمكن تسميته بالآثار الجانبية للخصخصة ، إنها قد تؤدى إلى تعزيز مواقع القوة لمن يملكون القدرة على المنافسة التى أصبحت ضارية ، بحيث تنوء بحمل ما تتطلبه طاقة شرائح كثيرة ، مما يتيح الفرصة ، كما أشرنا ، لمزيد

من الاستحواز الثقافى ليصبح قرينا ومكافئا للاستحواز الاقتصادى أو السياسى أو هما معا ، ذلك لأننا نستطيع القول بوجود " رأس مال ثقافى " ، مثلما نعلم أن هناك رأسمالا ماديا ، ونصبح أمام عصر جديد للرأسمالية الثقافية ، مثلما شهدنا عصر الرأسمالية الاقتصادية بصورها المختلفة .

وخطر مثل هذا علاجه معروف ومشهور ، ألا وهو الممارسة الديموقراطية ، والتعددية السياسية ، وإتاحة الفرص للسيولة الفكرية وتدفقها بين مختلف المواقع والشرائح والفئات .

العوامل المؤثرة :

إننا قد نتردد أمام وجهة النظر القائلة " بالحتم الجغرافى " ، لكن المستقرىء للمسيرة الطويلة للتاريخ المصرى ، لا يستطيع أن يتجاهل أن ثمة عوامل وظروف جغرافية فرضت تجانسا ووحدة ، مثل ما نراه من مناخ يضعنا فى نطاق " المناطق المعتدلة " . ولا نرى تباينا شديدا بين مناخ أقصى شمال البلاد وأقصى جنوبه ، إذ الفروق الموجودة تتضاءل إزاء ما نراه من فروق أخرى حادة فى بلدان أخرى ، داخل البلد الواحد . ونفس الشىء بالنسبة " للتضاريس " ، فضلا عن " الموقع " الذى يجعل مصر تتوسط قارات ثلاث . ورافق هذا قرونا طويلة خضعت فيها مصر لمركزية شديدة البأس ، مع ما يستتبعه الحكم المركزى من " توحيد " و " تنميط " .

ولقد كان لكل هذا أثره من حيث خفوت صوت التعدد الثقافى وتنوعه ، إلى الدرجة التى جعلت بعض عناصر كل ثقافة سابقة تحرص حرصا ملحوظا على أن تتلبس فى زى الثقافة الجديدة ، فتكتب لها الديمومة والاستمرار ، ومن ثم قد لا نلحظ " ثورية " فى التغير الثقافى إلا فيما ندر . ودارسو التطور الثقافى المصرى لا يخطئون رؤية عناصر فرعونية دخلت واستمرت مع فترات تسيد الثقافة القبطية ، واستمرار عناصر ثقافية قبطية مع تسيد الثقافة العربية الإسلامية . وفى العهد الفاطمى ، وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلت لنشر الدعوة الفاطمية ، فلما طويت صفحة هذا العهد السياسية والعسكرية ، طويت كذلك صفحته المذهبية لتنافرها مع مقومات أساسية فى الثقافة المصرية ، وبقى منها ما يتصل بالعادات المصرية فى الحرص على " المناسبات " ومظاهر تتصل بالطعام . بل يؤكد كثير من الباحثين أنه مع الإقرار بأثر الغزوات الاستعمارية ثقافيا ، إلا أن الأمر لم يخل فى بعض الأحيان من قدرة على " تمصير " عناصر ثقافات وافدة .

وإذا كانت هذه حقائق الجغرافية والتاريخ ، مما يصعب التنازع حولها ، لكننا ، وفقا لمنطق الاجتماع البشرى ، والتاريخ أيضا ، لا نستطيع أن ننكر أن شرائح المجتمع المصرى قد شهدت - وما زالت - تنوعا وتعددا ثقافيا واضحا ، وخاصة فى القرن العشرين ، وأخذت تزداد بشكل ملحوظ فى العقود الأخيرة ، مما يحتم علينا ، محاولة الإشارة إلى عدد من القوى والعوامل المؤثرة والمشكلة لهذا التعدد :

- فالأوضاع الطبقية ، وتباين المستويات الاقتصادية من شأنه أن يفرز تباينا فى الرؤى والمصلحة والقيم والميول والاتجاهات والمفاهيم . ولعل الصورة التقليدية التى نشاهدها فى أفلامنا السينمائية القديمة من صراعات تحدث بسبب تطلع غنى يريد الزواج من فقيرة أو العكس ، يرجع - فى جزء منه - إلى التباين الثقافى الحاد واختلاف المصالح والمفاهيم والعادات والتقاليد ومعايير التفضيل والاستبعاد بحيث تلوح احتمالات الفشل مستقبلا ، بعد أن تستيقظ الأطراف المعنية من حلم الرومانسية الذى كانت تغذيه عواطف متأججة .

- وما من غزوة استعمارية إلا وكانت حريصة كل الحرص على تسييد ثقافتها ، وعيا منها بأن السيادة لا تكون فقط بالعسكر والنيران ، وإنما تكون كذلك بالأفكار والأقلام ، رأينا ذلك منذ أن غزا مصر ، الفرس واليونان والروم والفرنسيون والإنجليز وغيرهم . لكن الملاحظ أن ثقافة الغازى غالبا ما يبدو تأثيرها أكثر فى شرائح الصفوة الاجتماعية وخاصة الصفوة الاقتصادية لحرصها الغالب على رضا أصحاب السلطة والقوة والنفوذ .

- وكان للبعثات التعليمية دورها الكبير ، منذ أوائل القرن التاسع عشر ، حيث بدأت فى عهد محمد على خاصة ، فإذا كان المبتعثون قد جاءوا بعلوم ومعارف جديدة ، فإن الذى لا شك فيه أن عددا غير قليل منهم قد أتى كذلك بنظرة جديدة للأمور ، ومنهج تفكير ، وأساليب تعامل ، ومعايير واتجاهات ، بل إن الجمهرة الكبرى من هؤلاء لم يكتفوا بوجودها فى دائرة شخصياتهم ، فهم ، إن لم يكونوا قد حاولوا قصدا أن يذيعوها بين آخرين ، فعلى الأقل سرت عدواها بين آخرين ، بالتقليد والقدوة .

- وهناك قوى بالخارج ، قد لا تلجأ إلى قوة مسلحة ، وإنما إلى أساليب أخرى متعددة ، وخاصة فى عصرنا الحالى حيث لم يعد الغزو المسلح مقبولا أو معتادا مثلما كان الأمر من قبل ، مثلما نرى الآن من مظاهر قد يصعب حصرها من عناصر الحياة والثقافة الأمريكية تتخلل حياتنا وثقافتنا ، من مشروبات ومأكولات وملابس وأسماء وشعارات ومحلات وتنظيمات ، بل ربما وصل الأمر إلى معايير تصنيف الناس إلى أعداء وأصدقاء . وقد تكون هناك قوى أخرى خارجية لا تكون صاحبة قوة دولية مؤثرة ، ولكن يظل الحرص على التسلل إلى العقل الوطنى ، بدوافع مصلحة خاصة بالطرف الخارج .

مشكلات وآمال :

منذ فترة غير بعيدة ، كانت الدعوة الملحة هى ما كان يسمى بإذابة الفوارق بين الطبقات ، وكان النهج السائد هى ما اصطلح فيما بعد على تسميته " بالشمولية " ، وفى ظل هذا المناخ كان " التنميط " الفكرى هو اللحن المميز ، وفى ظل مثل هذا التنميط كانت التعددية الثقافية بين الطبقات والشرائح والفئات الاجتماعية محصورة فى تلك المسائل الحياتية الجزئية التى لا يكون ثمة خطر متوقع منها على النظام القائم ، إذ كان ينظر إلى الاختلاف بشىء من الريبة والشك .

لكن ، فى مقابل ذلك ، كانت الدعوة إلى " الاستقلال " والاعتماد على الذات ، تمتد كذلك إلى الخلايا الثقافية المختلفة مما كان من شأنه أن تتخلق معه هوية ثقافية ، لها ملامحها المميزة ، وتجد الطبقات والشرائح الاجتماعية أمامها خريطة فكرية تسير وفقا لها .

فلما أن تبدل الحال ، ارتفع صوت الخصخصة على غيره ، وكان ذلك فى مجالات اقتصادية بالدرجة الأولى . لكن المعروف بالنسبة للنهج الفكرية ، أنها لا تقبل التجزئة ، فالخصخصة الاقتصادية إنما هى صورة تطبيقية لنهج فكرى يقوم على التعددية والليبرالية ، وبالتالى يصبح من المحتم أن نشهد تعددية سياسية وتعددية ثقافية ، ذلك أن ترك المجال للتعددية الاقتصادية بدون غيرها ربما يطلق صورا من الاستغلال يمكن أن تحول البعض إلى وحوش ضارية لا هم لها إلا جمع الأموال ولو بمص الدماء !

إن من شأن ممارسة الشرائح الاجتماعية حقها فى التعددية الثقافية يعين على أن يطلق طاقات أفرادها الإبداعية ، ويعمل على أن تشهد سوق الثقافة المزيد من صور وأشكال التنوع الثقافى ، وفضلا عن ذلك فإنه يؤدى من غير شك إلى التسارع فى الإثراء الثقافى ، كما ونوعا ، كما هو الأمر فى التعددية الاقتصادية .

لكن من الضرورى التنبه إلى أنه فى الوقت الذى نشهد فيه إلحاحا على الخصخصة الاقتصادية التى تقوم على التعددية ، نقع تحت إلحاح دعوة أخرى تريد محو ما تؤدى إليه الخصخصة ، وما يعين عليه التعدد من بروز قسمات لذاتية ثقافية ، وخصوصية فكرية ، هذه الدعوة الأخرى هى قرينة الاتجاه العام العالمى إلى النظر إلى العالم بأكمله باعتباره سوقا واحدة ، لابد أن تكون السيطرة فيه موكولة بالدول الأقوى ، وربما ينتهى الأمر إلى أن يوكل إلى قطب واحد مهيمن ، وفقا للسنة الأبدية التى تجعل صاحب القوة هو صاحب الأمر ، ولا يجد الآخرون أمامهم من سبيل إلا المسايرة ، والاستدماج ، استنادا إلى أن من لم يمت بالسيف مات بغيره !

ولعل ما تشهده وسائل الاتصال الحديثة من تطورات مذهلة ، وكذلك ما أصبحت عليه أجهزة الإعلام من اتساع مجال وقوة انتشار وعمق تأثير ، مما يساعد القوى المهيمنة على أن تقولب الأوعية البشرية المتلقية للثقافة فى قوالبها وأنماطها ، فإذا بالتعددية أثرا بعد عين ، سواء أكانت تعددية بين شرائح اجتماعية أم تعددية بين أعراق وغيرها .

وإذا كان السبيل المثالى هو الدعوة إلى أن تتحول الثقافة إلى ثقافة مقاومة لهذا الغول الثقافىالآتى من خارج ، مثلما كان من أمر الدعوة بالأمس إلى المقاومة السياسية والعسكرية لقوى الاحتلال العسكرى ، إلا أن المناخ الفكرى العام قد أصبح لا ينظر بعين الجدية إلى مثل هذا الطرح ، إن لم ينظر إليه باستخفاف ، إلى الدرجة التى جعلت البعض يسمه بأنه تفكير أهل كهف ، ومحاولة يائسة لبث الحياة فى حفريات تاريخية لا أمل فى إحيائها .

من هنا فإن السبيل الممكن هو هذا السبيل الطبى الذى ننصح به عندما نكون أمام خطر انتشار وبائى ، وهو " حقن الجسم " بالأمصال الواقية على سبيل " التحصين "، وسعيا لرفع درجة المناعة فى الجسم ، فضلا عن التحرك الجماعى ، وبالتالى يصبح من المطلوب " حقن " العقول بأساسيات الثقافة القومية ، والنظر إلى الهوية الثقافية العامة لا باعتبارها تقف فى موقف تناقض مع التعددية الثقافية ، وإنما باعتبارها موجهة ومرشدة ، فإطلاق الحرية للمبادرات الثقافية الخاصة بين شرائح المجتمع المختلفة ، لابد أن تتأطر بتلك القسمات المشتركة المعبرة عن الذات الثقافية العامة .

ولعلنا نجد فى التعليم مجالا ومثالا لذلك ، ففى قاعدة التعليم نجد مرحلة اصطلح على تسميتها بالتعليم الأساسى على اعتبار أنها تقدم لأبناء الأمة جميعهم زادا معرفيا وسلوكيا ووجدانيا مشتركا ، فإذا ما ارتفعوا إلى مرحلة التعليم الثانية أى الثانوية بدأنا نتيح الفرصة للاختلاف والتنوع بين تعليم عام وتعليم فنى ، وفى داخل التعليم الفنى ، نتشعب فيه إلى أنواع أخرى . فإذا ما توالى الصعود فى مراتب التعليم ، نشهد اتساعا أكثر فى التعدد التعليمى واختلاف أنواعه فى كم كبير من الكليات والمعاهد ، ويتوج هذا الاختلاف والتنوع فى مرحلتى الماجستير والدكتوراه ليصبح كل باحث نسيجا متفردا بشخصه عن غيره ، وإلا لم يستحق أن يحصل على أى من الدرجتين .

# التعليم ، عاملا من عوامل التوحيد فى الثقافة العربية

التباين والاختلاف بين البشر ، سنة من سنن الله فى خلقه :" ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم " ، الروم / ٢٢، وهذا الاختلاف والتباين من شأنه أن يتيح فرصة لتعدد الاجتهادات ، وإثراء الفكر بوجهات النظر المختلفة ، ومن هنا فإن من أهم المبادىء التى يحرص المربون على الالتزام بها فى إقامة نظم التعليم وتأسيس المؤسسات التعليمية وممارسة عملية التعليم ، مراعاة ما بين الأفراد من " فروق فردية " ، وإتاحة الفرص لأصحاب المواهب المتميزة ، والقدرات الخاصة ، كى ينموا هذه المواهب والقدرات .

لكننا ، من ناحية أخرى ، نجد أن المجتمعات الحديثة تحرص كذلك على توفير الكثير من القنوات والسبل التى تقيم بها جسور التفاهم بين أفرادها ، والتعاون والتضافر فى مواجهة مشكلات الحاضر واستشراف المستقبل . ولقد أثبتت الخبرة البشرية أن أحد السبل الهامة على هذا الطريق أن يتلقى أبناء الأمة قدرا مشتركا من المفاهيم والمعارف والقيم والاتجاهات والقيم والمهارات ، وخاصة فى سنوات التكوين الأولى ، وهو ما يقوم به تعليم المرحلة الأولى ، حتى لقد مال كثيرون إلى تسميته بالتعليم الأساسى انطلاقا من أن هذه المرحلة تقيم أساسيات المواطنة بتعليمها أساسيات الثقافة قسماتها المشتركة . وفى هذا الشأن نجد وعيا مبكرا بهذا فى الفكر المصرى ، فقد كتب أحمد لطفى السيد فى ( الجريدة ) مؤكدا : " أصلان اثنان يجب على ولاة التربية فى مصر العمل بهما حتى تأتى التربية بالنتيجة المقصودة منها ، وهما : إنماء الشخصية أو الاستقلال الذاتى فى نفس الفرد ، وإنماء المشابهات والخواص الاجتماعية فى نفوس الأفراد" .

وإذا كان هذا صحيحا على وجه العموم بالنسبة للمجتمع الواحد ، فإنه لا يقل صحة بالنسبة لمجموعة من المجتمعات التى تشترك فى كثير من العناصر والقسمات الثقافية ، مثل مجموعة الدول العربية ، فالصفة العربية التى نطلقها إنما تتعلق بالدرجة الأولى بالثقافة السائدة فى هذه الدول .

وقد وعى كثيرون من قادة البلدان العربية من المفكرين والسياسيين ، منذ وقت مبكر ، وخاصة قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، أن الظروف السياسية إذا كانت قد فرضت تعددا فى الكيانات السياسية ، إلا أن هذا التعدد لا يلغى ما بين هذه الكيانات من عناصر اشتراك

وتشابه فى العديد من العناصر الثقافية ، أبرزها وأخطرها بطبيعة الحال اللغة العربية ، والتى كتبت بها ألوف الكتب المتضمنة تراث الأمة الثقافى عبر قرون عدة .

وكان من الطبيعى أن يبرز " التعليم " أمام الجميع ، سبيلا من أهم السبل لتعميق الوحدة الثقافية وتطويرها وإثرائها ، إلى الدرجة التى جعلت هذه القضية تفرض نفسها لتكون من أولى الخطوات التى شهدتها الثقافة العربية فى العصر الحديث .

ولعل أول جهد رسمى بذل على طريق الوحدة الثقافية هو تلك المعاهدة التى عقدت فى شهر نوفمبر سنة ١٩٤٥ باسم ( المعاهدة الثقافية بين دول الجامعة العربية ) ، وبفحص هذه المعاهدة نتبين أنها كانت ترمى إلى تحقيق غرضين :

١ - تعريف أبناء الدول العربية بعضهم ببعض ، وتوضيح فكرة الأمة العربية وخصائصها فى أذهانهم ، وتعبئة شعورهم حولها .

٢ - تنشيط الحركة الفكرية فى البلاد العربية ، وتطوير الثقافة العربية بتغذيتها بمكتسبات العلم الحديث ومخترعات الحضارة العالمية .

وإذا بحثنا عن وسائل تحقيق الهدف الأول فى المعاهدة وجدنا أن الغالب عليها هو الطابع التعليمى ، منها :

ا - تبادل المدرسين والطلاب بين المعاهد العلمية لدول الجامعة ( المادتان ٣،٢ ).

ب - تشجيع الرحلات الثقافية والكشفية والرياضية بين البلاد العربية ، وعقد اجتماعات ثقافية ودراسية للطلبة ( المادة /٤) .

ج - تبادل إنشاء المعاهد العلمية والتعليمية ( المادة /٥ ) .

د - توحيد المصطلحات العلمية بواسطة المجامع والمؤتمرات واللجان المشتركة ، وبالنشرات التى تنشرها هذه الهيئات ، والعمل على الوصول باللغة العربية إلى تأدية جميع أغراض التفكير والعلم الحديث ، وجعلها لغة الدراسة فى جميع المواد فى كل مراحل التعليم فى البلاد العربية ( المادة /٩) .

ه - توثيق الصلات بين دور الكتب والمتاحف العلمية والتاريخية والفنية فى البلاد العربية ( المادة / ١٠) .

ز - توثيق الصلات وتسهيل التعاون بين العلماء والأدباء ورجال الصحافة والمهن الحرة وأهل الفن والتمثيل والموسيقى والسينما والإذاعة ، وذلك بتنظيم زيارات لهم من بلد إلى آخر ، وتشجيع عقد المؤتمرات الثقافية والعلمية والتعليمية .. الخ ( المادة / ١١) .

ح – أن تدخل دول الجامعة فى مناهجها التعليمية من تاريخ البلاد العربية وجغرافيتها وأدبها ما يكفى لتكوين فكرة واضحة عن حياة هذه البلاد وخصائصها ، وتعمل على إنشاء مكتبة عربية للتلميذ ( المادة / ١٢) ٠

وفى المؤتمر الثقافى العربى الأول الذى انعقد بلبنان سنة ١٩٤٧ جاءت إشارة صريحة تطالب الدول العربية بتوجيه مناهجها توجيها قوميا ، وجاء ذلك بصفة خاصة بالنسبة للدراسات الاجتماعية حيث أكدت على أن " تشمل هذه الدراسات من المسائل الاجتماعية والاقتصادية فى الوطن المحلى ، وفى البلدان العربية ما يقوى الروح القومية ، كما تشمل دراسة الأخلاق ونظم الحكم عامة ، ونظم الحكم فى البلاد العربية بصفة خاصة " ٠ وتوالى بعد ذلك عقد مؤتمرات ثقافية عربية فى السنوات التالية ٠

ولابد أن نلفت النظر إلى أن المؤتمرات التى درجت جامعة الدول العربية على عقدها فى الفترة الأولى من عملها كانت تعقد باسم ( المؤتمر الثقافى ٠٠٠) ، ومن ثم لم تقتصر أهدافها وسياساتها على العمل التعليمى بمعناه المتخصص ، بل امتدت لتشمل السياسة الثقافية التى تشكل المنطلق الفكرى للعمل التعليمى والموجه له ٠

وانعقد أو مؤتمر للمعلمين العرب فى الاسكندرية سنة ١٩٥٦ ، وقد توصل هذا المؤتمر إلى توصيات تناولت التعبئة الروحية والخلقية للمواطن العربى والمناهج والكتب المدرسية والتربية القومية ، وتكوين الرأى العام العربى وتوجيهه ، وتشكل اتحاد عربى للمعلمين ، توالت بعد ذلك مؤتمراته وأنشطته على هذا الطريق ٠

وقد دارت رحى معركة فكرية كبيرة بين " ساطع الحصرى " و " إسماعيل القبانى " حيث تحمس الأول ، بكتاباته وبجهوده وأحاديثة لتوحيد مناهج التعليم ونظمه ، من أجل توفير أقوى السبل للوحدة الثقافية ، بينما طالب الثانى بقدر من التريث والحذر ٠ فقد ذهب القبانى إلى أنه " لا يجوز توحيد المناهج أو الطرق ، أو الكتب حيث تختلف البيئات اختلافا جوهريا " ، بينما رأى الحصرى أن تنوع البيئات الطبيعية يكسب الأمة بيئة طبيعية متكاملة ، تعزز مكانتها الاقتصادية ، وتقوى وحدتها الثقافية ٠

وتبلغ الصياغة الفكرية لفلسفة وطرق التوحيد الثقافى بين الدول العربية الذروة بميثاق الوحدة الثقافية العربية الذى ووفق عليه فى مؤتمر وزراء التربية والتعليم العرب ببغداد فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٤ . ويبلور الميثاق هدف التربية والتعليم بأنه :

" تنشئة جيل عربى واع مستنير ، مؤمن بالله ، مخلص للوطن العربى ، يثق بنفسه وبأمته ، ويدرك رسالته القومية والإنسانية ، ويستمسك بمبادىء الحق والخير والجمال ، ويستهدف المثل العليا الإنسانية فى السلوك الفردى والجماعى ٠٠٠٠

" وتعمل الدول الأعضاء على رسم الفلسفة التربوية العربية التى تنهض بهذا الهدف العام ، وعلى تعيين أهداف التربية فى جميع مراحل الدراسة ، وإبرازها فى مجال العمل والتنفيذ بما يحقق ما تعقده الأمة العربية على تربية شبابها من آمال ٠٠"

ودارت معظم مواد الميثاق على الوسائل المختلفة للتوحيد الثقافى فى صورة أكثر تقدما من المعاهدات والاتفاقيات السابقة ٠ومن الملاحظ أن الكلمات والعبارات التى تضمنتها مواد الميثاق تتميز بعلو الرنين اللفظى ، واستخدام الشعارات التى تخاطب الوجدان القومى ، وتبلغ درجة ملحوظة من العموم الذى أتاح للبعض ، فيما بعد أن يتخفف من مسئولياتها وفقا للتفسيرات والاجتهادات الخاصة ٠

لكن أهم ما جاء في الميثاق المشار إليه حقا هو الموافقة على تطوير الأجهزة الثقافية بجامعة الدول العربية ( الإدارة الثقافية ، ومعهد المخطوطات ، ومعهد الدراسات العربية العالية ) ، إلى منظمة واحدة تشملها جميعا فى نطاق جامعة الدول العربية تسمى ( المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ) ، تلك المنظمة التى ظهرت إلى الوجود بالفعل وقادت جهودا كبيرة فيما بعد فى سبيل استثمار التعليم أداة للتوحيد ٠

وقد ناقش المؤتمر الرابع لوزراء التربية الذى انعقد فى صنعاء فى ديسمبر عام ١٩٧٢ الحاجة إلى وضع استراتيجية لتطوير التربية فى البلاد العربية ٠ وفى الصياغة النهائية لهذه الاستراتيجية التى ظهرت عام ١٩٧٨ تم التأكيد على أن التعليم إن هو إلا منظومة فرعية من البنية المجتمعية الكلية مما يجعل من المحتم ألا ينظر إلى تطوير التعليم بمعزل عن التطوير الواجب فى باقى البنية المجتمعية ، وفى مقدمتها الثقافة ، ومن هنا أكدت الاستراتيجية على :

- أن التربية ذات وظيفة اجتماعية ، تتفاعل مع مجتمعها بمختلف عناصره ومقوماته ٠
- أن التربية ذات انتماء قومى تتأثر بالخصائص الحضارية القومية فى مجتمعها وعليها أن تتمثلها فى خير صورها ، وأن تعمل على تطويرها ، فتعمق الوعى بها وبالمساهمة فى تحقيق أهدافها ٠

وكانت اليونسكو قد بدأت فى العام ١٩٤٨ مشروعاتها لما اصطلح على تسميته بالتربية الأساسية ، وكان نصيب العالم العربى من هذه المشروعات افتتاح مركز خاص بالمنطقة العربية فى قرية سرس الليان بمحافظة المنوفية بمصر عام ١٩٥٢ ، ليستقبل مبعوثين من البلدان العربية لإعدادهم كرواد وقادة للعمل فى بلادهم فى مجال التربية الأساسية ، والتى حددتها اليونسكو بأنها تهدف إلى مساعدة الأفراد - الذين حرموا من فرص التعليم - فى فهم مشكلات بيئتهم ومعرفة حقوقهم وواجباتهم ، كمواطنين وأفراد ، كما تهدف إلى

اكتسابهم المعلومات والمهارات التى تمكنهم من التحسين المطرد لأحوالهم المعيشية ، ومن المشاركة بفاعلية أكبر فى التطوير الاقتصادى والاجتماعى لمجتمعهم المحلى .

وقد تغيرت وظيفة المركز بعد ذلك إلى ما سمى " بتنمية المجتمع " ، ثم إلى ما اصطلح على تسميته " بالتعليم الوظيفى للكبار " . ولا شك أن إقامة عدد من مبعوثين من مختلف الدول العربية عدة شهور ، معا ، دراسة ومعيشة ، أتاح فرصا ذهبية لإقامة جسور ثقافية مشتركة . ومع الأسف الشديد فقد عصفت بالمركز أعاصير السياسة فى أواخر السبعينات وتحول إلى مركز محلى مصرى يقوم بوظيفة مختلفة إلى حد كبير .

وقبل أن يتوقف العمل بالمركز بصفته العربية كان لابد من التنبه إلى أن استمرار الأمية بين مواطنى العالم العربى إنما يعنى افتقاد المواطن للشروط الأولية فى الاتصال الثقافى بمصادر المعرفة، وبالتالى فقد من الأهمية بمكان أن تستنفر الجهود والطاقات من أجل التفكير فى أفضل السبل للقضاء على وصمة الأمية ، ومن هنا فقد توصل خبراء المركز ومستشاروه إلى وضع استراتيجية عربية لمحو الأمية فى الوطن العربى ، كان من أبرز معالمها :

- قومية العمل العربى فى حركة محو الأمية .
- ارتباط حركة محو الأمية بجهود التنمية والتطوير الحضارى .
- ارتباط حركة محو الأمية بحركة التربية فى المجتمع .
- تدعيم أجهزة محو الأمية وكفالة مرونة حركتها .
- تكثيف الجهود بين القطاعات السكانية الغالبة فى بنية السكان .
- تكوين رأى عام بخطورة الأمية واتخاذ موقف إيجابى للتخلص منها .

كذلك فقد أنشىء ما سمى بالجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار ، ضمن أجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ، وفضلا عن المؤتمرات التى عقدها وسلسلة البحوث والدراسات التى أجراها خبراؤه ومستشاروه ، فقد استطاع الجهاز أن يضع معالم مشروع لإنشاء ما سمى " بالصندوق العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار " حتى يوفر موارد مالية لهذا المجال الهام ، وذلك عام ١٩٨٥ . ثم وضع خطة قومية لتعليم التعليم الابتدائى ومحو الأمية فى الوطن العربى ( ١٩٩٠ - ٢٠٠٠) .

وتوصل الجهد الفكرى فى مجال المواجهة مع الأمية إلى أنه ، إذا كان قد شاع أن الأمية هى سبب للتخلف ، إلا أنه من الضرورى التنبه إلى الوجه الآخر لها وهو أنها كذلك تعتبر نتيجة من نتائج التخلف ، ومن ثم فإن النهج العلمى الصحيح لمواجهتها ألا تقف الجهود عند حد محو الأمية الأبجدية فقط ، وإنما الاتجاه بكافة القطاعات والقوى المجتمعية فى جهد

قومى شامل لمواجهة مواقع التخلف المختلفة ، وبالتالى سمى المفهوم الجديد ب" محو الأمية الحضارى " .

وقد كان ذلك من غير شك تفكيرا محمودا يحمل الكثير من الأمانى الطيبة ، لكن السنين ، كما هو معروف ، مرت سراعا ولم يتحقق من هذه الأمانى حتى الحد الأدنى الذى هو محو الأمية الأبجدية ، فقد بلغ عدد الأميين فى الوطن العربى عام ١٩٩٠ (٦١,١) مليون نسمة بنسبة ٦٢٪ ، وقدر أن يصبح عدد الأميين عام ٢٠٠٠ ما يقرب من ٦٥,٨ مليون نسمة ، بنسبة ٤٩,٤٪ ، مما كان عاملا من العوامل التى ساعدت ، إلى حد ما ، على استمرار عدد من الأفكار الخرافية ، وإعادة اجترار قضايا ومسائل كانت موضع جدل وتفكير منذ عدة عقود .

أيضا فقد تأسس ( اتحاد الجامعات العربية ) عام ١٩٦٥ وكان اجتماع رؤساء الجامعات العربية الأعضاء فى الاتحاد دوريا لحضور مجلس الاتحاد ، خطوة جيدة على طريق التعاون والتعارف وتبادل وجهات النظر والخبرات بين الرؤساء ، فضلا عن شعور كل رئيس جامعة بالانتماء إلى محيط أوسع ، وبأنه جزء من كل موحد هو اتحاد الجامعات العربية . أما المؤتمر العام الذى يحضره من كل جامعة عربية وفد من عدة أعضاء ، فهو لقاء علمى لبحث المشكلات المتصلة بأهداف الجامعات العربية ورسالتها الثقافية .

وقادت بعض الهيئات غير الرسمية جهودا على نفس الطريق إدراكا منها بالدور الخطير الذى يمكن أن يقوم به التعليم على طريق التوحيد فى الثقافة العربية ، ومن ذلك ، المشروع الذى اضطلع به منتدى الفكر العربى بعمان منذ اواخر الثمانينات حتى أوائل التسعينات ، فقد جند عددا كبيرا من الخبراء المتخصصين فى مشروع عرف باسم " مستقبل التعليم فى الوطن العربى " . ولأن عددا غير قليل ممن شاركوا فى المشروع لم يكونوا من محترفى العلوم التربوية وحدهم ، بل كانوا من تخصصات أخرى تتسم بالطابع الفكرى والثقافى ، فقد جاءت أفكار التقرير الصادر عن هيئة المشروع فى عمان ١٩٩٠ يحمل مؤشرات هامة فى الربط بين التعليم والثقافة .

فمن ذلك ما تم التأكيد عليه من أن مضمون التعليم لن يكون فقط أو فى الأساس تلقين المعارف والعلوم ، فهذه تتغير وتنمو بوتيرة متسارعة ، لذلك فمهما كانت كفاءة المدرسة فى التلقين ، فإنها ، أولا ، لا تستطيع تلقين كل شىء لكل تلميذ ، وهى ثانيا ، لا تستطيع أن تستبقى التلميذ فى المدرسة طول الحياة ، لذلك فإن المفهوم الحاكم للعملية التربوية للمستقبل سيكون تعليم التلميذ كيف يتعلم ذاتيا . ويقتضى ذلك بالضرورة إعادة تأهيل المعلم وإعادة بناء المناهج بحيث تساعد التلميذ على اكتساب مهارات التعلم الذاتى ،

ومعرفة مصادر المعلومات ، واسترجاع هذه المعلومات ، وتحليلها ، ونقدها ، والاختيار الأمثل من بينها لتوظيفه فى حل المشكلات .

واتساقا مع هذا المفهوم الحاكم فى العملية التربوية ، فإن المدرسة النظامية لابد أن ينظر إليها على أنها أحد مصادر التعليم والتعلم ، إلى جانب مصادر أخرى غير نظامية ، أهمها أجهزة الإعلام وأجهزة الثقافة والاتصالات الحديثة وأماكن العمل والمكتبات العامة ، أى أن معاهد التعليم النظامية ستشاركها مؤسسات مجتمعية أخرى فى العملية التربوية ، وبالتالى يسير التعليم نحو وضعه الأمثل وهو أن يصبح نشاطا مجتمعيا شاملا لكل الأفراد وفى كل المؤسسات ، بحيث يتحقق " المجتمع المعلم المتعلم "" .

وإذا كانت تلك صورة من صور الجهود التعليمية التى سعت نحو التوحيد ، فإن الوطن العربى قد شهد فى الوقت نفسه جهودا أخرى سارت فى الطريق العكسى ، ولا غرابة فى ذلك ، فالتعليم سلاح ذو حدين ، إذا كان يعمل على التوحيد ، فإنه كذلك يمكن أن يعمل على التفريق ، وكانت معظم هذه الجهود فى ظل عهود الاحتلال الأجنبى الذى فتح الباب لكثير من الأنشطة التى من شأنها أن تكرس الفروق وتعزز الطائفية وتقوم على الاختلافات العرقية ، ومن أبرز ما تم على هذا الطريق ما سار عليه التعليم فى دول المغرب العربى ، وما قام به الاحتلال البريطانى بالنسبة للتعليم فى جنوب السودان ، وكذلك ما شهدته الأرض اللبنانية من " جزر " منعزلة من التعليم التى تقوم على الاختلافات المذهبية ، وكل هذا كان من شأنه بطبيعة الحال أن يساعد على تعميق صور الخلاف ، وتجذيرها ، ومد ظلالها إلى آفاق أخرى .

وبعـــد ...

إن الذى لا تخطئه عين المراقب ، هو أن المسيرة " الفكرية " كما هى مسطورة على صفحات الأوراق للدور الذى يستطيع التعليم أن يقوم به كعامل من عوامل التوحيد فى الثقافة العربية ، مسيرة تتسم بالإحاطة والشمول والكلية ، فما من مشكلة وما من قضية إلا ودارت حولها بحوث ودراسات وعقدت لها مؤتمرات وسطرت حولها المقالات ، لكن الناظر إلى واقع القضية يرى أنها تكاد تسير فى اتجاه مناقض لكل ما تم تسطيره على صفحات الورق ، فكأننا أمام تضخم مذهل فى الأوراق ، وانحسار مخز فى العمليات التنفيذية .

إننا لا نحتاج إلى جهد كبير فى البحث عن الأسباب ، ولكن الذى لا شك فيه أن كل هذه " اليوتوبيات " التربوية الثقافية ، ما كان يمكن أن تظل محلقة فى أجواء عالية لتبلغ سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم ، وهى لكى تتشخص فى واقع ملموس فقد كانت

تحتاج إلى قرارات وسياسات لا يمسك علماء التربية والثقافة بقيادتها ، ومن هنا فقد عصفت بها أعاصير السياسة المتغيرة دوما المتبدلة من حين إلى آخر ، ويكفى أن نسوق مثالا لذلك ما حدث لأجهزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ أواخر السبعينات حيث نقلت من مصر واستبعدت من أنشطتها فى معظم الأحوال حتى أواخر الثمانينات ، وكذلك اتحاد الجامعات العربية . وما يحدث لآلاف المدرسين المصريين الذين يشكلون جسورا معرفية وثقافية بين مصر ومواطنى كثير من الدول العربية ، عندما يحدث خلاف سياسى مع إحدى الدول العربية .. وهكذا

كذلك فإن المراقبين لمسيرة التطور التعليمى العربى منذ حرب الخليج الثانية يلاحظ انكفاء على الذات فى كثير من المواقع . لقد كان هذا الاتجاه فى بداية أمره يرفع شعارا له وجاهته عندما صدرت رغبات - مثلا - بالتكويت أو السعودة أو التعمين ، إذ فهم من ذلك أن يحل أبناء البلاد تدريجيا فى وظائف التعليم المختلفة ، لكن هذا الشعار امتد ليشمل كثيرا من المقررات والموضوعات الدراسية لتكرس صور التميز الإقليمى وتتجاوز صور التوحد القومى .

إننا نأمل فى أن يجىء اليوم الذى لا تتحمل فيه الجهود التعليمية والثقافية المشتركة النتائج السلبية للخلافات السياسية ، إن وجود مثل هذه الخلافات ليس غريبا ، فهو - ربما - تكون من طبائع الأمور ، لكن ليس من امن طبائع الأمور - فى الغالب - أن يكون تقطع الروابط التعليمية والثقافية مرافقا لها ، بل إن استمرار هذه الجهود والروابط ، مع وجود خلافات ، يمكن أن يؤدى ، تدريجيا ، إلى أن تقل احتمالات حدوثها ، وإلا فسوف يستمر ما قد أشرنا إليه ، وهو أن تنكفىء بعض البلدان على ذاتها فتكثف برامج التعليم فيها على ما يخصها هى وحدها مديرة ظهرها عن كل أو معظم ما كانت تنادى به كافة الاتفاقات والمعهدات التعليمية والثقافية العربية .

# أبعاد سياسة واجتماعية لخصخصة الثقافة

فى حقبة ماضية من الزمن شاع تعبير " اشتراكية الثقافة " ، واليوم يشيع تعبير آخر مناقض إلى حد كبير هو " خصخصة الثقافة " ! وبطبيعة الحال فليس الأمر أمر تبدل كلمات وجمل لتستوى فى عبارة مختلفة ، وإنما هذه العبارة أو تلك إنما تعكس " حزمة " كبيرة من المبادىء والسياسات الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات الدولية مباينة للأخرى أشد ما تكون المباينة ، وحسن النظر والتناول لقضية خصخصة الثقافة إنما يتأتى من البصر بأبعادها السياسية والاجتماعية والفكرية دون التوقف فقط عند أبعادها الاقتصادية المعروفة .

و" الخصخصة " هى تعبير عربى أريد به أن يرادف المصطلح الإنجليزى " Privatisation " ، وإن كان هناك بعض آخر يميل إلى استخدام مصطلح " التخصيصية " ، كما نجد فى بعض المؤسسات النقدية العربية مثل صندوق النقد العربى ، والبرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ، واللجنة الاقتصادية لغرب آسيا . ويفضل أهل المغرب العربى قول " الخوصصة " ، أما مجمع اللغة العربية السورى فى دمشق فقد أقر أن يسميها " الأهلنة " .

وقد نشأ هذا المصطلح أصلا فى المجال الاقتصادى ، ليعنى تحويل المشروعات العامة إلى مشروعات خاصة ، وهذا ما يرتبط بتغيرات اقتصادية واجتماعية بالضرورة ، سابقة ولاحقة ، حيث أن الخصخصة تتطلب مناخا يقوم على الحرية الاقتصادية . ولا يقصد بالخصخصة مجرد تحول شركات قطاع الأعمال إلى القطاع الخاص كما هو متداول بين جمهرة كبرى من الناس ، ولكن يقصد بها تطوير قطاع الأعمال ونموه وإدارته من خلال آليات السوق ، وإطلاق المنافسة وفتح أسواق جديدة محليا وخارجيا ، والاهتمام بجودة المنتجات وتطويرها من أجل تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية .

وتبرز عدد غير قليل من الباحثين ، وخاصة الاقتصاديين عددا من المبررات التى يؤكدون من خلالها على ضرورة الخصخصة ، من ذلك :

- أن القطاع الخاص قائم ومستمر على المبادرة سواء الفردية أو الجماعية المنظمة ، ومن ثم فإنه يتيح دائما كل جديد فرصة التجربة وفرصة الظهور والانطلاق .

- أن القطاع الخاص أكفأ من الحكومة فى إدارة نشاطه الاقتصادى ، تلك الإدارة التى لا تستهدف الفائض وتحوله إلى عجز دائم ومستمر ، بل هى تلك الإدارة التى تحقق اقتصادية التشغيل بما يعظم الفائض ويوفر فى استخدام الموارد ويحسن من أداء المشروعات ومن ثم يحقق فائضا متراكما من الأرباح .

- أن القطاع الخاص بما يقدم من نظام أجرى وحوافز ترتبط بالإنتاج وبإنتاجية العاملين يكون أقدر من الحكومة على تحفيز العاملين وإيجاد دافع لديهم على زيادة الإنتاج وتطوير وتنمية أدائهم .

- تؤدى الخصخصة إلى تحسين الاهتمام بالجودة وإلى تحسين وتطوير الارتقاء بجودة المنتجات والخدمات لتصبح أكثر إشباعا وتوافقا مع احتياجات ورغبات وقدرات المستهلكين المحليين والخارجيين ، ومن ثم تضمن تصريف كامل الإنتاج ... إلخ .

وإذا كان نهج الخصخصة قد بدأ ينتقل إلى مجالات أخرى ، ومنها مجال الثقافة ، فهل الأمر هنا يمكن أن يكون كمثيله فى القطاعات الاقتصادية ؟

حتى يمكن أن نجيب عن هذا التساؤل ، لابد أن نستحضر السؤال الاقتصادى الشهير الذى يتردد دائما وهو : من يدفع الثمن ؟ ومثل هذا التساؤل ، يُبرز لنا بدوره تساؤلا آخر : من المستفيد ؟ إذ من البديهى أن الذى يدفع الثمن لابد أن يكون هو المستفيد .هنا نجد أن عددا من علماء الاقتصاد يفرق لنا بين ثلاث أنواع من السلع والخدمات تُقدم لجمهور المواطنين:

- سلع وخدمات يعود عائدها كلية إلى المجموع العام للمجتمع ، لا الفرد ، كما نرى فى الخدمة التى تقدمها القوات المسلحة ، حيث توفر الأمن للجميع من أى اعتداء خارجى ، ومن هنا فإن المجتمع هو الذى يدفع ثمن هذه الخدمة ، بينما لا يدفع المواطن شيئا .

- سلع للاستهلاك الشخصى ، مثل المأكل والمسكن والترفيه والملبس ، فهنا يذهب العائد مباشرة للمواطن ، وبالتالى فإنه هو وحده الذى يدفع التكلفة .

- لكن هناك نوعا من الخدمات التى يصعب درجها فى إحدى الفئتين السابقتين ، وهما الثقافة والتعليم ، فمن ناحية نجد أن عائدهما يعود إلى المواطن من حيث اتساع الأفق وزيادة المعرفة وعلو المكانة والتقدير الاجتماعى ، وغالبا دخلا اقتصاديا ، فضلا عن التهذيب الخلقى كما هو مفروض ، لكننا من ناحية أخرى لا نستطيع أن ننكر أن شيوع استهلاك هذه النوعية من الخدمات يغير من الصورة الكلية للمجتمع حيث يصبح مجتمعا متعلما معلما تشيع العلمية فى عروقه وتبث دماء قوة وعافية حضارية ، وهذا بطبيعة الحال على أساس أن ما يقدم من هذه الخدمات هو من النوع الصحى السوى .

وهكذا ، ووفقا للقاعدة القائلة بأن المستفيد هو الذى يدفع الثمن ، فإننا نجد هنا أن كلا من الفرد والمجتمع يستفيدان فائدة مباشرة ، مما يقتضى أن يكون دفع ثمن التكلفة فى قطاع الثقافة أمرا مشتركا بين القطاع الخاص والقطاع العام ، أو هو أمر وسط بين كلا الاتجاهين .

وخصخصة الثقافة لا تتوقف عند حد الملكية الخاصة للتجهيزات والمنشآت والمباني ورأس المال النقدى ، وإنما لابد أن تمتد إلى التوجه والمضمون الذى تحمله الرسالة التى توجهها إلى المستهلكين ، وهذا أمر يجعل من خصخصة الثقافة ضرورة سياسية ، كما هى ضرورة فكرية ومجتمعية ، ذلك أن النظام السياسى عندما لا يقوم على تداول السلطة ، قد يتعرض البعض لعوامل فساد تتسرب ميكروباته إلى سلوكيات إدارية تتبدى فى تسهيلات فى الحصول على أراض أو قروض ائتمانية ، أو مبان تمنح لبعض رجال الأعمال ، أو الأقارب أو الأصدقاء ، فتجىء حرية الفكر التى لابد أن ترافق خصخصة الثقافة لتمارس دورها فى الرقابة والكشف عن حالات الفساد ، على أن تتوافر ضمانات تشريعية ملزمة تحمى هذه الحرية من التعبير .

إن خصخصة الثقافة إنما هى " نغمة " - إن صح هذا التشبيه - ضمن نغمات عدة فى قطعة موسيقية واحدة لابد أن تتسم " بالهارمونية " التى تتمثل فى اتساق وتناغم بين النُهج المجتمعية القائمة ، وإلا اكتوى المجتمع بنارها أكثر مما يفيد منها .

وعلى سبيل المثال ، فإن خصخصة الثقافة فى ظل نظام سياسى يقوم على فكر ذى بعد واحد ، من شأنه أن يوجه الثقافة إلى اتجاه ذى بعد واحد أيضا ، ذلك أن صاحب رأس المال يحرص على منطق " المسايرة " متجنبا الاعتماد ولو فى بعض الأحيان على منطق " المغايرة " ، خاصة عندما يرى ويلمس تجارب سابقة فشل فيها بعض حاول أن يتفرد بما يرى من اتجاه ، وتصبح الخصخصة هنا خصخصة فقط للملكية ، دون أن تمتد إلى وجهها الآخر ألا وهو خصخصة الفكر نفسه ، ونعنى به أن يكون قائل الرأى أو كاتبه هو مالكه ، وليس مجرد " رجع صدى " ، أو فردا فى " كورس " يردد ما يقوله الجميع ، كما هو حادث فى بعض البلدان النامية ، وبعض البلدان العربية .

إن هذا أمر مألوف حدوثه فى المجتمعات حديثة عهد بتجربة الخصخصة ، بعد أن تكون قد عاشت زمنا فى ظل منطق آخر مغاير ، وفى مجتمعات لم تكن قد وصلت إلى درجة عالية من حيث التراكم الرأسمالى ، وتوافر قاعدة إنتاجية ضخمة ترسخ تقاليد وعادات ونظما اقتصادية معينة يتسم بها الاقتصاد الإنتاجى ، ففى الوضع الجديد ، يكون هناك أمران يحكمان حركة الاستثمار ، أولهما : رغبة محمومة ، نتيجة حرمان طويل ، فى الكسب السريع ، ثانيهما : قدر من الشعور بعدم الاطمئنان الكافى ، ومن هنا يتجه رأس المال إلى تلك المجالات سريعة الربحية ، كما تتجلى فى الاستثمارات العقارية والمصرفية والخدمات السياحية والاتصالات والسلع الاستهلاكية ، مما يُسهل نقله إذا ما تعكرت الأجواء وظهر

خطر ما على رأس المال هذا ، وهذا من شأنه أن يُغلب نمط الاقتصاد الخدمى على الاقتصاد الإنتاجى .

وحتى يشعر رأسمال بالطمأنينة والأمان فإنه يسعى حثيثا لأن يرتبط ارتباطا مصلحيا بذوى السلطة والنفوذ ، سياسيا وإداريا ، خاصة وأن كثيرا من شئونه يمكن أن يتعلق أمره بأوراق رسمية وموافقات فى أروقة الإدارة الحكومية . ويشعر البعض فى هذه المواقع الحكومية بأن السلطة الإدارية التى يملكها إنما هى مؤقتة ، فقد يكون قد وصل إلى موقعه بغير استحقاق ، وقد يكون مستحقا لكنه يمكن أن يذهب فى لحظة غضب عليه غير متوقعة ، فيتوق إلى أن " يؤمن " مستقبله بقدر من الثروة المالية ، فيتم تزاوج بين المصلحتين وتتولد نتيجة هذا أفعال تخريب لا للاقتصاد الوطنى فحسب وإنما لمنظومة القيم فيه ، ولا تستطيع مؤسسات الثقافة أن تكون بعيدة عن هذا المناخ .

وهكذا فإن الضمانات القانونية اللازمة لحرية التعبير ، والتعددية السياسية ، وتداول السلطة ليست مجرد شأن سياسى نتصور أنه بعيد عن قضية خصخصة الثقافة ، بل هى شروط لابد منها حتى تؤدى هذه الخصخصة دورها الثقافى المنشود .

لقد كشف تطبيق الخصخصة فى المؤسسات الاقتصادية عن أبعاد سياسية واجتماعية كثيرة فى بلدان أخرى ، جاءت بوابل من الشرور جعلت عددا غير قليل من الناس يتمنون العودة إلى فترة سابقة كانت أفواههم فيها مكممة ، لكنهم كانوا يجدون قوت يومهم بانتظام ، والمأوى الأساسى ، والأمن الحياتى ، وعندما حصلوا على فرصة التعبير الحر عن رأيهم وجدوا أنفسهم قد فقدوا هذه الاحتياجات الأساسية ، مما يحتم أن ننظر إلى قضيتنا نظرة منظومية تتكامل فيها الأبعاد المجتمعية ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ولا تتقاطع وتنفصل .

# كتـــــاتيـــب !

منذ آلاف من السنين يعلم الله مقدارها عرف الإنسان أكل اللحوم ٠ كان يأكلها أولا نيئة ، ثم حدث أن مستها نار ، فلما ذاقها أحس بأن طعمها أصبح أفضل ، فتوقف عن أكلها نيئة ٠ وعبر آلاف من السنين كانت الخبرة توقف الإنسان على " شكل " جديد وجيد من أشكال طهى اللحوم له مذاقه الخاص ، فتوافرت لديه عشرات من هذه الأشكال التى تناسب رغبة هذا وذاك ، وتتسق مع رغبة الإنسان الواحد فى التغيير والتجديد ٠

تغيرت أشكال اللحوم عبر الزمن إذن ، لكن ظل " المضمون هو هو أى اللحم نفسه ، ومن ثم فمطالبة إنسان بأكل اللحم لا تعنى بالضرورة هذا الشكل أو ذاك ، وخاصة إذا كان الشكل قديما قد تم هجره والتخلى عنه ، وإنما المهم هو المضمون نفسه ٠

كذلك عرف أبناء أمتنا منذ ما يقرب من ألف وأربعمائة عاما القرآن الكريم ، والذى غلب على تلقيه تعليما وتعلما الشكل المعروف فى الكتاتيب : فقيه يحفظ التلاميذ ٠٠ تلاميذ يفترشون الأرض ، وغالبا بغير بساط ٠٠ يستخدمون " الألواح" يكتبون عليها آيات القرآن الكريم ٠٠ هم يحفظون ، والفقيه يسمع لهم ٠٠ يتلقى الفقيه أجره من التلاميذ مباشرة فى نهاية كل خميس ٠٠ كل تلميذ يسير بسرعته الخاصة فى التعلم والتعليم ٠٠ وهكذا ٠

المضمون هنا هو تعليم وتعلم القرآن الكريم ، والشكل هو هذه الأمثلة التى سقناها ٠

فإذا ما كتب كاتب يطالب بالكتاتيب ، لا نسرع بإساءة الظن به ونصوره وكأنه بلغ درجة من البلاهة والسذاجة بحيث يطالب بعودة " الشكل " الذى كان ، وإنما ننصت إلى صوت الضمير الوطنى الصافى ، والحس الدينى الصادق ، والوعى التربوى المستنير ، ونفهم أنه بالضرورة يعنى " المضمون " ، أى يعنى مطالبته بأن يعود تعليم وتعلم القرآن الكريم ، خطوة أساسية فى تعليم أطفالنا ، أما الشكل ، فمن المفترض أن يلحقه التغيير والتطوير وفق سنن الله فى خلقه ، ووفق ما تقضى به علوم النفس والتربية والاقتصاد والاجتَماع والدين ٠

هل نحن بحاجة إلى بيان تفصيلى بالجدوى الدينية والثقافية والتربوية لتعلم القرآن الكريم ؟ لن أسوق آيات قرآنية أو أحاديث نبوية لبيان ذلك ، وإنما أشير إلى جانب واحد فقط هو دور هذا التعلم فى ترسيخ دعائم اللغة العربية ، التى هى الوعاء الذى احتوى كافة موروث الأمة الثقافى عبر ألف وأربعمائة عام ، حتى أن هذا الزعيم الوطنى العظيم الذكى ، مكرم عبيد ، لم يكن قد تلوث بعد بداء معاداة الموروث الثقافى للأمة ، حرص على تعلم

القرآن الكريم على الرغم من أن القرآن هو كتاب المسلمين ، وهو من الأقباط ، لأنه أدرك بوعيه الوطنى السليم وبحسه الثقافى المستنير أن القرآن ما دام هو الكتاب المركزى لثقافة الأمة التى هو ابن من أبنائها فلابد من تعلمه ٠ وكم أفاده هذا وهو يقف خطيبا بين آلاف من المواطنين فى قضايا الوطن المختلفة ، إلى الدرجة التى كان يخلب فيها ألباب الجماهير ، فاحتل مكانته المرموقة ، واستمر سنوات غير قليلة هو الرجل القوى فى حزب الجماهير قبل ثورة ١٩٥٢ ٠٠ الوفد ٠

حتى هؤلاء المطربين والملحنين العظام الرواد ٠٠ لقد تعلم محمد عبد الوهاب القرآن الكريم ، وكذلك أم كلثوم ، وزكريا أحمد وغيرهم ٠ لم يكن عبد الوهاب خريج مدارس نظامية ، ولا أم كلثوم ، لكن تعلمهم القرآن جعل لغتهم على درجة من الرقى الذى أتاح لهم تذوق القصائد الشعرية لكبار الشعراء ،وحسن اختيار الكلمة الحلوة والعبارة السليمة من كتاب الأغانى الكبار ، فإذا بهم ، حتى وهم ينطقون كلمات أغانيهم قبل أن تلحن ، وكأنهم ينطقون كلاما ذا إيقاع جميل ٠ كان ابنى وهو طفل صغير يضيق بغناء أم كلثوم ويبرر ذلك بتكرارها العبارات عدة مرات ، فدربته مرة على الإنصات إلى عبارات كانت تكررها ، منبها له أنها فى كل مرة ، كانت تقولها بشكل جديد ، لامتلاكها مهارات عديدة فى علم " القراءات " من حيث الوقف والوصل والمد وغير هذا وذاك من مهارات ٠

ومن هنا يصبح المطلوب هو التفكير فى كيفية العودة إلى تعليم أطفالنا القرآن الكريم ، بالشكل الذى يمكن أن نتفق عليه ٠ وعلى سبيل المثال ، فلابد من استخدام الأجهزة الحديثة فى تكنولوجيا التعليم ، وفى مقدمتها الكومبيوتر ٠ ومن الممكن التخلى عن تعليم الأطفال القرآن من خلال الشكل المكتوب به القرآن وهو " السور " ، وإنما من خلال محاور " موضوعية " ، فيتعلمون مثلا مجموعات من الآيات التى تروى لهم قصص الأنبياء ، وبعض الأمم السابقة ٠ ويمكن أن يتعلموا مجموعة من الآيات التى تشير لهم إلى مجموعة من القيم والفضائل الخلقية والآداب السلوكية المرغوبة ، وكذلك عكس هذا ، أى مجموعة آيات تشير إلى سلوكيات مرذولة لتجنبها ، فضلا عن كم كبير من طرق التعليم الحديثة ، والتنظيمات ذات الكفاءة العالية ٠

خلاصة الأمر ، إنها مطالبة بالعودة إلى الاهتمام بتعليم أبنائنا القرآن الكريم ، لكنها ليست أبدا مطالبة بعودة الكتاتيب بشكلها وتنظيمها التقليدى الذى كان شائعا ٠

# آثار الحكيم : بعيون تربويـــة !!

كان من المجموعات التى أُدرس لها كل عام مقررا فى تاريخ التعليم فى مصر بتربية عين شمس مجموعة بقسم اللغة الإنجليزية منذ أول السبعينيات ، وكانت الذاكرة تستطيع أن تحتفظ بأسماء وأشكال كثير من الطلبة والطالبات ، ثم اضطرتنى الظروف إلى التغيب عن مصر ثلاث سنوات ، وبعد سنوات قليلة من عودتى ، لاحظت بزوغ نجمة جديدة فى سماء الفن اسمها " آثار الحكيم " لفتت نظرى بما هى عليه من خفة دم وتباشير التمكن من مهارات تمثيل يقوم على الصدق وعلى الاحترام .

وكم أثلج صدرى أن أعلم أنها خريجة قسم اللغة الإنجليزية بتربية عين شمس ، وعبثا أفتش فى ذاكرتى عنها بين المجموعات والدفعات التى درست لها فلا أجدها ، فلما عرفت تاريخ تخرجها عرفت أنها درست المقرر الذى أُدرسه فى الفترة التى كنت فيها خارج البلاد ، فأشعر بقدر غير قليل من الأسى أنى لم يكن لى دور فى تعليم هذه النجمة الصاعدة بسرعة الصاروخ إلى قمة الإجادة والبراعة .

وتمر السنون وتزداد " آثار" نضجا وتألقا ، وأجد نفسى مشدودا حقيقة ، كلما كان ذلك ممكنا ، إلى أن أتابع أعمالها الفنية ، فأزداد لها تقديرا وتتصاعد رغبتى فى أن أرى لها المزيد من الأعمال .

كان أكثر ما يشعر به مشاهد مثلى ، غير ناقد فنى ، هو ذلك " الارتياح " النفسى الغريب لمشاهدة أعمالها ، وإذا كان هذا هو ما يسميه النقاد " بالقبول " الذى يصل بين الممثل وبين قلوب الناس ، لكنى أجد أنه كان أكثر من ذلك ، فكأنها قطعة من نفس المشاهد خرجت لتلعب دورا معينا فى فيلم أو فى مسلسل ، ثم تعود مرة أخرى لتستقر فى النفس متربعةً فى مكان خاص ، حتى أنها كانت تذكرنى بدعاء كنت أسمعه من عشرات السنين من جدتى ، عندما كانت تودعنى أحيانا بقولها " روح ربنا يحبب فيك خلقه " ! والحق أننى لم أكن أدرك تماما مغزى وقيمة هذا الدعاء ، لكنه يظهر واضحا عندما ترى مثل " آثار " ، وتعبر عن مشاعرك الطيبة نحوها لأى إنسان فإذا - دائما - السامع يشاركك فيما تقول ، وتتيقن أنك لست وحدك فى الإعجاب بها والتقدير لها ، وإذا حاولت أن تُنوع من سماع الآراء والمواقف ، فسوف تجد ما يشبه الإجماع من مستويات اجتماعية وثقافية مختلفة ، وكأن " آثار" قد حظيت بتحقيق الله سبحانه وتعالى لمن دعا لها بأن " ربنا يحبب فيها خلقه " !

وعلى الرغم من أن رائعة المبدع العبقرى أسامة أنور عكاشة " ليالى الحلمية " تحمل فى ذاتها كل ما يحملها بجناحى العمق والثراء الفنى ، إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه فى سموات الفن الجميل ، إلا أننى كنت دائما أستشعر مذاقا خاصا لهذه المشاهد التى تظهر فيها " آثار " ، حتى إذا غابت ، وقام غيرها بدورها ، وتظل مظاهر العبقرية والإبداع " العكاشى " مستمرة متواصلة ، لكن نظل نشعر وكأن العمل به ثغرة تجعل طعمه ليس هو الطعم المطلوب ٠ ومن مقعد متفرج ، يستمتع بتذوق الفن الجميل ، كنت أتمنى أن أملك مهارات الشعراء ، كى أصور بالكلمات فيضان المشاعر الودية ، وطوفان الإعجاب بهذه الفنانة التى تقتحم القلب بغير استئذان ، وتملأ الوجدان بكل ما يملكه مشاهدها من انفعالات سارة مريحة ، عندما تكون هى سعيدة ، وعكس ذلك عندما تكون هى حزينة ٠ وتأبى " آثار " إلا أن تتوج مشاعر الود التى تغرسها فى قلوب مشاهديها ، بتقدير عقلى ، عندما نلمس كيف أن أضواء الشهرة وأنهار مالها المتدفقة ، لم تنسها دورها كأم ومربية لأولادها وراعية لبيتها اضطرتها إلى الاحتجاب بعض الوقت ، وجعلنا حبنا لها نتحمل هذا الغياب احتراما لها وتقديرا ، فلم تكن مجرد فنانة عظيمة ولكنها كانت أيضا إنسانة عظيمة ٠

ولابد أن أصارح القارىء أننى عندما سألنى بعض الزملاء عما أكتبه هذه الأيام وأخبرتهم بموضوع مقالى الحالى ، أبدوا دهشتهم ، وكنت أتوقع شيئا من هذا عندما فكرت فى الموضوع ، ولم يثننى ما توقعته عن كتابته ٠ كان مبعث الدهشة أنهم تعودوا منى كتابات فى السياسة وفى التعليم ٠٠٠ ثم فى التربية الإسلامية ، من خلال دراسات وكتابات أكاديمية متخصصة ، فكيف يصح بعد هذا أن أكتب ما كتبت ؟!

عندها تذكرت حلقة من البرنامج الشهير الذى كانت تقدمه " سامية صادق " فى البرنامج العام فى الإذاعة ، وذلك منذ سنوات بعيدة ، وكانت تستضيف الراحل الشيخ أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف فى عهد الثورة ، ورئيس جامعة الأزهر الأسبق ، فقد سألته إذا كان يحب سماع الأغانى ، فأجاب بالإيجاب ، ولما سألته عن أغنية بعينها يهتز وجدانه لسماعها ، أجاب بأنها " فى الليل لما خلى " لمحمد عبد الوهاب ٠ ساعتها حدث لى مثل ما حدث لأصدقائى ، إذ دهشت أن يطرب هذا الشيخ والعالم الدينى ، عضو الإخوان المسلمين السابق ، ووزير الأوقاف بمثل هذه الأغنية ؟ وأنصت للأغنية كى أفتش عما عجبه فيها ، فإذا بى بعد هذا أتوق شوق دائما لسماعها ولا أكاد أمل ذلك ٠

ولا أدرى لماذا استدعى هذا الموقف من الأصدقاء تلك الأبيات التى كتبها بيرم التونسى ، وشدت بها أم كلثوم ، والتى يقول فيها :

قالوا أحب القس سلامة وهو التقى الورع الطاهر

كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر
ياقوم إنى بشر مثلكم وفاطرى ربكم الفاطر
لى كبد يهفو كأكبادكم ولى فؤاد بالحب شاعر

لا تعارض إذن ولا تناقض بين ما تعودت أن أكتب فيه ، وبين موضوع الأسبوع الماضى ، فلست كاتبا محترفا ، وإنما أنا كاتب هاو ، وبالتالى لا أستطيع أن أكتب إلا فى موضوع أنفعل به وجدانيا ، أو يحرك عقلى للتفكير فيه ، أو وفقا للأمرين معا .

كذلك فأنا أعرف حدودى فى الكتابة جيدا ، دون أن يعنى هذا أن الآخرين يرون هذا أم لا ، فكثيرا ما كتبت فى موضوعات رأى فيها آخرون أننى تجاوزت الحدود ، ومسألة " الحدود " هذه مسألة نسبية ، فأنا عندما أشير للحدود ، أقصد أهلية الكتابة فى الموضوع ، لكن ربما يفهم آخرون منها تجاوزا منى لخطوط حمراء ، هذه الخطوط التى يمكن أن تكون سياسية أو تهديدا لمصالح أو كشفا لعورة اجتماعية يُراد عدم الكشف عنها .. إلى غير هذا وذاك من اعتبارات كلها تقوم على التقدير الذاتى لمتلقى الخطاب !

وبالنسبة لموضوع الأسبوع الماضى ، فإننى لم أكن أقصد أن أحشر نفسى فى زمرة النقاد الفنيين ، فلست بالفعل أهلا لذلك ، وما سجلته إنما هو " انطباعات شخصية " ، وإن كان من الضرورى أن نقرر هنا أن النقد الفنى بالمعنى العلمى ، فريضة غائبة عن ساحة الكتابة الفنية فى مصر ، ومعظم ما يكتب هو أدخل فى باب الانطباعات الشخصية .

ومرة أخرى لم أكن لأستطيع أن أحبس بين ضلوعى تلك المشاعر الفياضة بالإعجاب والتقدير لهذه الفنانة المبدعة " آثار " ، وعندنا فى العلوم التربوية والنفسية نؤكد على ضرورة أن يحظى المجيد بما يستحقه من إشادة وتقدير حتى يواصل إبداعه وإتقانه .

فى أول أجزاء ثلاثية نجيب محفوظ ( بين القصرين ) ، يثور الأب " السيد أحمد عبد الجواد " عندما سمع ابنه " كمال " يصرح بأنه ، بعد أن حصل على " البكالوريا " - الثانوية العامة - يريد أن يلتحق بمدرسة المعلمين العليا - كلية التربية الآن - ، ويصرخ فى ابنه سائلا له ما معناه : دلنى على تمثال أقاموه لمعلم .. دلنى على معلم وصل إلى رئيس وزراء .. كل هذا تحقيرا من الرجل لدراسة مهنة التعليم ، وهاهى " آثار "، خريجة كلية التربية ، وبعد سنوات طويلة تُكذب السيد أحمد عبد الجواد بطريقة أخرى .. فها هى تقف على قمة أداء فنى تستحق معه أن يقام لها تمثال حقا .. وهى تتربع على العرش فى قلوب ملايين من المشاهدين ، وهو موقع يفضُل كثيرا موقع بعض من تولوا رئاسة الوزراء ، مع الاعتذار للمنصب ، ولمن شغلوه !

وعندما أحاول أن أستعيد إلى ذاكرتى رائعة أسامة أنور عكاشة " زيزينيا " ، أشارك الجمهرة الكبرى من المشاهدين بطبيعة الحال فى التقدير البالغ لهذا البناء الدرامى المُحكم الذى يخاطب العقل والقلب معا ، والذى " يُثقف " و " يُعلم " ، فى الوقت الذى يُسلى ويُمتع المشاهد ، لكنى كثيرا ما أتساءل بينى وبين نفسى : كيف كان يمكن لهذا العمل أن يحظى بما حظى به من إعجاب وتقدير لو لم تقم بدور البطولة فيه آثار الحكيم ، على الرغم من أن النص يحمل فى ذاته قيمته الكبرى ؟ فكأنها أضافت له متعة فوق ما يحمله من متعة ، وكأنها أضافت إليه بهجة فوق ما يحمله من بهجة .

وانظر كذلك إلى آثار وهى تقوم بدور " سيدة " فى " نحن لا نزرع الشوك " ، فمعروف أن " شادية " قد سبق لها أن قامت بمثل هذا الدور ، وفنانتنا المعتزلة ليست فى حاجة إلى شهادة منى الآن ، فهى تملأ الساحة منذ سنوات طويلة .. قبل الخمسينيات ، أطال الله فى عمرها ، وكالعادة كان لابد للناس من المقارنة ، وهى مخاطرة كبيرة يقبل عليها بعض الفنانين دون تحسب ، ولا نريد أن نذكر أمثلة حتى لا نجرح أحدا ، ولكن آثار هنا استطاعت أن تتحمل المخاطرة بنجاح واضح ، وبذكاء شديد ، فلم يستطع أحد منا أن يقول فى النهاية أن شادية كانت أفضل ، أو أن آثار كانت هى الأفضل ، إذ شعر كثيرون أن لأداء كل منهما مذاقه الخاص الممتع ، بحيث تنتفى المقارنة .

ولعلنى فى الختام ، أنبه القارىء ، الذى قد يتساءل : مالى أنا والفن ؟ إلى أن الصلة وثيقة كأقوى ما تكون الصلة بين " الفن " و " التربية " ، ولا أدل من ذلك من وجود كليات تحمل اسم التربية مقرونة بالفن أو بمجال من مجالاته ، مثلما نرى فى " كلية التربية الفنية " و " كلية التربية الموسيقية " ، فضلا عن أن كلا من التربية الفنية والموسيقية تحتل مكانة فى برامج التعليم .

والفن هو السبيل الرئيسى لتنمية قيمة غائبة عن تربية الشخصية المصرية ، ألا وهى القيمة الجمالية ، تلك القيمة التى وضعها أفلاطون منذ أكثر من ألفى عام كأحد أضلاع مثلث كبير من القيم : الحق والخير والجمال ، حيث اعتبرها قمة الكمال ، فهى تشكل فى نظره " سقف " عالم المُثل ، هذا العالم الذى يفيض على عالمنا الأرضى ما يجعله خيرا أو حقا أو جميلا ، بالقدر الذى يقترب منه .

والذين أوهموا غيرهم بأن الفن " حرام " أخطأوا فى فهم الفن وأخطأوا فى فهم الدين ، فكم من صور وأشكال تقدم باسم الفن وهى تفتقد معظم ، إن لم يكن كل ، مقومات الفن الجميل ، والدين دائما يحلل ما يرقق الوجدان ويرهف الأحاسيس ويشبع العواطف والانفعالات ، مادام هذا يتم بغير ابتذال ، ولا ينتهك القواعد والأصول .

# كبُر مقتا عند الله ٠٠٠!

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة من فجر أحد أيام العام الماضى عندما وقفت فى المنطقة المسماة بحجر إسماعيل ، بادئا فى تأدية ركعتى صلاة عقب إتمامى الطواف بالكعبة المشرفة ، عندما لحظت منظرا معتادا ، لكنه هذه المرة – لا أدرى لم ؟ – كان مثار تفكير وتأملات ، بعد انتهاء مراسم العُمرة ، فقد كان هناك شخص يتعلق بكساء الكعبة ويبكى بكاء مسموعا ، وكان الغالب عليه أنه مصرى ٠

وفى كل يوم من الأيام التالية ، عندما أجىء إلى الحرم المكى ، يلفت نظرى كثرة واضحة من المعتمرين المصريين ، الذين لا يصعب على الإنسان أن يميزهم بين آلاف من الزائرين من كل أنحاء العالم ، فعلى الرغم من أنى لا أملك إحصاء بجنسيات كل الزائرين ، لكن " الخبرة " العامة تشير إلى مكانة تلك الزيارة فى وجدان المصريين ، أقول هذا بعيدا عن أى تعصب وطنى أو انحياز إقليمى ٠

كان موضوع التأمل والتفكير ، أن هناك تدفقا متصلا يتمثل فى ألوف من المصريين الذين يتوافدون يوميا على الحرمين المكى والنبوى طوال العام ، حتى إذا جاء رمضان على وجه العموم والعشر الأواخر فيه على وجه الخصوص ، خُيل إليك وكأن مصر كلها قد انتقلت إلى الحرمين ، وإذا تساءلنا عما يشير إليه هذا ، فليس من السهل القول بأنه من المنطقى أن يشير إلى " مد " واضح للتدين بين المصريين ، وهو أمر مفروض أن يثير الارتياح والطمأنينة أن تسعى الجمهرة الكبرى من أبناء الأمة بهذه الصورة وإلى هذه الدرجة إلى التقرب من الله عز وجل ٠

لكن ، فليسمح لى القارىء بأن أصدمه بعض الشىء ، وألفت نظره إلى " مد " آخر بدأنا لمسه بوضوح فى مجتمعنا ، يتمثل فى شيوع الكثير من المفاسد الاجتماعية المتمثلة فى النصب والاحتيال والرشوة والغش والنفاق والأنانية ، وما سار على هذا الدرب من " فيروسات " لا أخلاقية ، فهل ثمة علاقة بين الظاهرتين المتناقضتين ؟! البعض يجيب بأن هذا أمر وارد فى الظواهر الاجتماعية ، كما تشير إلى ذلك عملية استقراء التاريخ ، وعلى سبيل المثال ، ففى الفترات التى عرفت فيه المجتمعات الإسلامية مدا كبيرا فى " التصوف " كان يلاحظ أن هذه الفترات كانت كذلك تعرف انتشارا واضحا للمفاسد الاجتماعية ، فكأن هناك نفرا من الناس عندما يرون طوفان الفساد الاجتماعى يكاد يحيط بهم من كل مكان ، يهربون إلى الله أملا فى أن ينقذهم من هذا الطوفان ٠إن هذا تفسير صحيح لا أستطيع جحده

وإنكاره ، لكن المشكلة فى الوقت الحاضر هى أن عددا غير قليل ممن يحرصون على تأدية رسوم وشعائر التدين هم أنفسهم – فى الوقت نفسه ، معذرة – يسلكون – اجتماعيا – هذا السلوك الذي يُبعدهم عن الصراط المستقيم ، الذى يدعون الله فى كل صلاة بأن يهديهم إليه ، فهوصراط الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ٠

فى المطار ، وفى رحلة العودة ، حرصت على أن أدقق النظر فى سلوك المعتمرين العائدين ، فإذا بغالبية منهم لا تريد أن تنتظم فى صف ، و" الشاطر " هو الذى يسرق دور غيره إلى الميزان والجوازات ، و النبيه " هو الذى يتحايل على الوزن فيُخفى أمتعة حتى يهرب من تأدية رسوم الوزن الزائد ٠٠ وسلوكيات من هذا القبيل وهم صاعدون إلى الطائرة ، مع أن لكل راكب مكانه المضمون ، إذ هم ليسوا ركاب أتوبيس لا يضمنون فيه مكانا ، وأكثر من هذا عندما يهبطون إلى مطار القاهرة ، وحدث ولا حرج عن سلوكيات التزاحم وهم ينتظرون حقائبهم ، ثم وهم خارجون بها مخفين الكثير مما يجب أن يدفعوا عنه رسوما جمركية ٠٠ إنه تدين " ظاهرى " ، لم ينفذ إلى العقول والقلوب ، وإلا لأوجد اتساقا وتناغما بين " القول " و " الفعل " وصدق من قال : " كبُر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون " !!

# بين " الوجد " و ٠٠ " الوغد " !!

عندما كان أستاذنا الراحل د٠ محمد مصطفى حلمى يُدرس لنا ( التصوف ) بآداب القاهرة ، ويشير إلى بعض حالاته مثل " الوجد " و " السكر " ، كثيرا ما كنت أفهمهما نظريا ، وقليلا ما كنت أتصورهما عمليا ، إلى أن شاءت الظروف مرة أن أفرغ تماما وأنصت بكل حواسى إلى إحدى روائع الشاعر أحمد شوقى ، وهى تجىء بصوت أم كلثوم ، بعدها وعيت بالفعل ، كيف يمكن للإنسان أن يعيش حالة " وجد " وحالة " سكر " مثل تلك التى يقول بها أهل التصوف ٠

إنها قصيدة " ولد الهدى " ، إذ لا أستطيع أن أصور للقارىء الآثار التى تتركها تلك القصيدة ، مغناة بصوت أم كلثوم ، فى نفسى ٠ إنه فيضان متدفق من مشاعر حب إلهى ، مثل هذا الذى عُرفت به رابعة العدوية تمثلت فى " وجد " و " سكر " ، يغيب فيهما الإنسان عن هذا العالم الصاخب المحيط ليتمثل الله فى كل خاطرة من خواطره ، وفى كل آن من الزمان وفى كل أين من المكان ٠

بعد عصر يوم من أيام الصيف ، دقت الساعة مؤذنة بأنها الخامسة ، فأدرت مفتاح الراديو على تلك المحطة التى نسميها " أم كلثوم " ، فبدأت المقدمة الموسيقية مؤذنة بأنها ستغنى هذه القصيدة ، وعلى الفور بدأت أتخذ بعض الطقوس المصاحبة ، وأهمها " الخلوة " ، والامتناع عن تلبية أى نداء ٠٠ ولم لا ؟ أليست حالة من حالات " الوجد " العاطفى ؟

لكن ما كل ما يتمناه المرء يدركه ٠٠

فمصادر الإزعاج الآتية من الخارج تقتحم على خلوتى وتنفذ عبر الجدران ، وأقف عاجزا أمامها لا أستطيع لها دفعا ٠٠ عمال بناء يبنون فى عمارة مجاورة معهم راديو كاسيت ، تنطلق منه أصوات مزعجة إلى عنان السماء ، يقولون أنها تغنى ! ٠٠ وأسفل ، فى الشارع ، مجموعة شباب يقفون بسياراتهم الخاصة تنطلق من " كاسيتاتها " موسيقى صاخبة ، تصحبها أصوات مولولة ، تكاد تضيع وصت ضجيج الموسيقى الزاعقة ٠٠

وفجأة ، تجىء لمعة من لمعات العقل عندما يتجاوز السطوح لينفذ إلى الأعماق فيرى ما لا تراه النظرة العابرة ٠٠

إنها ثلاث مواقف " غناء " تكاد أن تكون ممثلة للساحة الغنائية ، وفى نفس الوقت فهى صورة لأنماط ثقافية ، ومناهج تفكير ، فى تلخيص عجيب لأضلاع ثلاثة لمثلث جديد ، يحتوى عليها مجتمعنا الحالى بالفعل ، ولكل منها دلالاته التى يمثلها ٠ ولأن كاتب هذه

السطور من المشتغلين بتربية الشباب ، كان لابد أن تكون زاوية الرؤية هى مقدار ما تمثله هذه المواقف من قيم تربوية ٠

إن البعض ربما تأخذه الدهشة لهذا المعنى الذى أريد ، فهذه المواقف ليست مجرد أنغام مختلفة الاتجاهات تصحبها كلمات متعددة المعانى تنبعث من الميكروفونات لتستقبلها الآذان فيهتز لها الوجدان المتقبل لها فترة من الزمن ، ثم ينتهى الأمر ٠٠ كلا ، ليس الأمر هكذا أبدا ، فتكرار المعانى التى تستقبلها الأذن ونفاذها إلى القلوب والمشاعر ، واستقرارها فى الذاكرة حتى يرددها الإنسان من حين إلى حين ، منغومة نغما مستساغا لصاحبه ، لابدَ أن تُرسب فى الأعماق معانى ودلالات وقيم يكون لها فعلها العجيب فى توجيه السلوك الإنسانى وتشكيله ٠ ومن هنا يجىء الخطر من ترديد المعانى المسفة والنغمات الهابطة ، وقد يجىء الأمل من ترديد المعانى الإيجابية والنغمات الراقية ٠٠

٠٠ و تجىء كلمات شوقى ، بصوت أم كلثوم دعما لما قلناه :

الدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

بيت واحد من الشعر يحمل كل هذه المعانى النبيلة والمبادىء الراقية ، بصوت شجى ، ونغم حلو ، فالدين للتيسير على الناس لا للتعسير ٠٠ للترغيب ، لا للترهيب ، للتبشير ، لا للتنفير ، والحكم لابد أن يقوم برأى المحكومين ورضاهم ، لا أن ينزل عليهم من عل بفعل قوة عسكرية أو وراثة عائلية ، والرأى لابد أن يشترك فيه الجميع ، ولكل ذى حق حقه الذى لا ينبغى أن يُضم بأى حال من الأحوال !

فهل يمكن أن يتكرر سماع هذه المعانى ، وتلك المبادىء ، فى هذا الإطار الفنى الجميل الراقى ، دون أن يكون لها أثرها فى أعماق النفس يترسب فى اللاشعور ، ليتبدى يوما فى سلوك هنا ومواقف هناك ، فى سياق حياتنا اليومية ؟

أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

أرقى المعانى ، وأسمى المبادىء ، بعيدا عن سفسطة فلاسفة الماركسية ، وتزييف مفكرى الرأسمالية ٠٠ ما أحرى أن " نلح " عليها لتتعود عليها الآذان ، فتتحول إلى معايير للسلوك الاجتماعى ، لا بين الأفراد وحدهم ، وإنما أيضا بينهم وبين من يحكمون !

وبالمقارنة ، يجىء صوت كاسيت عمال البناء زاعقا ليعلن عن أقذر جريمة ثقافية ترتكب فى حق هؤلاء البسطاء ٠ مئات الأصوات المنكرة ، تسوق على ألسنتها كلمات سوقية مبتذلة ، تنشر التسطيح فى الفكر ، والتهروء فى المشاعر ، ٠٠ تنتشر كالنار فى الهشيم لتزيف وعى هذه الفئة الممثلة للأغلبية الساحقة ( العمال والفلاحين ) ٠٠ مسيرة جهنمية بدأت منذ أكثر من ربع قرن ، مرددة أن " العتبة جزاز " ، و " أن السلم نيلون فى

نيلون " ، وتزاحمت بعد ذلك المعانى والكلمات التى سارت على نفس النهج فى خط بيانى هابط ٠

وعلى نفس النهج ، وإن كانت " البوصلة " هنا تتجه اتجاها آخر ، تجىء الأنغام والكلمات التى يطرب لها الشباب الجديد ، لا نلعنها لمجرد أنها " غربية " ، فالغرب فيه أيضا عظماء مثل : تشايكوفسكى ، وخاتشودريان ، وموزارت ، وبيتهوفن ، ورمسكى كورساكوف ، وفردى ، الذين أثروا البشرية بأعذب ما يمكن تصوره من النغم الشجى ، فضلا عن أشعار راقية ، وكلمات سامية فى أوبرات رائعة ، لكن هذا الزعيق المسمى غناء ، وهذه الضجة ، وهذه الضوضاء المسماة بالموسيقى " الديسكو " المصحوبة بكلمات حب " موضعى" ، إنما تردد معانى مسطحة وخيالات غريبة ، واتجاهات مغايرة للقيم والاتجاهات التى تمسك بأفراد مجتمعنا فى إطار ثقافى يميزه ! فماذا يكون أمر شبابنا وهو ينظر بإعجاب إلى مخلوق مثل " جاكسون " ومن ماثله ، حتى لا ندرى أرجل هو أم امرأة ؟ وماذا يريد أمثاله أن يقولوا ؟ هل هم يغنون ويطربون أم يعانون " مغصا " حادا ، يجعلهم يتلوَون على المسرح ؟!

إننا لو توقفنا قليلا أمام بعض الجمل التى نجدها فى معظم أغانى عمالقة الغناء الذين رحلوا ، سوف نجد أننا لا نحصل فقط منها على متعة أنغام ورقة إحساس وحلو مشاعر ، ولكننا " نتثقف " فى نفس الوقت ونكتسب معلومات ، وعلى سبيل المثال لو أنك سمعت محمد عبد الوهاب يغنى للشاعر شوقى مضناك جفاه مرقده ، فلابد أن تسعى إلى أن تفهم معنى مثل هذه الكلمات التى ربما لا يحتاج كبارالسن مثلى إلى التساؤل عنها ، لا لاستنادنا إلى شهادة علمية نحملها ، ولكن لأن المناخ الثقافى الذى عشناه طويلا كانت هذه الكلمات عادية فى ثروته اللغوية ، ومن ثم تكون مفهومة ، لكننا لو عودنا أجيالنا الجديدة على سماع أغانى مثلها فسوف يسألون عن معانى هذه الكلمات فنساعد بذلك على استقامة ألسنتهم التى اعوجت بفضل التباعد التدريجى عن لغتنا العربية وثقافتنا القومية ٠

وليست المسألة فقط " ثروة لغوية " بل هى " معلومات " ، فبالنسبة لنفس الأغنيَة ، عندما يسمع السامع عبد الوهاب ينشد : " الحسن حلفت بيوسفه ٠٠ " فلسوف يسأل ما المقصود " بيوسفه " ؟ مما يدفعه إلى التعرف إلى قصة سيدنا يوسف وما وصف به من جمال فى القرآن الكريم ، ونفس الشىء عندما يكمل عبد الوهاب قوله : " وتمنت كل مقطعة يدها لو تُبعث تشهده " ، فما حكاية " كل مقطعة يدها " هذه ؟ وهنا لابد من التعرف على تحدى امرأة العزيز لسائر النسوة اللاتى عايرنها بافتتانها بيوسف عليه السلام وأنهن لو رأينه فلسوف يقعن هن أيضا فى شباك الافتتان به ٠٠ وهكذا ٠

بل ، وماذا نقول فى ما تغنيه أم كلثوم لشوقى فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير ما ذكرنا ، مثل " ريم على القاع .. " و " سلوا قلبى .. " ؟ وربما يقول أحد أن هذه قصائد صعبة الفهم ، وأن صعوبة الفهم قد تصرف المستمع عن سماعها ، وردنا على هذا أن مثل هذه القصائد كانت تغنى منذ أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات حيث كانت نسبة الأمية ضعف نسبتها الأن ، فكيف تأتى لآلاف الناس ، فى مثل هذه الفترة ، وكثير منهم لم يكونوا متعلمين ، أن يتذوقوها ، ونتصور صعوبة ذلك الآن ؟ إننى أذكر وأنا صغير ، فى أواخر الأربعينيات أن " مغنية " فى احتفال عمدة البلد بمولد السيد البدوى ، كانت تقلد أم كلثوم ، فى ملبسها القديم ، وتغنى سلو قلبى ، وكان المستمعون ، وكلهم من الفلاحين الذين لم يذهبوا إلى مدارس ، تكاد أكفهم تتمزق من كثرة التصفيق ، وطلب الإعادة باستمرار !

وإذا سلمنا جدلا بصعوبة مثل هذه القصائد ، فها هى قصيدة سهلة المعانى يغنيها عبد الوهاب " قالت " حيث تجد التقابل المبدع بين المعانى ، والمفارقة الممتعة :

قالت : تخليت ، قلت : عن جلدى  قالت : تغيرت ، قلت : فى بدنى

قالت : أذعت الأسرار ، قلت غير سر هوانا كالعلم !

قالت : سررت الأعداء ، قلت : ذلك شىء لو شئت لم يكن !

فأى هذه الكلمات صعب يستحيل فهمه ؟

بل حتى تلك الأغانى التى كانت بالعامية حيث نسمع أم كلثوم تغنى : " والموجة تجرى ورا الموجة عايزة تطولها " إنه تصوير دقيق بديع مجسم ، رفيع الكلمات ، سامى المعانى ، وقس على هذا سائر كلمات رامى وبيرم التونسى بصفة خاصة ، فالأذن الإنسانية ، والعقل البشرى له من القدرة والإمكانية ما يتيح له إمكان التعلم أيا كان مستوى ما يتعلمه ، المهم ، تغذية السوق الثقافية بالأنغام الرفيعة والكلمات البديعة ، والمعانى السامية .

مرة أخرى ..

إن المواطن ، إذ يسمع كلمات سيد درويش تغنى " للحلوة " التى " قامت تعجن فى الفجرية " يصاحبها " الديك بيدن كوكوكو " إنما تصافح أذنه مواقف " عمل " و" إنتاج " ونشاط اجتماعى ، لكنه عندما يسمع كلمات سوقية مبتذلة وتعبيرات حب حسية مباشرة موضعية ، مما أعف القلم عن ذكر أمثلة لها ، وعندما يلف أحاسيسه فى موسيقى ديسكو زاعقة ، إنما يقف فى " منطقة ثقافية " مُريبة : إن خيرا فخيرا ، وإن شرا فشرا ، فماذا نحن مختارون ؟!

# رحيل عالم نفس عظيم !

اكتمل جمعنا أو كاد بشعبة التعليم الجامعى بالمجلس القومى للتعليم فى تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح السبت التاسع والعشرين من أبريل عام ٢٠٠ ، فافتتح الدكتور شفيق بلبع مقرر الشعبة ورئيس جامعة المنصورة الأسبق الجلسة مشيرا إلى أن من المفروض أن نواصل اليوم الاستماع إلى جزء آخر من الدراسة التى أعدها الدكتور فؤاد أبو حطب أستاذ علم النفس التربوى بجامعة عين شمس عن الصيغ الجديدة للتعليم الجامعى فى عالم اليوم والغد ، لكنه لم يأت بعد ، على الرغم من وعده أمس مساء عند الاتصال به أنه قادم (إن) شاء الله !

ولم يشأ الله للعالم الكبير أن يأت إلينا فى الاجتماع ليواصل عرض دراسته واختار أن يذهب إليه هو فى العالم الأبدى ، ففى نفس الساعة التى حددناها له ليجتمع معنا كان الله عز وجل قد حدد له موعدا آخر ليذهب إليه ، وكان لابد أن تغلب إرادة الخالق إرادة المخلوقين !!

ما زلت أذكر جلسته معنا فى أحد ردهات كلية التربية بجامعة عين شمس عندما كانت فى مبناها السابق بالمنيرة فى أحد أيام عام ١٩٦٦، وكان عائدا لتوه من بعثته الدراسية إلى انجلترا ، وعندما عرفته بنفسى وبدراستى إذا بى أجده يقول أنه قرأ ملخص رسالتى للماجيستير الذى كانت مجلة( المجلة ) قد نشرته منذ شهور ، فأخذتنى الدهشة ، ذلك أن العادة قد جرت أن أصحاب التخصصات العلمية الدقيقة كثيرا ما ينحصرون فى مجال تخصصهم ولا يتابعون ما يتم من أعمال علمية أو ثقافية فى مجالات أخرى ، فما بالنا وموضع رسالتى كان عن الاتجاه التجريبى فى الفلسفة المعاصرة وأثره على الفكر والتطبيق التربوى ؟

هكذا جاءنى الانطباع الأول عنه والذى تدعم كثيرا بعد ذلك ، أنه وهو العالم المتخصص فى علم النفس التربوى ، وفى مجال العمليات المعرفية بصفة خاصة ، يتابع الكتابات التى تجرى على الساحة الثقافية العامة ، ومن هنا فقد كان هو الشخص الوحيد الذى كثيرًا ما اسمعه يقول أنه قرأ لى كذا وكذا ، وهى كتابات فى صحف ومجلات متنوعة محدودة التوزيع ، وليست ذات شهرة ، فأرى بذلك أمامى نموذجا للإنسان العالم المثقف ، وهو النموذج النادر بين علماء التربية وعلم النفس حيث يقتضى هذا المجال بصفة خاصة أكثر

من غيره من المجالات من صاحبه أن يكون ذا أفق واسع فى العلم والثقافة بحكم اتجاه العمل التربوى إلى بناء الإنسان مما يتطلب الإحاطة الشاملة بالكثير من جوانبه وهمومه .

وهو إذ يرأس الجمعية المصرية للدراسات النفسية منذ سنوات عدة كنت تجده ذا قدرة عجيبة فى حشد الجمهرة الكبرى من أساتذة علم النفس لا فى مصر وحدها وإنما كذلك فى دول عربية كثيرة تحت مظلة الجمعية ، كما مثلها فى العديد من المؤتمرات الدولية فى أنحاء شتى من العالم ، حتى أصبحت هذه الجمعية نموذجا آخر نادرا بين الجمعيات العلمية فى الديناميكية والانتشار والحشد والفاعلية ، حتى إذا حل موعد مؤتمرها السنوى الذى كان حريصا على أن يعقد فى كل عام فى إحدى الجامعات المصرى فى طول البلاد وعرضا ، فلا تحتكر القاهرة النشاط العلمى ، ويحرم سائر أبناء مصر من متابعته ، وفى هذا المؤتمر كأننا أمام سوق عكاظ علم نفسى عصرى نبيع فيه بضاعتنا العلمية ونشترى غيرها ، فيخرج الجميع من السوق وقد شعروا بالرضا والشبع بعد جوع وظمأ علميين .

ولم يكن عالمنا الراحل مجرد أستاذ أكاديمى يكتب البحوث ويؤلف الكتب ويلقى المحاضرات ، وإنما كان "منشئا " لصرح علمى عظيم هو المركز القومى للامتحانات والتقويم التربوى فى عهد د.فتحى سرور عندما كان وزير للتعليم .

وكان عمله العلمى الفذ ( القدرات العقلية ) من الأعمال علم النفسية الأولى التى حظيت بجائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٧٤ .

ولا يتسع المقام للحديث عن آثاره العلمية كما تتبدى فى الكتابات والبحوث ، وهوَ لم يكن مجرد ( عالم ) و ( مثقف ) ، وإنما ما لا يقل عن ذلك قيمة حقا ، هذا الخلق المتميز الذى عرف به ، ويكفى هذا الأدب الجم والذوق الرفيع الذى كان يتجلى فى سلوكه ، فعندما طلبت منه مرة الطبعة الثالثة من سفره الضخم مع شريكة حياته د.آمال مختار ( نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين ) إذا به يكتب لى على الغلاف الداخلى : أخى ... كان تفضلا منك أن تطلب منى نسخة من هذا الكتاب ، وكان تقصيرا منى ألا أهديك نسخة منه عقب صدوره ... توقيع : فؤاد أبو حطب فى ١٩٩٦/٩/٢١ .

وكانت رئاسته للجمعية المصرية للدراسات المصرية علامة مهمة فى تاريخ الجمعية وفى تاريخ علم النفس فى مصر ، حيث لم يقتصر الأمر على تلك الأنشطة المعتادة من الجمعيات العلمية ، فقد كان حريصا على أن يكون مؤتمرها السنوى تجمعا علميا مشهودا للكثرة الغالبة من علماء النفس فى مصر وخاصة فى كليات التربية ، فضلا عن مجلة فصلية تنشر كما كبيرا من البحوث والدراسات النفسية .

وهو يضرب مثلا بكيفية أن يتابع العالم حركة النهضة العلمية فى مواقع إنتاجها فى الدول المتقدمة ، لكنه فى الوقت نفسه يظل محافظا على الحبل السرى الذى يربطه بذاته الحضارية ، انظر إليه وهو يصدر الكتاب سالف الذكر ، والذى يقوم على أحدث النظريات والبحوث العالمية فى علم نفس النمو ، إذ تقرأ معه آيات بينات من القرآن الكريم تلخص مسيرة النمو الإنسانى ، فيكون خير استهلال حقا : " يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى يعلم من بعد علم شيئا ٠٠" سورة الحج، آية (٥) ٠ رحم الله الفقيد٠

# العقل العشوائى !!

عندما ترامى صوته إلى عبر الهاتف أحسست بنبرة فيه خيلت إلى وكأن صاحبى قد داهمته كارثة كبرى حاولت أن يخبرنى عنها فلم أفلح فكان أن هرعت إليه أحاول أن أعرف ماذا ألم به ، فإذا به يروى ما جعلنى أضرب كفا على كف عجبا من هذا الصديق ، فكأنه " صياد هموم " و " يعمل من الحبة قبة " ، فليس حجم الهم والغم الذين ارتسما على وجهه مكافئا لما حدث له ، ولم تفلح محاولاتى معه فى أن يخفف من وطأة ما يشعر به ، فما كان منى إلا أن هرعت إلى القلم أحكى الموضوع فلعل القراء يقفون فى صفى فيكون ذلك رادعا له ، أو يقفون فى صفه هو فيكون ذلك عزاء وتصبيرا ، فماذا قال ؟

طلب منه فى مرة أن يقدم تقريرا عن تصور يمكن أن يكون من أجل تطوير أفضل للجامعات فى مصر إلى جماعة تضم صفوة من الأساتذة الخبراء فى التعليم الجامعة ، مسئولية وعلما ، وكان عليه قبل أن يشرع فى هذا أن يقدم لهذه الجماعة " ورقة عمل " يطرح من خلالها خطوات دراسته للقضية ، وعندما أتمها وشرع يعرضها قدم لعرضه بأن الموضوعات التى يطرحها المكونة لجسم التقرير ليست مطروحة بقصد مناقشة محتوى كل موضوع وإنما لإبداء الرأى فى كل واحد منها من حيث صلاحيته لتضمينه التقرير أم لا ، وهل يعدل الموضوع أو يحذف أو تضاف موضوعات أخرى ؟٠٠كانت ورقة العمل أشبه بما كنا نسميه "عناصر الموضوع " بالنسبة لمقرر " التعبير " أو " الإنشاء " فى مراحل التعليم العام ٠

ومع ذلك فإن الجمهرة الكبرى من الستمعين اندفعوا يناقشون صلب كل موضوع ، وعلى سبيل المثال ، فإذا كان صاحبنا قد قترح تضمين التقرير موضوعا عن سياسة القبول بالجامعات ، فقد كان المطلوب هو إبداء الرأى فيما إذا كان هذا الموضوع جديرا بالبحث أم لها ، ومن أى الزوايا ؟ وكيف نتناوله ؟ لكن البعض راح يقول رأيه تفصيلا فى سياسة القبول الحالية ويوجه إليها سهام نقد ، ويقترح سياسات أخرى بديلة ، وما كان هذا هو المطلوب ، لأن هذا هو ما سيقوم به صاحبنا من خلال التقرير الذى كان سيقدمه فيما بعد وعندها يطرح كل موضوع على حدة للنقاش ٠٠وخرج صاحبنا من النقاش صفر اليدين ، لم يستفد شيئا ، فكأنه قدم سؤالا فى امتحان : هل تصلح سياسة القبول فى الجامعات موضوعا للمناقشة فى التقرير المقترح ؟ لكن تمت الإجابة على سؤال آخر لم يطرحه ، مؤداه : ما رأيك فى سياسة القبول الحالية ، وما مقترحاتك لتطويرها ؟!

لم تكن الأزمة التى شعر بها صاحبنا كامنة فى أنه خرج من المناقشة مدة ساعتين صفر اليدين ، ولكنها كانت لهذا السؤال المفزع الذى ألح على ذهنه : هل يمكن أن أكون أنا الوحيد الذى يبصر الحقيقة بينما لا يستطيع ذلك كل هؤلاء ، وهم من هم من علو الكعب علما ومسئولية ؟ إن كانت الإجابة بالإيجاب فهذه كارثة كبيرة حقا لا تخفى أبعادها عن القارئ ، وإن كانت الإجابة بالنفى ، فثقته بنفسه لابد أن يصيبها العطب ألا يستطيع رؤية الحقيقة ، على الرغم من هذه الأقوال والمناقشات التى وجهت إلى ما يقول !

وتمر شهور ويتواجد فى جمع آخر من صفوة من أعضاء هيئة التدريس بإحدى الجامعات .. اجتمعوا بهدف معين مدة ثلاثة أيام للتداول فى برنامج أعد منذ أشهر بهدف تأهيل عدد من معلمى الجامعة لممارسة التدريس الجامعى ، على اعتبار أن إتقان المادة العلمية وحده لا يكفى لتكوين أستاذ الجامعة بل لابد ، إضافة إلى ذلك ، من معرفة كيفية التدريس .

فى أول يوم كان الموضوع المطروح هو عن الخصائص المنشودة لمعلم الجامعة : كيف نقدم هذا الموضوع للدارسين ، ومن أى الزوايا ؟ وكيف ندفعهم للمشاركة والنقاش ؟ لكن هناك من تساءل عن جدوى هذا الموضوع الذى يقدم منذ سنوات ، دون أن يتغير . وعجب صاحبنا : فليس مطروحا - مثل المثال السابق - هل هذا موضوع جدير بالمناقشة أم لا ، إذ ما دام متضمنا فى جدول دورة التدريب ، بعد اجتماعات وتجهيزات منذ أشهر ، يصبح من المطلوب : كيف نقدمه للدارسين ؟ وليس هل نقدمه أم لا ؟ ومع ذلك فقد اندفع معظم الحاضرين فى مناقشة ما طُرح مدة لا تقل عن ساعة ، لينتهوا إلى نقطة الصفر لأن المسار كان غير صحيح !

والعجيب أن يتكرر هذا فى أكثر من موقف ، فيكون موضوع المناقشة عن كيفية التعامل مع (ا) فيتحدث آخر عن (ب) ! يكون الموضوع ، مثلا عن خصائص معلم الجامعة ، فيقول واحد أن من المهم أن ندخل استخدام الانترنت ، فإذا تحفظ آخر على طرح هذا الموضوع ، يدافع صاحبه ملقيا خطبة منبرية عن أهمية الأنترنت وكأن المعترض يشكك فى هذا . إن المسألة ليست " خروجا عن النص " كما نسمع ونرى من بعض ممثلى المسرح ، فخروج الممثل عن النص يعنى اختياره لكلام آخر غير الذى كتبه المؤلف ، لكن يظل ملتصقا بالموضوع ، بينما هذا الذى نشير إليه هو إجابة عن سؤال غير مطروح !

وكان صاحبنا وهو يستمع لكل ما كان يقال يتميز غيظا : هل من المعقول أن يبصر هو وحده حقيقة الأمر ، بينما تخفى عن هذا الجمع الكبير من أعضاء هيئة التدريس ؟ لقد وجد نفسه أمام بديلين كلاهما مر حقا ، فإما أن يثق بأنه ينفرد عن سائر خلق الله بالعقل

الراجح ، والقدرة على الاقتراب من الحقيقة ، وفى هذا عُجب بالذات وغرور قاتل يؤدى بالضرورة إلى انفصال شبكى لصاحبه عن سائر خلق الله ، وإذا استمر على هذا الحال فلابد أن يكون مصيره إلى مصحة نفسية ، وإما أن يتصور أنه وحده عن سائر خلق الله لا يستطيع أن يفهم ، ويعجز عن إدراك حقيقة الأمر ، وفى هذا أيضا قتل للذات التى أهم دعامة لها الثقة بالنفس ، والإيمان بالقدرة على الفهم والوصول إلى اليقين .. وفى كلتا الحالتين ، تكون النتيجة أن يفقد صاحبنا القدرة على التواصل مع الناس .. وما أبأسها حالة يمكن أن يصل إليها إنسان حقا ؟!

إن القضية تكمن – والله أعلم – فى أننا فى أثناء التفكير نسلك سلوك هؤلاء الذين يقيمون المنازل والمنشآت فى تلك المناطق التى نسميها عشوائية ، فليس هناك عند هؤلاء تصور واضح مبدئى للمنطقة كلها وكيف يمكن أن تكون ، وكل واحد يتصرف بغض النظر عن هذا التصور العام ، ولا يدخل فى اعتباره صلة هذا الذى يفعل بالصورة الكلية ، فما يحكم كثيرين فى حلقات النقاش هو ضرورة أن يتكلم الواحد منهم ويسمع له آخرون وكأن مجرد الحديث هدف فى حد ذاته ، دون أن يضع فى الاعتبار : هل هذا الذى يقوله يغذى القضية الكبرى المطروحة أم لا ؟ فكأنه بناء على هذا " عقل عشوائى " ، لا ينتج فى غالب الأحوال إلا تفكيرا عشوائيا ، ومثل هذا النوع من التفكير تفكير غير منتج بطبيعة الحال ، هو أشبه بعملية حرث فى الماء !

# ويل للمطففين !

هم أولئك الذين نشير إليهم دائما بازدواجية المعايير الذين درجنا على أن نحسبهم هناك فيما وراء البحر والمحيط فى أوربا وأمريكا دون أن ننتبه إلى أننا لا نقل عنهم براعة ومهارة فى " تطفيف " الميزان الذين نكيل به ٠ وعلى الرغم مما يمكن أن يؤخذ على أوربا وأمريكا فى الكيل بمكيالين إلا أنهم ربما يملكون مبرر أنهم يفعلون ذلك مع دول أخرى يرون تعارضا بينها فى المصالح والاستراتيجيات ، لكن ما القول فيما يحدث عندنا من معاملات تفرق وتميز بين فئات من المواطنين وتيارات من الفكر داخل الوطن الواحد ٠٠مصر التى هى فوق الجميع ؟

لقد ألح على فكرى هذا الأمر غداة ظهور نتائج انتخابات نقابة المحامين ، وكان قد ألح على خاطرى كذلك عقب ظهور نتائج الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، حيث ترددت ساعتها فى التعبير عما جال فى فكرى نظرا لحساسية القضية ، وشك فى أن يعرف ما أكتبه طريقه إلى النشر ٠

أما القضية فهى تلك الخاصة بالجماعة " المحظورة " ٠٠ الإخوان المسلمون !

صحيح أننى لم أنضم فى يوم من الأيام إليهم كتنظيم ، مما يعفينى من حرج الكتابة ، إلا أننى أعلم علم اليقين أن الاتهام جاهز لدى من يسهل عليهم التكفير السياسى وتصفية الحسابات ٠

إن تعامل أجهزة الإعلام معهم باعتبارهم أصحاب جماعة غير شرعية لهو أمر أصبح يثير السخرية حقا ، ويذكرنا بتلك السنوات التى ظللنا نقرن فيها دولة إسرائيل بوصف " المزعومة " ، وكان لسان حال البعض منا يتساءل : إذا كانت مزعومة فمن الذى هزمنا نحن العرب ؟ كما يذكرنا بسنوات أخرى ظللنا لا نعترف بالصين الكبرى ونسميها " الشيوعية " ، ونعترف فقط بتلك الدويلة التى انحصرت فى جزيرة فرموزا والتى كنا نسميها بالصين " الوطنية " ٠

إن المتعاملين بالشأن السياسى يعرفون ما أصبح مسلمة ، تقول أنه لا عداء أبدى ولا صداقة أبدية ، فالعلاقات التى تحكمها المتغيرات والمصالح هى التى تجعل من هذا عدوا فترة من الزمن ، وهى التى يمكن أن تقلبه ليصبح صديقا بعد فترة ، والعكس صحيح ٠٠

وهكذا أصبحت الولايات المتحدة وسائر الدول الغربية صديقة لألمانيا التى أذاقتهم أسوأ الويلات ، وكذلك مع إيطاليا ، ومع اليابان ٠ بل وكذلك فعلنا نحن مع إسرائيل ٠

إننى لا أستطيع أن أنسى كيف أن الكثرة الغالبة من قادة إسرائيل أقل ما يمكن أن يطلق عليهم من وجهة نظرنا أنهم قتلة سفاحون ، ومع ذلك ، هل نسينا " الصديق " بيجين وما ارتكبه من مذابح فى دير ياسين ؟ وهل نسينا أن باراك هو الذى خطط وقاد عملية النسف والقتل لقادة منظمة التحرير فى تونس ؟ ٠٠٠وهل ، وهل ٠٠ ومع ذلك طوينا صفحة مجازر هؤلاء وصافحناهم وفتحنا لهم الأبواب ونبرر هذا وذاك بأن أصول السياسة تقتضى ذلك ٠

لكننا لا نريد أن ننسى أبدا ما يقل عن ذلك بكثير مع أناس اتهموا فى بعض قضايا العنف منذ أكثر من قرن ، فى فترة تاريخية كان الاغتيال السياسى فيها شائعا ، بل إن واحدا ممن تولوا رئاسة الجمهورية فى مصر :( السادات ) اتهم بالمشاركة فى قضايا اغتيالات ، ونظل نرفع الاتهام كلما ارتفع صوت يطالب بأن يسمح لهذا الفريق أن يمارس حرية التعبير عن فكره طالما كان ذلك ضمن قنوات مشروعة ، وبوسائل مشروعة ، بألا نفعل ذلك فهم إرهابيون وقتلة ، مستندين فى ذلك إلى ما كان يحدث منذ أكثر من خمسين سنة ، ورغم أن كل حوادث العنف التى طالت أبراء ومصالح منذ السبعينيات وحتى وقت قريب لم يثبت ولو مرة واحدة أن أحدا منهم كان ضالعا فى شئ من هذا !

حتى فى وزارة التربية والتعليم يطاردون المدرسين الذين تفوح رائحة توجه دينى لديهم فيقصون عن مهمة التدريس ، وفى ظل هذا النهج أبعد ألوف من المدرسين إلى وظائف إدارية ، ألا نساعد بذلك على زرع مشاعر كراهية وحقد بين الناس ؟ إن " إدارة " التعليم هى جهازه العصبى وعقله المدبر ، وليست مسألة تافهة نتصور أن من لا يصلح للتعليم يصلح لإدارته !

إننا نرفع شعار التكثير من منظمات المجتمع المدنى ، لكننا ضقنا بكثير مما ظهر منها وسعينا إلى طلبها لبيت الطاعة ! كما نرفع شعار التعددية ، ونسمح بأحزاب لا وجود جماهيرى حقيقى لها ، ونستخدم "الفيتو" ضد هؤلاء على الرغم من عشرات الشواهد التى تشير إلى أنهم يستندون إلى جماهير عريضة ، لكن هناك حرصا لدى بعض الكتاب على نفى ذلك والادعاء بأنهم " شرذمة " قليلة ، لكنهم منظمون ، وبالتالى يظهرون وكأنهم كثرة ! وهى دعوى ساذجة حقا ٠٠٠

فما من انتخابات كانت تجرى فى نوادى أعضاء هيئات التدرس بالجامعات إلا وكنا نرى قائمتهم هى التى تفوز على غيرها ٠٠٠ولم نتحمل ذلك فلجأنا إلى هذه الحيلة وتلك حتى انحصرت تلك النوادى فى تلك الوظيفة التى تجعلها " كافتيريات " ، وفى أحسن الأحوال ، القيام برحلات وتقديم إسكان أحيانا ، بعدما كان لهذه النوادى صوت عال فى القضايا

القومية وكانت المحاضرات التى ينظمها نادى جامعة القاهرة على سبيل المثال موضع حديث وكالات الأنباء ، تحضرها جماهير غفيرة .

وداخل الجامعات ، عندما كانت تجرى انتخابات اتحادات الطلاب كانت قائمتهم أيضا تكتسح الآخرين ، فضقنا بهذا ، وأصبحت القوائم المرشحة لا تمارس االديموقراطية إلا من خلال أمن الدولة ، وصار هذا درسا مؤسفا لشباب المستقبل لكيفية الممارسة الديموقراطية .

وكانت النقابات هى الأهم ، فإذا أيضا بهم يفوزون فى النقابات الكبرى ، مثل نقابة الأطباء والمهندسين ، ولما وصلوا إلى نقابة المحامين حدث ما حدث مما هو معروف ، وبعد توقف عدة سنوات وعودة الانتخابات ، إذا بهم يحتلون أغلبية المقاعد !

أما انتخابات مجلس الشعب ، فما أن اتسع هامش الديموقراطية فى إجرائها حتى وجدناهم فى المرحلة الأولى يفوزون بدرجة واضحة ، ثم إذا بجهود تبذل فى المرحلة الثانية لتعويق تكرار النجاح والفوز ، أما المرحلة الثالثة ، وخاصة فى القاهرة ، فقد كانت المسألة ، وخاصة بالنسبة لبعض الرموز وكأنها مسألة حياة أو موت ، ومع ذلك فازوا بعدد يساوى أكثر مما حصلت عليه الأحزاب الأخرى مجتمعة ، تلك التى لم يعرقل ترشح مرشحيها أحد ، ترى : لو لم يحدث ما حدث من إعاقات ، بكم عدد كان يمكن أن ينجحوا ؟

لقد اتضح لنا جليا مقدار الضعف المزرى للتجربة الحزبية فى مصر لأسباب ليس هنا مكان تناولها ، ولكن هذا الأداء المتدنى القائم لهذه الأحزاب من المفروض أن يجعلنا نقوم بعملية مراجعة وتفكير جذرى يرى أن الديموقراطية الحقيقة لا تتأتى إلا من خلال تنظيمات حزبية ومنظمات مجتمع مدنى تستند إلى جماهير حقيقية فى الشارع المصرى .

إن أسوأ ما يقوم به عدد من المثقفين إزاء هذه القضية هى العمل وفق شعار " الحرية لنا والسجن للآخرين " ! فالفئة المحظورة كثيرا ما تتهم بأن تفكيرها السياسى ليس على درجة كافية من النضج بحيث يمكن الاطمئنان لها فى الحياة السياسية ، وهو منطق عجيب حقا ، إذ كيف يمكن أن يتأتى نضج التفكير ، إذا لم تتح لها فرصة الممارسة السياسية العملية ، والتى هى الطريق لاكتساب المهارة والتفكير الناضج!

حتى وسائل النشر التى هى بطبيعتها تحمل فكرا ولا تحمل بارودا وقنابل ، ما من مجلة أو صحيفة يسعون إلى أن تكون معبرة عن آرائهم إلا ويتم حجبها ، فأين يمكن أن يكتبوا ويعبروا عن رأيهم ؟ ولا أريد أن أشير إلى الإذاعة والتلفزيون فهما مغلقان عليهم تماما إلا ما ندر !

وأعجب ما نراه من هجوم عليهم أن أصحاب الرؤية الإسلامية لا يملكون حلولا علمية للمشكلات والقضايا الكلية للمجتمع !

ألا يعلم من يقولون بهذا الاتهام أن منافذ النشر والإعلام لا تتيح لهم أن يعرضوا بضاعتهم الفكرية ، فكيف يعرف الناس إذن إن كانوا يملكون حلولا أو لا يملكون ؟

لكن الدراسات الأكاديمية تكاد أن تكون فيضا يصعب حصره ، فضلا على الإشارة إليه ، وعيبها أن جمهورها قليل للغاية ليس مثل جمهور الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون .

وتماديا فى السخرية منهم يستشهدون بذلك الشعار القائل " الإسلام هو الحل " وأن هذا الشعار لا يقول شيئا ، ولا أدرى أيضا ، هل عندما كان لطفى السيد يرفع شعار مصر للمصريين كان لابد أن يرفق به مرجعا كبيرا يحمل تفصيل رأى أصحاب هذا الاتجاه فى مختلف القضايا والمشكلات ؟ إن الشعار بطبيعته لابد أنيكون فى جملة مختزلة ، لكن تحته مئات الدراسات والبحوث التى تترجمه إلى مشاريع فكرية متعددة

إننى أستطيع أن أسوق مثلا واحدا من المجال الذى أتخصص فيه أكاديميا ألا وهو العلوم التربوية ، فقد أحصى أحد الباحثين ما يقرب من خمسمائة من رسائل ماجيستير ودكتوراه كلها فقط تناقش مختلف قضايا التربية والتعليم من المنظور الإسلامى مما لم يتوافر بالنسبة لأى اتجاه آخر .. علما بأن هذا العدد يخص مصر والسعودية فقط ! ومن المتوقع أن يكون هناك مثل هذا العدد فى جملة البلدان العربية الأخرى ، دون أن نذكر أيضا بعض البلدان الإسلامية التى يوجد فيها هذا التيار وقيا مثل إيران وباكستان .

وهناك فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية مدرسة كاملة كبيرة على رأسها د.نادية مصطفى ود. سيف عبد الفتاح قامت - ولا تزال - بدراسات متعمقة ضخمة لتأسيس علوم سياسية من المنظور الإسلامى .

ونذكر كذلك بمركز صالح كامل بجامعة الأزهر ، فهو متخصص فى الدراسات الاقتصادية أيضا من المنظور الإسلامى ...

وهناك ذلك الجهد الفكرى الكبير الذى قام به المعهد العالمى للفكر الإسلامى بواشنطن ، ومن خلال فروعه فى بعض البلدان العربية والإسلامية .

وبالإضافة إلى هذا وذاك ، هناك جهود فردية للعديد من المفكرين ، كان من أوائلها دراسة عبد القادر عودة عن التشريع الجنائى فى الإسلام ، ودراسات يوسف القرضاوى ، ومحمد سليم العوا ، ومحمد عمارة ، وطارق البشرى ، وجمال الدين عطية ، وطه جابر العلوانى ، ومحمد كمال إمام وغير هذا وذاك كثيرون يصعب حصرهم ، لكن عين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساوئا !

لقد آن لهذه الحرب القائمة ضد هذا الفريق من الناس أن تضع أوزارها ، وينظر إليهم على اعتبار أنهم جزء لا يتجزأ من الجسم الاجتماعى استمرار الاعتلال فيه لابد أن ينعكس على صحة هذا الجسم العامة ٠٠مواطنون مصريون يريدون أن تتاح لهم الفرصة أن يشاركوا فى بناء الوطن من خلال توجه يؤمنون به ويعتقدون فى صحته ، وليسوا " جربا " ينبغى الفرار منه ، ولنحتكم - مستقبلا - فى الحكم على ما يكتبون ويفعلون إلى جماهير الناس وإلى أحكام القانون ، حتى لا نكون من المطففين " الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون " !

٠٠ وأخيرا بدأ الإعلام المصرى يتحدث عن حزب الله باعتباره حامل جذوة المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلى بعد أن كان تلفزيوننا بصفة خاصة يتحدث عن عمليات حزب الله باعتبارها صادرة عن " المقاومة اللبنانية " متحاشيا استخدام اسم الحزب ! لماذا هذا التَغير ؟ لأن رئيس الدولة ذهب فى خطوة يُشكر عليها حقا ، وأعلن أن من حق حزب الله أن يقاوم الاحتلال الإسرائيلى!!

والحق أننا كنا - وما زلنا - من نفر يرى وجوب مؤازرة قوى المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلى إيمانا منا بأن هذا طريق أساسى للتحرير ، وأن السعى للسلام لا يقتضى بالضرورة إلقاء السلاح ، فإلقاء السلاح كلية قبل أن يتم الاتفاق على شروط السلام هو تسليم أولى للطرف الآخر بأن يفرض السلام بالشروط التى يريدها هو ، ولعل أقوى البراهين على ذلك ما حدث من خطوات مخزية على طريق المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية ، فأعمال المقاومة الرائعة التى قامت بها حركة الانتفاضة هى التى أجبرت الإسرائيليين على طلب التفاوض ، لكن توقف حركة الانتفاضة ، قلب موازين القوة لصالح المفاوض الإسرائيلى وأصبح المفاوض الفلسطينى عاريا من أى تغطية !

ومن هنا شعرنا دائما بتعاطف قوى مع حزب الله ، وبقدر غير قليل من الأسف الشديد إزاء صور تشكيك تصدر من هنا فى مصر فى جهود مقاومة هذا الحزب ٠ وما زلت أذكر أصواتا أخرى سارت عكس هذا التشكيك ، منها ما قرأته مرة للدكتور عبد العظيم أنيس من أن الذين ما زالوا يحملون السلاح ضد الاحتلال هم من حملة الراية الدينية الإسلامية ، مثل حزب الله فى لبنان ، والجهاد وحماس فى فلسطين فى مجال الدعوة إلى التعاون مع هذه القوى وتشجيعها ، على الرغم من الاختلاف الإيديولوجى الشديد معها ، إيمانا بالمقولة الشهيرة : عدو عدوى صديقى ! وسابقا أطلقها تشرشل رئيس الوزراء البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما بدأ التحالف بين بريطانيا الرأسمالية والاتحاد السوفيتى الشيوعى ، حيث أكد تشرشل أنه مستعد أن يتحالف مع الشيطان إذا كان ذلك سوف يؤدى إلى انتصار بريطانيا ٠

أما التشكيك فى حزب الله فإنه يأتى من القول بأنه " عميل " لإيران ! والحق أن هذه قضية تفتقد المنطق وتحتاج إلى أن نناقشها بصراحة ، فما هى مقاييس " الوطنية " و " العمالة " ؟ كانت مصر تساعد قوى وطنية مختلفة أيام الخمسينيات والستينيات ، فهل يمكن

أن يوصف اعتماد هذه القوى على مصر بأنه عمالة ؟ كلا بطبيعة الحال ، لماذا ؟ لأن الهدف هنا هو تحرير الوطن : الجزائر ، جنوب اليمن ، مثلا ٠ ذلك أن قوى المقاومة لا تملك عادة قدرة مالية تمكنها من شراء السلاح الذى هو سبيلها الوحيد ، وهى ليست " دولة " ذات " نظام " له قنواته وقوانينه ومؤسساته وسبل تمويله الذاتى ، ومن ثم يكون من المنطقى أن تعتمد قوى المقاومة على مصادر خارجية تمدها سرا بالقوة " المادية " وتؤازرها علنا بالقوة المعنوية عن طريق التأييد ٠ فعلى فرض اعتماد حزب الله على مساعدات مادية من إيران ، فإن الهدف هو تحرير الجنوب اللبنانى من الاحتلال الإسرائيلى ٠وإذا كانت المساعدة الإيرانية عيبا ، فهل وجد حزب الله دولة عربية أو قوة عربية تساعده ليعتمد عليها بدلا من إيران ؟ فلم اللوم ولم التشكيك ؟

ومع ذلك ففى تصريحات الشيخ حسن نصر الله للأهرام ذكر أن لديهم عدة مصادر للتمويل ، فهناك جزء لتمويل أسر الشهداء والجرحى ، وهذا الجانب الاجتماعى تحملته مؤسسة إيرانية شبه رسمية تسمى مؤسسة الشهيد التى أنشأت فرعها فى لبنان ، وهى منظمة اجتماعية ترعى عوائل الشهداء والأسرى والجرحى ٠ وهناك مؤسسة أخرى غير إيرانية تقوم بأعمال الترميم وبناء الجسور وإعمار بعض المناطق ٠ أما المصدر الثانى من التمويل فهو التبرعات من داخل وخارج لبنان ٠ والمصدر الثالث ، فهو " الخمس " فى الزكاة ، ففى المذاهب الأربعة يقتصر هذا الخمس على غنائم الحرب ، أما فى المذهب الجعفرى ( نسبة إلى الإمام جعفر الصادق ) الشيعى فإن الخمس يلحق بالأرباح من التجارة ، وبالتالى فلدى حزب الله إجازات بالحصول على الأخماس من مختلف المراجع الدينية الشيعية لمصلحة المقاومة ٠ ولا شك أن هذا المورد يحل لهم مشكلة كبيرة فيما يتعلق بنفقات المجاهدين وشراء الأسلحة ، ويؤكد الشيخ حسن أنه من العسير أن يكون تسليهم إيرانيا ، وإنما يشترونه من السوق ، فالسلاح الموجود لديهم يمكن لأية جهة أن تشتريه ما دامت تملك ثمنه ، ولا يحتاج الأمر أن تعرض دولة نفسها لخطر تهمة تقديم أسلحة للمقاومة٠

أما التهمة الطائفية التى يروجها البعض ، فقد أوضح نصر الله وجوب التفرقة بين التسمية الدينية والتسمية الطائفية ، فهم حين يتحدثون عن مقاومة إسلامية فإنما يتحدثون بالتالى عن هوية هؤلاء المقاتيلين الفكرية والعقائدية وليس عن هويتهم الطائفية ، فما يرسل هؤلاء المقاتيلين إلى الجنوب للمقاومة هو الإيمان بالله واليوم الآخر والاستجابة لنداء الله فى مقاومة المحتلين والأمل فى دخول الجنة ، وبهذه المناسبة ما زلنا نذكر كيف أنه فى وسط الهوجة الإعلامية لتغطية مصرع " دودى " الفايد مع ديانا ، كان نصر الله

يظهر على بعض شاشات التلفزيون القليلة التى غطت حدث مصرع نجله " هادى " فى عملية من عمليات المقاومة ، ووجه ممتلئ بشرا وفرحا على أساس أن ابنه قد غادر الدنيا إلى الجنة !

ومن الممكن أن يختلف البعض مع منطق الرجل حينما يقارن بين كل من الدافعية الوطنية والدافعية القومية والدافعية الدينية ليعلن انحيازه للأخيرة ، فهو يشير إلى أنه وجد أنه عندما كان يدفع بعض الشباب إلى المقاومة دفاعا عن الوطن فقط ، يردون عليه بتساؤل مؤداه : كيف يدافعون عن الوطن وهو لا يعطيهم شيئا ، وهناك من ينهب ويسرق وغير ذلك ؟ وعندما كان يدفع بعضا آخر للمقاومة دفاعا عن العرب ، يردون عليه بأن العرب يسعى كل منهم إلى مصلحته القطرية الضيقة ! وهكذا رأى أن لغة التحريض والدفع تكون ضيقة المقصد إذا ارتبطت فقط بالطابع الوطنى البحت أو أو القومى الصرف ، لا تملك طاقة دفع عظيمة تجعل الشباب يجاهدون بهذه الدرجة من الاستبسال ، وهم لا يملكون طائرات أو صواريخ أو دبابات ، ويواجهون أكبر قوة عسكرية فى الشرق الأوسط ، وإنما هى العقيدة الدينية ، وهم بهذا لا يستهدفون أحدا من أبناء لبنان ، ولا هم يقاتلون دفاعا عن المسلمين فقط ، وإنما عن لبنان الذى يمتلكه المسلمون والمسيحيون معا ، ويدافعون عن كل القرى اللبنانية .

والذين يتوجهون باللوم إلى حزب الله بدعوى أنه يجر على لبنان إلى ضربات موجعة دون غيره من البلدان العربية يجب أن يتذكروا التاريخ جيدا ، فإسرائيل هى التى هيأت الظروف التى أوجبت ظهور هذه المقاومة ، فعندما اجتاحت عام ١٩٧٨ جنوب لبنان بحجة وجود مقاومة فلسطينية ، ذهب لبنان إلى الأمم المتحدة وحصل على القرار ٤٢٥ ، وانتظر اللبنانيون حتى عام ١٩٨٢ دون أن تخرج إسرائيل ، بل وفوجئوا بها تتقدم نحو بيروت لتصبح ثانى عاصمة عربية بعد القدس تحتلها وطردت الفلسطينيين ، وانتظروا لعل إسرائيل تخرج بعد أن انتفت حجتها ، فإذا بها تتدخل فى عملية انتخاب واختيار رئيس الجمهورية ! عندئذ كان لابد من ظهور المقاومة ، فهى نتيجة للاحتلال وليست سببا له .

يا قوم .. فلنحيى جميعا منهج المقاومة ونؤازرها ماليا وبشريا ومعنويا ! إن هذه الضربات الموجعة المتوالية على جسد الأمة ، لا تظنوا أنها موجهة فقط إلى من يتلقى الضربة ، فهى موجهة إلى ذاتنا جميعا . إلى مستقبلنا . إلى أحلامنا : " أليس منكم رجل رشيد " ؟

# عولمة التعذيب !

الذى أوحى إلى بهذا العنوان خبر نشرته الأهرام فى ١١/٣ لوكالة أنباء الشرق الأوسط تلخص فيه مقالا نشرته مجلة نيوزويك الأمريكية المعروفة تعليقا على قضية تعذيب المشتبه فى تورطهم فى جرائم من أجل انتزاع اعترافات منهم . فمما هو مشهور عن دول العالم الثالث استخدام صور من التعذيب البشع الذى يكاد لا يصدقه عقل ضد خصوم النظم السياسية القائمة ، مما يجعل من يقع عليه مثل هذا التعذيب يضطر إلى الاعتراف لا فقط بما يعرفه ، وإنما كذلك بما يُراد له أن يعترف به حتى يتخلص مما لا عين رأت ، ولا خطر على قلب بشر !!

ولابد أن أبناء هذه الدول سوف يشعرون بقدر من الفخر والإعجاب بالذات ، ولم لا ؟ لقد مضى هذا الزمن الذى كانوا يقفون فيه موقف المقلد لما يحدث فى الغرب والمستورد منه ، وجاء وقت بدأت فيه أكثر الدول تقدما ، الولايات المتحدة ، تفكر فى أن تفعل مثلما تفعل دول التعذيب الوحشى مع الخصوم ، وبالتالى تقف هذه الدول موقف المعلم من الولايات المتحدة ، والناصح الأمين ، والمرشد العظيم ، إذ يتوافر لديها من العلم والخبرة والقدرة فى التعذيب الوحشى ، مالا يتوافر لهذه الدول التى تزعم لنفسها تقدما فى العلم والتكنولوجيا ، وبذلك يدخل التعذيب فى دائرة العولمة !!

لقد دعت النيوزويك إلى إعادة النظر فى إمكانية استخدام أساليب قديمة عفى عليها الزمن ( عندهم ) فى عمليات استجواب المشتبه فيهم والضغط عليهم نفسيا لاستخراج الحقائق منهم . وأهم ما لفت نظرى حقا ، هو دعوة المجلة إلى إرسال مثل هؤلاء المشتبه فيهم إلى دول أخرى تسمح بقطع رؤوسهم !! لماذا ؟ هنا تبرز العنجهية الأمريكية ، حتى فى مثل هذه المواقف ، فالمبرر هو أنه على الرغم من حاجة الولايات المتحدة إلى استخدام وسائل تعذيب ، إلا أنها لا تستطيع التشريع لذلك ، لأنها - كما تقول المجلة - " دولة قيم " ! وإن كنا نطمئن المجلة ، بأن معظم دول العالم الثالث ، لها دساتير وقوانين تزعم أيضا أنها دول قيم ، فتحرم التعذيب الجسدى ، ولديها نصوص عن الحرية والديموقراطية ، ربما لا تملك أمريكا مثلها ، ومع ذلك فعند اللزوم ، فلديموقرطية هذه الدول " أنياب " مثلما صرح بذلك الراحل أنور السادات ، ولو كان أكثر صدقا لقال أن لها أنياب ومخالب وأسنان وسكاكين وكرابيج .. إلى آخر هذه القائمة .

ومع ذلك فالمجلة تفتح آفاقا أمام بلادها يمكن اقتحامها ، ولذلك تساءلت عما يمنع تعريض المشتبه فى تورطهم فى الهجمات الإرهابية ، للتعذيب ، ولو بالوسائل الكهربائية ، على أقل تقدير ، مثلما فعل الجيش الأمريكى فى بنما ، وأماكن أخرى ، أو بوسائل كيماوية وفقا للتعديل الخامس فى الدستور الأمريكى .

وعلى طريق فتح آفاق للتعذيب - ومفيش حد أحسن من حد ، ولابد لأمريكا أن تكون لها اليد العليا حتى فى التعذيب - أشارت إلى أنه بعيدا عن التعذيب النفسى ، فإنه تكون هناك دائما وسائل أخرى مثل "صوديوم بنتوثال " ، أو ترياق الحقيقة ، وهو عقار يحق لمكتب التحقيقات الفيدرالى استخدامه ، كما تم استخدامه خلال الحرب العالمية الثانية على الجواسيس ، إذ يجبر العقار المتهم على الثرثرة ، وليس بالضرورة الإفضاء بالحقيقة . وكما هو الحال مع استخدام وسائل تعذيب أقسى ، فعندما ينهار المتهم فإنه عادة ما يتكلم لأنه يريد فقط وقف آلامه!

ثم تختتم المجلة تعليقها ، بأن الولايات المتحدة فى حاجة إلى أن تكون أكثر انفتاحا على إجراءات معينة من أجل محاربة ما تسميه بالإرهاب ، أما هذه الإجراءات المعينة ، فهى : التعذيب !

# كليات الطب فى الجامعات المصرية

صفحات من الماضى :

حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر كان " حلاق الصحة " هو الصورة النموذجية للطبيب الذى يعتمد فى عمله على الخبرة والممارسة ، وبالتالى لم يكن هناك " تعليم طبى " يتم فى أى معهد من المعاهد أو أى مستوى من المستويات ٠ وساعد على تثبيت وشيوع هذه الصورة درجة من التخلف الحضارى العام خيمت على مصر طوال قرون خلت ، بعد أن كانت الحضارة الإسلامية قد شهدت العديد من الصفحات المشرقة الدالة على تقدم طبى رائع ، بل وقبل الحضارة الإسلامية ، كان الطب المصرى ، وزعيمه الشهير " أمينحوتب " فى العصر الفرعونى فى مقدمة العالم بغير منازع ٠

وعندما تولى محمد على حكم مصر ، وفى سياق حركة النهوض الحضارى العام ، كان لابد أن يجد التعليم الطبى مكانه الذى يستحقه ، وساعد محمد على فى هذا الأمر وجود الدكتور " كلوت بك " الفرنسى الشهير ، والذى كان محمد على قد عينه ليتولى تنظيم الإدارة الصحية فى مصر ، وفى نفس الوقت عُين رئيسا للجراحين فى الجيش المصرى ، فكان أن أقنع الوالى بضرورة إنشاء مدرسة للطب فى مستشفى أبى زعبل التى أنشئت للقوات المسلحة ، وربما يعجب القارئ أن الطلاب الذين اختيروا للالتحاق بالمدرسة ، كانوا من طلاب الأزهر والمساجد الأخرى ، حيث كان المستوى المطلوب فى ذلك الوقت هو مجرد معرفة القراءة والكتابة وشئ من الحساب ، وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات ٠ ولما كان الذين يتولون التعليم من الأجانب ، فقد تمت الاستعانة بمن يعرفون اللغة العربية ، واللغة التى يتم التعليم بها وهى الفرنسية أو الإيطالية لينقل للطلاب معانى الدرس ، وبطبيعة الحال كثيرا ما كان فى ذلك مشقة كبيرة حيث لم يكن المترجمون يعرفون العلم الذى يترجمون فى مجاله ٠

وبعد عام واحد من الاحتلال البريطانى كتب الدكتور " ساندويزSandwith " تقريرا عن مستشفى قصر العينى ومدرسة الطب التى ألحقت بها يفزع من يقرؤه إلى الدرجة التى قد تتفوق على أشد درجات التشاؤم ، فمن ذلك ما جاء بالتقرير من وصف للمستشفى بأنها كانت من أولها إلى آخرها غاية فى القذارة ، وقلما ذهب إليها مريض إلا مجبرا ، وكان بها تسعون طالبا ملحقين بالسنين الأربعة الأخيرة من المدرسة ، وكان المفروض أنهم يشتغلون بالمستشفى ، غير أنه لم يسمح لهم بدخول قسم النساء ، حيث اختص به ثلاثون طالبة من

القابلات " الدايات " ، ولم يتلق الطلبة أى دروس عملية فى التشخيص ، ولم يكن الطلاب على دراية بكيفية تدوين المذكرات أو قياس درجة الحرارة أو فحص البول أو أى اختبار طبيعى متقن ٠ ولم تكن الجراحة مع التعقيم قد عرفت طريقها إلى المستشفى بعد ، وكانت المخدرات غير موثوق بها مطلقا حتى أن معظم العمليات الجراحية الكبرى كانت تجرى بدونها ٠ والأكثر بعثا للذهول حقا أن المرضى كانوا يعاقبون بالحبس ويقيدون فى أيديهم وأرجلهم بالسلاسل والأغلال ، ولا غرابة على هذا ألا يدخل المستشفى إلا من كانت شدة فقرهم وحاجتهم إلى المأوى تضطرهم إلى ذلك من المتشردين والمتسولين وبعض المسأجين والجنود واللقطاء والعاهرات !!

ولا نريد أن نستطرد فى التاريخ وإن كنا لا نريد أن نثبت الصورة السيئة السابقة ، فقد شهد التعليم الطبى بعد ذلك صورا تُشرف مصر حقا على يد جيل من الرواد العظماء ، يطول بنا الحديث لو حاولنا أن نقدم للقارئ صورة مما قدموه لمصر ولهذا التعليم الهام ، ولننتقل فورا إلى الوضع الراهن :

الوضع حالى :

الصورة التى نقوم بتقديمها هنا هى الصورة الكمية ، وذلك استنادا إلى ما سبق أن كتبناه عن نوعيات أخرى من كليات الجامعات المصرية ، من أن الجوانب الكيفية لا يستطيع أن يتحدث فيها ويكتب إلا واحد من أهل الاختصاص ٠ والأرقام التى نستند إليها هى الصادرة عن وزارة التعليم العالى عن العام ١٩٩٨/٩٧، عن كل الجامعات ، بما فيها جامعة الأزهر والجامعات الخاصة والجامعة الأمريكية ٠ ولابد أن ننبه إلى أن حديثنا يقتصر على " كليات " الطب البشرى ، ذلك أن هناك صورا متعددة للتعليم الطبى تنتظمها معاهد وكليات مختلفة ٠ أيضا يهمنا أن ننبه منذ البداية إلى أن جامعة حلوان هى الجامعة الوحيدة التى تخلو من كلية للطب ، وربما يكمن تفسير ذلك بأنها توجد فى العاصمة حيث هناك جامعات القاهرة وعين شمس والأزهر ، بكل منها كلية طب ، فلا ينبغى أن يزيد العدد عن ذلك حرصا على مستوى التعليم الطبى ٠ فماذا تقول هذه الأرقام ؟

يبلغ عدد طلاب الطب فى الجامعات المصرية ٥١٩٣٢ طالبا وطالبة ، فإذا تذكرنا أن عدد طلاب الجامعات المصرية يبلغ ١٢٥٨٢٤٢ ، فمعنى هذا أن نسبة طلاب الطب هى ٤٪ فقط ، بينما يبلغ عدد أعضاء هيئة التدريس بكليات الطب ( حسب القوة الفعلية ) ٧٨٨١ من جملة أعضاء هيئة التدريس بالجامعات المصرية وعددهم ٢٣٧٤٩ ، أى بنسبة ٣٣٪ تقريبا ، وبناء على هذا ففى الوقت الذى نرى فيه عدد الطلاب من الفئات القليلة نرى

العكس تماما بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس ، مما ينعكس على النسبة بين كل عضو وعدد الطلاب ، كما سوف نرى ٠

وتستأثر جامعة الأزهر بأكبر نسبة من طلاب الطب فى مصر ، حيث بلغ عددهم ٩٨٠٩ طالبا وطالبة، أى بنسبة ١٩٪ ، يليها جامعة القاهرة ، حيث وصل عدد طلاب الطب فيها إلى ٨٤٧٨ طالبا وطالبة ، أى بنسبة ١٦٪ ، هذا فى الوقت الذى يقل فيه نصيب جامعة المنوفية ، حيث يصل عدد طلاب الطب فيها إلى ٤٩٥ طالبا وطالبة ، بنسبة ١٪ ، تليها جامعة جنوب الوادى (سوهاج) ، حيث بلغ عدد طلاب الطب فيها ٨٢٢ طالبا وطالبة ، بنسبة ٢٪ ٠ ولم نشأ أن ندخل الجامعات الخاصة فى المقارنة ، فهى بحكم حداثة نشأتها ، لا تستأثر إلا بأعداد قليلة ٠

ومن بين جملة طلاب الطب ال ٥١٩٣٢ يبلغ عدد الطالبات ١٨٢٧٥ طالبة ، أى بنسبة ٣٥٪ ، مما يعنى أن عدد الطالبات ما زال دون المطلوب حقا ، خاصة وأننا كثيرا ما نردد أن مهنة الطب هى من أنسب المهن الملائمة لعمل المرأة ، وبطبيعة الحال فلا يمكن عَمل شئ إزاء هذه النسبة القليلة ، ذلك أن مبدأ المساواة بين الجنسين نفسه يقتضى أن يقوم مكتب التنسيق بتوزيع الطلاب وفقا لمجموع درجاتهم ، بغض النظر عن " النوع " ٠

وتتصدر جامعة القاهرة الجامعات المصرية من حيث نسبة عدد الطالبات ، إذ بلغ عددهن ٣١٣٥ طالبة ، أى بنسبة ٣٧٪ من جملة طلاب وطالبات الجامعة ، وبنسبة ٦٪ من جملة طلاب وطالبات الطب فى مصر ، وبنسبة ١٧٪ من جملة الطالبات ٠ وأقل جامعة هى جامعة المنوفية ، حيث بلغ عدد طالبات الطب فيها ٢٦١ طالبة ، أى بنسبة ٠,٥٪ من جملة طلاب وطالبات الطب ، ونسبة ١٪ من جملة الطالبات ، لكنها تتفوق على غيرها من الجامعات إذا نسبنا عدد الطالبات إلى جملة طلاب وطالبات الطب فى نفس الجامعة إذ تصل إلى ٥٣٪ ٠

وإذا كانت المعدلات العالمية لطلبة الدراسات العليا تميل إلى أن تصل بنسبتهم إلى ما يقرب من الخمسين بالمائة ، فإن الاتجاه الغالب فى جامعاتنا يقل عن ذلك بدرجة ملفتة للنظر ، إذ قد تصل إلى ما يقل عن ١٥ أو ١٢٪ ، لكن هذه النسبة تتحسن كثيرا بالنسبة للدراسات الطبية ، إذ وصل عدد الطلاب فى هذه المرحلة إلى ١٢٨٦٤ طالبا وطالبا بنسبة ٢٥٪ ، وهى أعلى نسبة على وجه التقريب فى الدراسات العليا ، على الرغم من أن إجراءاتها ليست يسيرة ، فضلا عن صعوبات أخرى ، ويكفى أن نقارنها بكليات الهندسة حيث تصل نسبة طلاب الدراسات العليا بها إلى ٩٪ فقط ٠ وإذا كان عدد طالبات الدراسات

العليا الطبية ٤٣٣٤ طالبة ، فمعنى هذا أن نسبتهن تصل إلى ٣٤٪ من جملة طلاب وطالبات الدراسات العليا ، وهى نسبة تقترب كثيرا من نسبتهن للجملة العامة .

وتجئ جامعة الأزهر فى مقدمة الجامعات من حيث استئثار طلاب الدراسات العليا الطبية بأعلى نسبة ، فإذا كان عددهم يصل إلى ٢٦٤٣ طالبا وطالبة فمعنى ذلك أن النسبة تصل إلى ٢١٪ ، تليها جامعة الإسكندرية حيث يصل عددهم إلى ٢٢٥٠ ، أى بنسبة ١٧٪ ، بينما حصلت جامعة جنوب الوادى على أقل نسبة ، إذ بلغ عدد طلاب الدراسات العليا بها ٢٨ طالبا وطالبة فقط ، أى بنسبة لا تزيد عن ٠,٢٪ ، تليها جامعة المنيا ، حيث بلغ عدد طلابها ١١٧ أى بنسبة ١٪ .

فإذا جئنا لأعضاء هيئة التدريس بكليات الطب ، نجد أن العدد الكلى الذى سبق أن أشرنا إليه وهو ٧٨٨١ عضوا إذا نسب إلى عدد طلاب الطب وجدنا النسبة تصل إلى ١إلى ٧ ، أى أن كل عضو يخصه سبعة فقط من الطلاب ، وهى نسبة نموذجية لا مثيل لها فى كل الجامعات المصرية ، ويتجلى هذا إذا ما قارناها مثلا بمثيلتها فى كليات التجارة التى تصل إلى عضو واحد لكل ٣٦٧ طالب !!

وبتأمل الهيكل الوظيفى للأعضاء نجد نفس السمة العامة بكل الجامعات المصرية على وجه التقريب ( لا ندخل جامعة الأزهر فى هذا الحساب )، ألا وهى زيادة عدد الأساتذة على الأساتذة المساعدين ، فبينما بلغ عدد الأساتذة ٢٣٦٣ أستاذا ، وصل الآخرون إلى١٦٧٢ أستاذا مساعدا ، ويقع عدد المدرسين فى المكان المناسب حيث بلغ عددهم ٢٤٠٧ مدرسا .

وتصل نسبة عدد أساتذة الطب إلى ٣١٪ من جملة أساتذة الجامعات المصرية الذين يبلغ عددهم ٧٦١٨ ، وهى نسبة عالية من غير شك ، أما الأساتذة المساعدون فنسبتهم ٣٠٪ ، حيث يصل العدد الإجمالى بجامعاتنا إلى ٥٦٥٧ أستاذا مساعدا ، أما المدرسون ، فنسبتهم ٢٤٪ من أصل ٩٨٨٣ مدرسا ، وكل هذا يشير إلى ما عرفت به كليات الطب من تكدس واضح بالنسبة لفئة الأساتذة بصفة خاصة .

وأفضل النسب بين أعضاء هيئة التدريس والطلاب نجدها فى جامعة المنوفية حيث تصل النسبة إلى عضو واحد لكل ثلاث طلاب ، وهى نسبة لا مثيل لها فى معظم جامعات العالم لا فى مصر وحدها ، ففى الوقت الذى بلغ فيه عدد طلاب الطب فيها ٤٩٥ طالبا وطالبة فقط ، نجد أن أعضاء هيئة التدريس يبلغ عددهم ( حسب القوة الفعلية ) ١٧٥ عضوا !!، تليها فى النسبة المتميزة طب الزقازيق ( مع بنها ) ، فبينما يصل طلاب الطب فيها إلى ٤٧٠٦ طالبا وطالبة يصل عدد أعضاء هيئة التدريس إلى ١١٧٦ ، أى بنسبة عضو لكل أربعة طلاب !

وعلى العكس من ذلك نجد أن أسوأ نسبة ، توجد بجامعة جنوب الوادى ، فبينما يبلغ عدد طلاب الطب بها ٨٢٢ ، نجد أن أعضاء هيئة التدريس لا يزيدون عن ٥١ عضو ، أى بنسبة ١ : ١٦ ، تليها كل من جامعتى طنطا والمنصورة ، ففى الأولى يصل عدد الطلاب إلى ٤١٥٢ ، يُعلمهم ٤١١ عضوا ، وعدد طلاب الثانية ٤٧٩٦ ، يُعلمهم ٤٨٦ ، وكلاهما بنسبة ١: ١٠

وأيا كانت أعداد طلاب الطب فى أى جامعة ، فنحن ندعو القارئ أن يقارن بينها وبين عدد طلاب تجارة عين شمس حيث وصل عددهم إلى ٥٤ ألف طالب وطالبة ، كما بينا فى مقال سابق لنا ، أى أن عدد طلاب التجارة بجامعة واحدة يزيدون على عدد طلاب الطب فى

ولا شك أن هذا يثير تساؤلا خطيرا عن هذه " العشوائية " الواضحة فى سياسة القبول بالجامعات وفى التخطيط للتعليم العالى على اعتبار الاحتياجات الفعلية للسوق ، ونحن نعلم ما نعلم عن مئات الألوف من فقراء مصر الذين يقعون فى براثن المرض ويحتاجون العلاج ، وكيف أن هناك العديد من صور الفاقة وسوء السكن والتغذية التى تُفاقم من الحالة الصحية ، مما يجعل حاجتنا إلى الأطباء أكثر .

ومن المؤسف أننا نسمع كثيرا عن زيادة عدد الأطباء المتخرجين عن حاجة السوق ، وفى هذا لبس لابد من إيضاحه ، إذ أن ما يحدث هو النظر إلى ما هناك من تناسب بين عدد الأسرة الموجودة وعدد الأطباء ، وهنا لابد أن نقع فى وهم الزيادة ، ذلك أن السؤال هو : وهل عدد الأسرة وعدد المستشفيات يتناسب حقا مع حاجاتنا الصحية ؟ بالعكس ، فنحن بحاجة إلى ضعف العدد القائم من المستشفيات والأسرة ، وساعتها سوف نجد أننا بحاجة إلى مضاعفة عدد الأطباء ، خاصة ونحن قد لمسنا أن عدد أعضاء هيئة التدريس بكليات الطب متضخم بدرجة ملحوظة يفوق حاجة الطلاب ، على ألا نقع فى الخطأ المشهور فى كل جامعاتنا على وجه التقريب ، من حيث تكدس الطلاب ، ومن ثم فنحن فى حاجة إلى " تكثير " عدد كليات الطب ، وفق الشروط المتعارف عليها ، لا مجرد " تكثير " عدد الطلاب فى الكليات القائمة .

وإذا كانت الكثرة الغالبة من كلياتنا تشكو من تزاحم أعضاء هيئة التدريس على الإعارة " ، إلا أن القواعد اشترطت ألا تزيد نسبة المعارين عن ٢٥٪ ، وإن كانت هناك صور متعددة لتجاوز هذه النسبة ، لكن الوضع فى كليات الطب لا يعانى من هذه الأزمة الشهيرة فى كل كلياتنا ، فالإقبال على الإعارة قليل للغاية ، فعدد المعارين من أعضاء هيئة التدريس الطبية فى كل كليات الطب لا يزيد عن ٥٠١ ، أى بنسبة ١٤٪ فقط من جملة

المعارين على مستوى الجامعات (٣٥٠٠) ، و ٨٪ على مستوى كليات الطب ، والتفسير معروف ، ذلك أن الدافع الأساسى للإعارة هو دافع مادى ٠٠ رغبة فى زيادة الدخل ، وأعضاء هيئة التدريس الطبية لا يعانون من قلة الدخل ، فلم يتغربون ؟ ويختلف الموقف عندما نجئ إلى المهمات العلمية ، إذ نجد أن عددهم يزيد ليصل إلى ٨٨ عضوا من ٣٤١ ، أى بنسبة ٢٦٪ ، على مستوى الجامعات كلها ، فهم ، ربما أكثر من غيرهم أكثر حاجة لمتابعة الجديد فى العلم !

وأكثر التخصصات عددا من حيث أعضاء هيئة التدريس ، تخصص الباطنة العامة ، حيث يصل العدد فيه إلى ٥٦٧ عضوا ، أى بنسبة ٩٪ ، وكذلك تخصص الجراحة العامة ، حيث يصل العدد إلى ٥٥١ ، بنسبة ٨٪ على وجه التقريب ٠ وهناك تخصصات جديدة ، لكنها ما زالت لا تحظى بإقبال عليها ، مثل طب المسنين ، إذ لا نجد من تخصصوا فيه أكثر من ثلاثة ، وطب الأسرة ، واحد ، وطب الحالات الحرجة خمسة أعضاء فقط ، وربما تزايدت هذه الأعداد فى هذه التخصصات الجديدة فيما بعد ٠

وأخيرا ، وكما سبق أن أشرنا فى مقالات سابقة عن " الوضع الكمى " لنوعيات من كلياتنا الجامعية ، أننا نأمل أن تكملها دراسات من أصحاب التخصص والشأن عن " الوضع الكيفى " ٠

# صناعة الطغيان

قالوا فى الأمثال العامية : يا فرعون إيه فرعنك ؟ قال " مالقتش حد يردنى !

قول يلخص أحد جوانب فلسفة التاريخ ، ولا غرو فى ذلك فالحكمة الشعبية ربما تتفوق على الكثير من تنظيرات الفلاسفة والمفكرين لأنها تجمع خبرات سنوات طويلة من التاريخ ، وتعبر عن رأى عام لا يتحرك وفق هوى شخصى أو مصلحة فردية ٠

تذكرت هذا وأنا أقرأ مذكرات كريم ثابت المستشار الصحفى لاخر ملوك مصر من الأسرة العلوية ، فاروق الذى أنهت ثورة يوليو بخلعه سلسلة طويلة من الحكم بدأت منذ عام تولى محمد على حكم البلاد عام ١٨٠٥ ، وخاصة بعض أحداث وسط الأربعينيات ، وكان عمر فاروق لا يتجاوز خمسا وعشرين عاما ، يتعامل مع ساسة ذوى أسماء رنانة وتاريخ طويل ، من عمر أبيه ، مثل إسماعيل صدقى ومحمود فهمى النقراشى وحسين سرى وإبراهيم عبد الهادى ٠٠ وهكذا ، لكنهم نسوا هذا وسلموا إليه رقابهم وكرامتهم يفعل بها ما يحلو له ، ولم لا ؟ أليس هو الملك ؟ كانت ملكية دستورية ، المفروض أن الملك يملك ولا يحكم ، لكنهم " فرعنوه " وعلموه كيف تكون له الكلمة الأولى والأخيرة ، وألا يتعدى دورهم دور " الدمى " لابد من يد أخرى تحركها !

واقرأ معى بعض حكايات التاريخ لتعرف كيف نصنع نحن بأيدينا طغاة يحكموننا ونفرك أيدينا سعادة بما يفعلوه ، حتى ولو كان ذلك خارج كل حدود المنطق والسياسة ٠٠ صحيح أن الحكاية تجئ هنا على لسان أحد مستشارى الملك الذين سايروا ما كان سائرا عليه من فساد وعبث ، بل وربما شجعوه على ذلك وخططوا لذلك ، مما قد يجعلنا نأخذ بعين الحيطة ما يكتبه كريم ثابت من أنه نصح الملك بكذا وكذا !

وأولى هذه الحكايات ، تتعلق بما بذله فاروق من جهد لمحاولة تعزيز شأنه بين الدول العربية ، خاصة بعد إقرار قيام جامعة الدول العربية ، وما كان من منافسة خفية مع الأسرة الهاشمية ، سواء فى جناحها العراقى أو الأردنى ، فسعى لاستمالة الراحل عبد العزيز آل سعود إلى جانبه باقتراح أن يتم اجتماع بين الملكين ، وكانت رسالة فاروق إلى عبد العزيز أن يتم الاجتماع " فى المكان الذى يختاره جلالته ويريحه "! وتم ترتيب اجتماع بينهما ، وكان ذلك بعد إقالة وزارة الوفد برئاسة مصطفى النحاس عام ١٩٤٤ ، والتى كانت قد تألفت عقب حادث ٤ فبراير عام ١٩٤٢ الشهير ، ثم تولى أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى مقاليد الوزارة ٠

وقد اختار الملك السعودى أن يكون الاجتماع فى " شرم ينبع " بالقرب من ميناء ينبع بالحجاز ، ووافق فاروق ، وسمى الاجتماع " اجتماع رضوى " نسبة إلى جبال " رضوى " المشهورة عند العرب ، والتى تشرف على المكان ، وتم التخطيط للاجتماع دون مشاورة الحكومة ، والتى فيها وزير للخارجية المفروض أنه مسئول عن سياسة مصر الخارجية ، ولم يحتج أحمد ماهر ، ولم يقدم استقالته لأن الملك لم يعره اهتماما فى شأن هو من اختصاص الحكومة نفسها !

ومن هنا ، فعندما واصل فاروق جهد فى تعزيز مكانته العربية ، واختار يوم ٢٦ مايو من عام ١٩٤٦ لاجتماع دعا إليه الملوك والرؤساء العرب فى أنشاص ، وكان إسماعيل صدقى هو رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، حيث كان تغيير الوزارة أمرا معتادا كل عدة شهور، سأله كريم ثابت :

والحكومة ؟ فقال : مال الحكومة ؟

أجاب كريم : ألا تنوى جلالتك استشارتها ؟ فرد فاروق : حتما لأ ! إننى لم أستشرها فى اجتماع " رضوى " ، ولا أنوى أن أستشيرها الآن ، بل وأصر فاروق على ألا تمثل الوزارة فى هذا الاجتماع ! ولما نبهه كريم ثابت إلى أن إسماعيل صدقى ليس كمثل أحمد ماهر ، وربما يستقيل احتجاجا ، كان رد فاروق " .. ومع ذلك فأنا مستعد أن أقول له مع السلامة " . ولما سئل عن الضرر الذى يحدث لو استشار الوزارة ، كانت الإجابة " لأنى لا أريد أن تكون هذه الاستشارة (سابقة) تقيدنى فى المستقبل " ! ها قد قالها الرجل ، إنه يريد أن يمضى فى طريقه دون أن يكون مضطرا إلى الاستماع إلى رأى هذا وذاك .

ماذا يكون من المتوقع ؟ أن يغضب رئيس الوزراء ويحتج ويستقيل . لكن لا هذا ولا ذاك ، وقبل إسماعيل صدقى على نفسه ما حدث دون أن تهتز شعرة كرامة له ! فبينما كان كريم جالسا مع فاروق فى الجناح الخاص به بسراى أنشاص فى اليوم التالى لاجتماع الملوك والرؤساء العرب ، دخل " الشمشرجى " وقال إن دولة صدقى " باشا " جاء ليوقع فى سجل السراى وليستأذن بمقابلة مولانا دقيقتين " ، وسأل فاروق عن غرض الزيارة ، فأجاب الشماشرجى بأنه لا يعرف ، فأرسل فاروق كريم ليقابله ويرى الحكاية ، فلما عاد من هذه المهمة أجاب الملك قائلا : " إنه جاء ليهنئ جلالة الملك بالتوفيق الكبير الذى وفقه بالدعوة إلى هذا الاجتماع ، وبالنجاح الباهر الذى نجحه ، مما يبشر بأعظم النتائج !"

وعلق فاروق موجها حديثه إلى كريم : " هل ترى الآن ما أظهرت من جهل حين قلت لى أن إسماعيل صدقى قد يغضب ؟ " ، وتعطف فاروق فدعا رئيس الوزراء ووزير الخارجية

إلى مأدبة الوداع الرسمية التى أقامها لضيوفه ، والحفل الساهر الذى أعقبها ، وكانت هذه هى الصورة الوحيدة لمشاركة الحكومة فى أمر يخص السياسة الخارجية لمصر !

وتمضى الملهاة .. إسماعيل صدقى يريد أن يدخل تعديلا فى وزارته لإشراك الحزب السعدى لتعزيز موقفه فى مفاوضات الجلاء مع الإنجليز ، لكن الملك كان قد سافر فى رحلة بحرية إلى جزيرة قبرص ، وبعد عدة تصريحات لإسماعيل صدقى تنشرها الصحف بأن الملك سوف يعود إلى مصر بعد يومين ليوقع المراسيم الخاصة بالتعديل ، ويمضى اليومان والملك لا يعود ، ويتكرر هذا الأمر عدة مرات ، حتى أصبح موقف رئيس الوزراء مخزيا أمام الرأى العام . والأدهى والأمر أن يترك الملك قبرص ويذهب الملك إلى جزيرة رودس ليستكمل رحلة المتعة ، ذلك أن " جلالته " كان قد تعرف على الممثلة اليهودية الشهيرة " كاميليا " التى صاحبته الرحلة ، فماذا كان رد فعل رئيس وزراء مصر ذات الحضارة التاريخية الكبرى ؟ .

ركب إسماعيل صدقى الطائرة ، مع رئيس الديوان الملكى بالنيابة " حسن يوسف " ليوقع هناك على مراسيم التعديل الوزارى ، وكان الخبر الذى أذيع رسميا عن هذه الواقعة المشينة يقول : " أن جلالة الملك تفضل فوافق على التعديل الوزارى وأمضى المراسيم الخاصة به " ، كما أذيع " أن رئيس الوزارة كان موضع عطف جلالته ، وأن جلالته تعطف فدعاه إلى الغداء على مائدته ، ثم زوده بإرشاداته وتوجيهاته " ! بل لقد أذاع رئيس الوزراء بيانا نشرته الصحف ذكر فيه أنه يسره أن يزف إلى الشعب المصرى أن جلالة الملك بصحة جيدة ، وأنه أفاد من سياحته كثيرا ، ثم أكد على آثار زيارة جلالة الملك من حيث الدعاية الطيبة لمصر ، فى كل مكان يذهب إليه ، فى الوقت الذى كانت فيه الصحف الأجنبية تكتب عن سهرات ونزوات الملك الخليع مع كاميليا !

مواقف عدة ، وشخصيات مختلفة ، لكن يبقى المنحى العام والاتجاه الرئيسى ، حاكم يضع الدستور العديد من القيود على يديه ، لكن من يتولون السلطة يشجعوه على العمل بعكسها ، ويتنازلون عن حقوقهم والتى هى فى الحقيقة حقوق الشعب التى استأمنهم عليها فخانوها ووضع كل منهم لبنة فى بناء الطغيان!

# إمبريالية وليست صليبية

على الرغم من أننا نستيطع أن نسود مئات الصفحات التى يمكن أن تملأ أكثر من مجلد من الشواهد والبراهين التى تؤكد أن الغرب ما فتئ حتى هذه اللحظة التى نكتب فيها يحرص على محاربة الإسلام والمسلمين ، إلا أننا نستطيع بالقدر نفسه من الثقة أن نؤكد أيضا أن هذه الحرب الحرب التى يشنها ، وتلك الحروب التى سبق له أن شنها عبر التاريخ ، ليست دفاعا عن المسيحية ، وإنما هى كانت ، وما زالت ، حروبا امبرالية بالدرجة الأولى ، الهدف منها قهر مجموعة من الشعوب واستغلال ثرواتها ، والتحكم فى مقادير أمورها ، والحرص على ألا تخرج عن طوع قوى الهيمنة ، وتأتمر بأوامرها .

وعلى الرغم أيضا من أن مصطلح ( الامبريالية ) قد اختفى على وجه التقريب من لغة التعبير فى عالم السياسة والإعلام منذ سقوط منظومة الدول الاشتراكية ، بل ويتصور البعض أنه قد أصبح من الأساطير السياسية ، إلا أن معانيه ودلالاته ومضامينه ، لا نقول ما زالت قائمة ، وإنما تزيد انتشارا وتزيد ضراوة ، وتزيد تمكنا ، إلى الدرجة التى تكاد تجعل من الإمبريالية وكأنها " قدر " لا تستطيع دولة الآن الفكاك منه ، فالنظام العالمى الحالى يكشف بكل جلاء ووضوح عن تركز رأس المال والانتاج ، بشكل متطور إلى درجة عالية تخلق احتكارات تلعب دورا حاسما فى الحياة الاقتصادية ، ومن ثم الحياة السياسية ، كما يكشف عن تزايد تصدير رأس المال ، كشئ متميز عن تصدير السلع ، وظهور رأس مال البنوك ورأس المال الصناعى وخلق أقلية رأسمالية ، وما يتضمنه كل هذا من الحرص على التحكم فى المقادير السياسية لضمان هذه الصور المتعددة من الاستغلال .

وما يجعلنا على هذا القدر الكبير من الثقة من أن ما واجهناه عبر العصور المختلفة من حروب من الغرب وما نواجهه الآن ليست حروبا صليبية ، هو إيماننا الذى لا يتزعزع بأن نبى الله عيسى عليه السلام ، قد جاء برسالة محبة وسلام وتآزر ورحمة وعطف وشفقة .. كل كلمة من كلماته ..كل حركة من حركاته ، كانت تصب فى هذا الاتجاه ، وعندما نقيس هذا الذى فعله مدعو اتباعه فى الغرب طوال التاريخ تجاهنا ، سوف نجد أنه يتناقض تناقضا صارخا مع رسالة هذا النبى العظيم .

وفضلا عن ذلك ، فإننا لو فتشنا فى خلايا الحياة الغربية من الناحية الأخلاقية ، وبعيدا عن كل هذه الصور الباهرة من التقدم العلمى والتكنولوجى ، فسوف نجد ما يصعب حصره من السلوكيات التى تتناقض كذلك تناقضا صارخا مع رسالة المسيح عليه السلام .

المسألة هى ، التهمة نفسها التى يرفعونها ضد كثيرين منا ، ويشاركهم مع الأسف بعض من أبناء بلداننا بغير وعى ، ألا وهى استغلال الدين لتحقيق أهداف سياسية .

ولقد كان مؤرخو الأمة القدماء على وعى بهذا ، فلم يسموا الحروب التى شنتها أوربا على الشرق الإسلامى طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر بالحروب الصليبية ، وإنما أسموها بحروب الفرنجة ، وجاءت التسمية بالحروب الصليبية من جهة الأوربيين أنفسهم ، ورددناها نحن دون أن ندرى ترديد الببغاوات التى لا تعى ماتقول !

ومن هنا فإننا لا ينبغى أن نقع فى هذا الفخ الخطير ، فنؤجج نيران هذه القسمة المفزعة ، بين معسكر مسيحى فى مواجهة معسكر مسلم ، لأنها فى الحقيقة ، مواجهة بين معسكر تحركه أطماع سياسية وعسكرية واقتصادية يستهدف قهرا واستغلالا وهيمنة ، تقوده الولايات الولايات المتحدة ، ضد الإسلام والمسلمين ، لأنهم يرون فيه قوة كامنة تأبى القهر ، وتنكر الاستغلال ، وترفض الهيمنة .

# أنا والغريب على أخويا وابن عمى !

ليس هناك خطأ فى العنوان ، فمن الأمثال المصرية الشعبية التى تحمل أدق المعانى والتقاليد والقيم : "أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب " ، فهو يشير إلى صلة الرحم ، وهى صلة أكدت عليها العقيدة الإسلامية بإلحاح شديد يشير إلى أهميتها وجوهريتها فى التماسك الاجتماعى والترابط الأسرى ، ووحدة أبناء الأمة .

ومن مظاهر التردى فى أوضاعنا حقا أن ينقلب الحال ، فيصبح الغريب مقدما على الدرجتين المشار إليهما وهما الأخ وابن العم ، وهو مظهر من مظاهر التخلى عن قاعدة هامة من قواعد الدين ، وسبب جوهرى من أسباب التخلف الحضارى بحيث يصل الأمر بالأمة التى أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، أن تكون فى الواقع من الأمم الذيلية التى تضرب على رأسها ، فيصيح مسئولوها : هل من مزيد ؟!

بدأ ذلك على أرض الأندلس منذ أكثر من خمسة قرون ، فاستعان بعض ملوك الطوائف بالأجنبى طمعا فى الانتصار على إخوة لهم ، ثم تدور الدائرة عليهم ويتحقق المثل: " ستؤكلون يوم يؤكل الثور الأبيض "!

ومعروف أن قيمة الإنسان ككائن حى على سائر الكائنات التى خلقها الله ، أن تتوافر له القدرة على أن يعى ما حدث ، وأن يتحسب للمستقبل حتى لا تتكرر الأخطاء ، لكن الفتنة تتكرر مرة أخرى ، عندما غرر الإنجليز والفرنسيين بقادة عرب فى المشرق ، أثناء الحرب العالمية الأولى فأوهموهم بنيل الاستقلال ، وبالتالى قاموا بالثورة على دولة الخلافة العثمانية ومساعدة قوات الحلفاء ، وانتصر الحلفاء ولم ينل العرب الاستقلال ، وبدأوا يذوقون منذ ذلك الحين ويل الاستعمار ، بل وكوفئوا شر مكافأة بزرع الكيان الصهيونى العنصرى الاستيطانى البغيض .

ثم تتكرر الفتنة ، ويغرر بالعراق لتشن حربا طويلة تستمر ثمانى سنوات على الثورة الإيرانية الوليدة ، واستنزفت قدرات وطاقات الإثنين ، وكانت الكثرة الغالبة تساعد العراق ، ثم إذا بقاهر العراق يفاجأ الجميع بالغارة على الكويت ، ويغرر التحالف الغربى بقيادة الولايات المتحدة بالعرب فيقفوا بجانبها ، ولا يقتصر الأمر على تحرير الكويت ، وهو الهدف المرغوب حقا ، ليمتد إلى سجن شعب عربى مسلم ، قوامه عشرون مليونا منذ عام ١٩٩١ حتى الآن ، وتفوز الولايات المتحدة بوجود عسكرى مدفوع الأجر على أرض دول خليجية عربية مسلمة !

ولم تقف آثار هذه الفتنة على مجرد سجن شعب العراق العربى المسلم ، بل ذرعت بذور شك بين الجميع ، وتشرذمت الدول العربية ، وأصبحت كالجثة الهامدة ، تنهال الصفعات والركلات على وجهها ودُبرها ، ويبصق فى وجوهها ، وهى بليدة لا تتحرك ، عاجزة لا تفيق ، وآية هذا هذا الذى يحدث لإخوة لنا على أرض فلسطين المحتلة كل يوم !

وعلى الرغم من كل هذه التجارب المؤسفة ، المعروفة والمشهورة ، والتى من المفروض أن توقظ ، وتُنهض ، حتى ولو من باب الدفاع عن النفس والحفاظ على الكرامة ، تتكرر الفتنة ، فيعلن قادة عرب ومسلمون تأييدهم لضرب أفقر الشعوب وأكثرها تخلفا وضعفا فى أفغانستان ، تحت مظلة تلك الحجة الرائجة الآن : محاربة الإرهاب ، ولا تثور كرامتهم ، وأهلنا فى فلسطين يفعل بهم أضعاف ما حدث للأمريكان فى سفارتيهما وفى المدمرة كول ، بل وفى ١١ سبتمبر ، إذا جمعنا حصيلة كل ما حدث لنا منذ قيام الكيان الصهيونى ، ولا يعد ذلك إرهابا !

# تحديد إقامة الإسلام !!

منذ قرون ودماء المسلمين تراق ليل نهار في مختلف بقاع العالم ، وحتى يكون ذلك مبررا كان من الضرورى تلطيخ صورتهم بكل ما هو سئ .

حتى بعد أن طويت صفحة الاستعمار العسكرى المباشر وأصبحت كل الدول الإسلامية " مستقلة " ، فما زال نهر الدم جاريا ...ويكفى أن تلتفت بنظرك فى السنوات العشر الماضية إلى بعض البقاع وسوف تجد العديد من الأمثلة على ما نقوله ونؤكد عليه ... '

فأرض فلسطين ، هى مما ينطبق عليه الوصف الشائع الشهير " عرض مستمر " ، ثم إذا بها منذ اندلاع الانتفاضة فى أواخر سبتمبر ٢٠٠٠ تصبح الخبر الأساسى فى مختلف نشرات الأخبار ، ويصدق العالم أن المحاصرين الذين لا يملكون قوت يومهم والذين لا يملكون إلا الحجارة ، وأعداد محدودة للغاية من الأسلحة النارية البسيطة البدائية هم الذين يعتدون على أقوى جيش فى المنطقة ، ، والذى تملك دولته أكثر من مائتى قنبلة ذرية ، وأصبحت فى مقدمة الدول التكنولوجية العلمية ، وتتعامل مع الفلسطينيين بالمدافع والطائرات وأشد الأسلحة تطورا وفتكا ..

وأرض البلقان ، تشهد فى أول التسعينيات أنهار دم على أرض البوسنة والهرسك ومقابر جماعية وبقر البطون وتدمير البيوت وانتهاك الأعراض وتشريد عشرات الألوف ، ثم تشهد أرض كوسوفا الشئ نفسه ، وما زال العرض مستمرا ...

وهكذا قل عن الشيشان ، يعيبون عليهم طلبهم للاستقلال ويسمونهم انفصاليين ومتمردين ، لكنهم يبررون الانفصال والتمرد فى بعض جزر أندونيسيا ..والشئ نفسه فى جنوب السودان ...وعن العراق ، وكأنه الدولة الوحيدة فى العالم التى لا تمتثل لما يسمى الشرعية الدولية...وما كان بين إيران والعراق فى حرب الخليج أولى ... ثم ما كان على أرض الكويت فى حرب الخليج الثانية !

وعلى الرغم من كل هذا ، فتلك معارك يقودها الغرب ، أو وكلاء له فى المنطقة ، هى مبررة ومفهومة بالمنطق الغربى ، ولذلك ، فهى على شدة إيلامها لا تزعجنى بقدر ما تزعجنى حرب أخرى تجرى داخل دول إسلامية تقودها قوى تنتمى إلى بلادنا الإسلامية نفسها ، حتى لتقفز إلى الذاكرة مقولة نابليون الشهيرة : اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم !

انظر على سبيل المثال إلى دولة مثل تركيا ٠٠دولة آخر خلافة إسلامية والتى استمرت إلى الربع الأول من القرن العشرين ، لا أريد أن أستطرد إلى ما فعله أتاتورك من مطاردة وإلغاء وفتك بكل ما ينتمى إلى الإسلام ، وإنما أريد أن أشير إلى أن هذه الجهود المحمومة لم تسفر أبدا عن إلغاء وجود الإسلام فى عقول وقلوب الأتراك ، مثلما حدث لأرض الأندلس ، فعلى الرغم من مرور خمس وسبعين سنة ، هناك ملايين من الأتراك قلوبهم عامرة بالإسلام ، وعقولهم تؤمن به منهجا وعقيدة ٠

وإذا كان " العسكر " هناك يؤمنون بالفعل " بالدولة العلمانية " إلا أنهم لا يسايرون منطق العلمنة إلى نهايته ، فإذا كانت العلمانية تفصل الدين عن الدولة لكنها لا تصادر حرية النَاس فى التفكير والرأى ، ومع ذلك فقد ضاقت علمانية العسكر عن أن تسع رؤية نائبة فى البرلمان تغطى شعرها ، وكأن هذه التغطية يمكن أن تهدد النظام فكان من طردها ، بل يصل الأمر إلى تجريدها من جنسيتها !! ومع ذلك يملأ البعض الدنيا صراخا وعويلا تخويفا من " الإسلاميين " على أساس أنهم لو وصلوا إلى الحكم فسوف يضطهدون غيرهم ويطاردونهم !

وبكل الآليات الديموقراطية الدستورية يظهر حزب ذو توجه إسلامى ، فيخطط لوأده وإلغائه ، فيظهر آخر بالآليات الديموقراطية نفسها ، ويهرع ملايين الأتراك لاختيار نواب له فى البرلمان ، فيتكرر معه سيناريو الحرب والمحاصرة والوأد ثم القتل ، وترتفع صور نقد لهذا ، ممن ؟ من قوى غير إسلامية فى الاتحاد الأوربى ترى أنه لا ينبغى محاسبة التيار الإسلامى على ما يتصور أنه فى نواياه ، ومع ذلك يشيع البعض أن الإسلاميين إذا وصلوا إلى السلطة فلن يطيقوا غيرهم ، فمن لا يطيق من ؟!

وانظر إلى هذه المأساة المستمرة على أرض المليون شهيد ٠٠ الجزائر ، والتى قاربت أن تدخل عامها العاشر فماذا كانت البداية ؟ حزب شرعى رسمى ٠٠ سار على طريق يبغى به السلطة ، لا بجنازير ولا رشاشات ولا إسالة دماء ، وإنما عن طريق الانتخابات ، ومن خلال صناديقها ، فلما بدت بوادر فوزه ، كانت الغارة عليه وعلى العملية الانتخابية كلها ، والمبرر المعلن أنه لو نجح فسوف يكون حربا على الديموقراطية ولن يسمح للرأى الآخر بأن يعبر عن رأيه ، ثم إذا بمئات القتلى من الجزائريين كل عام ، بل قد يزيد الأمر على ذلك ، تسيل دماؤهم لا فى سبيل تنمية وتعمير ، ولا فى سبيل مقاومة محتل ، ولا بيد عدو خارجى ، وإنما هى دماء جزائرية تسيل بيد جزائرية ، لا ينتج عنها إلى خراب ودمار وخوف وقلق وفزع ورعب وتشرد ، فهل كل هذا دفاعا عن الديموقراطية ؟ من الذى يحارب الرأى الآخر ولا يمكن له ، بل ويصل الأمر إلى ذبحه وقتله ؟!

وتسأل : من إذن هو مصدر الخطر الذى يهدد الرأى الآخر ، ولماذا لا نتسق مع دعوانا ونجعل صندوق الانتخابات هو الحكم والفيصل ؟

وهناك دول أخرى أكثر ذكاء ... إنها لا تنتظر حتى يصل مثل هؤلاء إلى صناديق الانتخاب ، فتلجأ إلى " الجزر " من المنبع ...تقليص ساعات الدين فى مؤسسات التعليم ... لا مانع أبدا من الرقص والقبلات والأحضان على شاشات التلفاز ، وشبه العرى ، لكن أن تظهر مذيعة تغطى رأسها ، فذلك خطر لابد من عدم السماح بوقوعه... اعتقال النشيطين قبل الانتخابات ... تكبيل التنظيمات والمؤسسات المدنية بترسانة من الموانع والحواجز ...إبعاد من يعرف عنه مثل هذا التوجه عن المناصب القيادية ...تجفيف ينابيع النشر والكتابة .. إلى غير هذا وذاك من آليات ووسائل أصبحت مكشوفة ومعروفة المصدر والهدف .

لقد أصبح الهدف هو أن ينحصر الإسلام فى البيوت والمساجد ، لا يغادرها إلى الشارع ، والمصنع ، والمدرسة ، والجامعة ، والإعلام ، والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والفنية ...إنها عملية " تحديد إقامة " ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، ذلك أن تحديد الإقامة بهذه الصورة ، إنما يؤدى إلى محاصرة الوظيفة كذلك ، إذ تصبح وظيفة المسلم هى أن يؤدى العبادات فقط .. يصلى ، يصوم ، يحج ، يعتمر .. ولا مانع أن تحكمه الشريعة فى زواجه وطلاقه وإرثه ، يصبح الإسلام شأنا فرديا ، أما أن يصبح شأن الأمة بأجمعها وفى كليتها وفى نظمها ، فهذا خطر على الديموقراطية ، ورجعية وجمود ، وقهر لحرية الفكر ، وتعطيل للتنمية ، فهل هذا صحيح ؟

# المسلمون ٠٠ بقر مجنون !!

٠٠ تلكم خلاصة وجهة النظر الشائعة فى الدوائر الحاكمة فى إيطاليا الآن كما عبر عنه ( روبرتو كالديرونى ) ، نائب رئيس مجلس الشيوخ فى البرلمان الإيطالى ، وأحد الزعماء البارزين فى الأغلبية الحاكمة ٠ ولأن البقر المصاب بالجنون يجب وضع الحواجز أمام دخوله أى بلد من البلدان ، بل ويجب العمل على إنهاء حياته ، كذلك المسلمون ٠٠ بشر مصابون بمرض خبيث هو الإسلام ، ومن ثم يتوجب منعهم من دخول إيطاليا حتى تسلم إيطاليا ويسلم الشعب الإيطالى من هذا المرض الخبيث ٠ ولما كانت المساجد والمراكز الإسلامية هى " التربة " التى تنبت مثل هذا الداء الخبيث ، وجب الإسراع بإغلاقها ، وبالتالى تأمن إيطاليا من انتشار المرض ومحاصرته !

لأول وهلة لم أصدق عينى وأنا أقرأ مثل هذه الأنباء التى حملتها لنا أخبار اليوم يوم السبت العشرين من أكتوبر ، والذى جعلنى لا أصدق لأول وهلة أننى أعى تماما أننا قد دخلنا القرن الحادى والعشرين ، وأن التقدم المعرفى والتكنولوجى قد بلغا من درجات التقدم ما فاق فى بعض المجالات حدود الخيال والأحلام ، وأن الديموقراطية قد بلغ الإيمان بها ، وما يرتبط بها من حقوق حرية العقيدة والفكر ، ما يجعلها الآن من مسلمات الحياة البشرية ٠

لكنى سرعان ما تنبهت إلى أن إيمان الغربيين بكل ما سبق هو إيمان محدود ببنى جنسهم وملتهم ، أما خارج هذا النطاق فالأمر يختلف ! وهو المنطق نفسه الذى حكم الحضارة الإغريقية القديمة – أصل الحضارة الغربية – حيث تنسب الديموقراطية إلى أثينا ، بينما لم يكن يتمتع بها إلا " الأحرار " ، أما العبيد ، والغرباء ، وكانوا هم الكثرة ، فلم يكن لهم شئ من تلك الديموقراطية ٠

إنها الفاشية والنازية يطلان برأسيهما من جديد ، وما يحملانه من دعوى ، لا تتردد خافتة وراء الجدران ، وإنما عبر الميكروفونات فى مجالس الحكم والتشريع ٠

ولم يكن كالديرونى هو السابق على هذا الطريق ، فقد سبقه رئيس وزرائه الشَهير بيرلسكونى ، كما يعلم القراء ، والذى أثارت آراؤه الفاشية عليه كثيرين ، من داخل أوربا ، قبل أن يثور عليه المسلمون فى كل الأنحاء ٠ ومن المعروف أنه على الرغم من كثرة تصريحاته ومقابلاته التى تلت تصريحه المشئوم عن تدنى الحضارة الإسلامية أمام

الحضارة الغربية ، فمن المؤكد أن الرجل لم يعتذر ، وإنما حاول أن يخفف من وقع تصريحه .

وقد يتصور البعض أن هذين المسئولين ، مهما علت وظائفهما إنما يعبران عن رأى شخصى ، لكن الأنباء تحمل لنا يؤكد أنهما يعبران عن " تيار " و " اتجاه " قوى يسود إيطاليا ، فها نحن نرى ( فراتينى ) وزير الوظائف العامة فى الحكومة الإيطالية ، وأيضا أعضاء حزب التحالف الوطنى اليمينى ، وبعض أعضاء رابطة الشمال التى يتزعمها ( بوسى ) وزير الإصلاحات الدستورية يرددون أقوالا تعكس الاتجاه نفسه بكل وضوح .

ومن حسن الحظ أن قيض الله بعضا من ذوى البصيرة ، من داخل إيطاليا نفسها من يحذر من هذه الهجمة العنصرية العمياء ، وذلك مثل نائب تكتل المرجريتا اليسارى المعارض للحكومة ، إذ أكد على " ان هذه الخطوات العدائية الجديدة التى يقترحها أعضاء حكومة بيرلسكونى هى فى واقع الأمر خطوة جديدة لتأكيد نظرية بيرلسكونى بتفوق حضارة الغرب على حضارة الإسلام " .

ومن قبل هؤلاء الإيطاليين برزت لنا " البارونة تاتشر " رئيسة وزراء بريطانية ، الأسبق ، بعد أن سكتت دهرا لتحاول لفت الانتباه إليها بعد أن دخل فى منطقة الظلام ، بتصريح ينطق كذلك بالعنصرية ضد الإسلام والمسلمين ، فضلا عن تصريح بوش المشهور ...وغيره وغيره !

وعلى الرغم مما فى هذه التصريحات والآراء من عنصرية فاشية ونازية وقحة تنم عن جهل واضح بما يتحدثون عنه ، إلا أننى واحد من الناس لا أفتأ أرفع رايات التحذير من أن يكون رد فعلنا انفعاليا فنبادر بترديد هذه الصيحات التى أخذت تبعث من جديد بنشوب حرب صليبية جديدة بين المسلمين والغربيين . إننا كثيرا ما فزعنا وتضايقنا من وصف عدد من أعمال العنف المسلح التى ارتكبها مسلمون ، والتى راح ضحيتها مدنيون أبرياء ، سواء هنا فى مصر أو فى الخارج ، بأنها أعمال إرهاب إسلامى ، لأن الإسلام لا يمكن أن يحض على هذا ، فكذلك لا ينبغى لنا أن نصف هذه الهجمات الغربية بأنها عودة إلى الحرب الصليبية ، لأن المسيحية أبعد من أن تكون مظلة يستظل بها هؤلاء ، لأنهم ليسوا إلا سافكى دماء ، هم الإمبرياليون الجدد الذين يريدون استمرار السيطرة والهمينة والاستغلال والاحتكار محلاة بدعوى براقة اسمها العولمة .

ولأننا نسعى إلى أن نبعد عن تعصب مماثل ، فلابد لنا أن نحمد ونقدر جهودا أخرى مناقضة بدأت تظهر ، على الساحة الغربية أيضا ، تعبر عن عودة إلى الرشد ، مهما قل عددها ، ففى جنوب كاليفورنيا ، تقدم أربعة طلاب مسلمين فى كلية Orange Coast

بشكوى ضد أستاذ جامعى لأنه تعدى على أحد هؤلاء الطلاب متهما إياه بأنه إرهابى ، فما كان من مسئولى الكلية إلا أن أوقفوا هذا الأستاذ رهن التحقيق مع رفع مرتبه بالكامل٠٠ ولما تحركت جمعية الدفاع عن الحرية الشخصية دفاعا عن الأستاذ ، أصر مسئولو الكلية على موقفهم !

أما فى شمال كاليفورنيا ، فقد تسلم مدرس ثانوى ينسب إلى منطقة الشرق الأوسط تسجيلا صوتيا يحمل تهديدا له بالقتل ، فلما أبلغ الشرطة واستطاعوا التوصل إلى طالبين هما أصحاب هذا التهديد ، بدأ التحقيق معهما ، بحيث إذا ثبت التهديد يمكن محاكتهما وسجنهما خمس سنوات ٠

بطبيعة الحال ، هناك وقائع أخرى أكثر عددا ، تسير على النقيض من ذلك ، وربما من رجال الأمن أنفسهم ، لكن كل هذا لا ينبغى أن يغيب عن أذهاننا أنها أبدا لم تكن ، ولن تكون حربا صليبية ، فإيماننا برسالة عيسى عليه السلام يجعلنا نثق كأقوى ما تكون الثقة ، بأنها أبعد ما يكون عن العنصرية والظلم والقهر والاستغلال الذى يمارسه الغربيون ، مهما تخفوا وراء " الصليب " ، فنحن نذكر جيدا تلك المقولة الفقهية الإسلامية التى توجب أن يقاس الرجال بالحق ، ولا يقاس الحق بالرجال ، وخاصة ونحن أنفسنا نرفعها ضد من يهاجمون الإسلام نتيجة سلوكيات بعض المسلمين ، ومن ثم فلا ينبغى أن نقع فى جب الكيل بمكيالين ، فإذا ما رأينا هجمات غربية شرسة قلنا أنها حرب صليبية ، بل هى حرب إمبريالية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ٠

# المكـــــا فأة

مثلما يحدث فى بلدنا – وبلدان أخرى بطبيعة الحال – فإن ما يرصد من جوائز ، غالبا ما يقتصر الحصول عليها على هؤلاء المرضى عنهم سياسيا ، دون أن ننكر أن هناك بالفعل من استحقوها عن جدارة ، لكنك يمكن أن تسأل ، فهل لم يكن يستحقها فى مصر الراحل الشيخ الغزالى ؟ أو الشعراوى ؟ أو من ندعو الله لهم بطول العمر ، مثل د٠محمد عمارة ؟ ود٠ محمد العوا ؟ وفهمى هويدى ؟

وتأبى الظروف إلا أن تفضح اللجنة الخاصة باختيار الفائز بجائزة نوبل لعام ٢٠٠١ فى الآداب ، ففى وسط هذا الطوفان الغربى عداء للإسلام والمسلمين ، وفى خضم هذا الحمى التى تسرى فى الجسمْ الغربى كراهية للإسلام والمسلمين ، وعلى دوى الغارات الوحشية التى تسقط على رؤوس آلاف المسلمين فى أرض أفغانستان ، تبرز أحقية ( ف٠س٠نايبول ) فى نيل الجائزة ! ونايبول هذا ولد فى شاجوفاس بالقرب من الساحل الأسبانى لجزيرة ترينيداد لأسرة من أصول هندية هاجرت من شمال الهند ٠

وإذا كانت اللجنة قد بررت منحه الجائزة لبراعته القصصية التى تقدم رؤية حقيقية لِلعالم وتجعلنا نرى التواريخ المخفية ، وباعتباره فيلسوفا حداثيا ، مزج فى أعماله بين الفنون الأدبية المختلفة بأسلوب أتاح للقراء أن يلمسوا تجسيدا لتاريخ المقهورين ، إلا أن أبرز المبررات ( المخفية ) التى لم تعلنها اللجنة بطبيعة الحال ، أن نايبول قد سود مئات الصفحات تقطر سما تصور بها أن ينال من الإسلام والمسلمين ، فى كتابيه ( ما وراء الإيمان ) و ( بين المؤمنين ) ٠

قارن هذا بما حدث لمفكر عملاق مثل روجيه جارودى ، عندما كتب يفضح جرائم الصهيونية البشعة ، ويخفف من ضخامة ما روجته عن المحرقة النازية لليهود أثنْاء الحرب العالمية الثانية ٠ هنا ، يحاكمون الرجل ، على أساس أنه ينال من شعب سامى ، وينسون أن الكثرة الغالبة من المسلمين هم أيضا من الساميين ، فليست هى إذن الشفقة والتعاطف مع شعوب تصوروا أنها قهرت ، وإنما هى مصالح سياسية وأحقاد موروثة ما تزال فاعلة ، وتحرك حتى العلماء المفروض أن يفكروا وينهجوا ويسلكوا وفقا لمناهج البحث العلمى التى تفرض دقة وصدقا وموضوعية !!

بل إننا نلمس شيئا من هذا مع عدد من كتاب مصر الذين لهم تفسيراتهم وآراؤهم التى يحرصون من خلالها على الدس على الإسلام والحركات الإسلامية ، فمثل هؤلاء تفتح لهم أبواب أجهزة الإعلام المحلية والعالمية ، ويوصفون بأنهم مفكرون إسلاميون ، حتى يضفوا على ما يقولون مصداقية أمام من لا يعلمون الحقيقة ، ويستضافون دائما فى الجامعات الأجنبية بالخارج .

وهكذا تبرز النتيجة : هاجم الإسلام والمسلمين ، أو قدم التفسيرات والآراء التى تبذر الشكوك وتخفى الصفحات البيضاء وتضخم السيئات ، تجد نفسك وقد " تلمعت " وانهمرت المكافآت والجوائز وقصائد المديح والتقريظ ، وربما نلت جائزة كبرى ، محلية أو عالمية !

وقد يرى كثيرون أن هذا أمر محزن ومكدر ، لكنى أخالفهم فى هذا ، ذلك أنه آية قوة للإسلام ، ومظهر خوف شديد منه ، فلو كان الإسلام لا سمح الله مجرد عقيدة تدفع أصحابها إلى أداء بعض الشعائر الدينية ، لم يواجه ، وما يزال ، هذه السلسة من الحروب الضروس ، .. إنه طاقة أقوى من الطاقة الذرية ، إذ تدخل القلوب والعقول ، تتحول إلى قوة بناء وتفكير وعمل يمكن أن تغير شكل الحياة البشرية على الأرض ، والرد الوحيد الذى ينبغى أن نقوم به هو أن يسكن الإسلام قلوبنا وعقولنا فعلا ، ويحرك مع قلوبنا وعقولنا أيدينا وأرجلنا سعيا إلى أن نكون خير أمة أخرجت للناس : نأمر بالمعروف ، وننهى عن المنكر:

# لماذا ننجح فرادى ونفشل مجتمعين ؟!

فى يوليو عام ١٩٥٩ كنت أعيش فترة فرح وسرور لابد منها بعد أن ظهرت نتيجة " الليسانس " فإذا بترتيبى فى النجاح هو الأول على خريجى قسم الفلسفة بآداب القاهرة.. والملاحظة الغريبة التى لفتت أنظار كثيرين أن كان هذا هو نفس الأمر بالنسبة لثلاثة آخرين من الأصدقاء من كليات مختلفة (العلوم والهندسة والمعلمين ) فى بلدتنا " المرج " ، حتى لقد اهتمت به صحيفة الجمهورية فنشرت تحقيقا صحفيا وقتها ما زلت أذكرعنوانه وهو:( المرج تقدم أربعة من أوائل الجامعات هذا العام ) ، وكان هذا حدثا كبيرا بمعايير ذاك الزمن .

وعندما أراد خالى أن يحتفى بى فى منزله بالقاهرة ، رأينا أن يُدعى إلى الاجتماع كل من تخرج من الجامعة من أبناء القرية ، ولما بدأنا حصرهم وجدنا أن عددهم كان كبيرا ، وأدى هذا بنا إلى أن نتساءل : كيف تخرج القرية هذا العدد من الجامعيين ، وتظل على حالها قرية على قدر كبير من التخلف العام ، أليس من المفروض أن يفيد هؤلاء الجامعيون بلدتهم فيقودوا عملية تغيير اجتماعى فيها ؟ كان الوضع القائم ، أن من يتخرج من الجامعة يهجر القرية ليعيش فى المدينة ، فكأن التعليم يشكل عامل طرد ، وبالتالى لا يعود خير المتعلم على بلدته وتستأثر به المدينة ، تماما مثلما يحدث بالنسبة لكثير من علماء الدول النامية عندما يهاجرون إلى الدول المتقدمة الكبرى .

وانبثق اقتراح مؤداه أن نُكون جمعية من خريجى الجامعات يكون هدفها النهوض المجتمعى بالقرية ، لكن الاقتراح لم ينته إلى نتيجة إيجابية ، حيث أشاع البعض أن الحفل المقام والجمعية المقترحة إنما هما سبيل لكى يُعزز فلان مكانته ويكون رئيسا ، والباقى يصيرون أتباعا له ويحصد هو المجد والشهرة !! هو تفكير سقيم من غير شك ، لكنه استطاع أن يهزم الفكرة الجميلة التى حلمنا بها فترة من الوقت ، وعز على أن يكون كل واحد منا مجتهدا ذا شأن ملموس فى قطاع بعينه ، لكننا نفشل عندما نحاول أن يمد بعضنا يده للآخر من أجل العمل سويا !!

ولم تكن تلك حالة فردية من تجمع لعدد من الجامعيين ، فنحن نلاحظ نفس المنطق فى مستويات عدة ، وهنا يقفز إلى ذاكرتى مثال آخر..

فخلال فترة ترؤسى لرابطة التربية الحديثة لاحظت أن الجمعيات العلمية التربوية والنفسية قد تكاثرت تدريجيا عبر عدة سنوات ، فأصبحت هناك جمعية لعلم النفس ، وأخرى

للتربية المقارنة ، وثالثة للمناهج ، ورابعة لتكنولوجيا التعليم .. وهكذا ، وفقا للمنطق العلمى الذى يشير إلى عملية انشطار معرفى مستمرة عن طريقها تعرف أنساق معرفية الطريق إلى الاستقلال عن أنساق أخرى ، مثلما استقل كل من علم الاجتماع وعلم النفس عن الفلسفة ، ثم انبثقت من كل منهما علوم اجتماعية وعلوم نفسية أخرى متعددة .

لكن هذا الانشطار المعرفى إذا كان له وجهه الإيجابى الذى لا شك فيه من حيث إتاحته الفرصة للتعمق والتجديد ، إلا أنه قد يؤدى إلى عزلة لأصحاب كل نسق معرفى عن الأنساق المعرفية الأخرى ، فى الوقت الذى نعرف فيه أن الوشائج والروابط بين كثير منها حقيقة لا يستطيع أحد أن ينكرها ، مما يفرض العمل على أن يكون هناك شكل من أشكال التنظيم والتعاون ، وظهر هذا جليا فى تلك الدعوة التى عرفت من خلال ما سُمى بوحدة المعرفة .

من هنا فقد دعوت الإخوة رؤساء هذه الجمعيات إلى اجتماع مشترك من خلال ندوة مفتوحة يحضرها عدد من أعضاء هيئة التدريس بكليات التربية وخبراء وباحثين ، للتفاكر فى السبل التى يمكن اتخاذها من أجل توحيد جهودالجمعيات العلمية ، وخاصة وأنها جميعا تعمل فى نطاق التعليم . ولم أجد اعتراضا من أحد على الاتجاه والمبدأ ، لكن عندما خطونا نحو اقتراح أن يكون هناك ما يشبه " الاتحاد " بين هذه الجمعيات لم أجد ترحيبا ، وانفض الاجتماع من غير أن يتحقق هذا الأمل العزيز حقا .

وقل مثل هذا على المستوى العربى العام ..فكم من قضايا مصيرية تفرض أن يجتمع قادة الشعوب العربية للتداول بينهم واتخاذ موقف واحد ، ومع ذلك ف " كل فى فلك يسبحون " ، وفى الوقت الذى يشهد فيه العالم كله توجها نحو إقامة التكتلات الكبرى ، إذا بالدول العربية لا تستطيع أن تسير فى نفس الاتجاه مع أنها هى السباقة فى هذا المضمار عندما قامت جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥ ، وكثير من المعاهدات والاتفاقيات العربية المشتركة مجمدة فى الثلاجة فى مجالات عديدة ، حتى أن معظم أجهزة الجامعة التى تقود العمل المشترك فى هذا القطاع أو ذاك تكاد أن تكون مشلولة !

ومن هذا المنطلق أجاب مسئول لا أذكر من هو ؟ عن سؤال عقب نكبة ١٩٤٨ : لماذا انهزمت الدول العربية وهى سبع دول أمام إسرائيل ( فى ذلك الوقت ) ، مع أنها دولة واحدة ؟ فكانت الإجابة :لأن الدول العربية سبعة وإسرائيل واحدة ، وهى إجابة فى غاية الذكاء والبصر بحقيقة الحال ، حتى لو نحينا جانبا الأسباب الأخرى للنكبة والتى أصبحت معروفة للجميع .

ولربما يمكن القول بأن الشخصية العربية بحكم تكوينها التاريخى ومنشئها هى شخصية فردانية ، وأن التكوين القبلى الذى استمر آلافا من السنين لم ينمح بعد على الرغم من

ظهور التكوينات السياسية بمدلولها الحديث ، إذ لو فتشت فى نوعية العلاقات الحاكمة فيها فسوف تستطيع أن تبصر النهج القبلى لم ينته تاريخ صلاحيته بعد ، وإن تخف فى صور حديثة كالقبلية العلمية والقبلية الحزبية والقبلية الجغرافية والقبلية الدينية .. وهكذا . وفضلا عن ذلك فهناك كل من الاستعمار والاستبداد ، فالأول كانت سياسته مشهورة فى المقولة التى تنص على " فرق تسد " ، والاستبداد ، سواء كان من أهل الداخل أو من أهل الخارج له آثاره المعروفة والتى يأتى من ضمنها أن يكون الشعار السائد " أنا ومن بعدى الطوفان " و " يا للا نفسى " ، و" انج سعد فقد هلك سعيد " ، و " ياروح ما بعدك روح " !!

ومع ذلك فليسمح لى قارئى من وطننا العزيز مصر أن أقول أنه على الرغم من هذا التشخيص العربى العام ، إلا أننا كمصريين نكاد نتفوق على سائر الشعوب العربية فى هذا الشأن ، والقصص كثيرة تلك التى يمكن أن تروى عما بين المبعوثين للخارج للحصول على درجات علمية ، أو عن المعارين إلى دول نفطية ، ففى الوقت الذى نجد فيه ترابطا وتعاونا بين التجمعات الأخرى ، إلا فيما ندر ، نجد التفرق ، والعراك ، وربما الضرب العلنى والخفى بين أبناء المصريين ، مع أن المتغيرات التى حكمت المصريين تكاد أن تتشابه مع تلك التى حكمت معظم الشعوب العربية ، حتى لقد أجاب مسئول إدارى جامعى سعودى ، وأنا أذكر أمامه هذه الظاهرة منذ سنوات بعيدة : " هذا من رحمة الله علينا ! فلما عجبت من هذه الإجابة وسألت : كيف ؟ قال مازحا : أن عددكم كبير جدا ولو كنت وحدة واحدة لاستشعرنا منكم خطرا !

وليصدقنى القارئ إذا قلت له أن هذه القضية تشغلنى كثيرا ، ولم أستطع أن أصل فيها إلى تفسير مقنع ، وكم أكون شاكرا لو حاول القارئ أن يشغل نفسه بها ، فلعله يصل إلى تفسير مقنع له ولى !

# أبناؤنا والمسألة الجنسية

ثارت منذ فترة أحاديث وكتابات متعددة حول التربية الجنسية لأبنائنا ، بعد أن احتدمت معركة حول بعض الأعمال الإدبية التى اتهمت " بسوء أدب " فيما يتعلق بالمسألة الجنسية ، والشئ المؤسف حقا أن تظل مسألة مثل هذه يلفها الغموض دون أن نتخذ فيها إجراء حاسما ، فلست فى حاجة إلى بيان الدور الخطير الذى يقوم به الجنس فى الكائنات الحية على وجه العموم ، وقامت نظرية ضخمة فى علم النفس على يد سيجموند فرويد تجعل من الطاقة الجنسية العامل الحاسم والمحرك للسلوك البشرى .

وفى القرآن الكريم يقول المولى عز وجل : " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ..." آل عمران /١٤ ، وفى سورة يوسف أشار سبحانه وتعالى إلى موقف معروف بين يوسف عليه السلام وامرأة العزيز ، حيث حاولت إغواءه " وغلقت الأبواب وقالت هيت لك " يوسف /٢٣ ، وبعدها قال : " ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه " يوسف /٢٤ . كما أشار إلى قوم لوط الذين كانوا يعرفون صورة من صور الشذوذ الجنسى سميت باسم " اللواط " ، فقال تعالى : " أئنكم لتأتون الرجال شهوة دون النساء " النمل /٥٥ ، وأشار إلى ممارسة الجنس بغير زواج " الزنى " محرما ذلك بآيات متعددة قاطعة حكمها فى التحريم : " ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا " ... إلى غير ذلك من آيات .

ونظرا للسيطرة المخيفة للجنس على الإنسان بصفة خاصة ، وفى فترة المراهقة بصفة أخص ، فإنه كثيرا ما يفتح الأبواب لصور من الانحراف متعددة تكون خسارتها كبيرة سواء للمنحرف نفسه أو للمجتمع مما يوجب أن نقوم بما أصبح معروفا " بالتربية الوقائية " والتى تقوم على المنطق الطبى الشهير القائل بأن الوقاية خير من العلاج ، بل إن الفعل التربوى نفسه ، من ألفه إلى يائه إنما هو " عمل وقائى " يضع من الأسس ومن القواعد فى بناء الشخصية بحيث نأمن إلى حد كبير أن تجئ شخصية تسلك فى الجسم الاجتماعى كما يسلك " السوس " فى الجسم الخشبى ، وإنما على العكس من ذلك ، تصبح طاقة بناء .

ومن هنا فمن الضرورى العمل على تربية الأبناء تربية جنسية قبل مرحلة البلوغ وأثناءها ، وبعدها ، وفى كل مرحلة نقدم مستوى من الثقافة الجنسية يتناسب ومستوى النضج ، وتقع هذه المهمة على عاتق كل من الأسرة والمدرسة . لكننا قبل ذلك لابد أن نؤسس لهذا بتثقيف لكل من الآباء والأمهات والمعلمين ، إذ يستحيل بطبيعة الحال أنيقوموا

يعمل لا يعرفوه ، وأعنى بالمعرفة هنا المعرفة العلمية ، وطريقة تقديمها ، والمستوى المناسب لكل مرحلة .

ولا يتوقع القارئ منا أن نقدم " وصفة كاملة " فى مثل هذا الحيز الذى نكتب فيه ، وإنما نكتفى بالدعوة ، مع تقديم بعض الأفكار التى تعين وفقا لمنطق " الإسعافات الأولية " ، من ذلك على سبيل المثال :

- من أخطر ما يمكن أن نواجه أسئلة الأبناء المتصلة بالجنس بالنهى والزجر والتوبيخ ووصف هذا بأنه " قلة أدب " ، أو اللجوء إلى الكذب ، أو التهرب بدعوى الانشغال أو إنه " ما يصحش " .

- من المفضل أن يقوم الآباء بواجب التربية التثقيف الجنسى للأولاد ، والأم هى التى تقوم بهذا بالنسبة للبنات ، والشئ نفسه بالنسبة للمعلمين والمعلمات فى المدارس .

- التدرج فى تقديم المعلومات على درجة كبيرة من الأهمية ، ومن هنا فإن من واجب العلماء والخبراء ، وخاصة فى العلوم النفسية والأطباء ، أن يضعوا من المؤلفات والدراسات والإرشادات ما يبين القدر الممكن لكل مرحلة عمرية ، ولكل مستوى دراسى .

- من المفضل ألا يتم التثقيف والتوجيه لكل من الأولاد والبنات مجتمعين ، بل كل على حدة .

- الحرص على بناء جسور من الثقة والحب بين كل من الأباء والأمهات وأبنائهن حتى يأمن الولد ويسرع مخبرا أبيه بما يحيره أو يسمعه ، أو يرد السؤال عنه ، والشئ نفسه بالنسبة للعلاقة بين البنت وأمها ، فبدون هذه الجسور قد لا يجرؤ كل من الولد والبنت على أن يحيط الأب أو الأم بما يواجههما من مشكلات جنسية .

- من المتوقع أن نجد الطفل عند بلوغه العام الثانى أو الثالث يلجأ إلى العبث بالأعضاء التناسلية بصفة غالبة وملحوظه إن كان ذكرا ، وتلجأ البنت إلى الاستلقاء على ظهرها ومد ساقيها ملتصقتين ، وهذه تصرفات طبيعية لا ينبغى أن تقابل بالتوبيخ والنهى ، وبدلا من ذلك نحاول صرف كل منهما إلى الانشغال بلعب ، أو التحذير بلطف ورقة من أن ذلك يمكن أن يسبب ألما له عندما يتكرر .

- من المهم للغاية أن يراقب الآباء والأمهات الصداقات التى يعقدها أبناؤهم ، وبغير تدخل سافر ، وإنما بتوجيه " من بعد " ولطف ، " فشلة الأصدقاء " من أخطر الجماعات التى تتكون من خلالها العديد من المفاهيم والمعايير الاجتماعية والاتجاهات السلوكية وبصفة خاصة فى فترة المراهقة ويرتبط بهذا أن يحرص الأبوان على توثيق الصلة بينهما وبين

أصدقاء أبنائهم بإظهار الاهتمام بهم والسؤال عنهم وعن أبويهم ، وخاصة فى المناسبات العامة والخاصة .

- لابد من غرس الاتجاه بالاعتزاز بجنس كل من الأولاد والبنات .

- هناك ضرورة لابد منها للفصل بين الأولاد والبنات فى أسرة النوم ، وخاصة عند سن الالتحاق بالمدرسة وهى السادسة .

- التربية الدينية هامة للغاية هنا ، على ألا تكون من هذه الصورة التى تقوم على التخويف ، وإنما التركيز على تقوى الله وطلب رضائه ، فهو رحمن ورحيم ورؤوف يحرص على مصلحة أبنائنا والتزامهم الطريق السوى .

- إن جملة التغيرات التى تحدث لكل من البنت والولد فى فترة البلوغ لابد أن يسبقها تعليم لها حتى لا يفاجأ كل منهما بها فيصيبهما الفزع والاضطراب وخاصة البنت ، فيلجأ كل منهما إلى مصادر أخرى للسؤال ، وقد تكون هذه المصادر غير أمينة فيما تقوله من معلومات ، فضلا على أن حدوث مثل هذه التغيرات دون علم مسبق بها يخلق موقفا غامضا مما قد يدفع إلى صورة من صور " التجريب " وممارسة بعض التصرفات الخاطئة التى يمكن أن تتحول إلى عادات سيئة .

- إن هناك خيطا رفيعا بين ما يقدم للأطفال من إجابات كاذبة وبين تلك التى تقال بصورة مخففة مبسطة ، فالسؤال الشهير : " أنا جيت منين ؟ " يجيب عنه البعض " وجدناك على باب الجامع أو الكنيسة "، أو "اشتريناك "، أو " ملاك من عند ربنا جابك " ، إذ يمكن القول بأن " ربنا وضعك فى بطن ماما " .

- من صور التدرج ، أن نبدأ بما يحدث فى عالم النبات ، وفى المرحلة الثانية ، نستخدم ما يحدث فى عالم الحيوان ، وفى المرحلة الثالثة ، ننتقل إلى عالم الإنسان نفسه .

- إذا كنا نذهب إلى ضرورة أن تقوم المدرسة بدور ملحوظ فى هذا الشأن ، فإن هذا يمكن أن يتم من خلال أكثر من مقرر ، مثل : علم الحياة " البيولوجى " ، والدين ، فضلا على الندوات والمحاضرات العامة التى ينبغى أن تعرف طريقها إلى الأنشطة المدرسية . أما بالنسبة للآباء والأمهات ، فإننا نناشد مراكز الخدمة العامة بالجامعات بأن تنظم برامج توعية جنسية للآباء والأمهات يشارك فيها أساتذة علم نفس واجتماع وطب وعلوم .

## الحج / العمرة ، وأزمة الدولار !

فى كتابه ( مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية ) الصادر فى سلسلة كتاب الأمة (القطرى) عام ١٩٨٥ ، روى شيخنا الراحل محمد الغزالى ، أن رجلا رغب أن يحج نافلة - كما ظن ذلك - للمرة الثالثة، فقال له :

- كم تتكلف هذه الحجة ؟ قرابة ألف جنيه ؟ ( حسب القوة الشرائية للجنيه منذ ما يقرب من عشرين عاما ) ، فرد الرجل : نعم وأكثر . فقال له الغزالى :

- هل أدلك على عمل أفضل ؟ إن فلانا تخرج من كلية الصيدلة ، وهو فقير ، والمسلمون فقراء إلى صيدليات إسلامية ، فضع فى يد الشاب المتخرج هذا المبلغ يبدأ به حياة تنفعه وتنفع أمته ، ولك عند الله ثواب أكبر من ثواب حجتك هذه !!

وعجب الرجل من إجابة شيخنا ، وأراد شيخنا أن يعزز رأيه ، فواصل حديثه بقوله :

- إنك إذا أطعتنى أقمت فريضة وسددت ثغرة ، وشاركت فى جهاد جليل الثمرة ، بدل هذه النافلة التى تبغى

وشئ مثل هذا ، كرر الكاتب الموهوب ، فهمى هويدى ، الحديث عنه مرة أخرى فى مقال له عام ١٩٨٧ بمناسبة فتوى لعالم جليل من علماء كلية أصول الدين فى هذا الوقت ردا على سؤال لقارئ وجهه على صفحات جريدة الجمهورية فى عددها الصادر فى الخامس من أبريل من ذلك العام يسال فيه عن رأى الدين فى مال يملكه ، يكفى لأداء فريضة الحج ، وعنده ابن يريد أن يتزوج ، فهل تزويج ابنه أولى من فريضة الحج ؟

اعتمد جواب العالم الفاضل على القياس المنطقى المطلق ، بغض النظر عن الزمان والمكان ، ومن ثم ، فما دام الحج فريضة ، وتزويج الإبن ليس فريضة على الأب ، تكون النتيجة أن إنفاق ما مع الأب من مال على فريضة الحج أولى من إنفاقه على تزويج ابنه .

وقد تحفظ هويدى على هذا الرأى ، محللا إياه ، من زوايا وجوانب مختلفة لا يجد إنسان مثلى أمامها إلا الاقتناع العقلى مع الاطمئنان القلبى ، بأن تزويج الإبن فى هذه الحالة ربما يكون أولى فى زماننا هذا ، فى ظروف شبابنا التى نعرفها .

وإن لم تخنى الذاكرة ، فقد عاود الأستاذ فهمى هويدى إثارة القضية مرة أخرى ، ربما بعد المرة السابقة بما يقرب من عشر سنوات .

وفى الأسبوع الماضى ، وعلى الصفحة الأولى لصوت الأزهر نجد تصريحا لفضيلة الدكتور محمد السيد طنطاوى شيخ الأزهر يؤكد من خلاله بأن تكرار الحج والعمرة أمر "

ليس من الدين فى شئ " ، مستندا فى ذلك إلى أن الله قد فرض الحج والعمرة مرة واحدة فى العمر ، فضلا عما تمر به مصر من ظروف اقتصادية صعبة فى الوقت الراهن من حيث حالة الكساد الرهيبة ، وهذا الطلب المستمر المتزايد على الدولار ، مما يوجب توفير المال لإنفاقه بالداخل .

ومن حيث رأينا الخاص ، فإن كل هذه الآراء لا ينبغى أن يختلف حولها مسلم واع بفقه الأولويات ، لكن المشكلة التى أرقتنى حقا هى أن نفرا من الذين يعتبرون الفتوى كلأ مباحا لكل سائر ، وقد يكون منهم من لا يأبه بالتوجه الدينى بأى صورة من الصور ، انتهزوا فرصة تلميح رئس الجمهورية إلى شئ من هذا الذى أكده فضيلة شيخ الأزهر ، فإذا بهم يملأون الصفحات هجوما ونقدا لهؤلاء الذين يقومون بالحج والعمرة ، مصورين هذا بأنه يشكل ضغطا كبيرا على " الدولار " ، مما أدى إلى ارتفاع سعره ارتفاعا جنونيا ، فى الفترة الأخيرة .

ووجه قلقى حقا ، هو ما يحدث فى كثير من الأحيان فى السنوات الأخيرة مما يمكن تسميته ب " قولة حق أريد بها باطل " ، مثلما انتهز كثيرون فرصة أحداث العنف التى ارتكبها نفر ممن بعدوا عن صحيح الدين ، وبالتالى ارتفاع صيحة مواجهة الإرهاب ، ليوسعوا من دائرة " خطر الإرهاب " ، فنجدها تكاد تشمل كل من تدين ، حتى أصبح المتمسك بدينه مثله مثل القابض على الجمر . بل وصل الأمر إلى تصوير من نسميهم بالمفكرين المعتدلين ، بأن هذا الذى يكتبوه ويقولوه إنما هو صورة من صور توزيع الأدوار ، وأن هؤلاء يقدمون بفكرهم بنية أساسية يطورها المتطرفون ويفسرونها لتبرير تطرفهم وإرهابهم . حتى الحجاب ، نظروا إليه باعتباره مظهرا من مظاهر التخلف والتطرف ، ومن ثم يجب عدم تشجيعه !

وتماما مثلم حدث بالنسبة لحوادث الحادى عشر من سبتمبر فى الولايات المتحدة ، فها هى تباشير امتداد تبريراتها للإجهاز على كل ممن يقف فى طريق هيمنتها وجبروتها تلوح فى الأفق ، وتبدأ وكالات الأنباء فى الحديث عنها ، وهاهى دولة العدو الصهيونى تسعى إلى ركوب القطار فتطالب بضرب العراق ، ومراقبة إيران ، واعتبار ذلك الحزب المناضل ، حزب الله ، تنظيما إرهابيا ، بل واعتبار السلطة الفلسطينية دولة راعية للإرهاب وهلم جرا !!..

إن القول بأن الدولار فى مصر يرتفع ، تعبير غير دقيق ، والتعبير الدقيق هو أن الجنيه المصرى ينخفض ، وإذا تأملنا فى الفرق العبارتين فسوف يصح التشخيص ، ولا نرى الحج

والعمرة سببا جوهريا لأزمة الدولار ، وإنما هو سوء الأداء الاقتصادى ٠ ولننظر إلى العديد من الأسباب الجوهرية الأخرى ٠٠٠

- مثل مليارات من الجنيهات والدولارات التى نهبت من البنوك وهرب بها لصوص كبار أوهمونا بأنهم كبار رجال أعمال سيغرقون مصر لبنا وعسلا بمشروعاتهم السرابية !!

- مثل : ٦٠ مليار سيجارة يدخنها المصريون سنويا ، وبنسبة تزيد ب ٢,٩ مليرا سيجارة عن العام السابق ، منها ٨,٩ مليار سيجارة أجنبية ، كما جاء بجريدة صوت الأمة فى ٢٠٠١/١١/٢٨ ، وبالتالى فهناك عشرات الملايين من الجنيهات والدولارات يحرقها المصريون فى الهواء سنويا !

- مثل العديد من مليارات الجنيهات التى جمدت منذ سنوات فى الاستثمار العقارى الفاخر، بطول الساحل الشمالى ، لم تضف إلى اقتصادنا شيئا ٠٠

- مثل هذا السفه الصارخ فى الإستيراد ، حتى أصبحنا نستورد الأيس كريم وفوانيس رمضان والجلاليب ، والفول المدمس ، فى مقابل أرقام مخزية للتصدير ، مما ينتج عنه ما هو معروف من خلل كبير فى الميزان التجارى ٠٠

- مثل عدة مليارات من الجنيهات تنفقها الأسرة المصرية على تعليم أبنائها فى البيوت ، على يد مدرسين خصوصيين ، لأن مواطنينا فقدوا الثقة فى أن تعلمهم المدارس ، حكومية كانت أم خاصة !!

ويطول بنا المقام لو حاولنا أن نعدد صورا أخرى مماثلة ، كلها تنطق بحجم الأزمة الاقتصادية الخانقة التى تأخذ برقبة مصر مما يؤدى إلى تدهور قيمة الجنيه المصرى ٠٠

فلا تعلقوا أزمة الدولار فى رقبة الحج والعمرة ، حتى يصح التشخيص ، فنبصر الطريق إلى العلاج ، وتصح عافية الأمة ٠٠

وويل لأمة تخطئ تشخيص مرضها الخطير !

# أنا ٠٠والإرهاب !

الكاتب الكبير وجيه أبو ذكرى واحد من الكتاب الكبار فى جريدة الأخبار ، تشعر وأنت تقرأ له بأنه يجبرك على التقدير والاحترام للكثير مما يكتب ٠ ولأن ظروفى الشخصية لا تمكنى فى بعض الأحيان من متابعة كل ما ينشر على صفحات جرائدنا ومجلاتنا ، فقد أخبرنى أحد الزملاء بأننى قد حظيت بأن أكون موضوعا لمقال كتبه كاتبنا الكبير ، فلما جاء به إلى وقرأته صدمنى حقيقة ، لا لأنه ينال منى ، فهذا أمر قد تعودت عليه ، بل وأتوقعه فى كثير من الأحيان ، لكن ما صدمنى فيه حقا هو تلك الإشارات الخفية ، وشئ من الغمز واللمز بتصنيفى فى خانة الإرهابيين ، أو على أقل تقدير ممن يساعد فى تحقيق أهدافهم !

وقد وقفت حائرا حقا أمام هذا الموقف ، فمقال كاتبنا الكبير يتصل بقضية التعليم ، وأنا قد أعلنت فى مقال لى من جزئين نشرته آفاق عربية عن أننى بالنسبة لقضية التعليم " قد نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا " ٠ ومن ناحية أخرى فإننى نادرا ما أحفل بالرد على من يكتب مهاجما لى ، لا خوفا ولا فرارا ، ذلك أن الكثير مما يكتب فى هذا الباب لا يدخل فى باب المعارك الفكرية التى لابد أن أرحب بها ، وأسارع مرددا قول صلاح جاهين " يا أهلا بالمعارك " ، لكنى بالنسبة لكثير منها أكون على دراية وافية بدوافعها وأغراضها ، فأعرض عنها " والذين هم عن اللغو معرضون " ، ومن هنا فقد مرت فترة غير قصيرة إلى أن شعرت بأن هناك زاوية بعينها تحتاج إلى الرد ٠

أما هذه الزاوية فهى أننى أكتب فى آفاق عربية ، وأن هذه الجريدة التى لم يسمها ، جريدة إخوانية ، وبالتالى فأنا أشارك فى حملاتهم التى لا تبتغى وجه الحق ، بل تستهدف أهدافا إرهابية ! ولم لا ؟ ألم أكتب منددا بتناقص التوجه الدينى فى تعليمنا ؟

سأترك التساؤل الأخير لأنه يدخلنى فيما أعلنت الصوم عن الكتابة فيه ، وأقتصر على ما يتصل بقضية غاية فى الخطورة ، وهى أننى ما دمت أكتب فى جريدة – حسب ما يقول كاتبنا الكبير – إخوانية ، فأنا إذن – تلميحا لا تصريحا – منهم ! مع أن كاتبنا الكبير يعلم ضرورة المقولة التى تحرص الدوريات على إبرازها وهى أن المنشور على صفحاتها لا يعبر بالضرورة عن رأيها حيث هو مسئولية الكاتب نفسه ٠

إنها قضية تشير إلى مرض خطير يصيب مناقشاتنا منذ زمن بعيد ٠٠٠

ففى أواسط الثمانينيات ، ولمدة لا تقل عن ست سنوات ، وبكثافة كبيرة ، كانت جريدة الأهالى تنشر لى مقالات سياسية وتعليمية ، وكانت الأهالى فى ذلك الوقت تدار بفصيل كان

معروفا فى حزب التجمع بأنه ماركسى ، حاد المعارضة لسياسات الدولة ، ولم يكن هناك ذلك التقارب الذى حدث بعد ذلك معها ، فماذا كانت نتيجة كتابتى فى أهالى الثمانينيات ؟

عديد من الأقوال والاتهامات بأننى " شيوعى " ! لم يتوقف أحد القائلين بهذا أمام مضمون المقالات ليناقشها ويحكم بصوابها أو خطئها جزئيا أو كليا ، لكن كان الحكم هو : ما دام هذا الكاتب يكتب فى جريدة ماركسية ، إذن فهو شيوعى ، وبالتالى فإن ما يكتبه " زفت فى زفت " !

لقد كانت المسألة تتلخص فى أن لدى أفكارا أود الكتابة عنها ، وكانت تلك الأفكار تعبر عن مواقف حادة فى المعارضة والنقد ، وبصراحة غير عادية ، وأبرزها مقال كان بعنوان ( عفوا سيادة الرئيس ) ، وآخر كان موجها للمشير أبو غزالة بعنوان مماثل ( عفوا سيادة المشير ) .. وهكذا ، ولم أجد منفذا يملك من الجرأة والشجاعة ما يسمح بنشر مثل هذه المقالات إلا الأهالى فى هذه الفترة .

بل إن أحد وزراء التربية الذين كنت أوجه إليه سهام نقد حادة فى تلك الفترة دفع من يكتب فى إحدى الصحف مقالا يهاجمنى بعنوان : " لا أيها الكاتب الشيوعى " !! أى والله .

وبأذنى ، سمعت خلال حضورى مؤتمرا إسلاميا فى لندن ، فى الثمانينيات ، واحدا يقول لمن يجاوره : "إيه اللى جاب الجدع ده بتاع الأهالى وسطنا " ؟ وعندما كتبت عن هذا المؤتمر منتقدا بعض توجهاته ، كتبت مجلة إسلامية عزيزة فى مصر تتهمنى بأننى عميل للمباحث ، دُس على المؤتمر !

وإذا كانت كتابتى فى جريدة الأهالى قد ألقت على شبهة الشيوعية ، فإن أحدا لم يُعمل عقله دقيقة واحدة لينتبه إلى أننى فى الفترة نفسها كتبت فى الأهرام أكثر من مرة ، وفى مجلة الأهرام الاقتصادى ، وفى مجلة الهلال ، وفى مجلة المصور ، وفى نص الدنيا ، وفى جريدة الجمهورية ، وفى جريدة الشعب ، فى وقت لم تكن فيه كثير من هذه المنافذ ترحب بذوى التوجه الماركسى !

وطوال العامين الماضيين ، نشرت لى جريدة الوفد العديد من المقالات نقدا للتعليم ، فهل يعنى هذا أننى وفدى أم إخوانى ؟

ومنذ عامين على وجه التقريب نشرت لى مجلة (حواء ) أكثر من مقال عن تربية الأبناء..

وأنا حاليا أكتب بانتظام فى جريدة صوت الأزهر منذ ظهورها ، فهل الأزهر ، جامعا وجامعة يفتحان أبوابهم لأخوانى مثلى ، وفقا لتصور كاتبنا الكبير ؟

بل إننى منذ عامين ، كتبت عدة مقالات فى مجلة ( الكواكب ) محللا مضمون عدد من أغنيات أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، فهل كنت فى ذلك إخوانيا إرهابيا ؟

وفى المجلة نفسها كتبت مقالا طويلا أشيد فيه بالأداء التمثيلى (لآثار الحكيم ) ، فهل كنت فى هذا أحقق أهدافا إخوانية إرهابية ؟

المسألة أيضا ، أن كثيرا من الأبواب قد سدت فى وجه قلمى منذ فترة غير قليلة ، إلا ما ندر ، ولو أحصيت عدد المقالات التى أرسلتها إلى بعض الصحف اليومية والأسبوعية ولم تنشر ، لبلغ عددها عشرات المقالات ، وعندما أسأل عن سبب عدم النشر يقولون بعدة أسباب واضحة التهافت ، إلا أن يقولوا السبب الحقيقى الذى أعلمه علم اليقين !

وفى وسط هذا المناخ الخانق ، رحبت آفاق بالنشر لى فطوقت عنقى بجميل كبير، لا هم سألونى إذا كنت إخوانيا أم لا ، ولا أنا تحققت عما إذا كانت إخوانية أم لا ؟ لأن القضية – كما أكرر – هى مضمون ما أكتب ، ومضمون ما تنشره الجريدة .

وأؤكد لكاتبنا الكبير ، أننى لم أشرف بعضوية الإخوان المسلمين فى وقت من الأوقات ، لا لأنها إرهابية ، كما يدعى البعض ، بل لأسباب خاصة بى لا أريد أن أشغل القارئ بها ، فى الوقت الذى لا أعتبر فيه الانتساب لهم ( تهمة ) يمكن أن يتبرأ منها إنسان ، بل هو شرف ، لم يمكننى الله من أن أحظى به !

إن الحكمة الإسلامية معروفة تقضى بأن " الحكمة ضالة المؤمن " ، فهو أولى بها ، لا يبالى من أى وعاء خرجت ، وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أجاز أن يتعلم بعض المسلمين على يد مشركى مكة ، المأسورين فى غزوة بدر ، فهل نلام – والقياس مع الفارق الحاد – إذا كتبنا فى آفاق عربية ، أم أعتبر فتح صفحاتها لى تكريما وتقدير أعتز به وأشرف ، وأحرص عليه ؟

## فى إسرائيل وليس فى أفغانستان !

بقدر ما يتوافر للطبيب المعالج من دقة التشخيص بقدر ما يعرف علاجه الطريق إلى النجاح ..

هذه القاعدة الصحية الشهيرة ، سنة من سنن الله فى خلقه ، يمكن تعميمها على كل مرض ، بدنيا كان أو اجتماعيا أو سياسيا أو اقتصاديا ، فى أى مكان ، وفى أى زمان ..

ومن العجيب حقا ، أن يتوافر لطبيب من العلم والمعرفة والمهارة والشهرة والمكانة ما لم يتوافر لأحد من قبله ، ومع ذلك يخطئ البصر بهذه الحقيقة الشهيرة ، فيشخص - مثلا - الصداع ، أو ارتفاع ضغط الدم بأنه سبب لبعض المظاهر المرضية ، ويرسم خطته على ذلك ، فماذا تكون النتيجة مهما تم إنفاقه على هذه الخطة من العلاج ؟ هو الفشل ولا شئ غيره .

هكذا الولايات المتحدة الآن فى معالجتها لما يسمى بظاهرة الإرهاب .. تتعامل معها على اعتبار أنها سبب لما وقع عليها فى نيويورك وواشنطن ، ومن قبل فى أماكن أخرى ، دون أن تتنبه إلى أنها نتيجة ، على الرغم مما يتوافر لها ما لم يتوافر لقوة أعظم على مر التاريخ حتى الآن من اقتصاد قوى وترسانة عسكرية مخيفة ، ومن تقدم علمى وتكنولوجى أصبح وكأنه مصباح علاء الدين ، يحقق العديد مما كنا نظنه أحلاما ، فإذا به يمكن أن يصبح حقيقة واقعة .

ولا يقف افتقاد البصيرة عند هذا الحد ، بل يصل الأمر بها أن تشخصه فى " شخص " ، وفى بقعة معينة هى أفغانستان ، ودون أن تتنبه إلى تلك العلاقة بين هذا المكان وكونه أفقر مكان فى العالم ، وأكثر البلدان تعرضا للتمزق والاقتتال الذى تقف من ورائه قوى أخرى أجنبية !

ومن المحتمل أن تستطيع الولايات المتحدة أن تقهر أفغانستان ، بعد أن تقتل وتدمر ما شاء لها طغيانها وجبروتها أن تقتل وتدمر ، ومن المحتمل أن تستطيع الوصول إلى الشخص الذى ملأت الدنيا باسمه وباسم جماعته حتى أصبح أسطورة لم يشهد التاريخ لها مثيلا ، فهل سوف تظن أنها قد قضت على هذا الذى تسميه بالإرهاب ، ومن ثم تأمن بعد بعد ذلك وتنام وينام مواطنوها قريرى الأعين ، مطمئنى البال ؟ ... لا أظن ! لماذا ؟

لأن هذا المسمى بالإرهاب إنما هو نتيجة ، ولن يستقيم الظل والعود أعوج !!

إننى واحد من الناس ، أقدر وأحترم ما أعرفه وما أقرأ عنه وما أسمعه عما أحرزته أمريكا من تقدم على مختلف الأصعدة العلمية والتكنولوجية ..

وأنا واحد من الناس أقدر وأحترم هذه الديموقراطية التى لمستها تمارس داخل الولايات المتحدة مما أتاح لملايين المسلمين ، وخاصة الذى فروا من بلادهم الإسلامية هرباً من تضييق واعتقال وجبروت أو بحثا عن لقمة عيش كريمة ، حرية لم ينالوا عُشرها فى بلادهم التى جاءوا منها ..

ومن هذا المنطلق كم أتمنى أن تفوق أمريكا من هذا الكابوس الذى يجثم على صدرها ، ويحجب عنها البصر بالحقيقة فيحدث لها ما حدث وما قد يحدث مستقبلا ..

إنه الإرهاب الصهيونى الذى سلب عقلها وأعمى بصرها فجعلها تفكر من خلال منطقه هو ، وترى من خلال أعينه هو ، وبالتالى لا ترى أنه منذ أن بدأ خطواته العملية الممهدة لإنشاء الكيان الصهيونى على أرض فلسطين ، من بعد الحرب العالمية الأولى ، وهو يبذر ويُفرخ ما لا حصر له من مشاعر الغضب وطاقات التمرد ، وقوى الثورة ، التى لا تجد أمامها من سبل لاسترداد حقوقها المسلوبة إلا بالعنف ، توجهه إلى من تثبت الحقائق أنهم وراءه .

# الخوف من الحرية

فى أحد الأيام ، تلقيت دعوة للمشاركة فى ندوة تلفزيونية ، كان فيها د٠محمود محفوظ ، ود٠حسام البدراوى ، وأبو العز الحريرى ، ووكيل أول وزارة التربية ، وزميلنا فى كلية التربية د٠وليم عبيد ، وكان الموضوع عن مشكلات التعليم فى مصر ، وقبل بدء البرنامج ، إذ تم تشاور على الموضوعات التى يمكن أن نتبادل فيها الحوار تبين أن الدائرة واسعة لا يمكن أن تغطيها حلقة واحدة ، وتم الاتفاق على أن تتواصل المناقشة فى الأسبوع التالى ، وسئلنا عما إذا كانت ظروفنا تسمح أم لا ؟فكان ردنا إيجابيا ، وسئلنا إن كنا معاودة مكالمتنا مرة أخرى فأجبنا بألا داعى ، وتمت الحلقة الأولى على الهواء مباشرة ٠

فى الأسبوع التالى ، وفى اليوم المتفق عليه ، وكان يوم خميس ، وكنت فى مكتبى طوال اليوم من السادسة صباحا حتى مغادرتى فى التاسعة والربع مساء ذاهبا إلى التلفزيون ، ثم إذا بمسئولى تصريحات الدخول يخبروننى بألا اسم لى لديهم ، وسألوا عن استديو البث المباشر فقيل أنه مغلق وألا أحد موجود ، وأن البرنامج أجل للغد ! قلت ، ننتظر حتى يجئ باقى الزملاء ، فلم يجئ إلا د٠وليم ! إذن تم الاتصال بالجميع لإخطارهم بتأجيل الموعد ما عدا العبد لله ود٠وليم !

غادرت المكان وعدة علامات استفهام تتزاحم فى رأسى ، لكن لم يدر بخلدى أبدا ، برغم نزعتى التشاؤمية ، ما انتهى الأمر بعد ذلك ، وتوقعت أن يتصل بى المعد ليخطرنى بالموعد الجديد ، لكن أحدا لم يتصل بى فى اليوم التالى ، علما بأن المعد سبق له أن اتصل بى بالمنزل عندما لم يجدنى بالمكتب ٠

فلما جاء يوم السبت وذهبت إلى مكتبى وجدت جملة قصيرة مسجلة على التليفون : د٠ سعيد ، نأسف ، لن نسجل لك اليوم ( الجمعة ) ، وتساءلت بينى وبين نفسى ، لم لم يتصل بى فى المنزل كعادته عندما لا يجدنى ؟ وتصورت أن ذلك يعنى تأجيل الحلقة إلى موعد يحدد فيما بعد ، فإذا بابنتى تتصل بى لتقول أن الحلقة أذيعت بعد أن جاءوا بشخص آخر ( شبه رسمى ) غيرى وغير زميلى !! وبدأ كثيرون يتصلون بى ، يتساءلون متصورين أننى اعتذرت ، ولما نفيت ذلك بدأ التساؤل : لماذا مُنعت ؟

بطبيعة الحال لم أشعر بأى حزن وأسف تجاه المعد أو المذيع ، فلقد شعرت بأنهما غُلبا على أمرهما ، وبدأت أستعيد فى ذاكرتى ما سبق أن قلته فى الحلقة الأولى التى أذيعت ، وكان لابد أن أستخدم المنطق نفسه الذى يديرون به التحقيقات فى الجنايات على سبيل

المثال ، فيبحثون عن المستفيد ، وسألت نفسى : من الذى أضاره حديثى بحيث يحرص على ألا أتكلم مرة أخرى ؟

هنا لابد أن أقول للقارئ الفكرة الأساسية التى دار حولها حديثى التلفزيونى : أن مسئولى التعليم يعلنون للناس الأرقام الخاصة بالتطور التعليم " خاما " دون ربطها بمجموعة أخرى من المتغيرات التى تشير إلى الدلالات الحقيقية ، ففى صورتها الخام قد توحى بتقدم ، فلما تربط بمتغيرات أخرى ربما نتبين ندرة التقدم ، وكان المثال ، أن يعلن الوزير أن ما ينفق على التعليم سنة ١٩٨١ كان ثلاثة مليار جنيه ونصف أما فى سنة ٢٠٠٠ ف ٢٠ مليار جنيه ، لكن لو عرفنا أن الدولار كان سنة ٨١ ب٩٠ قرش فمعنى ذلك أن ما كان ينفق هو ما يقرب من أربعة مليارات دولار ، ولما كان الدولار الآن يقرب من أربعة جنيهات ، فإن ما ينفق الآن هو خمسة مليارات دولار ، إذن فالفرق عبر عشرين سنة طفيف للغاية . ثم إذا عرفنا أن عدد التلاميذ تضاعف فى هذه المرة ، عرفنا أن ما يخص كلا منهم قد نقص !

هل عرفت الآن من المستفيد من عدم تواصل هذه النوعية من حرية التعبير ؟

# القنبلة السكانية الفلسطينية

رب ضارة نافعة !

فإذا كان السكان فى تزايدهم فى مصر يشكلون مشكلة تؤرق الدولة فإنهم بالنسبة للقضية الفلسطينية ، فيما يبدو ، يشكلون شوكة كبيرة فى جنب الدولة الصهيونية ، ومن يدرى ، فلربما شكلوا لها سما زعافا يسهم فى موتها أو على أقل تقدير فى تحجيمها .

فمن المعروف أن الفلسطينيين حريصون على " كثرة النسل " لمواجهة ما يواجهه الشعب الفلسطينى من حرب ضروس منذ عشرات السنين واستلاب لأرض الوطن وتشريد ، ومن هنا فعلى الرغم مما يفعله الصهيانية من جلب ألوف المهاجرين من الخارج ، وعلى الرغم من قلة عدد الفلسطينين الذين ظلوا داخل الأرض المحتلة ، لكن نسبة تزايد النسل الفلسطينى تفوق مثيلتها عند العدو ، وعلى سبيل المثال فلننظر لحالة القدس التى تشهد محاولات مستميتة لتغيير معالمها " وتطفيش " الفلسطينيين المقيمين فيها وفقا للمعلومات الواردة فى المخاترات الإسرائيلية التى يصدرها مركز الدراسات السياسة والاستراتيجية بالأهرام ( فبراير ٢٠٠١ ) :

تقول بيانات جمعها المكتب المركزى للإحصاء فى دولة العدو أن عدد سكان القدس عام ١٩٩٩ قد زاد بحوالى ١٢,٦٠٠ نسمة ، أى بنسبة ٢٪ ، وبلغ عدد مواطنى المدينة ٦٤٦,٣ ألف نسمة فى ديسمبر عام ١٩٩٩ ، منهم ٤٣٦,٧ يهودى ( زيادة بنسبة ٠,٧٪ ) و ٩,٧٠٠ غير يهود ( بزيادة ٤,٧٪ ) ، أى أن زيادة السكان غير اليهود شكلت حوالى ٧٥٪ من إجمالى الزيادة فى ذلك العام ، وهى نابعة أساسا من الزيادة الطبيعية المرتفعة أوساط الفلسطينيين .

ومما لا يقل عن ذلك أهمية أن هناك عددا من السكان اليهود يغادرون المدينة المقدسة ، ففى العام نفسه ١٩٩٩ سجلت المدينة ميزان هجرة سلبى وصل إلى ٨٠٠٠ نسمة منهم ٧٨٠٠ يهودى ، بينما بلغ فى العام ٩٨ حوالى ٦٦٠٠ ، وفى عام ٩٧ حوالى ٧٦٠٠ نسمة مما دفع الدكتورة سارة هرشكوفيتس رئيس قسم التخطيط الاستراتيجى ببلدية القدس أن تؤكد فى الوثيقة الخاصة بهذه القضية : أن الزيادة الطبيعية للسكان اليهود فى المدينة قد انسحقت فى ميزان الهجرة السلبى .

ومن المعروف أن قضية اللاجئين الفلسطينيين تعد أحد أركان القضية الهامة والتى يصر الصهاينة فيها على عدم تقرير حق العودة ، إلا لأعداد محدودة للغاية ، على الرغم مما أكد

عليه القرار ١٩٤ الصادر فى ١٩٤٨/١٢/١١ ، الفقرة ١١ حيث تقول : " تقرر الأمم المتحدة أن اللاجئين الراغبين فى العودة إلى ديارهم والعيش فى سلام مع جيرانهم يسمح لهم بذلك فى أقرب وقت ممكن ، وكذلك يجب دفع تعويض مقابل أملاك الذين يختارون عدم العودة . ومقابل فقدان أو الإضرار بالأملاك ، حيث تقضى قواعد القانون الدولى والعدالة بضرورة تعويضهم عنها بواسطة الحكومات أو الهيئات المسئولة وتطلب الجمعية العامة من لجنة التوفيق ترتيب عودة اللاجئين إلى وطنهم وإعادة توطينهم وغوثهم اقتصاديا واجتماعيا ودفع التعويضات والحفاظ على علاقة وثيقة مع المشرف على وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة وعن طريق التعاون مع الوكالات والأجهزة المناسبة التابعة للأمم المتحدة " .

وتقدر بعض الإحصاءات البيانات التالية :

| | |
|---|---|
| إجمالى عدد المخيمات الرسمية | ٥٩ |
| عدد اللاجئين فى المخيمات | ١,٢١١,٤٨٠ |
| عدد اللاجئين | ٣,٧٣٧,٥٣٤ |

وهذه الأرقام تتعلق بما هو مسجل فى وكالة غوث اللاجئين ، بينما يقدر الإحصاء الفلسطينى عدد اللاجئين الفسطينين فى الشرق الأوسط بحوالى ٥,٢ فلسطينى .

وتبذل دولة العدو جهودا واسعة عن طريق حليفها الاستراتيجى ، الولايات المتحدة ، من أجل ما يسموه بتوطين اللاجئين فى عدد من الدول العربية ، وخاصة الأردن ولبنان ، لكن هناك إصرار عربيا على رفض ذلك ، كما رأينا من تصريح لملك الأردن يقول فيه : " إن الأردن هو دولة لجميع مواطنيه ، فلسطينيون وأردنيون أبناء أسرة واحدة وأشقاء ، أما الفلسطينيون الذين يقيمون فى دول أخرى فإنهم لا ينتمون لهذه الأسرة " . وتحاول الولايات المتحدة أن تقدم عددا من الإغراءات كى تقبل الأردن توطين عدد بها ،ووصل الإغراء إلى حد أن عرضت إلغاء سبعة مليارات دولار ديون على الأردن ، فضلا على مساعدات سخية .

أما بالنسبة للبنان فقد أعلن رئيسه إميل لحود بالاشتراك مع نبيه برى رئيس البرلمان أن " لبنان يرفض أى حل للمشكلة الفلسطينية على حساب الحقوق الوطنية للشعب اللبنانى ، خاصة لأن الحل المقترح لن يخدم حل النزاع ، بل سيخلق مشكلة ذات آثار خطيرة أضعاف النزاع الحالى " .

ويختلف وضع اللاجئين فى لبنان عن اللاجئين فى الأردن ، ففى الأردن يعطون حق المواطنة كاملا والمساواة الرسمية أمام القانون ، باستثناء اللاجئين الذين هاجروا من قطاع

غزة ويحملون هوية لاجئ مصرى ، أما فى لبنان فإن القول بإعادة توطين ربما يحمل شبهة الخيانة الوطنية ، وعدد اللاجئين فى لبنان ضخم يصل إلى ما يزيد على ٣٥٠,٠٠٠ فلسطينى معظمهم يعيش فى حالة تقل عن حد الفقر ، والأرض اللبنانية صغيرة المساحة ، حتى أن الكثافة السكانية فيها تضعها من أكثر بلدان العالم كثافة .

ومن الأصوات العاقلة النادرة ، ذلك الذى كتبه " يونا وحاييم بابريدج " ( من بريد القراء ) فى صحيفة هآرتس الإسرائيلية فى عددها الصادر فى ٢٠٠١/١/٤ ، من أن أرض فلسطين إذا كانت تمثل لليهود "حلما" ، ف " نحن على دراية تامة بأن هذه الأرض هى أيضا أرض أبناء الشعب العربى/الفلسطينى ، وكما هو واضح لنا بأن حلم اليهود فى كل الأجيال ، وكذلك الآن هو العودة لأرض آبائهم ، فكذلك أيضا واضح لنا أن آمال العرب / الفلسطينيين هى العيش فى هذه الأرض ، أرض آبائهم هذه منذ مئات السنين " ، والأكثر أهمية من هذا استطراد الرسالة فى القول : " ومثلما لا ننكر معاناة اليهود على مدى التاريخ وبالذات فى القرن العشرين فإننا أيضا لا ننكر حقيقة أن مسيرة العودة للشعب اليهودى إلى أرضه ، تسببت فى معاناة شديدة للسكان المحليين والعديد منهم مدنيين : نساء ، رجال ، وأطفال ، والذين اضطروا لترك منازلهم ولترك ممتلكاتهم خلفهم " .

ومن المستحيل بطبيعة الحال أن تسمح إسرائيل بعودة اللاجئين لأن هذا سيخل بالتوازن السكانى بالنسبة لهم ، وإذا أعلنت الدولة الفلسطينية بالفعل ، فسوف تصبح رقعتها عاجزة عن استيعاب أعداد مثل تلك المقيمة فى لبنان ، والذى سوف يصبح من حقه ، ما دامت هناك دولة فلسطينية ، أن يقول للفلسطينيين اللاجئين فيه : مع السلامة ؟!

والحل الوحيد هو هذا الذى سبق أن طرحته منظمة التحرير الفلسطينية منذ سنوات بعيدة نسبيا ألا تكون هناك دولتان إسرائيلية وفلسطينية ، وإنما دولة واحدة تقوم على أساس مدنى ، تتسع لكل المقيمين فيها عربا كانوا أو يهود !

# موت مجلـــة !

جاءنى صوتها عبر الهاتف وأنا أهنئها بعيد الفطر يقطر أسى وحزنا حتى خيل إلى أن عزيزا غاليا لها قد انتقل إلى رحمة الله حالا ، فلما سألتها عن حال ( سطور ) ، المجلة التى أنشأتها ونسعد بقراءتها كل شهر ، أجابتنى د٠ فاطمة نصر ، بما يعنى أن المجلة تعانى سكرات الموت ، لا من قلة الكتاب ، ولا من خلاء الفكر ، ولا من صراعات داخلية ، ولا من وضعها فى قائمة الجهات الإرهابية ، ولا من من تضييق خناق إدارى أو أمنى ، ولكن من شدة الفاقة المالية ، وضيق ذات اليد ٠

ولم لا ؟ فالمجلة ذات مستوى ثقافى رفيع ، تطبع طباعة فاخرة ، وإخراج فنى رائع لتؤكد للناس أن لا تلازم بين الثقافة وبين سوء الورق ، وقبح المنظر ، وهى تخلو من الإعلانات ، التى تمد الصحف والمجلات بالقدرة على استمرار الحياة ، ولا تنفق عليها مؤسسة حكومية حتى تعوض ما تخسره ، ولا حتى مؤسسة خاصة ، تمولها على اعتبار أنها وجه من وجوه الخير أو الصدقة فلا تنتظر منها ربحا ٠

الحق أقول فزعت فزعا شديدا ، وبدا الأمر أمامى كارثة ثقافية لا ينبغى أن نقف مكتوفى الأيدى إزاءها ٠

صحيح أن عددا من الكتاب الأفاضل كان قد سبق أن أشار إلى هذه القضية ، لكن ، مع الأسف الشديد كانت النتيجة أقل مما كان متوقعا ٠٠ بضعة آلاف من الجنيهات لا تزيد على أصابع اليد الواحدة ، فيما قيل لى ، دفعتها وزارة الثقافة ، تقل عما يدفعه طالب فى دروس خصوصية !

ماذا لو سمعنا أن جامعة سوف تغلق ؟ أو كلية ؟ أو مدرسة ؟ بسبب عسر مالى ؟ إن أى مجلة ثقافية على هذا المستوى المتميز تقوم بدور لا يقل عما تقوم به مؤسسة تعليمية ، تنير العقول ، وتفتح الآفاق ، وتوسع المدارك ، وتنشر العلم ، لا ينبغى أبدا أن نسمح لها بالاختفاء والموت ، حتى ولو كانت مقصرة فى دورها ، فهذا أمر يقابل بالتصويب والتصحيح لا بالإلغاء ٠

لقد وقفنا سلبيين أمام موت كثير من المجلات الثقافية التى كانت منارات حقيقية ، منذ أيام ( الرسالة ) و ( الثقافة ) و ( المجلة ) و ( الفكر المعاصر ) و ( الكاتب ) وغيرها من مجلات ، وعندما نقرأ أو نسمع من كبار المثقفين وقدمائهم فى البلدان العربية ، كيف – مثلا – كانوا يتغذون ويتعلمون من مجلتى الرسالة والثقافة ، نشعر بكثير من الحسرة أن

اختفتا ، مما قلل من نطاق الدور الثقافى لمصر فى العالم العربى ، وقلل من فرص التواصل العقلى بيننا .

فلما انتهت المكالمة ، ومرت دقائق ، كدت أعود لأقول للدكتورة فاطمة نصر ، أنها كانت يمكن أن تجد تمويلا لهذا الصرح الثقافى لو كانت قد اشتركت فى إحدى مسابقات التلفزيون الرمضانية ، إذ كان يكفيها أن تعرف أسماء عدد من الأغانى الشبابية التى تعرض منها مقاطع سريعة فى دقيقتين لتكسب كل يوم ألفا من الجنيهات ، أو ترتب ثلاثا من المشاهد تعرض من أحد الأفلام ، لتكسب ألفا كذلك يوميا، أو تتعرف على مكان " المقص " الخاص بالمونتير على أحد المشاهد لتكسب ألفا ثالثا !

إننى من على هذا المنبر أوجه خطابى إلى السيد وزير الثقافة أناشده أن يقف ماليا بجوار هذه الصرح الثقافى ، ولا نظن أن هذا أمرا يُعجز وزارة الثقافة ، فهى والحمد لله تخصص مئات الألوف من الجنيهات لمهرجانات متعددة ، للأغانى ، والأفلام السينمائية ، والمسرح وغيرها ، فهل لا تستحق مجلة ثقافية متميزة رفيعة المستوى أن تنال ولو جزءا من مثل هذا العطاء الوفير ؟

# الغزو المضاد

درجنا منذ قرنين من الزمان أن نقول وأن نقرأ عن غزو غربى لبلدان المسلمين ، وأن لهذا الغزو مظاهره وأشكاله المتعددة التى تختلف باختلاف البلد الغازى ، والبلد الذى يقع عليه فعل الغزو ، كما يختلف باختلاف الحقب والأزمان بهدف الهيمنة ، لكنه ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، يجمع على أهداف بعينها هى السعى لقهر الإسلام والمسلمين واستغلال ثراواتهم والتحكم فى إرادتهم وإبقائهم متخلفين ٠

وآخر صورة من صور الغزو ما تشهده بلدان المسلمين فى الوقت الحاضر من غزو بصورته الأمريكية التى استوعبت جيدا ما حدث للصورتين الإنجليزية والفرنسية من قبل ، فإذا بالصورة الأمريكية لا تلجأ إلى الشكل العسكرى المباشر التقليدى ، وإنما إلى الشركات متعدية الجنسيات ، والمصالح المالية التى تربط عددا من ذوى النفوذ فى البلد المنكوب بالولايات المتحدة ، والصناعات المختلفة ، ولا ننسى أيضا التنظيمات الدولية ، وعلى رأسها مجلس الأمن الذى يكاد أن يكون هيئة من هيئات الإدارة الأمريكية ، وكذلك عمليات التسليح والاستعانة بالخبرة العسكرية الأمريكية ، والمناورات المشتركة ، وأهم من هذا وذاك ، الصورة الثقافية التى تتمثل فى السينما بصفة خاصة ووكلات الأنباء ، وأجهزة الإعلام ، هذا فضلا عن المظاهر الحياتية اليومية من مأكل ومشرب وملبس ، تمشى الآن فى معظم شوارع الدول الإسلامية ، لا تجد مدينة ، وفى بعض الأحيان شارعا يخلو من محل مأكولات على الطريقة الأمريكية أو شبابا يلبسون الملابس الأمريكية أو يصك سمعك دوى موسيقى أمريكية صاخبة ، ولا أزال أذكر تلك المرة التى اعتصرتنى مشاعر حسرة عندما جلست فى محل أمريكى ، أطل منه على الكعبة المشرفة فى مكة !!

لكن صدق الله العظيم القائل فى كتابه الكريم : " ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " ، فما من مرة تتاح لى فيها فرصة زيارة الولايات المتحدة ، إلا وألمس كيف أن غزوا مضادا بدأت رقعته تتسع ومظاهره تنتشر فى عقر دار الولايات المتحدة نفسها ، لكنه بطبيعة الحال ليس بصورة من هذه الصور التى تتفوق بها علينا وتغزونا بها ، إنه بصورة أخرى لسنا نحن منتجيها ولكن المنتج هو الله سبحانه وتعالى ٠٠٠ إنها دعوة الله عز وجل المتمثلة فى الإسلام ، وهى دعوة لا تستهدف سيطرة واستغلالا ، ولا تسعى إلى استخدام قوة مادية ، ولا إلى عنف مسلح ، ولكنها دعوة إلى الحق وبالحق " وبالحق

أنزلناه وبالحق نزل "" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " ، " وجادلهم بالتى هى أحسن " ، " ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم " ٠

إن إنسانا مثلى لا تسعه الفرحة الغامرة عندما يغيب سنوات قليلة ثم يعاود زيارة الولايات المتحدة فإذا بأعداد المسلمين ، وأعداد المساجد ، وأعداد المدارس الإسلامية قد زادت زيادة مذهلة ، إلى درجة أنك فى بعض المواقع تحسب وكأنك فى بلد إسلامى ٠ لا ، بل أستطيع أن أقول بكل الصدق والأمانة : إذا أردت أن تتعرف على الصورة النقية البسيطة ، المعتدلة ، الوسط ، العقلانية للإسلام ، فإنك ستجدها فى الولايات المتحدة ، وكأن المناخ الحضارى الضخم ، متعدد الأبعاد ، قد جعل كثيرين يعولون على عقولهم أكثر فى تدينهم لا انفعالاتهم وعواطفهم ، وهو الأمر الذى يرتكز عليه الإسلام بالفعل ، فجاء تدينهم بمثل هذه الصورة المشرفة ، غير المتعصبة ، ولا المتشنجة ٠٠٠صورة لا تخاصم التقدم بل تدعو إليه ، ولا تهجر العلم بل تحث عليه ، ولا تقاطع الآخر بل تحاوره ، ولا تدفع إلى العزلة والتقوقع داخل الذات تُجتر ما تفكر فيه ، وإنما تشجع على المزيد من التفاعل والحركة إلى هنا وهناك ٠

ويجئ تزايد المسلمين بطرق ثلاث :

أولها ، أعداد غير قليلة من المهاجرين الذين يتركون بلدانهم الإسلامية ، بسبب قهر سياسى أو سعيا للرزق ، أو طلبا للمزيد من العلم ، وعدد من هؤلاء ربما كانت صلتهم بالدين فى بلدانهم خفيفة باهتة ، لكن هذه الصلة تقوى وتزداد عمقا فى الولايات المتحدة ، وهى مسألة ليس من الصعب تفسيرها ، فالإنسان عندما يجد نفسه فى بحر متلاطم الأمواج ، يخشى الغرق ، فيمسك بتلابيب ما لديه ٠٠ إنه هنا يخشى أن تجذبه أمواج الضياع الأخلاقى التى تشتد ضراوتها بالنسبة للغريب ، فيسرع إلى دين الله ٠٠ سفينة نوح التى تنقذه من الغرق ٠

وثانيها ، دخول عدد من الأمريكيين دين الإسلام ، وإذا كانت العادة قد جرت أن نرى هذا بين الزنوج ، ربما طلبا للعدل الاجتماعى الذى كانوا يفتقدونه فى بعض الأحوال ، إلا أنه بترسيخ هذا العدل وتضاؤل الشعور بالاضطهاد ، بدأنا نرى عددا غير قليل من الأمريكيين " البيض " يسعون إلى الإسلام ، حيث يجئ هذا السعى فى بداية الأمر وكأنه سعى للمعرفة ، ثم إذا به يتحول بعد ذلك إلى تدين إسلامى حقيقى ٠

قابلت أستاذا مصريا مسلما قال لى أنه متزوج من أمريكية بيضاء مسلمة ، فسألته : هل أسلمت قبل الزواج أو بعده ؟ قال أنه تزوجها وهى مسلمة بالفعل ، ذلك أنه ، بحكم الثقافة السائدة حيث لا تلمس حرصا على الانتماء إلى دين بعينه ، شعرت السيدة بحيرة أمام ما

تراه وتسمع عنه من تعدد فى الأديان ، السماوية والوضعية ، فأرادت أن تتعرف على مختلف هذه الأديان ، وبدأت تقرأ فى هذا وذاك ، فإذا بها تشعر أن الصورة التى قرأتها عن الإسلام هى الصورة الأقرب إلى العقل والمنطق فأسلمت ، وأخذت تواصل المعرفة الدينية حتى أصبحت داعية إسلامية فى الوسط النسائى !!

ثالثا – أبناء هؤلاء وهؤلاء ، ومن حسن الحظ أن الكثرة الغالبة من الفريقين الأول والثانى تميل إلى كثرة الإنجاب إيمانا بأن الكثرة الكمية مطلوبة ، وهى إذا وجهت توجيها بصيرا يمكن أن تتحول إلى قوة كيفية ، والكثير من هؤلاء الأبناء الذين يحرص آباؤهم على ربطهم بالإسلام منذ نعومة أظفارهم ، نجدهم غالبا متفوقين فى دراساتهم وأعمالهم .

والتوجه الذى بدأنا نلمسه بالفعل أن عددا من المسلمين فى أمريكا قد بدأوا يعون بأهمية الاندماج فى المجتمع الأمريكى ، وإن لم يأخذ هذا التوجه حقه بعد من الانتشار والترسخ ، والمنطق الذى يستندون إليه – وهو أقرب إلى المعقولية حقا – أن من الضرورى مواجهة الواقع الذى يقول : ما دمت قد أصبحت مواطنا أمريكيا فلابد أن تكون بالفعل أمريكيا مسلما ، تنشغل بهموم أمريكا ومشكلاتها وتهتم بقضاياها وتنفعل بها وتسعى إلى مواجهتها والمشاركة فيها ، فهذا وحده هو الذى يجعل المسلمين يتقدمون إلى أن يصبحوا مشاركين فى القرار الأمريكى داخليا وخارجيا .

لقد سافرت إلى الولايات المتحدة فى المرة الأخيرة وأنا أحمل فى قلبى الكثير من الأوجاع على حالة القهر الذى أرى رقعته تنتشر بين المسلمين فى عدد من الدول الإسلامية ، وما أراه من دماء إسلامية تسيل بغير أن تجد من يغيثها ، على أرض فلسطين الغالية ، وفى الشيشان ، وفى البلقان ، وعدت من الولايات المتحدة وقد امتلأت تفاؤلا حقا بأن هذا البلد الذى تتوجه إليه مشاعر عداء بحكم ما تقوم عليه سياسته الخارجية من مخاصمة للإسلام والمسلمين ، هو نفسه – ويا للغرابة – الذى تتسع أرضه فى الداخل لمزيد من الانتشار والقوة للإسلام والمسلمين ، حتى أننى أحلم أحيانا بأن الحل الإسلامى سوف يأتى من الولايات المتحدة نفسها !!

# مناظـــــرة : مصرية أم عروبة ؟

عرف الفكر العربى والإسلامى ، منذ عهود الازدهار الحضارى ، المناظرة كأسلوب من أساليب الجدل والحوار بين أصحاب الاتجاهات المتباينة ، وكانت تعقد لها المجالس التى يشهدها جمهور كبير ، وغالبا ما كانت تعقد برعاية حكام ، وكانت نتائجها دائما تثرى الثقافة العربية الإسلامية وتضيف إليها الكثير ، ومن كثرة الاهتمام بها ألف فيها البعض كتبا متخصصة تناولا فيها أنواعها وقواعدها وشروط عقدها والدواعى التى تحتمها ، والنتائج والفوائد التى تترتب عليها ، والآداب التى ينبغى للمتناظرين أن يتحلوا بها ، وكذلك بالنسبة للجمهور .

وإذا كانت المناظرة قد اختفت من الساحة طوال قرون التدهور ، فقد كان هذا طبيعيا لأن المناظرة لابد أن تستند إلى رصيد ثقافى وحضارى فى المجتمع الذى توجد فيه ، وتوافر كوكبة من العلماء والأدباء والمفكرين من ذوى الثقل العقلى والثقافى . لكنها بدأت تعرف طريقها مرة أخرى فى مصر فى النصف الأول من القرن العشرين ، حيث كانت تباشير النهوض القومى لا تخطئها عين منذ أن بدأ المبعوثون الذين أرسلهم محمد على إلى أوربا يعودون حاملين معهم من العلوم الحديثة والأفكار الجديدة ما كان لابد معه أن تتغير صورة الحياة فى مصر .

ومن المناظرات التى اخترتها لعرضها على القارئ ، مناظرة شهدتها قاعات الجامعة المصرية فى عام ١٩٣٠ ، حول ما يجب أن يكون انتماء المصريين إليه من حيث الهوية ، وقد عبر منظموها عن ذلك فى طرح تساؤل مؤداه : أى المدنيتين ينبغى أن تختار مصر : المدنية الفرعونية أم المدنية العربية ؟

كان من الواضح فى ذلك أن المصريين فى ذلك الوقت - ومن أسف ، أننا ما زلنا نطرح التساؤل نفسه حتى الآن - يتساءلون عن " الهوية " التى ينبغى أن تكون الرابط بينهم ، خاصة بعد أن انفكت عرى تلك الرابطة التى كانت تربط مصر- سياسيا ودوليا - بمختلف الدول الإسلامية عن طريق دولة الخلافة ، عندما قام أتاتورك بإلغائها عام ١٩٢٤ ، فى الوقت الذى كان النفوذ الغربى فيه يتغلغل شيئا فشيئا منذ مجئ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ ، وحملة " التحديث " ، وفقا للنمط الغربى التى قام بها محمد على ، ثم من بعده الخديوى إسماعيل ، وتوج هذا بالاحتلال البريطانى لمصر .

وتشاء الظروف أن تشتد حركة الكشف عن الآثار المصرية القديمة ، منذ أوائل القرن العشرين ، ويجد المصرى من الآثار ما يؤكد كيف كان صاحب أقدم حضارة ضخمة شهدها التاريخ القديم ، فى الوقت الذى وجد نفسه فيه واقعا تحت براثن الاحتلال الأجنبى ، وفى موقف تخلف وضعف أمام القوى المهينة الغربية ، فيرنو ببصره إلى المرحلة القديمة من التاريخ المصرى محاولا أن يجد فيها ما يعوضه عن مشاعر الإحباط المعاصرة ، فتبرز النزعة إلى التمسك بالأصول الإقليمية .

كانت مناظرة قد تمت باللغة الإنجليزية حول التساؤل السابق الإشارة إليه ، فى كلية الحقوق ، ونشرتها معظم الصحف والمجلات ، ويبدو أن الغلبة كانت للرأى الذى انتصر للمدنية الفرعونية ، والمقصود بالمدنية فى هذا التعبير " الحضارة " ، فلقد كانت المناظرة أشبه بما يتم بين المتبارزين بالسيوف ، والفارق بطبيعة الحال أن السلاح هنا هو الفكرة والكلمة .

ثم عن لأصحاب لجنة المناظرات والمحاضرات فى كلية الحقوق أن تعقد مناظرة مماثلة باللغة العربية ، واختارت لمن ينتصر للاتجاه العروبى ، صاحب المنار ، الشيخ محمد رشيد رضا ، وتطوع لتمثيل الطرف المنتصر للنزعة الفرعونية ، الأستاذ لطفى جمعة المحامى والكاتب الشهير فى ذلك الوقت ، وكان النظام يقتضى أن يكون هناك مؤيد من الطلاب الجامعة لكل صاحب وجهة نظر ، فكان المؤيد للطفى جمعة الطالب محمد أبو شقة ، أما الذى وقف مناصرا لرشيد رضا ، فقد كان الطالب أحمد حسين ، الذى طارت شهرته فى الآفاق بعد ذلك بسنوات قليلة عندما قام يبشر بمشروع القرش ، ثم يتزعم جماعة مصر الفتاة .

وحتى لا تعطل المناظرة المحاضرات والدروس بالكلية ، فقد عقدت بعد المغرب من يوم الجمعة ٢١ رجب من عام ١٣٤٩هـ الموافق ليوم ١٢ ديسمبر ، فقد كانت الأبواب تفتح للجمهور العام ليشهد مثل هذه المبارزات الفكرية .

كانت الكلمة الأولى لمناظرنا الأستاذ لطفى جمعة ، فبدأ كلامه بتخطئة لجنة المناظرة فى قولها ( المدنية الفرعونية ) ، وقرر أن هذا التعبير لا يصح لأن كلمة ( فرعون ) لقب لبعض ملوك مصر الأولين ، وقد تولى حكم مصر بعدهم ملوك البطالسة ، وأمراء العرب ، وآخرون لقبوا بالسلاطين ، وآخرون لقبوا بالخديويين ، ثم عادت حكومة البلاد لتكون ملكية ، فإذا صح أن تسمى مدنية هذه البلاد فرعونية فى عصر ، جاز أن تسمى فى عصور أخرى : سلطانية ، وخديوية ، وملكية ، وهذا مالا يقول به أحد .

ثم أكد مناظرنا على أن لهذه البلاد ( مصر ) مدنية خاصة يجب أن تسمى " المدنية المصرية " ، ولا يجوز ان تسمى فرعونية ولا عربية لا فى الأزمنة الماضية ولا فى هذا الزمن ٠ واحتج على ذلك بأن المصرى إذا ذهب إلى بلاد العرب كالحجاز أو غيرها من الأقطار يقال فلان المصرى ، لا العربى ٠وذكر أن المدنية المصرية تماز عن جميع مدنيات الشعوب بمزايا خاصة بالمصريين لا يساويهم فيها أحد ٠ وعندما راح يسوق أمثلة ، وضح أنه يتحدث أكثر عن ( الشخصية المصرية ) ، فقد ذكر : سمرة اللون ، وخفة الروح ، وحسن الفكاهة ، والظرف فى النكت المليحة ٠

وأطال لطفى جمعة فى وجوب محافظة المصريين على تسمية مدنيتهم مصرية وعدم نسبتها إلى العربية ، وذكر أن تدينهم بالإسلام لا يقتضى أن يكونوا عربا فى مدنيتهم وجنسيتهم ، على أساس أن الإسلام دين عام يشمل جميع شعوب البشر التى تؤمن به ، وذكر أنه هو يرى " كمصر مسلم " أو كمسلم مصرى " الأخذ بالمدنية المصرية ٠

ترى ، ماذا كان رد الشيخ محمد رشيد رضا ؟

وقبل أن نعرض لرأى رشيد رضا يجب أن نتذكر أنه كان مهاجرا من سوريا إلى مصر ، ومنطقة الشام كلها كانت تخضع للدولة العثمانية قبل إلغاء دولة الخلافة ، وفى السنوات الأخيرة لهذه الدولة كان اضطهاد كبير يقع على العرب دفعهم إلى الهجرة إلى مصر ، حيث وجدوا فيها مناخا تسوده حرية واسعة قياسا إلى ما كانوا يقاسوا منه فى بلادهم ، وكان هذا فى مصلحة الاحتلال الإنجليزى ، حتى يقوا النزعة المعارضة للدولة العثمانية ، وكان من شأن هذا أن أوجد تربة صالحة للمناداة بالعروبة للفكاك من الأسر العثمانى ٠ وفى مصر كان الوضع مختلفا ، فهى إذا كانت تخضع للاحتلال الإنجليزى ، فقد كان الشعور الغالب لدى كثيرين هو الانتصار للفكرة الإسلامية التى كانت تمثلها الدولة العثمانية ، ولم يكن هناك بعد حماس للعروبة ، بل إن عددا غير قليل من المصريين قد استاءوا من وقوف العرب بجانب انجلترا وفرنسا ضد الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى ٠

وتلخصت وجهة نظر رشيد رضا فى بيان أن المدنية ( أو الحضارة كما نقول الآن ) قوامها اللغة والفنون والصناعات والثقافة المعنوية من العقائد والتشريع والآداب ٠ وإذا كنا لا نستطيع أن نرجح بعض الأقوال التى أرجعت أصل المصريين إلى العرب إلا أن مما لا شك فيه أن المصريين بعد الفتح الإسلامى قد امتزجوا بالعرب المسلمين وغلبت عليهم الحضارة العربية بجميع مقوماتها ومشخصاتها ، فلغتهم عربية ، ودين السواد الأعظم منهم هو الإسلام الذى هو ينبوع الثقافة ٠

ولما أراد مفكرنا أن يقارن بين المدنيتين الفرعونية والعربية ليرجح بينهما ، أشار إلى أن مدنية الفنون والصناعات تختلف باختلاف الأزمنة وحاجات البشر فيها ، فالفنون والصناعات التى ابتكرها الأوربيون من وسائل الحياة والاتصال ، كالسكك الحديدية وغيرها ، لا يصلح للبشر فى نهضتهم فى عصرنا الحاضر غيرها .

أما من حيث جوانب الحضارة غير المادية ، فالأمر مختلف ، فلا يمكن لأحد أن يرجح الهيروغلوفية على العربية لأن الأولى لغة ميتة ، ذهبت ولم يبق إلا آثارها ، وليس بها مزية توجب إحياءها واستبدالها بالعربية حتى ولو كان ذلك ممكنا .

وأما بالنسبة للدين ، فدين الفراعنة كان وثنيا ، ودين السواد الأعظم من المصريين الإسلام وتليه النصرانية فاليهودية ، وبطبيعة الحال لا يرضى أحد من المصريين أن يرجع إلى دين الفراعنة الوثنيين ، فيمجد العجل ( أبيس ) وغيره من آلهتهم .

إن أساس العقائد الإسلامية هو التوحيد ، ومن مقتضاه أن لا يخضع البشر ولا يذلوا إلا لله تعالى ، خالقهم ورازقهم ولا يخافوا سواه . وأما الفرعونية فأساسها عبادة البشر والبقر والثعابين ، وغيرها ، وذكر رشيد مستمعيه بقول الله سبحانه وتعالى عن فرعون موسى قوله : " ما علمت لكم من إله غيرى " ، وقوله : " أنا ربكم الأعلى " .

أما بالنسبة للتشريع وهو الأمر الذى كان يهم حضور المناظرة حيث أغلبهم من طلاب الحقوق ، فقد مفكرنا أن أساس التشريع الإسلامى السياسى والمدنى والعسكرى مبنى على أن السلطة للأمة بنص قوله تعالى " وأمرهم شورى بينهم " ، وقوله للرسول صلى الله عليه وسلم : " وشاورهم فى الأمر " ، فهنا نرى الله أمر نبيه المعصوم أن يشاور الناس فى المصالح العامة ، فكان يشاورهم ويعمل برأيهم ولو خالف رأيه كما فعل فى غزوة بدر وغزوة أحد ( وقد ذكر الشواهد على ذلك ) .

كذلك استشهد بالخطبة الأولى للخليفة الأول أبى بكر الصديق تأكيدا على الإقرار بسلطة الأمة ، فإنه بعد مبايعته بالخلافة صعد منبر رسول الله فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمت فأعينونى ، وإذا زغت ( أى اعوججت ) فقومونى .

فهو قد صرح بأن الأمة لها الحق أن تقوم حاكمها العام إذا اعوج وخالف مصالحها وشريعتها ، وتبعه الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فى هذا التصريح الرسمى ، فقد اشتهر قوله على المنبر : من رأى فيكم عوجا فليقومه ، وما أجابه به الأعرابى من تقويمهم إياه بسيوفهم . فسلطة الأمة إنما جاء بها الإسلام وعنه أخذها الأوربيون ، ومنهم ومن المسلمين من يجهل هذا ، ومن من يعرفونه وهم له جاحدون .

وإزاء ما يردده البعض من الشعوبية المبغضين للعرب من أن مدنية العباسيين فى الشرق قد اشترك فيها العجم مع العرب ، يرد عليهم مفكرنا بأن العرب هم الذين أوجدوها ، وبلغتهم انتشرت علومها وفنونها ، فهذه آثار هذه المدنية فى الأندلس ، ولا سيما قصر الحمراء وبقية جامع قرطبة آثار تفقأ عينى كل مكابر لمدنية العرب من الغربيين وغيرهم ، فالذين أحدثوا تلك المدنية الباذخة كلهم من العرب الأقحاح الخلص المعروفة أصولهم وقبائلهم فى كتب التاريخ .

وكانت آخر كلمة لمفكرنا فى آخر المناظرة إن البلاد التى تنطق باللغة العربية الآن ( فى وقته ) وهى نصف إفريقية الشمالى من مملكة المغرب إلى مصر ، والشطر الشرقى من سواحل البحر الأحمر إلى العراق وعمان ومسقط ، كل قطر منها ينتسب أهله إليه ، لا إلى العرب ، كما ينتسب المصرى إلى قطره ، ويقصد بذلك ما نسميه الآن موطنه الإقليمى ، كما نقول هذا سكندرى ، وذاك سوهاجى ، وهذا أسيوطى .. إلخ ، ويعد أهالى هذه البلدان الممتدة من المحيط إلى الخليج الرابطة الجامعة بينهم هى اللغة العربية والثقافة العربية على اختلاف مشاربهم وعقائدهم ، ويعدون مصر رأسا لهذه الشعوب ، ويتمنون لو تكون كل هذه البلاد ممالك متحدة مركزها مصر ، وخلص إلى أن انتساب مصر إلى العربية يحفظ لها هذه الرياسة على هذه الشعوب الكثيرة ، ولها من ذلك فوائد سياسية وأدبية واقتصادية كثيرة ، وتبرؤها من العربية وانتسابها إلى الفرعونية ، ليس فيه أدنى فائدة لمصر ، لا مادية ، ولا معنوية .

وكان من الواضح انتصار أغلبية الحضور لرأى محمد رشيد رضا ، فهو قد وضع العروبة بصيغتها الإسلامية ، فى مواجهة الفرعونية بصيغتها الوثنية . لكن الأمر كان يمكن ألا يكون كذلك لو كانت المسألة : مصرية فى مقابل العروبة ، وهو الأمر الذى ركز عليه بعض الكتاب ، على أساس أن مصر عربية الثقافة ، إسلامية العقيدة .

# المستقبل الغامض !

إنه حقا ملف على درجة كبيرة من الأهمية ، هذا الذى نشرته أخبار الأدب، فى عدد ٢٥مارس الماضى ترجم فيه سيد عبد الخالق مقالات وعروض كتب نشرت فى جريدة T.L.S ، وهو الملحق الأدبى لجريدة التايمز الإنجليزية فى الثانى من مارس ، ذلك أنه من المهم بالفعل أن يعرف القارئ العربى كيف يفكر الغربيون فى الشأن الإسرائيلى ، ولا نكتفى بهذا التعميم الذى يجرى على ألسنتنا وأقلامنا ، مرددين فيه أن الغربيين منحازون غالبا إلى إسرائيل ، وبالتالى فإن كتاباتهم سوف تعبر عما يصب دائما فى المصلحة الإسرائيلية ، إذ لا ينبغى أن نفقد الأمل فى أن تعرف الحقائق ، ولو بعضها طريقها إلى بعض العقول الغربية ، إذا تمكنا من فهم هذا العقل ، وكيف يفكر فى مثل هذه القضية وما ذا يفعله الإسرائيليون بحيث يتمكنون من السيطرة عليه بهذه الصورة المؤسفة .

صحيح أننا نعلم أنهم يمسكون بأيديهم زمام الكثير من مفاتيح الاقتصاد العالمى وخاصة فى الدول الغربية الكبرى ، ونعلم أن هناك " عقدا " تحكم العقل الغربى نتيجة لما سبق أن عاناه اليهود من صور اضطهاد فى أوربا ... نعلم كل ذلك ، وأنه بالضرورة يكون له فعله فى تكييف الأحكام ووزن الأمور وفهم الأحداث ، لكن طالما أننا لم نزل بعد نقف فى الجانب الأضعف ، وطالما أننا ما زلنا نعتمد اعتمادا كبيرا سياسيا واقتصاديا وعسكريا على هذا الغرب ، فلابد من بذل الجهد ، واستمراره سعيا نحو فهم أدق وأعمق لحقيقة القضية لدى الغرب .

إن ما يبذر فينا بذور أمل فى إمكان النجاح فى ذلك أن نفرا من اليهود أنفسهم ، قد بدأوا خلال ما يقرب من العشرين عاما، يستيقظون على حقيقة تلك الترسانة الضخمة من الأوهام والأكاذيب التى روجتها الصهيونية بين اليهود وبين غيرهم من الغربيين ، وهم الذين اصطلح على تسميتهم ب " المؤرخين الجدد " أو " مؤرخى ما بعد الصهيونية " ، على اعتبار أن الصهيونية إنما هى حركة استيطانية استعمارية اختفت وراء متاريس تراثية أكل عليها الدهر وشرب ، وآن لها أن تختفى من على المسرح ، بعد أن انكشفت سوءاتها أمام الجميع ، فمثل هذه الحركة تسعى إلى النفاذ إلى الماضى الإسرائيلى لتبين ما يحمله هذا الماضى من تناقضات بالمقارنة مع هذا الذى تمتلئ به الكتب المدرسية المقررة على تلاميذ المدارس مما " يلون " عقولهم ، ويجعل منها مرآة تعكس ما تزعمه الأجهزة الصهيونية ،

وإن كانت هذه الحركة هؤلاء لم تصل إلى درجة أن تشكل تيارا كبيرا يمكن له أن يكون قوة ضغط على التفكير الإسرائيلى ، فضلا عن مواقع اتخاذ القرار .

ومن الأمثلة التى يمكن الاستشهاد بها فى هذا المجال ، ما كتبه " تشالز جلاس " عن بعض ما بدأت صحف إسرائيلية مستنيرة تنشره لشخصيات مثل : دانى روبشتاين فى صحيفة هآرتاز عن الاحتلال العسكرى للأراض الفلسطينية وما يجرى بالانتفاضة الحالية بصورة تختلف عما تعلنه الجهات الإسرائيلية الرسمية ، وكذلك ما أسفر عنه تنقيب " بنى موريس " فى أرشيف الجيش الإسرائيلى عن إثبات صحة ما يردده اللاجئون الفلسطينيون ، وهو أن عرب الجليل لم يتركوا بيوتهم بناء على تعليمات من الجيوش العربية المحاربة فى ١٩٤٨ ، وإنما لأن الإسرائيليين قد قاموا بطردهم منها ، وهدموا قراهم وأعطوا أرضهم لمهاجرين يهود .

إن تأكيد هذه الحقيقة يمكن أن يغير الكثير من الرؤى التى تطرح بالنسبة لقضية عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، فلطاما احتج الإسرائيليون بأن هؤلاء الذين هاجروا ، هاجروا طوعا واختيارا ، فهذا لا يعطيهم حق العودة ولا حتى التعويض ، أما أن يكونوا قد خرجوا طردا وقسرا وفزعا مما كانوا يواجهوه من العنف الذى مارسته عليهم قوات الاحتلال ، فإن هذا يعطيهم حق العودة أو التعويض لمن لا يرغب فى العودة وفقا لما يقضى به القانون الدولى .

وقد اعترف " عاموس إيلون " الذى أرخ لمؤسس الحركة الصهيونية ، هرتزل ، أن جملة الأفكار والتوجهات المؤسسة على المذهبية الصهيونية ، وخاصة فى الفترة من عام قيام الدولة الصهيونية ١٩٤٨ ، إلى هزيمة ١٩٦٧ كان لها دورها فى حشو التاريخ الإسرائيلى بعدد من التشوهات ، ومن أمثلة هذه الأفكار المستنبطة من النزعة الصهيونية ما ذكرته جولدا مائير فى قولها :" ليس هناك ما يسمى بالشعب الفلسطينى ، ولكن الشعب الفلسطينى كان هناك ، وكانت قوميتهم هى الاستجابة المضادة للقومية اليهودية التى حاولت إزاحتهم . لقد خلفوا اليهود مباشرة فى اعتناق إيديولوجية قومية ، سواء أكانت عربية بوجه عام ، أو فلسطينية على وجه التحديد ، إلا أنهم تخلوا عن القومية العربية قبل أن يشرع الإسرائيليون فى المطالبة بدولة غير قومية ، بعد صهيونية " .

ونحن نلحظ جيدا هذا التشابه الكبير بين نشأة الولايات المتحدة وإسرائيل ، كما نقرأ من خلال مقال ل " روث ر. فايس " يتضمن تعليقا على هذا بالقول أن الولايات المتحدة حصلت فى الحال على اعتراف من بريطانيا التى كانت تحتلها ، وكذلك الدول الأخرى ، لكن إسرائيل لم تستطع أن تحصل على مثل هذا الاعتراف من الجيران العرب ، إلا من عدد محدود من

الدول . ولكن لابد من ملاحظة أن هناك أوجه فرق ، إذ لم تكن أرض الولايات المتحدة هى موطن الإنجليز ، بينما الأرض التى قامت عليها إسرائيل هى أرض عربية كان عليها شعب كامل تعرض للطرد .

وعلى أية حال فالمقال يشير إلى جدل يثور بين المجتمعات اليهودية خاصا بمدى قدرة الصهيونية على أن تتراجع دفاعا عن مطالبتها بسيادة كاملة على كامل التراب الفلسطينى ، ومن الكتب التى تعرضت لهذه القضية كتاب ( الدولة اليهودية ، دفاعا عن روح إسرائيل ) ل " يورام هازونى " ، يعبر فيه عن أن الفكر المؤسس لدولة إسرائيل يتعرض الآن لخطر التمزق والتفكك . وهناك أيضا كتاب " عمنون روبنشتاين " وموضوعه : ( من هيرتزل إلى رابين : صورة الصهيونية المتغيرة ) ، يحاول فيه أن ينهج نهجا وسطا بحيث نجده ينتقد كلا مهاجمى ما بعد الصهيونية سواء من اليساريين أو اليمينيين . أما كتاب ( المد ذو الأصول الغامضة ) للكاتب " عاموس إيلون " فإذا كان ميله إلى الكشف عن نوايا العرب المسلمين قد شاع فى تقاريره الصحفية ، لكن هذا لم يدعه يغفل التعبير عن ضيقه من قادة بلاده باعتبار أنهم عوقوا مسيرة السلام الذى ينزع إليه ، كما تعبر عن ذلك تقاريره التى كتبها عقب زيارة السادات للقدس عام ١٩٧٨ ، فقد عبر عن سروره البالغ وهو يرى نفسه يجوب شوارع القاهرة والإسكندرية لأول مرة ، فلقد لمس ودا واضحا من المصريين ، ذلك لأن الجمهرة الكبرى منهم تصوروا أن هذه الخطوة التى قام بها السادات يمكن أن تدفع الدولة الصهيونية إلى الجلاء عن الأراضى العربية التى احتلتها فى حرب ٦٧ ، وأنها لابد أن تركن إلى السلام الحقيقى ، ولم يكن يدر بخلد أحد أن تفعل ما تفعله الآن على الأرض الفلسطينية ، من صور بشعة لم نر مثيلا لها فى التاريخ ، مما جعل هذه الجمهرة الكبرى نفسها، سواء من المصريين أن عموم العرب يتأكدون من أنه لا أمل فى سلام مع هذه الدولة العنصرية ما نملك المفتاح الأساسى للتفاوض ألا وهو القوة ، سواء على المستوى العسكرى أو الحضارى .

# ٢٨ سبتمبر !

على الرغم من أنى كنت جالسا أمام التلفزيون ،إلا أننى كنت " سارحا " فى عالم آخر .. أفكر فى موضوع المقال الذى أكتبه لصوت الأزهر ، خاصة وعالمنا اليوم زاخر بالقضايا والموضوعات التى يتزاحم بعضها مع البعض الآخر فى الاستحواز على الاهتمام والظفر بأن يكون موضوعا للكتابة ، ولم لا ؟ فاليوم الجمعة الثامن والعشرين من سبتمبر وآلة الحرب الأمريكية الجهنمية تدور منذرة بأن يقبل العالم على أيام سود لا عمل الله مداها .

واليوم أيضا هو يوم الذكرى الأولى لانتفاضة الأقصى التى تبقى " شمعة " مضيئة وسط هذا الظلام الذى تعيش فيه أمة تشير كل المؤشرات إلى أنها وصلت إلى حالة من العجز والهوان ما لم تصل إليه منذ قرون طويلة ، فإذا بهذه الانتفاضة تبقى طاقة نور بأن هذه الأمة لم تصل بعد إلى حالة الوفاة التى أعلنها د.غازى القصيبى ، تطويرا لموقف الراحل نزار قبانى .

ثم إذا بإعلان على شاشة القناة الأولى يشير إلى برنامج يذاع فى الحال عن ذكرى وفاة جمال عبد الناصر ، حيث توفى الرجل فى مثل هذا اليوم أيضا : الثامن والعشرين من سبتمبر ، فإذا شتى الموضوعات تتوارى عن مركز الشعور لدى ، وإذا بى أمعن النظر إلى الشاشة منتظرا وكلى لهفة لرؤية " الزعيم " فى أمثلة من مواقف مختلفة ، مصاحبة ببعض الأناشيد الوطنية التى كانت معاصرة ، وأعيش فى حالة ممن " وجد " غريب ما تصورت أن أعيشه أمام هذه الصور ، خاصة وأننى وجدت نفسى فى السنوات الأخيرة ، شيئا فشيئا أنظر نظرات نقدية إلى ثورة يوليو وزعيمها ، بعيدا عن حالة الانبهار التى لازمتنا عبر سنوات طويلة ، وخاصة بعد وفاته .

والحق إنها لمصادفة عجيبة أن تندلع الانتفاضة الفلسطينية يوم الثامنوالعشرينمن سبتمبر يوم ذكرى وفاة عبد الناصر ، الذى انتقل إلى رحاب الله نتيجة ضغط أحداث سبتمبر الشهيرة عام ١٩٧٠ الخاصة أيضا بالثورة الفلسطينية !

وعندما انتهى البرنامج وجدت نفسى ، لا شعوريا ، أفكر وأمعن التفكير فى هذه الحالة التى انتابتنى ، بل وتنتاب كثيرين ، حتى هؤلاء الذين لم يولدوا قبل عام ١٩٥٢ ، والذين لم يعاشوا أحداث الثورة كلها أو بعضها .

ومن الظواهر الملفتة للنظر حقا هو هذا التراوح الحاد الذى تقفه الكثرة الغالبة من الذين يكتبون عن عبد الناصر ، حتى أنك تجد من الصعب أن تقرأ كتابات يمكن أن تدخل منطقة

الوسط ، فكأن الذين يكتبون ، إما أن يظهروا الرجل وكأنه صاحب أكبر وأضخم قدر من المصائب حلت بمصر ، أو كأنه صاحب أكبر وأروع قدر من المفاخر التى تزين صدر التاريخ المصرى !

إنه المنطق الشهير : ( إما أو ) ، الذى يرى الدنيا : إما أبيض ، وإما أسود ، ويرفض الاعتراف بأن هناك " ألوانا " متعددة ومناطق رمادية ، نرتكب الخطأ نفسه الذى نعيبه على أمريكا هذه الأيام بعد تصريح مسئوليها بأن من ليس معنا ضد الإرهاب فهو مع الإرهاب ! وبالتالى فمن لا يعشق عبد الناصر باعتبارها بطلا نادرا ، فهو إذن لا يحب الخير لهذا الوطن ، ولابد أن يكون من ذوى المصلحة المرتبطة بالقوى الصهيونية والامبريالية أو تلك الفئات فى الداخل التى عاشت أو تريد أن تعيش على الاستغلال والنهب !

أقول هذا غير زاعم للقارئ أن أبت فى المسألة ، فهى قضية لن نستطيع البت فيها ، إلا بعد عدة عقود ، عندما تنتهى تلك الأجيال التى اتصلت بالثورة اتصالا مباشرا ، إما بالاستفادة أو التضرر ، إما بالمشاركة أو التفرج والمعايشة ، وتمر فترة ، لتجئ أجيال أخرى لا تعيش حالة يأس وإحباط كتلك الأجيال الحالية التى يدفعها اليأس والإحباط إلى أن ترى نقيضا لها فى هذه الصور من مواجهة الصهيونية والامبريالية التى قادها عبد الناصر ، لا فى مصر وحدها وإنما فى العالم العربى كله ، فتسارع بالهتاف مع قول القائل : رب يوم بكيت منه ، فلما مضى بكيت عليه !!

إن الذى أستطيع أن أشير إليه ، وهو أن قراءة كم كبير مما كتب عن ثورة يوليو تشير لنا إلى أنها إلى حد كبير تخسر فى المحاسبة فى قضية الديموقراطية والحريات ، وهى ليست قضية بسيطة فى رأينا ، ذلك أنها هى الطرق الوحيد للتحرر الوطنى والنهوض الحضارى ، فأنت لا تستطيع أن تحرر الوطن حقيقة إلا إذا كنت متحررا ، ولا أريد أن " أدوخ " القارئ فى تلك المتاهات التى أغرقونا فيها عن الحرية بالمعنى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، لأشير إلى أبسط وأوضح مظاهرها ، ألا وهى أن أستطيع أن أعلن رأيى دون أن يترتب على ذلك اعتقال أو سجن أو إقصاء عن تولى مناصب تنفيذية أو احتلال مواقع فكرية أو اجتماعية . لقد كانت دولة المخابرات على درجة من التوحش والانتشار حتى ليصدق على على ما تركته من أثر ، هذا الوصف المرعب الذى وصف فيه أحد الكتاب حالة الاستبداد التى قامت فى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ، حيث قال " أن أعظم عظيم فيه – المصريين – كان يخشى أن يحدث نفسه فى سرير نومه بشئ من دواعى الإصلاح خوفا من الطيف أن ينُم عليه " !!

وهناك عدد من المواقف التى تطرف فيها الزعيم أكثر من اللازم فى الوقوف بجانب الشعوب التى سعت إلى التحرر ، سواء من احتلال أجنبى ، أو من سلطة مستبدة ، ولعل الحالة اليمنية هى الأبرز والأظهر ، على الرغم من قلة تناولها وبحثها ، فلربما كان معقولا مد حركات التحرر بالأسلحة وبالمساعدات المالية ، وبعض الخبراء والمدربين ، لكن أن تقوم مصر بتجهيز وتمويل عشرات الألوف من الضباط والجنود خارج الحدود ، وعلى بعد آلاف الكيلومترات من مصر ، فى اليمن ، ولمدة خمس سنوات ، فقد كان ذلك أقوى العوامل التى " أفرغت " مصر من كثير من الطاقات والقدرات ، حتى أصبح من السهل اصطيادها فى سيناء عام ١٩٦٧ ، لتحدث أكبر الكوارث العربية فى تاريخنا المعاصر .!

ثم هذا الذى تكشف لنا عن أن " الجيش " كان دولة أخرى مستقلة ، تحكمه فئة لم تكن التى تفكر فى الجوانب والقضايا العسكرية بقدر ما كانت غارقة مسائل أخرى دنيوية ، فى الوقت الذى تصدينا فيه إلى مناطحة القوى الكبرى !

وعلى الرغم من كل هذا ، فإن الإنسان لا يملك إلا الشعور بالزهو والفخر كلما ظهرت صورة عبد الناصر ، ذلك لأنه يعيد إليها مشاعر حقيقية بالعزة والكرامة إزاء قوى البغى الكبرى ، وخاصة الصهيونية والامبريالية الأمريكية ، أصبح المواطن العربى يفتقدها ، حتى إن لسان حال كثيرين الآن يقول ، فليأخذوا منى لقمة عيشى وملبسى ، ولا أستمر فى هذا الحال الذى نرى فيه الولايات المتحدة تمارس دورا يفوق ما كانت تمارسه بريطانيا منذ أكثر من نصف قرن ، من حيث جرنا إلى مواقف تبعية وذيلية مهينة ، ويستمر العدو الصهيونى يريق دماء عربية على أرض فلسسطين ويدمر ويخرب ، ومظلة من البلادة والهوان تظلل الكثرة الغالبة من البلدان العربية ، ولا ينطق هذا وذاك إلا بكلمات وجمل ، نتمنى ألا ينطق بها ..خيار السلام ..وقف العنف ..الجلوس إلى مائدة المفاوضات .. إلى غير هذا وذاك من كلمات العجزة المشلولين ، والذين يسكن الرعب قلوبهم !

# ماذا فعل الساسة باللغة العربية ؟

عندما يدور نقاش حول ما آل إليه أمر اللغة العربية فى زماننا ، كثيرا ما تتجه أصابع الاتهام إلى كل من التعليم وأجهزة الإعلام ، وننسى عاملا على درجة كبيرة من الأهمية ، ألا وهو الجمهرة الكبرى من الساسة فى العالم العربى الذين ظهروا على المسرح فى النصف الثانى من القرن العشرين .

لقد كان الكثيرون من ساسة الماضى خطباء مفوهين : مصطفى كامل ، سعد زغلول ، مصطفى النحاس ، مكرم عبيد ، وكان منهم أدباء كبار مثل د.هيكل ، ود.طه حسين ، ومفكرن مثل لطفى السيد .. وهكذا بحيث " يتثقف " المستمع إليهم ويكتسب مفردات وأساليب لغوية صحيحة .

ثم دار الزمن دورته فإذا بنوعية من الساسة تظهر منذ قيام ثورة ٥٢ على العكس من ذلك تماما ...

لست من هواة النظر بعين السخط إلى ثورة يوليو ، إذ كنت طوال عهدها من العاشقين لزعيمها الراحل عبد الناصر ، لكن هذا لا يمنعنا من أن نبصر سلبية بعينها هى التى نشير إليها الآن ، إذ يبدو أن التعليم العسكرى لم يكن من شأنه أن يتيح لصاحبه براعة فى اللغة وسلامة فى التعبير .

بطبيعة الحال فلا ينبغى التعميم فى هذا ، فيوسف السباعى مثلا كان عسكريا ، وكان أديبا كبيرا ، وهناك غيره .كذلك فمنذ عدة أيام شاهدت على شاشة قناة الجزيرة شهادة على العصر مع رئيس سوريا الأسبق ، الفريق أمين الحافظ ، وبغض النظر عن الموقف والسلوك السياسى للرجل فإنه كان لا يتحدث إلا بالفصحى ، وهو فى حديثه هذا نادرا ما يخطئ فى كلمة واحدة .

إن أهمية هذا تكمن فى أن حديث الساسة مسموع من الملايين بحكم ما لهم من سلطة اتخاذ القرار ورسم السياسات ، والناس حريصة على أن تسمع لهم كى يعرفوا ما يتصل بحاضرهم ومستقبلهم ، والسامعون هنا يكونون من مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية ، بينما حديث المفكرين والأدباء والمثقفين ، لا يسمعه إلا الخاصة من الناس ، قد لا يزيدون على المئات ، وفى أحسن الأحوال ، آلاف قليلة ، لأن أحاديثهم فى مسائل وقضايا متخصصة للغاية لا تهم إلا هذا النفر المحدود ، وبالتالى فالتأثر بحديث الساسة من الناحية الفكرية واللغوية يكون أشد وطأة وأوسع مدى ، وأطول زمنا.

فإذا جئنا إلى الزعيم الراحل عبد الناصر بصفة خاصة ، فسوف نجد له وضعا خاصا انفرد به دون كل زعماء الوطن العربى ربما على مدى قرون بغير مبالغة ، فبغض النظر عن موقفك منه ، إلا أن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن شعبيته كانت جارفة وشخصيته كانت طاغية ، كان يلقى بأحاديث قد تغير الأحوال والأمور ، لا فى مصر وحدها وإنما ، ربما ، فى بلدان عربية أخرى ، ومن هنا فقد كان الجميع ، من المحيط إلى الخليج يسمعه ، حتى ولو كان يكرهه .

وعندما يتذكر الإنسان الآن بعض خطبه ، يشعر بالحزن الشديد على مثل هذا الأسلوب الذى شاع ، رغم أننا وقتها كنا نهلل ونصفق ونسعد ، فقد كان أحيانا ما يتعمد السب والشتم فى خطب عامة ، وعلى سبيل المثال ، فما زلت أذكر أنه كان يسمى أحد الملك العرب بأنه ابن فلانة ، وهى أمه ، وقال مرة أن هذا الملك " يشدوا ديله " فى عاصمة ملكه ، " يهوهو " فى لندن ! كانت مثل هذه الأساليب تشعل الجماهير حماسة ، وقد يكون هؤلاء الذين يسبهم ساسة على درجة من السوء بالفعل ، لكن أن يُذكروا بهذه الصورة وبهذا الأسلوب فى خطب عامة تذاع بالراديو والتلفزيون فهذا كان نقيصة كبيرة حقا ، مع ما هو معروف من أن هذه الأساليب ترسخ صورا لغوية ومستوى فكريا لا يسعد ، بل يحزن ويؤلم حقا !

# الشوكة الإسلامية فى أوربا

ما الذى يجعل أقلية فى دولة تفكر وتسعى إلى الاستقلال ؟

بطبيعة الحال ، عندما تضيق بهم الحال فلا يشعرون بأن يعاملون مثل بقية مواطنى الدولة بالعدل والمساواة . وآية ذلك أننا نرى الإخوة المسيحيين فى مصر لا يفكرون ولا يسعون إلى شئ مثل هذا لأنهم مواطنون مصريون من الدرجة الأولى ، وهم جزء لا يتجزأ من الشعب المصرى . وهناك كذلك مسلمون أمريكيون فى الولايات المتحدة الأمريكية ، لا يشعرون بأنهم يُعاملون باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية ... وهكذا ، إلا إذا استثنينا هنا وهناك أمثلة لا تكاد تذكر تشذ عن هذه القاعدة العامة .

ومن هنا فإننا عندما نرى مسلمى الشيشان يواجهون الموت ليل نهار عبر سنوات ومع ذلك يناضلون فى سبيل الاستقلال ، وعندما نرى مسلمى البلقان يسعون على هذا الطريق نفسه ، فليس لأنهم يستمتعون بعذاب الحرب والتشرد والجوع والدمار ، ولكن لأنهم يحلمون ، مثل أى إنسان ، بحق الحياة الإنسانية الكريمة كمواطنين من الدرجة الأولى .

وهكذا الشأن بالنسبة لما حدث فى البوسنة والهيرسك ، وفى كوسوفا ، وما يحدث الآن فى مقدونيا ، فالغربيون لم يطيقوا أن يكون هناك كيان سياسى مستقل للمسلمين على الأرض الأوربية ، ولابد من تطهيرها ، والنظر إلى حركات الاستقلال على أنها حركات تمرد ومحاولات انقلاب ، ولكى يمرروا ذلك على الضمير العالمى يستخدمون كلمات ومصطلحات بعينها لا تشير صراحة إلى الحقيقة ، ويسقط إعلامنا بكل أسف وأسى فى المصيدة ويردد الكلمات والمصطلحات نفسها .

ولابد أن نذكر القراء بما كان يُسمى به مجاهدو كوسوفا من المسلمين .. كانوا لا يقولون عنهم إلا "السكان من ذوى الأصل الألبانى " ! وبطبيعة الحال ، فعندما نسمع ونقرأ ونشاهد قوما هذه صفتهم يسعون إلى الاستقلال ، فسوف نسمى هذا انفصالا ، والانفصال أمر مذموم ! ودع عنك الإشارة إلى أمثلة أخرى عكسية حيث يشجع االغربيون الحركات الانفصالية ويسمونها استقلالية كما حدث فى تيمور الشرقية بأندونيسيا وكما يسعون إلى تقسيم العراق ، وخاصة بالنسبة لشمال العراق الذى تسكنه أغلبية كردية .

الشئ نفسه يحدث الآن مع مسلمى مقدونيا ، فالكلمات المستخدمة هى " المقاتلين " ، " الانفصاليين " ، "المتمردين " من ذوى أصل ألبانى ، والحقيقة أنهم مسلمون ، من الدولة نفسها ، لكنهم يعانون من الاضطهاد الذى لا تراه اللجنة الأمريكية التى تفتش فى بلادنا عن

اضطهاد مزعوم للإخوة الأقباط فى مصر ، واستقبلناها بدعوى أن ليس لدينا شيئا نخافه ، وأننا سنؤكد لهم ألا إضطهاد هنا ، ناسين أن المسألة هى مسألة مبدأ : " هل من حق دولة أن ترسل لجنة تفتيش وتحقيق – بعيدا عن التسميات التجميلية مثل "تقصى الحقائق " – لدولة أخرى مستقلة ذات سيادة ؟

حقيقة ، وحدها صحيفة الوفد التى مارست وعيا يجعلها تسمى الأمور بأسمائها ، بحيث نجدها لا تشير إلى أخبار مقدونيا إلا بأنها حملة وحشية تشن على المسلمين ، وفى أخبار ٢٧مارس على سبيل المثال أن القوات المقدونية استخدمت ١٢ دبابة روسية و ٢٢ ناقلة جنود وطائرات هليكوبتر فى حملتها الوحشية لإبادة مسلمى مقدونيا ، ويقف الاتحاد الأوربى وتقف الولايات المتحدة فى جانب هذه الحملة ، ويدعمونها ، وينقل الصحفيون نبأ مقدونى مسلم نجا قوله : " الشرطة المقدونية كانت تقصفنا بالدبابات وتطلق علينا نيران البنادق ، ونحن مدنيين وليس لدينا أسلحة ! "٠٠٠ يا مسلمى العالم اتحدوا !

# تجريف العقول !

مثلما شهدت أرض مصر الزراعية عمليات تجريف واسعة النطاق تاركين أراض صحراوية شاسعة لا نحاول الامتداد فيها ، مما ترتب عليه أن أصبحنا مرهونين للخارج فى لقمة عيشنا ...

ومثلما شهدت - وما زالت - الأرض الفلسطينية عمليات تجريف صهيونية للبيوت والمزارع ، ونصر على الاستمرار فى الادعاء بأن السلام " الكزعوم " هو خيارنا الاستراتيجى ...

يشهد العقل المصرى عملياتت تجريف له ليصبح مسطحا خاويا لا يهتم إلا بالتافه من الأمور ، ولا يحفل إلا بقضايا المعدة والتسلية التى لا تحرك العقول ..ومتى ؟ فى شهر رمضان " الذى أنزل فيه القرآن " !

حاولت عبر الأسبوعين الأولين أن أجلس بعض الوقت أمام التلفاز لألتقط أمثلة تعزز ما نراه بأعيننا يرتكب فى حق عقولنا ، فما استطعت أن أتحمل هذا الهراء والإسفاف إلا دقائق معدودات لبضع الأيام ..

لا أريد أن أشير إلى هذا الإهمال الفاضح للبعد الدينى فى برامج التلفاز ، وهو البعد المفروض أن يغلب ويشيع فى شهر رمضان بصفة خاصة ، ذلك أن الدين ليس " الميزان " ، بل ليس أحد الموازين التى تقدم بها البرامج وتقيم لدى أولى الأمر ، فحتى الأعمال الدرامية التى كنا نعيب أن يقتصر تقديم الوجه الدينى فيها على الجوانب التاريخية فقط ، أصبحنا لا نحظى بها لأنها أبعدت عمدا ومع سبق الإصرار عن الجماهير التى تحب أن تراها حيث اختير وقت عرضها بعد أن يكون هؤلاء قد أخلدوا للنوم ويتسع الوقت فى معظمه للترهات !

ولا أريد أن أشير كذلك إلى البعد الأخلاقى ، من صور الرقص وشرب الخمور والقبلات والأحضان وعلاقات الحب المحرمة ، حتى لا يتهمونا بالتطرف والغلو ، وبأننا ننصب أنفسنا وعاظا وحكاما على أخلاق الناس وضمائرهم وقلوبهم ..

وإنما أشير إلى جوانب عقلية وفكرية وثقافية لا خلاف عليها بين دينى وعلمانى ، أو بين مسلم ومسيحى .. تلك الجوانب التى هى غذاء العقول ، التى نريد لها أن تنمو وتصح ، فينمو المجتمع ويصح أبناؤه ، ويقوى الوطن ، وتتحرر الإرادة .

فها قد أصبح شعبان عبد الرحيم رمزا للنهضة الفنية فى مصر وعنوانا لمدى التقدم فى السنوات الأخيرة ، ليقابلك على الشاشة عدة مرات وتستمع إلى عمق التفكير وعذب الأصوات وأحلى النغمات وتنسى تفاهات عبد الوهاب وأم كلثوم والسنباطى ورامى وزكريا أحمد !!

وتقف ثلاث مذيعات كل ليلة ليقدمن لك ما يغذى العقل بأحاديث – مثلا – مع راقصة مصر الأولى فتستفيد ، بعد يوم من الصيام ، وتحصل على الزاد الضرورى لصلاة التراويح!

وهذه جوائز ضخمة تقدم لتعزيز الثقافة والفكر ونشرهما بين الناس ، فيمكن لك أن تحصل على ألف جنيه إذا أثبت قدرتك العظيمة فى معرفة أسماء الأغانى التى تذاع منها لقطات سريعة ، وبالتالى يمكن لك أن تخرج لسانك " لأجعص " كاتب يكتب مقالا طويلا فى مجلة ثقافية مثل (الهلال) ، يكافئونه عليها بخمسين جنيها قبل خصم الضريبة !

وتستطيع أن تحصل كذلك على ألف جنيه إذا عرفت أن ترتب ثلاثة مشاهد من فيلم تعرض عليك غير مرتبة ، وبالتالى تخرج لسانك أكثر لم يجهد عقله ويكتب دراسة لمجلة ثقافية مثل (سطور) ، دون أن تتقاضى عليها مليما واحدا !

ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

# تسطيح العقول !

على سطوح البحار ، نجد المهملات والقش والقاذورات والميتات ، وفى أعماقه نجد اللؤلؤ والمرجان ومن مخلوقات الله الحية ما يبهر الأبصار وتحار فيه إلناس ..

كذلك ، لدى العقول المسطحة ، نجد الثرثرة واللفظية والتراشق بسئ الكلمات ، وفارغ الكلام والانشغال بتوافه الأمور واجترار الماضى ، ولدى العقول المتعمقة ، نجد الفلسفات والنظريات والفهم والتدبر والتفكير النقدى والوعى والسعى الدائب لمواجهة المشكلات وتصور المستقبل .

ويبدو أن إعلامنا حريص على تسطيح العقول ، لأنه أمر سهل ميسور ، أما تعميق العقول فهو على العكس عسير شاق ، مثلما أن الهبوط من على الجبل سهل ميسور والصعود عليه عسير شاق .

فما من جريدة أو مجلة أفتحها لأقرأها أو قناة تلفزيونية أود مشاهدة برامجها إلا وتصفع عيناى مناقشات حامية الوطيس فى موضوع تحول إلى قضية كبرى تشغل الرأى العام إلى درجة جذبت انتباه أجهزة إعلام أجنبية جاءت لتتابع القضية ونفرح نحن بذلك متوهمين أنه دليل على خطورة القضية ، بينما يتخذه الآخرون برهانا آخر على درجة ومستوى التفاهة التى وصلنا إليها .. إنه الحاج متولى !

مسلسل يقدم صورا فكهة مسلية ، نراها فترفه عنا بعد يوم شاق من العمل والصيام ، من خلال أداء تمثيلى بارع من غير شك ، لا يعكس بأى حال من الأحوال ( واقعا ) نعيشه ، أو مشكلة تؤرق مضاجعنا ، يقوم على المبالغة مثلما يفعل رسام الكاريكاتور ، فهذه الشخصيات التى يقدمها مثلا البارعان أحمد رجب ومصطفى حسين ، ولتكن شخصية " الكحيت " الذى يعتذر لزوجته بأنه لم يشتر كذا وكذا لأنه كان قد نسى " الكريدت كارد " ، هل يتصور أحد أنه موجود بالفعل ؟ كلا ، ولكن هناك نمط بالفعل من أصحاب " فقر وعنطزة " ، فيجئ هذا الكاريكاتور ليسخر من هذا النمط ويضحكنا من خلال تلك المبالغة الواضحة .

تداعت كل هذه الخواطر أمام ناظرى وأنا أشاهد مذيعة إحدى قنواتنا وهى تستطلع رأى العديد من الجماهير لا عن المسلسل مثل منطقيته ، وما إذا كان به ثغرات أم لا ، وعن الحوار ، والتمثيل ، والديكور ، وهكذا ، وإنما عن : هل يمكن بالفعل الزواج بأربع نساء ؟!

وتكتب مقالات ، وتحقيقات وأعمدة تناقش قضية تعدد الزوجات ، وهى قضية لم يعد لها وجود فى حياتنا ، ويتصدى بعض إلى الإفتاء فى هذا الموضوع فينزلق إلى ما لا يجوز دينيا من الآراء .

ألا إنها جريمة كبرى فى حق عقول جماهيرنا ، لا من قبل من قدموا لنا هذا المسلسل ، وإنما ممن حرصوا على توسيع دائرة المناقشة وإطالتها فيما لم يقصده المسلسل ، إنه لم يقصد أن يحلل أو يحرم تعددا فى الزوجات ، ولكنه مسلسل " كاريكاتورى " لا يقدم فكرا حقيقيا بقدر ما قصد الترفيه والتسلية .

ويبدو أننا سلمنا بعجزنا وألا فائدة من مواجهة هذا الكم الكبير من مستنقع المشكلات المزمنة التى تحيط بنا فأقلعنا عن التفكير فيها ...مشكلة البطالة التى تخنق ملايين الشباب .. مشكلة العجز العربى المخز فى مواجهة الإرهاب الصهيونى .. الانسياق الأعمى وراء شيطان العصر ، الولايات المتحدة فى محاربة كل من يقف فى طريقها بحجة الإرهاب .. التدهور المستمر فى قيمة الجنيه المصرى .. الدروس الخصوصية التى تلتهم مليارات الجنيهات سنويا .. إلى غير هذا وذاك من مشكلات وقضايا ..

اللهم نسألك ألا نكون من هؤلاء الذين قلت عنهم : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . إنهم كالأنعام ، بل هم أضل . أولئك هم الغافلون " الأعراف / ١٧٩ .

# رسالة إلى المندوب السامى الأمريكى

وددت لو بدأت رسالتى إليك بتحية الإسلام التى هى " السلام " لكنكم تعلنون - عملا وتطبيقا - فى كل لحظة أن " الحرب " هى وسيلتكم الأساسية فى محاربة الإسلام والمسلمين ، وإن كنتم - أحيانا - تعلنون ـ شفاهة ونظريا - أنكم لا تستهدفون الإسلام والمسلمين ، ولكن " الإرهاب والإرهابيين " ، وعندما نفتش واقع الحال ، نجد صور إرهاب وترويع كثيرة من غير مسلمين ، تغمضون أعينكم عنها ، بل وأحيانا ما تساعدونها وتغدقون عليها كل ما يعين على الترويع والقتل والمطاردة والتخريب ، مما يعنى أن " السلام " فى شريعتكم هو للأمريكيين وحدهم ، ومن يواليهم .

أعرف أن رسالتى هذه إليكم - غالبا - لن تقرأها ، فقد تعودت آذانكم على سماع وقراءة ما يماثلها مضمونا من حيث النقد لكم ، والصراخ فى وجوهكم ، وتعرية مقاصدكم ، وكشف زيفكم وأكاذيبكم ، ومن ثم فلن تحرك شعرة فى رأسكم ، ومع ذلك أكتب إليكم لأن الله أمرنا أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر أينما كان ووقتما حدث .

وأعرف كذلك أن نفرا من بيننا ممن يقفون موقف السلطة ، قد يستنكرون تسميتى لك " بالمندوب السامى " على أساس أن هذا لقب كان يطلق على مندوب الاحتلال البريطانى فى مصر من قبل ، أما الآن فمصر دولة مستقلة ، وفقا للأعراف والمواثيق الدولية ، ومندوبو الدول " الأجنبية " لدينا هم سفراء وقناصل ووزراء مفوضون .. نعم أعرف ذلك ، لكن السياسة الدولية تعرف كذلك ما يسمى " بالأمر الواقع " ، والأمر الواقع الذى نعيشه ونلمسه أنك قد أصبحت بالفعل " مندوبا ساميا " للولايات المتحدة على أرض مصر التى كانت " محروسة " ، ولا أريد أن أستطرد لأسوق الوقائع والأحداث والبراهين على أنك تتصرف بالفعل وكأنك مندوب سامى ، والجمهرة الكبرى من المصريين يعلمون هذا ويتيقنونه ، لكن حكامنا بطبيعة الحال ينفون ذلك ، وهذا أمر طبيعى لأن الاعتراف يكشف حقيقة موقفهم ، فتسقط الشرعية عنهم .

إننا نعلم علم اليقين أن هناك الكثير مما اخترعه علماؤكم مما يدخل فى باب " من بعد " ، فهناك " التعليم من بعد " ، حيث يتم تعليم الناس وهم فى مواقع عملهم أو إقامتهم ، دون حاجة إلى الانتظام فى قاعات وفصول دراسية واحتكاك مباشر بالمعلمين ، ونمارس يوميا مشاهدة التلفزيون ونقوم بتحريك القنوات ، " من بعد " ونحن جالسين على الأرائك دون

ضرورة القيام بأنفسنا بلمس المفاتيح ، وهناك من يفجرون سيارات مفخخة " من بعد ...وهكذا

الشئ نفسه قد أصبح فى عالم السياسة ...ليست هناك ضرورة لما حدث - مثلا - فى الرابع من فبراير ١٩٤٤ عندما اقتحم اللورد كيلرن أسوار قصر عابدين ، ليملى مطالبه على الملك فاروق ، وإلا عزله عن العرش ، وأصبح هناك العديد من الوسائل الى لا يتسع لها المقال لذكر أمثلة لها ، يمكن عن طريقها فرض هذا أو ذاك من مطالب السياسة الأمريكية من غير قوات مسلحة ولا طائرات تضرب ، ولا إنذارات توجه ..." من بعد " ، وإن أنسى فلن أنسى منظر رئيسكم ، قبل حتلال العراق ، وفى فترة احتدام المعارك بين قوات المقاومة الباسلة الفلسطينية وبين قوة العدو المحتل الصهيونى ، وهو يوجه كلمات إلى زعماء وحكام المنطقة بضرورة أن يسعوا إلى التعاون للقضاء على ما اسماه " الإرهاب الفلسطينى " ، حيث استخدم عبارة " they must " ، " يجب عليهم " ، وكانت نبرات صوته وتعبيرات وجهه تؤكد أنه يلقى بأوامر ، وبعدها بدأنا نسمع من مسئولين عرب مشاركة فى وصف الاستشهاديين بالانتحاريين ، وغير هذا وذاك من مظاهر الرضوخ للأمر ..وما خفى كان أعظم ، كما يقال !

معذرة لهذا الاستطراد الطويل الذى جعلنى أؤجل القضية الأساسية التى كتبت بسببها هذه الرسالة ...

فى أحد أيام الشهر الماضى ، كنت أقف بسيارتى أمام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجاردن سيتى بالقاهرة ، ولما انتهيت من المهمة ، سرت بالسيارة فى طريق كنت قد اعتدته كلما انتهينا من جلساتنا بالمجلس فأتجه إلى الشارع المجاور للسفارة البريطانية ، وكأنى قادم من على الكورنيش ، ثم أدخل يسارا - مع السور - فى اتجاه شارع أمريكا اللاتينية ، متجها إلى خلف فندق سميراميس ثم إلى كورنيش النيل متجها إلى مصر الجديدة.

ثم إذا بى أجد ، وقبل باب السفارة البريطانية ، الطريق قد تم إغلاقه تماما بحواجز ضخمة ، فيضطر الإنسان إلى " اللف " ودخول شارع قصر العينى ، ليدخل فى " معمعة ميدان التحرير وما يستتبع هذا من تضييع لوقت ، واستهلاك للوقود ، وتوتر عصبى ، وزيادة فى الازدحام ...إلخ

أقول لك الحق ، وبدون أن تضطروا إلى الإيحاء باعتقالى واستجوابى ، أننى ساعتها شعرت بأن الدم يغلى فى عروقى ، أن أرى قطعة من بلدى قد أصبح محرما على أن أسير فيها ، ووددت لو كان معى قوة تفجير لأقذف بها على سفارتكم وأدمرها تدميرا ، لكن من

حسن حظكم أن كاتب هذه السطور يسير بعكاز ، فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا وأصبح غير قادر على أن " يهش ولا ينش " ، فضلا عن أنه أصلا ، يصاب بالرعب إن رأى دجاجة مذبوحة !!

بطبيعة الحال فإن الرد على ملاحظتى معروف ، وهو " لدواع أمنية " ! لكن السؤال هو : لماذا تعيش السفارات الأمريكية فى معظم أنحاء العالم فى حالة خطر وتهديد ؟

إن ما أدهش له حقيقة ، أننا جميعا نقر ونعترف للولايات المتحدة بأن لديها أضخم طاقة علمية شهدها التاريخ ، لكن هذا نفسه يطرح تساؤلا مهما : ألا يفرض المنهج العلمى فى البحث والتفكير أن نفتش عن العلل والأسباب ؟ هل ولد هذا وذاك ممن يهددون مصالحكم بالتدمير وأشخاصكم بالقتل مفطورين على كراهيتكم ؟ بطبيعة الحال ، كلا ، فمن أعمالكم يسلط عليكم ..إنه سنة الله فى خلقه : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره !

انظر إلى آخر جريمة ارتكبتموها فى حق العرب والمسلمين ، بل وفى حق البشرية على وجه العموم ، فماذا كان العراق يفعل للإضرار بكم منذ عام ١٩٩١ حى مارس عام ٢٠٠٣ ؟ لا شئ ! لقد ملأتم الدنيا ضجيجا وصراخا ، لتصوروا للعالم أن العراق أخطر نظام فى العالم ويملك أسلحة دمار شامل ، واليوم انكشف أنكم كذبتم على الدنيا كلها ، وها أنتم تحتلون العراق منذ أكثر من ست شهور ولم يعثر أحد على هذه الأسلحة المزعومة ، فماذا كانت إحدى النتائج ؟ يقتل كل يوم ، جندى أمريكى على الأقل !

كفوا عن خداع أنفسكم وخداع العالم ، فمن ينتقمون منكم يوميا على أرض العراق ليسوا مجرد أتباع لنظام سابق ، إذ لو استفيتم المواطنين العرب فى كل مكان فسوف تجدون أن الكثرة الغالبة ، وفى مقدمتهم كاتب هذه السطور ، تتمنى أن لو أتيحت لها الفرصة كى تشارك فى مقاومة احتلالكم لهذا البلد الغالى العظيم ، ألم تكن تلك هى القاعدة على مر التاريخ ، عندما يحتل جيش أجنبى بلدا آخر غير بلده ، يهرع المواطنون إلى مقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة ؟

كفوا عن خداع أنفسكم وخدع العالم ، فأنتم لا تحررون بلدا ، ولا تساعدوا شعبا ، وطالم استمر خداعكم لأنفسكم وخداعكم للعالم فسوف تستمر الكراهية لكم وتستعر وتنمو ، وتزيد المقاومة وتتنوع !

# العقاد يتهم الخولى !

عمالقة الفكر على وجه العموم هم نجوم تتلألأ فى سماء الثقافة يستضى بنورها السائرون على الطريق أمثالى وأمثال آلاف آخرين عشقوا الثقافة وندبوا حياتهم للاغتراف من معينها اعتقادا بأن الثقافة هى الميزة التى تميز الإنسان عن غيره من مخلوقات الله ، وهى التى تكسب الإنسان صفته الإنسية ، حيث أن صفته البيولوجية التى يولد بها ليست هى المميزة لشخصيته بين العالمين ، وإن كانت " بنية أساسية " للشخصية الإنسانية .

وعمالقة الفكر بهذا الدور ، ترنوا إليهم الأبصار وكأنهم نماذج ومثل عليا برأت من الشوائب والأخطاء ، حتى إذا رأينا واحدا منهم يمسك السكين مندفعا إلى الطعن فى آخر أصابنا فزع عظيم مرتين ، مرة لهذه الصورة المشوهة لنموذج وثقنا فى علمه وفى فكره كثيرا ، فإذا بهذه الثقة تهتز ، خاصة وأن الكاشف عن ضعفها ، عملاق من عمالقة الفكر .

ومرة أخرى : كيف يبدو المفكر العملاق النموذج هكذا حريصا أشد ما يكون الحرص على تمزيق جثة العملاق الآخر ، أما كان الأفضل له أن يحادثه بخطئه الذى ظنه ، مواجهة شخصية بدلا من " فرش الملاية " - حسب التعبير العامى - على صفحات الصحف التى يقرؤها مئات الألوف من القراء الذين ، من فرط ثقتهم به قد يصدقونه ، بينما قد يكون هو مبالغا ، أو " مفتريا " فيما ساقه من اتهامات ؟!

بعض المحللين النفسيين يؤكدون أن عمالقة الفكر هم قبل كل شئ بشر لا يستطيعون أن يتعروا من خصيصة أساسية فى الطبيعة الإنسانية ، ألا وهى " الغيرة من نجاح الآخر " ، وهو ما يُعرف بالغيرة المهنية ، لكن البعض يدفع هذا بأن العملاق المهاجم يتمتع أصلا بالتفوق والشهرة والاعتراف بأنه علم على أعلى درجة من العظمة ، فما الذى يدعوه إلى الغيرة من عملاق جديد بدأ يصعد إلى العلا ؟ ويكون الرد أن العملاق ، على الرغم من تبوئه مكانة رفيعة معترف بها من الجميع يريد أن يكون فريدا فى مجاله ، وهذا أثر من آثار الاستبداد الذى تعيشه المجتمعات المستبد بها ، فكما أن هناك حاكما واحدا يستأثر بالسلطة وله وحده الأمر والنهى ، فإن هذه النزعة العدوانية فى حق الشعوب ، يتوحد بها المستبد بهم ، حيث لا قدرة لهم على رد المستبد عن استبداده ، ويمارسون هم كذلك صورة أخرى من صور الاستبداد ، ويتصورون بالفعل أن الواحد منهم يجب أن يكون " الحاكم " الوحيد فى مجاله ، لا ينبغى أن يسمح لآخر أن يشاركه التفوق والعظمة ! ولعل أقوى ما

يؤكد على صحة هذا التفسير ، أن هذه النزعة التى لمسناها ، ولا نزال ، قد لا توجد إلا فى البلدان التى تعيش تخلفا حضاريا ٠

وقد يقول قائل أن هذا الذى نصوره على أنه هجوم هو صورة من صور النقد الذى لابد منه حتى تتضح الحقائق أمام الناس ، وهذا رد معقول ، لكن ما يشيبه حقا هو تلك اللهجة الحادة فى النقد التى قد تصل إلى حد ( الشتم ) ، واستخدام بعض الجوانب " الشخصية " فى النقد مما لا علاقة له مباشرة بموضوع النقد ، وقد لمسنا هذا فى الكثير من المعارك الفكرية التى نشبت بين مفكرينا الكبار أمثال طه حسين والعقاد والرافعى وزكى مبارك وغيرهم ٠

وربما كان العقاد أكثر من غيره أشد النقاد حدة طبع واستخدام الكلمات القاسية الجارحة٠ ولعل المعركة المثال التى نسوقها هذه المرة خير برهان على ذلك ٠

ففى عدد جريدة الأخبار الصادر فى ١٩٦٢/١٢/١٩ ، كتب العقاد تحت عنوان ( عبث لا يسكت عليه ) مفتتحا هجوما شرسا على الشيخ أمين الخولى ، العالم الأديب الكبير ، صاحب مدرسة الأمناء التى تخرج منها نفر ممن تعتز بهم الثقافة العربية وتفخر ٠

فالعقاد يشير إلى مقال كتبه الخولى فى باب " السياسة ومالك " دون أن يشير إلى مصدر النشر وتاريخه حتى يمكن الرجوع إليه ٠ والجزء الهام الذى كتبه الخولى وأثار العقاد هو ما نصه – وفقا لرواية العقاد :

" وكذلك الأمر مع الرشيد ، يوشك أن يشد فيتردد فى إتيانه حينما دعاه وهو بالمدينة ، ثم يرخى ويأتيه أخيرا ، لكنه يشد فى حديث السفرجل ( شجر مثمر من الفصيلة الوردية )، إذ أرسل إليه الرشيد ينهاه أن يحدث بحديث معاوية فى السفرجل ، وهى الشنشنة الحمقاء من الحكام دائما ، إذ يحسبون أنهم يطمسون الحقيقة ويمحون ما فى الكتب ، وذلك أن حديث السفرجل هذا يذكر أنه أُهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سفرجل ، فأعطى أصحابه واحدة منها واحدة ، وأعطى معاوية ثلاث سفرجلات ، وقال له : ألقنى بهن فى الجنة ٠٠ وهو وجه من الفضل لمعاوية رأس الأمويين أعداء العباسيين ٠ فلما جاء النهى مالكا ، تلا قوله تعالى : " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " ٠

ثم قال : والله لأخبرن بها فى هذه العرصة ( ساحة الدار )، حدثنى نافع بن عمر قال : " كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأهدى إليه سفرجل " الحديث ٠

وإلى هنا ينتهى النص الخاص بأمين الخولى ، فماذا كان تعليق العقاد ؟

قال فيه أنه مكذوب على كل من ذكر فيه : مكذوب على الله ، وعلى النبى ، وعلى مالك ، وعلى هارون الرشيد ، وعلى نافع ، وعلى ابن عمر ، وعلى المذكورين والمحذوفين ممن ينسب إليه !!

وتفصيل هذا الحكم العام ، وفق براهين العقاد هى :

- يتهم الخولى بالكذب على الله ، بأنه حذف جزءا فى وسط الآية الكريمة التى نقلها ، وهو قوله تعالى " فى الكتاب " ، بعد " ما بيناه للناس " ، وتمام الآية الكريمة بنصها هو : " إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون " البقرة / ١٥٩

ويؤكد العقاد أن حذف هذا الجزء من الآية الكريمة ، وليس هو فى نهاية الكلام ، لأنه لو ذكر كما جاء فى القرآن الكريم " لثبت افتراء الخبر على مالك رضى الله عنه ، لأن مالكا يعف عن الخلط بين الحديث والكتاب ، فلا يجترئ على جعل الحديث من الآيات المنزلة فى القرآن " .

والحق أننا نتبين هنا كم تدفع طبيعة العقاد العنيفة إلى المبالغة والتهويل ، فإذا سقطت كلمة أو اثنتين من آية قرآنية ، فهذا بالفعل لا يصح ، لكن هل يبيح لنا هذا أن نتهم الكاتب بتعمده الحذف وبالتالى الكذب على الله ؟ لا نظن ذلك أبدا ، ألم يكن العقاد عارفا بما يحدث من أخطاء مطبعية ، على الرغم من المراجعة أكثر من مرة ؟ إننا نقع فيها حتى الآن ، وإن بدأت تختفى بعد أن أعاننا الكومبيوتر بأن يكون نص الآية مصورا مباشرة بالرسم العثمانى من المصحف ، لكننا من غير هذا لم نسلم أبدا من وجود بعض الأخطاء .

ومما يؤكد لنا أن الخولى لا يمكن أن يتعمد هذا ، هو معرفته مقدما بأن هناك آلافا من الحافظين لكتاب الله لابد أن يكتشفوا الحقيقة ، وبالتالى فلم لم يضع العقاد التفسير الأقرب للمعقولية وهو أن تلك " غلطة مطبعية " ، أم أن عين السخط تبدى المساوئا ؟ !

ثم : هل النقل عن مالك بأنه تلا قوله تعالى ، ثم إتباعه هذا بحديث يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنص مستقل عن الآية ، فيه خلط بين القرآن والحديث ؟ أليس فى هذا تجاوز فى النقد ؟ !

- أما بخصوص اتهام العقاد للخولى بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيبينه بأن ليس فى الروايات الصحيحة خبر عن قصة السفرجل بحذافيرها ، وأن جميع المصادر انى ألفها الثقات عن الأحاديث الموضوعة قد ذكرتها بين الأحاديث المكذوبة وعقب عليها بعضهم بلعن الكذابين .

ويقدم العقاد هنا برهانا من التاريخ ، غير البرهان الخاص بأقوال الرواة الثقات وغير الثقات ، ذلك أن الخبر يروى عن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه أنه أهدى السفارج إلى النبى صلوات الله عليه . ومن المعروف أن جعفرا قُتل فى غزوة مؤتة فى شهر جمادى الأولى ، وأن معاوية بن أبى سفيان أسلم بعد فتح مكة فى شهر رمضان ، وبالتالى فهناك خمسة شهور على الأقل بين مقتل جعفر وإسلام معاوية .

لكن الملاحظ أن شيخنا الخولى لم يشر إلى اسم جعفر ، واستخدم صيغة المبنى للمجهول عندما قال أن النبى أُهدى إليه السفرجل ، ولا نستطيع أن نمضى مع العقاد فى اتهامه الخولى بأنه تعمد ذلك ، فمن الممكن أن يكون الرجل قد أخطأ لعدم التحقيق الكافى ، ويبرر العقاد حكمه :"حتى يمر كذبه على الناس غير المدققين فى كثير من الأحيان ، لأن ذكر اسم جعفر يكشف التناقض الواضح فى متن الحديث المنسوب إلى رسول الله ، وفى ذلك كتب الإمام الشوكانى فى كتابه ( الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة ) بعد إيراد ذلك الحديث المكذوب: "وجعفر قتل فى مؤتة ومعاوية إنما أسلم عام الفتح ، فلعن الله الكذابين "

وهنا ، دون أن يكون قصدنا الدفاع عن الخولى ، نشير إلى أمر آخر شائع مع الأسف الشديد ، حتى بين المفكرين والمثقفين الذين لم يتخصصوا فى علوم الحديث ، ألا وهو ترديد أقوال تنسب إلى رسول الله ، بينما تكون موضوعة ، خاصة إذا كان معناها مما يتفق وتوجيهات الإسلام ، بل كثيرا ما تعرض بعض مشايخنا المتخصصين فى العلوم الدينية – دون علوم الحديث – إلى شئ من هذا . وأذكر أننى كتبت بحثا مرة عن الشخصية السوية فى السنة النبوية عرضته فى أحد المؤتمرات ، استخدمت فى موقع منه أحاديث اعتمدت فيها على مرجع لعالم دين كبير من علمائنا ، فإذا بالمعقب عليه فى المؤتمر ، يؤكد أنها ليست أحاديث صحيحة ، ولم يكن لدى أدنى شك فى صحتها ما دام المستخدم لها هو هذا العالم الكبير ، وعلى الرغم من هذا ، فلا يمكن أبدا أن أشكك فى الرجل وأبادر إلى اتهامه بالكذب على رسول الله !

ويشيع فى كثير من كتابات التربية الإسلامية التى يكتبها أساتذة تربية فى كليات التربية أقوال منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، مثل:" اطلبوا العلم ولو فى الصين "، و" اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد " على أساس أنهما من الأحاديث النبوية ، وقد نبهنى مرة صديق فاضل من علماء الدين أنهما ليسا كذلك .

– ولعل أخطر تهم العقاد للخولى ، هى أن موطأ مالك يخلو من ذكر الحديث الذى أشار إليه الخولى ! لكن تطرف العقاد يطل برأسه مشيرا إلى أن أقوى الأدلة أن الإمام مالك لا

يجعل الحديث من الآيات البينات المنزلة فى القرآن الكريم ، نقول أن هذا الاتهام قد تطرف ، لأننا لا نجد فى ما قاله الخولى ما يشير إلى أنه قال بذلك حقيقة .

– وبالنسبة لاتهام الخولى بالكذب على الخليفة هارون الرشيد الذى وصفه الخولى بالحماقة فإن الرشيد لم يكن بالذى يجهل الخبر عن مقتل جعفر بن أبى طالب ، وهو على علمه وعلم عترته بتاريخ أهل البيت رضى الله عنهم .

– وبخصوص الكذب على نافع وابن عمر ، فيظهر من أن الخبر لم يرد فى موطأ مالك ، والمصدر الوحيد الذى جاء به هو فى رواية يعيش بن هشام ، الذى قال عنه الدارقطنى " إنه يروى الغرائب " ، وكل أفراد إسناده بين ضعيف ومجهول .

وهناك عدد غير قليل كذب هذا الحديث ، منهم الخليل الذى وصفه بأنه " منكر جدا " ، والحافظ الذهبى قال إنه موضوع ، والسيوطى قال إنه لا أصل له ، ولم ترد الإشارة إليه حيث وردت من كتب التحقيق إلا ليلحقه بدعوى إبطاله أو تضعيفه ، أو لعن راويه .

وإذا كان هذا ما يتصل بنقد العقاد من حيث ما اعتبره ضعف قدرة الشيخ الخولى فيما يتصل بتحقيق النصوص ، فإن العقاد رأى أن الحاجة أشد إلى كشف ضعفه فى التحقيق التاريخى . والموضوع الذى حقق فيه العقاد هنا ما كتبه الخولى عن أبى حيان التوحيدى . ويبدو أن الذى استفز العقاد هو أن كتابة الخولى جاءت نقدا منه لما ذكره العقاد فى كتابه عن ( عبقرية الإمام ) ، فماذا كتب الخولى ؟

" لكن التاريخ ينكر هذه الصورة ( اعتبار عليا بن أبى طالب فارسا )، إذ يعلن حكم الرسول عليه السلام أن عليا راجلا – من المشاة – خير منه فارسا ، ويروى ذلك فى حادثة كانت يوم بدر إذ قال على للمقداد : اعطنى فرسك أركبه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقاتل راجلا خير منك فارسا . فركب على الفرس ووتر قوسه ( شد وتره ) ورمى فأصاب أذن فرسه هو ، فصرمه ، فضحك النبى صلى الله عليه وسلم حتى أمسك على فيه ، فلما رأى على ضحكه ، غضب ، فسل سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل أن يرجع .. فقال على : " لو أصابنى شر من هذا كنت أهله .." .

وتبلغ قسوة العقاد ذروتها حين يعقب على رواية الخولى هذه بقوله :

" والتاريخ يطأ هذه القصة بنعليه سبع مرات ، إن كان له نعلان ، أو بقدميه إن كان حافيا كما ينبغى أن يكون فى صورة الغلاف ، إذا كتب على هذا المنوال ! "

أما الأدلة التى قدمها العقاد مكذبا بها قول الخولى فمنها :

١- الرواية التى استند إليها الخولى هى رواية أبى حيان التوحيدى الذى اشتهر بين ثقات أهل السنة والشيعة بأنه " ملحد زنديق " ، والحديث الذى نسبه إلى رسول الله لم يرد فى سند صحيح ٠

٢ - أن حكم النبى للإمام على بالفروسية نعرفه فى توليته إياه قائدا للفرسان فى خيل اليمن - وفيهم خالد بن الوليد - بل نعرف أن النبى لا يحكم عليه بنقص الفروسية من رواية أبى حيان نفسه ، لأن من يقتل ثمانية فى كرة واحدة إنما هو فارس من طراز متميز ، قادر على القتال ٠

٣ - أن الرواية تنفى عن على أنه ( واتر ) إن صح ما زعمه راويها ، فماذا بقى له بعد نفى الفروسية والرماية عنه ؟ ولماذا ( يوتر ) الفارس القوس وهو على ظهر فرس يعدو به إلى ملتقى الصفوف ؟

٤ - أن راكب الفرس لا يستطيع - حتى لو أراد - أن يصيب أذنه بوتر يطلقه من قوسه على أى وضع من الأوضاع ، لأنه يرفع القوس ويمد يده مدا يجاوز المسافة بين مكانه على ظهر الفرس وموضع أذنيه ، اللهم إلا إذا كان على قد أراد أن يضحك رسول الله عليه ، فيستهدف الأذن عامدا ، وليست أذن الفرس من الطول بحيث تبلغ آذان الحمير !

٥ - أن عليا لا يعصى النبى وأن النبى لا يستهزئ به ولا يبلغ من استهزائه به أن يضحك منه حتى يمسك فيه !

٦ - أن الإجماع متفق على أن البنى صلوات الله عليه لم يكن فى وقعة بدر بالحالة التى يفرغ فيها لهذا الضحك وهذا الاستهزاء ، فقد كان يواصل الدعاء إلى الله ينصر المسلمين ٠٠ إلخ

إنها مساجلات ، مهما تجاوزت أحيانا الحدود فقد كانت تثرى القراء حقا وتبعث الحيوية فى الجسم الثقافى ، وهو الأمر الذى أصبحنا نفتقده كثيرا ٠

# شعلة لا تنطفـئ !

عقب استقالته من الأزهر فى شهر مارس من عام ١٩٠٥ ، أو بمعنى أصح ، عقب إكراهه على هذه الاستقالة ، كان الشيخ محمد عبده يسير مرة مع تلميذه الذى أصبح فيما بعد أستاذا للفلسفة الإسلامية ووزيرا للأوقاف ، وشيخا للأزهر ، الشيخ مصطفى عبد الرازق ، قال الأستاذ : يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيبا لشهواتهم ترتع حيث تشاء ، إلا أننى ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ ، إن لم تلتهب اليوم أو غدا ، فستلتهب فى ثلاثين عاما وستكون ضراما !!

وصدق الحدس المبنى على عمق البصيرة ودقة الفهم على مر الأيام ..

فالشعلة التى لا تنطفئ هى الإصلاح والتجديد فى الفكر الإسلامى ، وفى مؤسساته ونظمه ، لأن التجدد والتطور هو سنة من سنن الله فى خلقه ، ومطلب دينى لا تخطئه عين سلم قلب صاحبها ، وعقله وحسه ، حتى يمكن للإسلام أن يتمكن على الأرض ، ويتمكن أهله من أن يكونوا أعزة كرماء ، إذ لن يكونوا كذلك إن لم يكونوا أقوياء ، ولن يكونوا أقوياء بالجمود والتخلف ، ولا بمجرد الأمانى والأحلام .

ولسنا فى معرض هنا تناول ما دفع شيخنا الإمام إلى الاستقالة ، فأحاديث ما فعله الخديوى عباس حلمى الثانى ، تمتلئ بها صفحات عديدة ، وخاصة فى تاريخ الأستاذ الإمام الذى حرره تلميذه الأثير الشيخ محمد رشيد رضا ، وربما نكتفى بما قصه البعض من أن حمودة (بك) عبده ، أخو الأستاذ الإمام لما سلم استقالته إلى الأستاذ الشيخ الشربينى فى الأزهر ، قال هذا : ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتى ؟ لقد كنت مغتبطا بمعونته فيما نهضت له . ألا من سبيل إلى صرفه عن عزمه ؟ فأجاب الرسول : إن الشيخ مصمم على تنفيذ نيته ، وهو على ذلك كلفنى أن أخبر فضيلتكم بأنه رهن إشارتكم فى كل ما تندبونه له .

وقد تأوه الشيخ الشربينى ، وقال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! وظهر عليه التأثر الشديد . وفى الحقيقة فإن الشيخ الشيخ الشربينى لم ينتبه للسبب الحقيقى لاستقالة المفتى ( محمد عبده ) من الأزهر . فالشيخ عبده رأى أن التعريض القاسى الذى ورد فى خطبة الخديوى للاحتفال بإلباس الشيخ الشربينى الخلعة يقضى عليه بالاستقالة .

وقد أصيب تلاميذ الأستاذ الإمام بصدمة عنيفة لاستقالته وابتعاده عن التدريس بالأزهر ، حتى ليروى شيخنا مصطفى عن أيام دراسته عام ١٩٠٥ ، فى شهر مايو ، عندما ترامت

إليهم أنباء مرض الإمام : "أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعما ولا أشعر بفائدة فى تكوين ملكة ، ولا تهذيب ذوق لهذه الأبحاث المجدبة التى أفنى فيها حياتى جاهدا" .

ويضيف إلى ذلك قوله : " أنا أستيقظ من نومى قبل أن تشرق الشمس ، فما أزال أنتقل من حلقة أستاذ إلى مشاركة رفيق فى مطالعة إلى انفراد بالدروس حتى آوى إلى مخدعى قبيل نصف الليل فاتر القوة ... وليس لى من سلوة فى ثنايا هذا العناء المتتابع لا من لذة العمل فى نفسه ولا من ثمرته " .

كذلك فإن ما يهمنا بالدرجة الأولى أن يقف القارئ معنا على صفحات مهمة من صفحات جهود الإصلاح والتجديد فى الأزهر وفق رؤية واحد من أبرز شخصياته ، ألا وهو الشيخ مصطفى عبد الرازق فهو حقا يعد خير " شاهد على العصر " ، من خلال تلك الصفحات العديدة التى نشرها له أخوه الشهير الشيخ على عبد الرازق ، صاحب القنبلة الفكرية المعروفة ب ( الإسلام وأصول الحكم ) ، والتى أظن أنه لو كان على قيد الحياة الآن ، لحظى عنها بغير شك بجائزة نوبل !

وهذه الصفحات كان شيخنا " مصطفى " قد نشرها بدءا من الثانى من مايو عام ١٩١٤ ، على حلقات على صفحات ( الجريدة ) ، وهى صحيفة كانت تنطق بلسان حزب الأمة الذى ظهر على المسرح السياسى المصرى فى أوائل القرن العشرين ، وكان رئيس تحرير هذه الصحيفة هو المفكر العملاق : أحمد لطفى السيد الذى اشتهر بلقب ( أستاذ الجيل ) ، وكان عنوان هذه الصفحات ( صفحات من سفر الحياة ) ، وبطلها الأساسى شخصية خيالية أسماها شيخنا ( الشيخ حسان عامر الفزارى ) ، ومع ذلك فإن التأمل فيها يكاد يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن شيخنا قد أودع فيها الكثير من الوقائع الخاصة به هو ، ويتسق هذا مع عادة كثير من مفكرى وأدباء هذه الفترة وما بعدها من حيث التخفى وراء اسم مستعار ، وأبرز من يمكن الإشارة إليهم فى هذا ، الدكتور محمد حسين هيكل عندما كتب رواية زينب حيث وقعها باسم " فلاح مصرى " إن لم تخنى الذاكرة ، وكذلك د.عائشة عبد الرحمن التى اشتهرت باسم ( بنت الشاطئ ) ، وغيرهما كثيرون .

ويهمنا من هذه الصفحات ما رواه شيخنا عن حركة الإصلاح والتجديد وخاصة على يد الشيخ محمد عبده ، الذى أشار إليه بلقب ( الشيخ الفتى ) ، مثلما كان الشيخ رشيد رضا يشير إليه بلقب ( الأستاذ الإمام ) ، وكان مما قاله الإمام وهو فى درس دلائل الإعجاز وذكر صناعة الإنشاء وتهاون الأزهريين بها فى ذلك الوقت ، مما يجدر بنا التوقف أمامه لخطورته ، على الرغم من طوله :

" باطل ما يقولون من أن ملكة البيان سهلة التحصيل هينة الخطر وإن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا ويكتبوا فيجيدوا ٠

لا وربك ، إنهم لأعجز شئ عن أدنى مراتب البلاغة ، وإن أدمغتهم لمحشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته ، ولكنها خلو من ذوق البيان ، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة ، تلك علالات يخدعون بها أنفسا ضعيفة ، فلا تسمعوا لهم ، واعلموا أن فن الإنشاء فن عزيز المنال شريف الفائدة ٠

قضيت فى تعلم الإنشاء خمسة عشر عاما ، وما أظن أن ملكة كاتب تنضج فى أقل من هذا الزمن مع حسن الاستعداد والأخذ بجد فى تحصيل الوسائل والإكثار من التمرين ٠

اقرءوا كتب الأدب ، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر ، وحركوا أفكاركم وخيالاتكم ، وهزوا ألسنتكم وأقلامكم ٠

إن أحدكم ليستطيع أن يجعل لكل يوم صحيفة يقيد فيها ما يمر به من الخواطر والملاحظات ، وما يسترعى نظره من الحوادث ، أو يقص فيها ما عمله فى يومه ٠ ولهذه الطريقة فوائد جمة ، لأنها ، فوق نفعها فى تمرين ملكة الإنشاء ، تحمل الإنسان على مراقبة نفسه وتصفية حسابها فى منتهى كل يوم " ٠

هنا نجد أنفسنا أمام مثال تطبيقى لمنهج الأستاذ الإمام فى التجديد والتطوير ، إنه يسعى إلى تجديد الداخل ، مضمون التعليم القائم ، وفق منهجية تطويرية ، تهز العقول ، وتنثر من عليها ما قد يكون قد تراكم عبر السنين والأعوام غبار بفعل تقاليد بالية وعادات جامدة تخلفت مع طول البقاء ٠

وهو تجديد لا ينتظر إشارة بدء تجئ من خارج الديار الإسلامية ، كما نرى هذه الأيام ، فكل مصدر للتجديد إنما يعبر عن رؤاه واحتياجاته ، ومن هنا تجئ رؤى الإمام تعبيرا عن حاجات كانت الأمة الإسلامية تحسها ، وكان العقل الإسلامى يراها من خلال رؤى نفر من أبنائه الذين يتسمون باستقلالية التفكير ، والبصر العقلى والحماس القلبى ، وعمق التدين ٠

وكان الأستاذ الإمام يقسو فى بعض الأحيان فى الحملة على ما كان يتم تدريسه بالأزهر ، فمن ذلك ، موقف نرجو ألا يغضب إخوتنا الأزهريين ، فنحن بصدد " تأريخ " لابد أن نلتزم فيه بصدق التسجيل ، بغض النظر عما إذا كان ما نسجله يعجبنا بالفعل أم لا ؟

فمن ذلك ما رواه الشيخ مصطفى عبد الرازق من أنه دخل على الإمام فأخذ يسأله عن حاله وعما يشتغل به من الدروس ، فقال : أما وقد سألتنى يا فضيلة الأستاذ عن دراستى فإنى قد سئمت دروس الأزهر ولم أعد أستطيع أن أستمر على الاشتغال بتلك الأبحاث العقيمة ٠ إننى أشعر بأنها تجنى على عقلى وذوقى ٠ قال : يا بنى : أنا أعرف ذلك السأم

الفعلى وهو يدلنى منك على ما تفرسته من فطرة صالحة ، استعد لدخول دار العلوم فإنها على ما فيها من النقص أقل إضعافا للغرائز القوية وإسئاما للعقل السليم من الأزهر ( فى تلك الفترة )

ويخرج بنا الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى خارج قاعات الدروس ليضع أيدينا على صورة من تلك الصور التى كانت تحتاج بالفعل إلى هزة عنيفة لأنها تصادم المألوف والذى درج عليه آلاف من الناس ، حتى لقد حسبوه ، لقدمه وإلفهم إياه من الدين وما هو من الدين !

فقد كانت تقام فى بيت شيخ الرواق حفلة ذكر ليلة الجمعة من كل أسبوع يحضرها كثير من المجاورين وبعض العلماء ، ولم يكن من عادة شيخنا مصطفى أن يذهب إلى تلك الليالى ، لأنه لم يكن كثير التردد على الشيخ ، ولكنه كان يزوره بعد أن ينتهى من درس الفقه صبح الخميس ، يدخل عليه مجلسه العادى قبالة الباب ، وبعد فترة يستأذن فى الانصراف .

ثم عرف من الشيخ جاد أن الشيخ محمود الصعيدى قد حضر لزيارة " سيدنا الحسين ، رضى الله عنه " وسينشد هو بنفسه فى حلقة الذكر ، ولما كان شيخنا يحب السماع ، وكان يعلم بالتواتر أن ذلك المنشد هو بلبل الحلقات – كما كانوا يسمونه – فقد أسرع قبيل العشاء إلى دار الشيخ .

وبعد أن صلوا جماعة ، انتظموا عقدا محور دائرته الحاج على أبو يابس ، الذى كان يدير الحلقة ، وابتدأوا الطبقة الأولى جلوسا على هيئة التشهد ، يهبطون برؤوسهم إلى الأرض ، موقعة حركاتهم البطيئة على صيحاتهم الواضحة البسيطة بهذا الذكر : الله . الله ! وأخذ المنشد يهتف بنغمات متشابهة : مآدد . مآدد .

ثم وقف مدير الحلقة ووقفوا ، وانتقلوا إلى طبقة ثانية يهتزون يمنة قائلين : أه أه الله ، ويهتزون يسرة قائلين أيضا : أه أه الله . وأخذت النغمات الساذجة التى كان يرددها الشيخ محمود الصعيدى من غير تنويع تؤلف لحنا موسيقيا ، وجعلهم يستمعون أنات ابن الفارض الغرامية موقعة توقيعا إن فاتته مهارة الصناعة لم يفته جمال الصوت ولا حسن البديهة . وبعد ساعة حمى وطيس الذكر ، فأخذوا يهزون رؤوسهم هزا سريعا متواليا تصاحبه صيحات : الله الله . الله الله .

وعلا صوت المنشد ، واشتد ، فدوى صريخا رنانا غير متمايز النغم ، وصاروا من نشوة الذكر وحماسته بحيث ترتج بهم جوانب المكان ارتجاجا ، ولم يعد من نفوسهم المملوءة بحرارة الهزات العنيفة والصرخات العاتية موضع للطرب بصياح الشيخ الصعيدى : منى لمحبك منى . أرضى ما تمنى ...ثم أوقف الحاج على أبو يابس رحى الحلقة

ساعة ليستريح الذاكرون ، فتسرب شيخنا من خلال الصفوف مجهدا مصدوع الرأس آسفا على ما أضاع من ليلته ، فماذا كان رأيه وتعليقه ؟

كتب يقول : " أعوذ بالله أن تكون من دين الفطرة تلك الهزات المضطربة وذلك الهدير تفيض به الحناجر ، ولوددت أن أولئك المساكين ، إذا لم يستفيدوا من هذا العبث لأرواحهم جعلوا منه نفعا لأجسامهم ، فنظموا حركاته على وجه يمرن عضلاتهم حتى يصير نوعا من الألعاب الرياضية المفيدة ، وحتى يمكن أن يلتمس له من الوجهة الدينية شبها بالرمى والوثب على الخيل ، وقد ندب إليهما الشارع صلى الله عليه وسلم وكثير من صحبه من بعده " .

ولا يكتفى شيخنا بذلك بل يزيد بقوله : " كلا ، إنهم حرصوا على حركات تقليدية تشوه جمال الخلقة الإنسانية ونظامها ، وتشوش التناسب فى النمو بين أعضاء البدن ، وإنك لتعرف المدمنين على تلك الأذكار بعلامات لا تختلف ، إذ تغلظ رقابهم وتندلق بطونهم وتربو أسافل ظهورهم ..." !

كذلك يوقفنا الشيخ مصطفى على صورة من صور العجز عن التفكير السوى السليم ، فمن ذلك أن شيخا من علماء الأزهر عام ١٣١٣هـ كان قد عزم على ترك داره بشارع أم الغلام بعد أن عجزت حيله عن مصالحة ( عفريت ) توهم أنه يسكن إلى خرابة بجانبها ، حيث كان هذا العفريت يقذف الحجارة فى وجه الشيخ حتى لقد كسر نظارته وأدمى أنفه ، ويقلب أحيانا الدكك والكراسى والمناضد ويبعثر الأوراق والكتب ويرمى القلل من أعلى إلى أسفل .

وذهب شيخنا بعد ظهر يوم مع طائفة من إخوانه المجاورين إلى الأستاذ ليشاركوه فى آلام هذه المشكلة ، فوجدوا عنده وفدا من العلماء والطلاب ، ما بين قارئ رقية ، وتال عزيمة ، فأخذ يقرأ مع القارئين ، وبينما هم متوجهون بكليتهما إلى الابتهال والتلاوة إذ لمح قط أسود فأرة تلقط بقايا طعام فى جانب من جوانب الحوش ، فوثب إليها فتسربت إلى القاعة التى هم بها ودخلت فى مركوب الأستاذ .

والتفت هذا على حين عفلة فوجد فردة مركوبه تطوف فى القاعة يتبعها القط ، وهنالك ظن أن العفريت يمشى إليه فزعق مبتدرا الباب : يا سيدنا الحسين ، وتبعه الجموع يدوس بعضهم أعناق بعض متصايحين ، مما أحدث ضجة كبيرة ، وخرجوا إلى الشارع حفاة : هذا تمزق ثوبه ، وهذا انحل نطاقه ، وذلك انفرطت عمامته ، وأحاط بهم الجيران والمارة .

وكان هناك طفل من أولاد صاحب المنزل متتبعا لحركات القط والفأر يلهو بها ، فلما رأى انزعاجنا وأدرك سره أسرع إلى مركوب الأستاذ ، جاءهم به تتطلع منه تلك الفأرة المسكينة

المدّعورة ، ويتبعه القط الأسود ، قط البيت ، وكان اسمه ( بسبوس ) وضحك الطفل ملء فمه الصغير ، وتضاحك الجميع على استحياء ، ثم دخلوا إلى مجلسهم ، وعادوا إلى الرقى والابتهالات .

وكان شيخنا يمر بعد أيام بشارع أم الغلام فسمع صبية الحارة يغنون بنشيد يقولون فيه :

| | |
|---|---|
| يا بسبوس عفريت فى الدار | إن حشته أعطيك دينار |
| المشايخ طلعوا يجروا | بعد ما كانوا بيؤروا |
| وكل واحد وشه فى حجره | أوع دا المركوب فيه فار |
| يا بسبوس عفريت الدار | ..... |

إنها مأساة حقا تشير إلى مدى ما وقع فيه البعض من تخلف فى التفكير ، على الرغم من علو كعبه فى تحصيل الكثير من المقررات مما يؤكد تلك الحقيقة التى لم يبصرها كثيرون من قبل ألا وهى أن أشد ما كان ينقص التعليم الدينى فى تلك الأيام هو تلك الرؤية العقلية لما تتم قراءته ويتم حفظه وتحصيله ، فكأن عقل الطالب كان مجرد " صندوق " تتم تعبئته بالمعارف والمعلومات من غير أن تخضع هذه المعارف والمعلومات لمبضع العقل يشبعها تقليبا على أوجهها المختلفة ، ليرى حقيقتها ويكشف عن صحيحها من فاسدها ، بدلا من أن يتلقاها وكأنها قد اكتسبت قداسة ما كان المفروض أن تكون إلا لآيات الله عز وجل وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيح .

# ٠٠٠حتى " بروتس " !

كلنا يذكر تلك العبارة الشهيرة التى ندت عن فم الامبراطور الرومانى الذى كان يعتمد اعتمادا رئيسا على محالفة صديقه " بروتس " ، لكن فى ساعات الحسم وجده منحازا ضده ، فنطق بهذه الجملة التى صارت مثلا : حتى أنت يا بروتس ؟!

فالرئيس الأمريكى بوش ( قلب الأسد ) ، فى سكرة انتصاره التاريخى ، بصواريخه وجيوشه الجرارة وأساطيله وطائراته على أصحاب الجلاليب الحفاة ، الجوعى ، ذوى الأسلحة القليلة المتخلفة ، فى أفغانستان ، وقر فى ذهنه أنه قد أصبح مبعوث العناية الإلهية ، حيث تصور أنها ندبته لإنقاذ العالم مما أسماه ب " محور الشر " ، مثل سلفه السابق ، " ريتشارد قلب الأسد " ، فراح يرسل الإنذارات تلو الأخرى مهددا محور الشر الذى لا يشمل إلا إيران والعراق وكوريا الشمالية ، وكأنه أدرى من شعوبها ، بالنظام الذى يجب أن يحكمها ، وبالشخص الذى يجب أن يرأسها ٠ إنه يريد نظما وحكاما على شاكلة " كرازاى " الأفغانستانى ، فالحاكم الذى يأتى إلى سدة الحكم على دبابات أجنبية ، لابد أن يتحول إلى مجرد " لعبة " تمسك أيد أجنبية بخيوطها لتحركها وفقا لما تريد !

وعندما فجع العالم باللهجة الحادة التى غلبت على ما يسمى بخطاب الاتحاد الذى ألقاه بوش متضمنا هذا المصطلح الذى صكه ، لتدور حوله مئات التعليقات فى مختلف أنحاء العالم ، حاول بعض معاونيه أن يخففوا من وقعه ، بأنه لا يقصد أن تقوم الاولايات المتحدة بحرب ضد هذه الدول مثلما حدث فى أفغانستان ، فإذا ببوش يعيد تأكيد ما قال ، ففى كلمة له أثناء حفل لجمع التبرعات لصالح حاكم ولاية وسكونسن الجمهورى ، قال بوش : " إن الولايات المتحدة لن تسمح لأنظمة مثل إيران والعراق وكوريا الشمالية بأن تهدد طريقة الحياة التى اخترناها لأنفسنا " ، وإذا كان هذا منطقا معقولا ، فهل يمكن استخدام المنطق نفسه ، فيقول ابناء البلدان المهددة بأنهم لن يسمحوا بتهديد طريقة الحياة التى اختاروها لأنفسهم ؟! وتابع قوله شارحا : " إن التهديدات ضد أمريكا لا تأتى فقط من المنظمات الإرهابية التى تكره الحرية وتقتل باسم الدين ، لكن مهمتنا تشمل أيضا دولا تطور أسلحة الدمار الشامل وهى دول لها تاريخ فى الوحشية ويمكنها أن تشكل تهديدا للعالم " ٠

ولا شك أن كلا منا لابد أن تقفز إلى ذهنه على الفور ، وهو يقرأ هذه الكلمات الأخيرة ، صورة إسرائيل ، لكن صاحبنا بوش لا يعتبرها كما هو معروف من قوى الشر فى العالم ،

وإنما هى طاقة نور فى منطقة يكتنفها الظلام ، وواحة عدل فى ساحة تمتلئ بالمشانق وصرخات المقهورين !

ومن شدة درجة ( الافتراء ) التى تحملها كلمات بوش فى خطاب الاتحاد ، شعر حلفاؤه الأوربيون بالإحراج " فاضطروا " إلى أن يعلنوا تبرؤهم من هذا التوجه الموغل فى " الشر " ، ولعل أبرز ما لفت أنظارنا حاق ، هو ما صدر عن مصادر بريطانية ، على الرغم مما نعرفه جميعا من علاقة بريطانيا بأمريكا إلى الدرجة التى تجعلنا دائما نتذكر مسرحية الفريد فرج : على جناح التبريزى وتابع قفة !

فلقد ذكرت مصادر فى حكومة تونى بلير أن العناصر المتشددة " الصقور " فى البيت الأبيض يستخدمون لغة حرب غير ضرورية وتتسم بالاندفاع ، وقال مسئولون فى مؤسسة الحكم البريطانية فى وايتهول ، أنه بعد حديث الرئيس بوش عن " محور الشر " الذى يضم إيران والعراق وكوريا الشمالية ، بات من الصعب إبداء المساندة الكلية للموقف الأمريكى .

وزاد على ذلك ، قول " بيتر هيبين " وزير شئون أوربا أن بريطانيا لن تكون مجرد تابع لأمريكا وإنما تتمتع بالاستقلالية خاصة فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، وذلك برغم تأكيده أن حكومة تونى بلير تظل حليفا قويا لواشنطن فى الحرب ضد الإرهاب .

ثم جاءت لهجة واضحة الشدة على لسان " كريس باتن " مفوض العلاقات الخارجية فى الاتحاد الأوربى ، حيث شن هجوما حادا على السياسة الخارجية للولايات المتحدة متَهما إدارة الرئيس بوش باتباع منهج متشدد يتسم بالسطحية والاستبداد على نحو خطير تجاه بقية دول العالم ، وانتقد وصف واشنطن للعراق وإيران وكوريا الشمالية ب "محور الشر".

وفى حديثه إلى جريدة الجارديان البريطانية ، نشرته فى التاسع من فبراير ، لفت النظر إلى اندفاع الولايات المتحدة نحو الانفراد بمواقف مهمة وخطيرة ، مما جعله يشدد على الحكومات الأوربية أن تسرع بكبح جماع هذا الاندفاع مؤكدا : " إن الوقت قد حان لكى تتحدث الدول الأوربية صراحة لتحول دون تولى واشنطن زمام الأمور من جانب واحد " ، مضيفا إلى هذا ضرورة أن تقلع الدول الأوربية عن الخوف من إغضاب أمريكا ، والتصريح علنا بما لا يتفق مع سياستها .

ثم انتقل باتن إلى بيان تهافت السياسة الأمريكية تجاه الدول الثلاث " الشرانية " ، وشكك أنها قد تكون نتجت كحصيلة دراسة وتفكير متأن ، مقارنا هذه السياسة بالسياسة الأوربية التى تعتمد على إقامة علاقات بناءة مع العناصر المعتدلة فى طهران وبيونج يانج ، على أساس أن هذه السياسة من شأنها أن تحقق نتائج أكثر فائدة من هذه السياسة التى تقوم على عبارات طنانة بغير مضمون حقيقى !

كذلك فإن وزير الخارجية الألمانى " يوشكا فيشر " طالب الرئيس الأمريكى بعدم معاملة حلفاء واشنطن كأتباع لها مبينا ، من خلال تصريحات أذاعتها وكالة " رويتر " أن التحالفات بين الأنظمة الديموقراطية الحرة لا ينبغى أن تتقلص إلى التبعية وإن كان يؤكد عدم تأييد مشاعر العداء لأمريكا .

ويبدو أن هذا التحفظ الأخير الذى أشار فيشر إليه ، يتصل بجملة من صور الانتقاد التى انتشرت فى ألمانيا ، فهذا " كارل لامرز " ، المتحدث باسم الشئون الخارجية فى الحزب المسيحى الديموقراطى المعارض يؤكد أن هناك خلافا واضحا بين الأوربيين والأمريكيين حول مفهوم محور الشر ، خاصة فيما يتعلق بالعراق وإيران . وثنى على كلامه هذا مثيله فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الحاكم ، رافضا كذلك استهداف كوريا الشمالية ، وذلك من خلال مشاركتهما فى فاعليات مؤتمر السياسة الأمنية الذى عقد مؤخرا فى ميونخ .

وفى عددها الصادر يوم ٢٨ من يناير الماضى ، نشرت مجلة " ديرتاجيس شبيجل " تحليلا ل " مالته ليمنج " انتقدت فيه الرئيس الأمريكى على أساس أن خطابه عن حالة الاتحاد كان يلعب بوضوح على البعد الدينى الذى يسعى للتذكير بالشعب المختار ونهاية العالم . كما أشارت إلى أن بوش قام بإعلان ما يمكن اعتباره مذهبا جديدا ( مذهب بوش ) الذى يقوم على فكرة " أفغانستان فى كل مكان " ، والذى يتضمن أن أمريكا من حقها أن تقوم بهجوم وقائى ، إذا رأت ذلك ضروريا ، ومن ثم يصبح مجرد الاشتباه مبررا للإطاحة بأى نظام لا ترضى عنه . وتبرهن " ليمنج " على صحة قولها بدعوة من لا يتفق معها فى الرأى أن يتأمل جيدا هذا الاتجاه السائد لدى أمريكا عندما تكتفى بمجرد " إبلاغ " حلفائها بما عقدت العزم على تنفيذه ، دون أن تسبق ذلك بمشاركة ومحاورة فى الرأى معهم .

كذلك فإن " لودجر فولمر " ، وزير الدولة للشئون الخارجية الألمانية وجه تحذيرا إلى أمريكا من القيام بأى عملية عسكرية ضد العراق ، وذلك فى حديث له بثته القناة التلفزيونية الثانية فى ألمانيا فى ٢/٤ من ، حيث لا دليل يؤكد ضلوع العراق فى أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، وأن المسألة يحكمها " تار بايت " ، مع العراق ، تريد أن تخلصه ، فى معمعة هذا الاستنفار الذى أحدثته أحداث سبتمبر حول الإرهاب .

وحذر الرئيس الروسى " بوتين " فى مقابلة مع صحيفة " وول ستريت جورنال " من عمل عسكرى أمريكى ضد العراق مؤكدا أن عملا مثل هذا يمكن أن " يُفشل ما نجحت فيه الولايات المتحدة من تكوين ائتلاف دولى ضد ما يسمونه بالإرهاب .

ومن هنا فقد كان رد الفعل الذى رأيناه فى طهران طبيعيا ومفهوما ، بعد كل هذا الذى قامت به إيران مساندة الحملة الأمريكية على نظام طالبان فى أفغانستان ، فقد انطلق

عشرات الألوف من الإيرانيين فى حشود ضخمة تندد بالولايات المتحدة ، مذكرة بما كان يحدث أيام الثورة الأيرانية الأولى , وحصار السفارة الأمريكية فى طهران ، وكان من الهتافات التى رددها المتظاهرون : " شعبنا استيقظ ويكره أمريكا " ، وقام ما يقرب من أربعين ألف من المليشيات الإسلامية ( الباسيدجى ) الموالية لمرشد الجمهورية الإسلامية آية الله خامنئى بلف أنفسهم فى أكفان مشددين على استعدادهم للاستشهاد دفاعا عن وطنهم ، فضلا عما نشرته جريدة " كيهان " من أن أعضاء الباسيدجى سيقومون بالتطوع للقيام بأعمال استشهادية فى حالة إقدام واشنطن على مهاجمة طهران .

وعلى الرغم من محاولات التخدير التى يقوم بها وزير الخارجية الأمريكى " باول " من خلال ما يردده من عدم وجود خطط عسكرية لضرب دول أخرى إلا أن الحشد الضخم الذى قامت به الولايات المتحدة منذ حملتها على أفغانستان ، مما قد لا يتسع المقام لبيان الأرقام المؤكدة لهذا الحشد ، يشير بما لا يدع مجالا للشك بأن المسألة لا يمكن أن تكون قاصرة على أفغانستان . ولعلنا لم ننس بعد ما حشدته الولايات المتحدة ، منذ أغسطس عام ١٩٩٠ بحجة ظاهرة أنه من أجل تحرير الكويت ، بينما كشفت الأيام التالية ، أنه كان لتحرير الكويت من العراق كى تقوم الولايات المتحدة باحتلال الخليج كله ، وتصبح مصادر البترول تحت قبضة يدها ، وتكون القوات الأمريكية فى قلب المنطقة ، لتذكير الجميع أيضا من الدول العربية ، والدول القريبة ( إيران مثلا ) بأن ذراع الولايات المتحدة ليست محصورة على الأرض الأمريكية البعيدة ، بل هى هنا مسلطة السيف على رقاب الجميع ، وخاصة هؤلاء الذين يقعون خارج بيت الطاعة الأمريكى !

كذلك فإن التواجد الأمريكى الذى أعقب بدء الحملة على أفغانستان لم يكن فقط لمحاربة الإرهاب ، وإنما هو مقصود لأغراض أخرى ، أشارت إليها من طرف خفى التصريحات الأمريكية بأن حملة أفغانستان إنما هى " المرحلة الأولى " ، دون تحديد لمن يكون عليه الدور فى المرحلة التالية ، إذ ما دامت تلك مرحلة أولى فلابد أن تكون هناك مراحل أخرى . وعدم التحديد ربما يكون مقصودا ، لا لمجرد الإمهال حتى يتم التخطيط والتجهيز ، ففى ظننا أن التخطيط موجود ، والتجهيز قائم ، ولكن المسالة تتعلق بانتهاز الظروف الملائمة ، أو حتى " خلقها " .وفضلا عن ذلك فعدم الإعلان يؤدى إلى أن يسكن الرعب قلوب أطراف كثيرة ، ويظل كثيرون يضعون أيديهم على قلوبهم خوفا من أن يكون الدور عليهم ، فيجبنون عن القيام بأى فعل معاكس للسياسة الأمريكية ، بل ، وربما يتطوعون بالقيام بالعديد من الإجراءات التى يقصدون بها طمأنة الجانب الأمريكى بأنهم على العهد محافظون ، على الطريق سائرون !

# الأمريكان يعلمون المسلمين الدين الإسلامى !!

ولم لا ؟ إن محمد صبحى كان متفائلا عندما عرض لنا أمريكا باعتبارها ( ماما أمريكا ) ، ذلك أن أمريكا لم تعد مجرد " ماما " توجهنا وتحدد لنا ماذا نأكل وماذا نفعل ، وإنما هى مثلما قالت " إسعاد يونس" : هى ماما وهى بابا .. وهى كل شئ بالنسبة إلينا نحن الشعوب الملقاة على قارعة طريق العالم .. نتسول ، لا لقمة العيش وحدها وإنما وفقا لما ذكره الراحل الشيخ محمد الغزالى عندما قال ما معناه أنه يخشى إن ثارت فينا نخوة ، وقمنا بهبة نعيد فيها للغرب كل شئ أخذناه منه أن لا يبقى لنا حتى ما يمكن أن يستر أجسادنا فنصبح عراة حفاة !!

إن ما ينبغى أن يصيبنا بالفزع والهلع حقا ، ليست تلك الغارات الوحشية التى شنتها أغنى دولة فى العالم على أفقر دولة فى العالم تحرق الحرث والنسل ، إنسانا كان أم حيوانا ، على الرغم من هول ذلك وبشاعته ..

وما ينبغى أن يصيبنا بالرعب حقا ، ليست تلك الإنذارت التى بدأت تتوالى على لسان " أبانا الذى فى البيت الأبيض " مهددا بلدين من أبناء ديننا – إيران – وعروبتنا – العراق – بالويل والثبور وعظائم الأمور ، على الرغم من خطورته وفظاعته ..

وإنما هو اقترابهم من خط الدفاع الأخير عن أبناء هذه الأمة .. دينها ، الذى هو عاصمها من عواصف الأيام وإعصارات السنين .

ظللنا فى مصر سنوات ، نسخر من فئة أسميناها " ترزية القوانين " ، واعتبرنا ذلك " غمة " دعونا الله ليلا ونهارا أن يزيلها ، وتنادينا طويلا إلى ضرورة مجاهدتها ، وكان القائمون بها " أفرادا " من المنتفعين ، والآن ، برزت أقوى دولة فى التاريخ ، تبعث اللجان والوفود ، وتشغل الهواتف ، و" الفاكسات " ، آمرة " بتفصيل " دين وفقا لمواصفات تحددها هى ، ولأغراض ترسمها هى ، ومن مادة تعينها هى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وأمسك بالقرآن الكريم ، أبحث عمن يجب علينا أن نتجه إليه نتعلم أصول الدين ، فأجده سبحانه وتعالى يقول : " لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين " آل عمران /١٢٤

وهذه الآية التى تكرر معناها فى سورة أخرى ، تبين بوضوح أن مهمة الرسول لا تنحصر فى تبليغ الكتاب الذى يتضمن كلام الله تعالى إلى الناس وتلاوة آياته فقط ، بل من مهمته أيضا ثلاث نواح أخرى هامة هى :

١- تعليم هذا الكتاب ( القرآن الكريم ) ، أى تفهيم الناس معانى آياته ، ومقاصد نصوصه وأوامره ونواهيه ، وكشف معالم الطريق التى يدعو الناس إليها وتحديد حدودها ، ليمكن المؤمنين تطبيق نصوصه بصورة تحقق أغراضها العامة الإصلاحية وتحافظ على روحها ٠

٢- تعليم الحكمة وإيضاح طرقها وأساليبها فى القول وفى العمل وفقا لقوله تعالى فى موطن آخر : "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " ، ذلك لأن العمل بأوامر القرآن وتطبيق ما جاء فيه ، يحتاج إلى الحكمة التى هى الثمرة التجريبية للعقل الناضج فى الإدارة والتدبير ، فالحكمة هى الكفيلة بحسن التطبيق ، والمحافظة على المقاصد الأساسية فى التربية والتشريع ٠

٣- تطهير قلوب المؤمنين وأعمالهم من الملابسات التى قد تشوبها ، فتفسدها ، وذلك بزرع الإخلاص فى نفوسهم ، والإيثار وحب الخير ، ووزن الأمور بميزان بمصلحة مجموع الأمة لا بميزان الأهواء الخاصة ، وهذا معنى تزكيتهم ٠

هذه هى المهام الثلاث التى من خلالها رسم القرآن الكريم السبل التى من أجلها أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليعلمنا الإسلام ، وطوال حياته ، ومن خلال ممارساته ، وأحاديثه ، وجدنا النموذج والقدوة التى وجب على كل مسلم أن يحذو حذوها ويرنو بصره إليها مقتديا محبا ومتبعا ، ومن هذين النبعين ( القرآن الكريم ) و ( السنة النبوية ) إغترف ما يصعب حصره من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين ، ثم سار على هديهم مئات من علماء المسلمين فأنتج المسلمون حضارة سادت ما لا يقل عن سبعة قرون كان لها عطاؤها الثقافى والعلمى والاقتصادى مما حفلت به مئات المصادر ٠

وكان من أسباب الجمود والتخلف الحضارى الذى عاشه المسلمون منذ قرون هو التفريط فى هذه المهام الثلاث التى حددها المولى سبحانه وتعالى ٠

وعندما بدأ شعاع النهضة على يد بعض العلماء والمفكرين ، منذ أواخر القرن الثامن عشر ، العطار والأفغانى ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وغيرهم ، كان تركيزهم واضحا على الدعوة إلى بث دماء قوة فى عروق الجسم الإسلامى ، فالمبدأ الإسلامى أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٠٠" والقوة ليست فقط جندا وعتادا عسكريا ، ولكنها تتبدى فى العديد من المظاهر ٠٠ فى إرادة سياسية تملك قرارها ، فى صناعة زاهرة ، فى علوم متقدمة ، فى اقتصاد يتمتع بالقوة ، فى جسم اجتماعى يتمتع

بالصحة والعافية .. إلى غير هذا وذاك من مظاهر للقوة ، تختلف وتتعدد وتتنوع باختلاف وتنوع وتعدد الظروف وأبعاد الزمان والمكان .

فهل تريد الولايات المتحدة بمحاولاتها الدءوبة هذه الأيام من التوجيهات والضغوط التى تمارسها على الدول الإسلامية لتغيير التعليم الإسلامى أن نتخذ من هذا التعليم سبيلا إلى استعادة القوة ، أم قتل أية بذور يحتمل أن يبثها هذا التعليم فى عروق الأمة ؟!

الإجابة هى بالنفى بطبيعة الحال ، فليس من المتوقع من دولة البغى والعدوان أن تترك هناك منافذ تتاح لأمم أخرى للنهوض الحضارى ، خاصة إذا كانت تلك الأمم تملك دينا ، يمكن أن يؤدى الوعى البصير بجوانبه المختلفة إلى وثبة عامة لأكثر من مليار مسلم .

ولأن الولايات المتحدة دولة ليس لها تاريخ ، لا يهمها استقراء تاريخ الآخرين ، ولا نريد أن نذهب بعيدا ، وإنما نعود إلى ما يقارب التاريخ الأمريكى نفسه ، ودون إغراق فى تفاصيل ، فإننا نعلم علم اليقين أن حاكما مثل محمد على كان على درجة من الجبروت جعلته لا يتوقف أمام أية عقبة تحول بينه وبين ما يريد تحقيقه فى مصر ، ومع ذلك فهو لم يقرب من التعليم الدينى القائم فى الأزهر والمساجد الكبرى والكتاتيب ، على الرغم من حالة التخلف والجمود التى كانت ضاربة على هذا النوع من التعليم ، لأنه كان يدرك تمام الإدراك أن هذا التعليم هو " جلد " الأمة ، ولن يصبر أبناء هذه الأمة إذا رأوا حاكما يقرب من هذا الجلد يريد أن يغيره ..

ونحن نعلم علم اليقين أيضا ، كيف كان الاحتلال البريطانى باغيا مهيمنا على مقدرات الأمور فى مصر كافة ، بحيث لم يترك خلية من خلايا المجتمع إلا وكان حريصا أشد ما يكون الحرص على أن يجرى فيها دماءه الملوثة حتى يبث التلوث فى الجسم المصرى كله ، ومع ذلك فإنه وقف أمام التعليم الدينى مشلولا لا يجروء على الاقتراب منه ..

لكن قوة الاستعلاء والاستكبار الجديدة فى القرن الحادى والعشرين ، تريد أن تغير جلد الأمة الإسلامية بجلد آخر .. أبيض يناسبها هى ، مقدمة مبررات صنعتها هى وروجتها بحكم ما لها من هيمنة إعلامية ، فإذا بنا نردد وراءها تلك العبارة الموغلة فى الانحراف عن الصواب والحقيقة : الإرهاب الإسلامى ، وهى عبارة لا تختلف قليلا ولا كثيرا عن قولك : المربع المستدير ! التناقض المنطقى فى التركيب ! فكما أن المربع يعنى شكلا بعينه ليس هو أبدا شكل الدائرة ، فكذلك الإسلام ، يتضمن من المعانى والأصول ما يتناقض كلية مع ما يقصدونه من الإرهاب .

وأنا كثيرا ما أعود إلى ملفات الحوادث والقضايا المتعددة التى شهدتها مصر منذ السبعينيات تحت مظلة الإرهاب ، باحثا عن شخص واحد يكون قد تكون وتعلم ونشأ فى

مؤسسة تعليم دينى ، فلا أجد ، بل أجد منهم من تعلم تعليما فنيا أو عاما أو هندسيا أو طبا أو غير هذا وذاك من أنواع وأشكال التعليم المدنى ، الذى لا يعلم أى شكل من أشكال التعليم الدينى ، أفلا يبصرون ؟ " فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور " !

ولكن ، هل نوجه اللوم كله إلى الولايات المتحدة ؟

كلا ، اللوم الذى يجب أن يوجه ، هو لتلك الدول التى سارعت ، وقبل أن تطلب الولايات المتحدة ، إلى التغيير والتبديل بما يخفف إلى حد كبير من جرعات التعليم التعليم الدينى ، بل إن هناك من ألغوه كلية ، على أساس الاكتفاء بصورة التعليم المدنى ، واعدين بأنه سوف يقدم ، تحت مظلته قدرا من التعليم الدينى!

بل إننا فى مصر ، ومنذ توقيع اتفاق كامب ديفيد ، سارعنا إلى " تكييف " تعليم الدين فى مدارسنا بحيث لا يتعلم الأبناء أية آية قرآنية فيها تنديد باليهود ، مع أن القرآن الكريم ، ما ندد ولا صب اللعنة على أحد قدر ما ندد وصب اللعنات على هؤلاء الذين قتلوا أنبياءهم ، وبدلوا فى شريعة نبيهم ، بشيعون الفحشاء والغدر والمنكر ، يقول عز من قال : " فبما نقضهم ميثاقهم لعلناهم وجعلنا قلوبهم قاسية " المائدة /١٣ ، و يقول : " لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم " ، وعندما فسر السبب الموجب للعنهم قال : " كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه " المائدة /٧٨

ولم يفكر أحد ممن قاموا بتفيذ هذا هنا فى مصر ، أن يطالب بالمثل ، ولو حاول أحد منهم أن يستقرئ ما يتم تعليمه تحت مظلة التعليم الدينى فى إسرائيل ، فسوف يهوله كم ما يزرع الكراهية لنا والبغضاء ، بل ويحث صراحة وعلانية على القتل والطرد ! كل ذلك زعماً بنا بأننا نفعل ما نفعل لأننا دعاة سلام ، ناسين المعنى الواضح الصريح لضرورة التساوى بين طرفى السلام ، بحيث إذا ظل الآخر يضرب ويسفك الدماء ويهدم ويخرب ، وظل الطرف الأول ملتزما بسلوك السلام ، فإن هذا لا معنى له إلا العجز عن الدفاع عن كرامته ، بل والأشد مصيبة ، أن فى هذا مؤشرا مؤسفا عن موت الإحساس بالذات وما يكون لها من كرامة ، وما يكون لها من ذات !

لقد صرخ جمال الدين الأفغانى فينا يوما بصرخة ما زال تاريخ صلاحيتها قائما إلى اليوم : " لو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ... أنتم كالصخرة الملقاة فى الفلاة ، لا حس لكم ولا صوت ... هبوا من غفلتكم . اصحوا من سكرتكم . عيشوا كباقى الأمم أحرار سعداء " !

# من ينقذ هذه الأم ؟!!

كنت قد حددت لها موعدا بعينه حتى أناقشها فيما كتبته فى أحد فصول رسالتها للماجستير ، وحين حانت الساعة المحددة لم تجئ على الرغم من تعودها معى الالتزام الدقيق بالمواعيد المتفق عليها .

ومر اليوم ، ثم إذا بى أسمع صوتها يأتينى عبر الهاتف لا يخطئ سامع فى أنه يصدر من قلب قد بلغ من الحزن مداه ، وتستسمحنى فى أن أحدد لها موعدا آخر .

وجاءت فى الوقت المحدد وقد وضعت على عينيها نظارة سوداء لأول مرة ، فضلا عن محاولة واضحة لإخفاء أكبر جزء ممكن من وجهها ، فازداد قلقى عليها ، ثم إذا بها ، لثوان ، تكشف بعض الشئ عن معالم عينيها ووجهها فأجد آثارا مفزعة من كدمات وتورمات وخدوش ، وزادت بأن قالت ، بأن جسمها المغطى يمتلئ بالعديد من الكدمات التى وصل بعضها إلى نزيف دم .

ظننت لأول وهلة ، أن حادثا وقع لها ، لكنها بادرتنى بما آلمنى أشد ما يكون الألم ....

كانت سيدة على قدر كبير من الذكاء والرغبة الملحة فى طلب المزيد من العلم ، فحرصت على ألا تنقطع عن الاستمرار على هذا الطريق ، وأكبرت فيها هذا وشجعتها عليه .

فى البداية ، تظاهر الزوج بأنه لا يعارض استمرارها فى الدراسة ما دامت تقوم بواجباتها ، ثم إذا به يغير رأيه ، بعد أن انتهت من الحصول على الدرجة الجامعية الأولى ، وأرادت أن تستمر إلى آخر مدى .

وعلى الرغم من التزامها الكامل بكل مسئولياتها العائلية فقد أصر على أن تهجر الدراسة كلية ، بزعم أنه عندما فكر فى الزواج فكر فى زوجة تقوم على خدمته وتربى له الأولاد ، ولم يفكر أن يتزوج (عالمة) أو ( باحثة ) ، فهذه لا تلزمه !!

ثم تصاعدت الخلافات ، حيث أُضيفت مسائل أخرى مما أدى إلى رفعها قضية " خُلع " ، وهجر منزل الزوجية ليقيم مع والديه .

ثم فوجئت الزوجة فى الساعة الثانية صباحا بمن يطرق الباب بشدة ، وعرفت أنه هو فملأها الخوف والرعب واعتذرت عن عدم فتح الباب ، فإذا به يستخدم كل ما يملك من قوة ليكسر الباب ويقتحم الشقة وينهال عليها ضربا بكل ما كان يقابله . ولم تكن المرة الأولى التى يضربها ضربا مبرحا على الرغم من مكانتها العلمية والاجتماعية العالية !

كأننى كنت أنا الذى تلقى تلك الضربات الوحشية القذرة ، وزاد الطين بلة أن تنقل لى قوله أنه يمارس حقه " كرجل " الذى أعطاه له الإسلام !

هنا شعرت بثورة داخلية عنيفة أمام هذه الصورة من صور القهر الذى ما زالت نساء من بناتنا وأمهاتنا وأخواتنا يعشنه ، استنادا إلى مفاهيم مغلوطة وتأويلات منحرفة لصحيح الدين التى يبرأ من هذه التصرفات غير الآدمية .

إن الإسلام كل متكامل ، وهو يربط بين الحقوق والواجبات ، ككل شريعة عادلة ، فهو قد فرض على هذا الرجل ، مثلما فرض على غيره ، كذا وكذا وكذا من الواجبات ، فإن لم يكن مؤديا لها فليس له أن يتمسك بما يسميه حقوقا ، إن كانت حقوقا بالفعل .

والأمر يطول بنا لو حاولنا أن نسوق أمثلة لواجبات مفروض أن يقوم بها كل منا ، لكن البعض يحلو له أن يتغافل عن كل هذا ، فلا يذكرون الله ورسوله وكتابه الذى أنزل فى أى شأن من شئون الحياة ، إلا عندما يريد أن يقهر ويتجبر ... هنا فقط يتذكر الدين ، فيستخدمه أبشع ما يكون الاستخدام ، ويعلق جبروته على شماعة الدين زاعما أن الدين يعطيه حق فى أن يكون وحده هو الحاكم بأمره داخل الأسرة ، وله وحدة " حق تقرير مصير " من يستظل بظله !!

لقد جاء فى كتاب الله عز وجل قوله سبحانه وتعالى : " واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن ، فى المضاجع ، واضربوهن ..." النساء/ ٣٤ ، وخوف النشوز هنا لا ينبغى أن ينفرد بتقدير وقوعه مثل هذا الرجل وأمثاله . كان شرها فى التدخين على الرغم من أن أحد ولديه لديه حساسية حادة فى صدره ، وبينما كانت الزوجة الصالحة تؤدى الصلاة ، وتعود ابنتها على ذلك ، لم يكن الزوج " يركعها " إلا فى المناسبات ، والأخطر من ذلك أنه كان سكيرا ، وحرصت على ألا يعلم أحد بذلك حفاظا على مكانته بين الناس وبين أولاده الذين ينظرون إليه باعتباره مثلا أعلى ونموذجا !

وفضلا عن ذلك فإن بعض العلماء يقول إلى أن هذه الآية نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان ، وفى أعقاب عصر جاهلى كان ضرب المرأة فيه ضربا مبرحا عند بعض القبائل من لوازم رجولية الرجل وسيطرته على زوجته المغلوبة على أمرها .

وفى بداية الإسلام شكت إحدى الزوجات المسلمات إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن زوجها لم يتورع عن التشبه بالجاهليين فضربها ضربا مبرحا شديدا ، ثم جامعها على الرغم منها وهى كارهة له ، فقال الرسول الكريم : " يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبيد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى " ، وهذا نص ينطق باستنكار الرسول لهذه الفعلة الشنعاء .

ويرى بعض العلماء أن الأمر بالضرب فى هذه الآية الكريمة من طراز ما يسميه علماء الأصول "الأوامر الإرشادية " ، أى الأوامر المتروكة للظروف والأوضاع والأحوال ، وقد يكون ترك العمل بها خيرا من العمل بها ، ومعروف أن رسول الله لم يمد يده إلى أى من زوجاته على وجه الإطلاق ، بل لم يمد يده على خادم لديه ، وهو القائل : " خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى " ، وقال أيضا :" ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم "٠

ولم يرض رسول الله لخيار المسلمين أن يعملوا بالضرب ، فذلك شأن شرار الناس لا خيار الناس ، وقد شرط بعض فقهاء الإسلام فى هذا الضرب - إذا كان ولابد منه - أن يكون ضربا خفيفا لا يمس الوجه لأنه " مجمع المحاسن " - حسب تعبيرهم -وقد رووا عن عبد الله بن عباس أنه فسر الضرب فى هذه الآية بالضرب بالمسواك ونحوه كفرشاة الأسنان !!

إن الغرور قد يتسلط على بعض الأزواج ، ويرى أن الرجولة إنما تتبدى بأن يعتد بنفسه إلى حد الشذوذ ، وأن يحيط شخصيته فى المنزل بهالة من جبين معقد ، وفم يقذف بالأوامر التى لا ترد ، وهى جهالة وحمق ، وغباء وضيق عطن ٠٠٠

إنها دكتاتورية منزلية تنطق بقصور عقلى واضح ، تحرق بنارها ما يفترض أن تقوم عليه الحياة العائلية من تواد ورحمة ٠٠٠

إنها لوثة وشعور بالنقص والضعف ، يستكمل بإضعاف شخصية الزوجة والحرص على قهرها وأن تبقى دائما فى مستوى أدنى ٠٠

ليست الرجولة فى الصلف الكاذب والتظاهر بالعنف والشدة ، إنها فى سلامة الطبع ورقة المعاملة وحسن المعاشرة والسماحة والمودة ولين الجانب ٠

إن الأم المقهورة لن ترضع أبناءها إلا شخصيات مقهورة مثلها تفقد القدرة على المواجهة والمناقشة والمعارضة حيث تجب المناقشة والمعارضة ٠

# المهزومـــون !

معظمنا يعرف ذلك التصحيـح النبـوى الكريـم لمفهـوم الإفـلاس ، فقد تصـور كثـيرون أن المفلس هو من ليس معه درهما ولا دينارا ، فبين رسول اللـه صلـى اللـه عليـه وسـلم ، أن المفلس الحقيقى هو الذى ينثر قبيح ما يصدر على لسانه ويده على الناس ، فيأخذ الله من حسناته شيئا فشيئا ليخص بها الذين نالهم بسوء لسانه وقبيح فعله ، حتى لا يبقى معه شئ من الحسنات ، فيبدأ فى حصد السيئات التى تكون جواز مروره إلى النار !

وقياسا على هذا ، نجد أن الهزيمة الحقيقية ليست تلك التى تترتب على التفوق العسكرى للعدو ، إلى الدرجة التى تمكنه من الاحتلال ، فقد هُزم المسلمون ، مثلا ، فـى غزوة أُحد ، لكن الهزيمة الأكبر لم تعرف طريقها إليهم ، هذه الهزيمة الأكبر هى تلك التى تُسكن القلـوب خوفا وهلعا ، إلى الدرجة التى يصدق عليها ذلك التشبيه المفزع حقا الذى قاله أحد الكتـاب واصفا بها درجة ومستوى الاستبداد والقهر الذى كان المصريـون يعيشـونه زمـن الخديـوى إسماعيل ، حيث قال " ... حتى أن أعظم عظيـم فيهـم يخشـى أن يحـدث نفسـه فـى سـرير نومه بشئ من دواعى الإصلاح ، خوفا من الطيف أن ينُم عليه " !!

فنحن ، ومنذ أن بدأ الضـرب الأمريكـى لتدمـير أفغانسـتان ، بدأنـا نـرى ، وكـأن الوحـش الأمريكى ، قد انطلق مسعورا ، بغير قيد أو شرط ، فى مختلف أنحاء العالم ، ينذر ويهـدد ، ويكشر عن أنيابه لكل من تسول له نفسه من دول العالم أن يعصـى لـه أمـرا ، رافعـا شـعار محاربة الإرهاب ، وتحت هذه العباءة الواسعة ، والتـى لـم يتفـق علـى وضـع مفهـوم لهـا ، نصب نفسه القاضى والجلاد ، بغير نقض ولا إبرام ، يحكم على كل ما يتصور أن فيه شبهة خطر عليه ، من قريب أو من بعيد ، أو حتى مجرد احتمال ، ليطبق عليه القوانين الصارمـة وحرب الإبادة والترويع والمطاردة .

وعلى الرغم من كل ما يمكن أن نملكـه مـن إدانـة واسـتنكار وغضـب علـى هـذا السـلوك الأمريكى ، لكننا يمكـن ، بدرجـة مـا ، أن نجـد لـه مـبررا ، ألا وهـو مصلحتـه هـو ، وبعده الطوفان ...

لكن ما لا يمكن فهمه وتقبله ، هو ما بدأنا نـراه بيـن قومنـا ، المسـتضعفين فـى الأرض فى كل مكان ، من ذعر مقلـق ، ورعـب مخجـل ، أخـذ يدفـع الكثـير مـن الـدول والأفـراد أن يتطوعوا من ذات أنفسهم لخدمة الأهداف الأمريكية ، بل حتـى ويتجـاوزون هـذه الأهـداف ، لإثبات أنهم على الدرب سائرون ، وفى اتجاه سيد العالم متجهون ، ووفق قبلتـه يصلـون !!

ولو حاولت أن أسوق أمثلة لطال بى الحديث ، ولنزف العيون دموعا حارة تلسع وتكوى الوجوه !

لكننا هنا ، نقف متأملين موقفا بعينه يصور المدى الذى وصلت إليه هزيمتنا الحقيقية ، حيث سكن السيد الأمريكى بعض القلوب فأصبحت لا يعرف النوم طريقا إلى أصحابها !

هو واحد من المهمومين بهموم أمتنا ، يعرف حدوده ، فيقصر جهده على دائرة ما تخصص فيه ، بالكلمة والموعظة الحسنة ، وبالمناقشة والبحث ، وبالكتابة ، مع عفة اللسان ، وطيبة القلب ، وتغليب حسن الظن . ورأى أن لابد أن يكون له دور ملموس فى عملية البناء الحضارى للأمة ، إيمانا منه بالمسئولية التى ألقاها المولى عز وجل على عاتق العلماء ، الذين يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى البناء ، على المستويين : المادى ، والإنسانى ، فماذا تراه قد فعل ؟

أحس بأن " الاحتلال الفكرى " ، والاختراق الثقافى ، لا يقل خطورة بحال من الأحوال عن الاحتلال العسكرى والاختراق السياسى والهيمنة الاقتصادية ، فنظر فى مجال تخصصه ، ورأى بالفعل أن الساحة لا تسيطر عليها إلا أفكار سيقوى البغى والهيمنة الخارجية ، بينما يتوارى صوت القرآن والسنة واجتهاد علماء الأمة ، وخبرة الأمة الحضارية .

فماذا تراه فاعلا ؟ وجد أن جهده الفردى هو نقطة لو تلقى فى بحر واسع ، لا تلبث آثارها أن تزول بعد لحظات ، فعزم على أن يسلك طريقا علميا بحتا ، بالدعوة إلى وضع مجموعة من الكتب المرجعية فى قضايا التخصص المختلفة ، منطلقة من المرجعية الإسلامية .

وقيض الله له من يمكن له أن يُخرج مثل هذه الكتب المرجعية إلى النور ، بعد أن يضعها كتابها ، ذلك لأنه اقتنع بهذه الفكرة وانفعل بما تمتلئ به من إخلاص وحسن القصد .

ثم عرض الأمر على بعض ذوى الرأى ، فإذا بصوت هنا وصوت هناك يحذر من السير فى هذا الطريق ! ولم ؟ لأن التوجه بالإسلام فى كتابة كتب فى التخصص يمكن أن يجلب شبهة نحن فى غنى عنها ، بأن هذا عمل يصب فى طريق التطرف والإرهاب !!

ربما يكون المحذرون هؤلاء على قدر كبير من حسن النية والقصد ، ومن العسير نثر أى مسحة من الشك فيما حذروا منه ، ولكن هذا مؤشر خطير يصور مدى هزيمتنا ، إلى الدرجة التى أصبحنا – دون أن ندرى – نردد عندها ما هو أشد تطرفا مما يطالب به المعتدون على أمتنا ، وعلى لسان من ؟ على لسان نفر من علماء أفاضل ، كبار ، يعلق كثيرون عليهم الأمل فى التنوير العلمى .

عندما نقل لى الصديق العزيز هذا ، انفطر قلبى حقا وبدأت أشعر بالخطر الكبير المحدق بأمتنا ..

تذكرت ما كان عليه كثير من علمائنا ومفكرينا ، عندما ابتليت مصر بالاحتلال البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر .. كنا فى حالة من الضعف والتخلف ، لا مثيل لها ، وكانت الدولة المحتلة تمثل السيادة الكبرى على مستوى العالم ، ومع ذلك فلم تخب أبدا شعلة الأمل فى القلوب والعقول المصرية ، صحيح كان هناك المرتعدون المذعورون ، لكنهم كانوا هم القلة ، أما الكثرة فكانوا من الذين لم تستسلم قلوبهم ولم تنهزم عقولهم على الرغم مما حدث عبر سنوات ، من تغذية هذه العقول ، فى معاهد التعليم بكل ما يعزز أقدام البغاة المحتلين .

وكان عدد غير قليل من المفكرين والعلماء فى طليعة الداعين إلى التحرير والمقاومة والثقة فى النصر ، وإن طال الطريق ..

وكانت بالفعل تلك الثورة الشعبية التى لا مثيل لها ، التى نشبت عام ١٩١٩ ، لتفجر طاقات الأمة ، على كافة الأصعدة ..فى التعليم ، وفى الأدب ، وفى الفن ، وفى الفكر الدينى ، وفى الاقتصاد ، وفى السياسة ، فكانت أول خطوة على طريق التحرير بعد الثورة بسنوات ثلاث .

إن قوى البغى والهيمنة ، مهما بلغت شراستها وطال توحشها ، وانتشرت افتراءاتها ، لن تتمكن من استمرار الانتصار إذا قامت حركة استنفار على مستوى الأمة لمحاصرة هذه الشراسة ، وذلك البغى ، لا بالقوة المسلحة ، ولا بالعنف ، ولكن بالثقة بالنفس ، وبالقدرة على قول ( لا ) لعديد من المطالب الظالمة المبالغ فيها ، والتى تبلغ حد الافتراء الواضح ، وبالجدية فى عملية تنمية الإنسان تنمية واعية ، وفق تلك المرجعية الإسلامية التى تبنى ولا تهدم ، تعمر ولا تخرب ، تنشر النور لا الظلام ، تذيع العلم ولا ترضى بالجهل ، تؤكد على حق الإنسان فى الحياة بغير بغى على الآخر .

# من المحاصـــر ؟!

كل الأنباء منذ عدة أسابيع تتحدث عن أن الحصار الذى يقوم به النازيون الصهاينة لم يعد مقتصرا على جموع الشعب الفلسطينى ، وإنما امتد كذلك ليشمل الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات ، وتتنادى الأصوات بضرورة رفع الحصار ، وهى دعوة لن يُستجاب لها ، لسبب بسيط ، وهو أن الشعب الفلسطينى ليس وحده المحاصر ، وليس الزعيم الفلسطينى هو وحده كذلك المحاصر ، وإنما المحاصرون هم الكثرة الغالبة من النظم الحاكمة لها :

محاصرون بالرعب يكاد يوقف نبضات قلوبهم ..

محاصرون بالهوان يكاد يقذف بهم على قارعة الطريق ..

محاصرون بالمذلة أمام السيد الأمريكى ، مستأسدون أمام شعوبهم ...

محاصرون بالخنوع والطاعة لمن يملكون حمايتهم من شعوبهم !

محاصرون بحالة عجز تقعدهم عن أن يفعلوا شيئا لا للثأر من كرامة رئيس عربى معتقل ، ولكن للثأر لكرامتهم هم قبل كل شئ ، عندما تذهب توسلاتهم بفك أسر الزعيم الفلسطينى!

ولأن المُحاصر هو الطرف الأضعف ، فإن دعوته لا تجد آذانا صاغية ، فالصوت الذى يجد الطريق سريعا إلى الآذان هو الصوت الذى يصدر من موقع قوة ، ولسنا فى حاجة إلى أن نسوق الأدلة ونقدم البراهين على ما تعيشه الشعوب العربية والنظم التى تحكمها من حالة ضعف مخزية ، وصلت إلى درجة أن الصياح والصراخ لمحاولة إيقاظها وتحريكها لم يعد ممكنا ، مما يعد إجابة عملية لتساؤل سبق لنزار قبانى أن طرحه بقصيدته الشهيرة : هل نعلن وفاة العرب ؟ ثم أجابه الشاعر السعودى المعروف غازى القصيبى ، بأن العرب أمة يجب إعلان وفاتها بالفعل ، وياليتها ميتة شريفة ، نتيجة مجاهدة ونضال ، ولكنها ميتة ذل وهوان !

وأشد ما ثير الوجيعة حقا هو استمرار مناداة بعض الحكام العرب للولايات المتحدة بالضغط على الزعيم النازى الصهيونى شارون ، وكأن لسان حالهم حال متسول يتوسل " شوية ضغط لله " !! مما يصيبنا نحن أبناء الشعوب العربية المقهورين بالكثير من الضغط ، لكنه ضغط الدم ! ولا يخجل هؤلاء الزعماء عندما يجيئهم الرد بمزيد من التشدد الأمريكى إلى الدرجة التى أصبحنا نرى فيه الزعيم النازى الصهيونى يكاد أن يكون هو المملى لسياسات واشنطن فى فلسطين .

وآخر الأمثلة ، أن يكرر الرئيس مبارك سخريته صادقا مما أثير عن قضية السفينة التى زعموا بأنها ضبط حاملة للسلاح للمقاومة الفلسطينية ، ووصفه لها بأنها " مفبركة " ، ومع ذلك يصم الرئيس بوش أذنيه عن هذا الحكم الصادق ، ويقف معبرا عن خيبة أمله فى الرئيس ياسر عرفات بسبب شحنة الأسلحة المزعومة . ولا يتوقف عند هذا الحد ، بل يصل التبجح الأمريكى درجة من اللامعقول فى التشديد على عرفات بضرورة أن يبذل جهدا كاملا لاقتلاع (الإرهاب) فى الشرق الأوسط ، لأن ذلك يعتبر تعزيزا للإرهاب

وحتى لو صدق أمر هذه الشحنة ، أفليس من حق شعب من الشعوب أن يتوافر لديه قدر من السلاح يدافع به عن نفسه ؟ لماذا رضى الزعماء الفلسطينيون منذ البداية فى أسلو بأن يكون الفلسكينيون شعبا مجردا من السلاح ؟ وما المنطق الكامن فى أن يكون المحتل هو المالك لأعتى ترسانة أسلحة ، ويكون الشعب الذى تُحتل أرضه أعزلا تماما ، ويقيمون الدنيا ويقعدونها لو اكتشفوا أنه استورد سلاحا خفيفا ؟!

# مثل الحمار يحمل أسفارا !

ما أن أبصرتها عيناى قادمة تتهادى من بعيد ، منتهية من " درس المجموعة " ، فى السنة الرابعة الابتدائية ، حتى وضعت عصاى التى أتوكأ عليها ساندا إياها على جدار بجوارى ، وفردت ذراعى متهيأ أن أتلقاها بهما حاضنا ، مقبلا ، هاشا ، باشا ، ولم لا ؟ ألا يقولون " أعز الولد ولد الولد " ؟!

ثم اختفت بسرعة مظاهر الفرح التى غمرتنى ، فقد وجدتها منحنية إلى أمام ، كأنها امرأة عجوز ، بلغت من العمر عتيا ، قصيرة القامة ، مقطبة الجبين ، يبدو عليها الإعياء والإرهاق ، ..

حدست أن الحقيبة التى تحملها على ظهرها تثقل كاهلها ، فمددت يدى أحملها عنها، فإذا بى أكاد لا أقوى على حمل الحقيبة ، وعللت ذلك بأننى " وهن منى العظم واشتعل الرأس شيبا " ، فكان أن حملناها سويا إلى السيارة ، وبدأت أسأل عما فى الحقيبة يجعلها بهذا الثقل المخيف ..إنها كتب ودفاتر وأدوات ! سألتها : ألا تحملين فقط ما يخص درس اليوم ؟ قالت بأن كل مدرسة على وجه التقريب تطلب أن نحمل لها كل ما يخص ما تدرسه وخاصة إذا كانت مدرسة لغة ، وما تتفرع إليه ، حتى يصل الأمر إلى أن تكون بمثابة من يحمل مكتبة كاملة على ظهره ، ذهابا وإيابا .

هنا تذكرت ما حدث لأحد علماء المسلمين فى ماضى الزمان ..كان يحمل كتبه على راحلته ، إلى مدرسة فى بلدة بعيدة دعى للتدريس بها، فإذا بلص ، يبدو أنه كان مثقفا ، يقابله فى الطريق ، ويسطو على الكتب . كان عالمنا يستعين بالكتب فى التدريس ، وحار ، كيف سيقوم بمهمة التدريس ، وقد فقد الكتب التى بحوزته ؟ هنا أدرك أنه لا ينبغى أن يكون " كمثل الحمار يحمل أسفارا " ، ولابد أن يعتمد أكثر على استيعابها فى عقله وذاكرته مرسيا قاعدة " العلم فى الراس لا فى الكراس " .

إن هذه الصورة التى نرى عليها مئات الألوف من صغارنا يحملون " مكتبة " على ظهورهم ، ذهابا وإيابا ، فى عمر تكون عظامهم فيه ما زالت " رخوة " لهو أمر أخطر من أن يتصوره كثيرون ، لا أقول هذا لأنى أعانى منذ ما يقرب من ربع قرن من تداعى الهيكل الخرسانى " العظام " لبنيتى الجسدية " ، بل اسألوا من هم أعلم منى .. أساتذة العظام !

لقد سبق أن رأيت فى زيارة لى لإحدى المدارس الابتدائية فى انجلترا منذ سنوات ، كيف أن هناك " دولابا" بطول جدار الفصل أو قطاع منه ، مقسم إلى خانات ، مثلما نرى فى غرف خلع الملابس الملحقة بحمامات السابحة فى النوادى ، كل خانة لها مفتاحها ، يضع التلميذ كتبه ودفاتره بها ، ويعود إلى منزله ويجئ مخفف الأحمال ، فيتحرك بسرعة وخفة ، على أساس أن كل معلمة تحرص على أن يقوم التلاميذ بحل واجباتهم فى الحصة نفسها ، وأن اليوم الدراسى طويل ٠

أفلا يمكن أن يطبق مثل هذا فى مدارسنا الابتدائية ، خاصة وأن كثيرا منا - كبار السن - يتذكرون كيف كان لكل منا " درجا " له قفل خاص ، يحتفظ فيه ببعض حاجاته المدرسية؟!

وإذا كنت أحمل " هم " حفيدتى " نور " ، وهى ، أيا كانت ، " فرد " ، فلا شك أن " هم " السيد وزير التربية أشد وطأة وأخطر مسئولية ، لاعتبارين ، أولهما : أنه " أب " مسئول عن ملايين من أطفال المدارس ، وثانيهما أنه " النطاسى " الكبير فى طب الأطفال ، وبالتالى فهو أكثر منى علما ووعيا بخطورة ما يتعرض له أطفالنا : " أكبادنا التى تمشى على الأرض " !!

# " أنا بكره المدرسة "..!!

على الرغم من نيف وأربعين عاما قضيتها فى ساحات العلوم التربوية والنفسية درسا وتدريسا وكتابة ، فإنها لا تعدل دلالات تلك المواقف التى تجمع بينى وبين حفيد من أحفادى فى شأن من شؤون التربية ..

" فحسن " رقيق الجسم ، رقيق الطبع ، فى الصف الأول من المدرسة الابتدائية ، بعد أن أمضى عامين فى فترة رياض الأطفال . أسرعت أمه فى آخر أيام الأسبوع الأول من الدراسة توقظه فى السادسة صباحا ، حتى إذا تنبه ، إذا بها تفاجأ بموجة من بكاء وصراخ منه أفزعتها فظنت على الفور أن ألما شديدا قد هاجمه ، فصاحت به فزعة : مالك يا حبيبى ؟ فيه إيه ؟

فإذا بهذا الطفل رقيق الجسم ، رقيق الطبع ، يستصرخها باكيا بصوت عال : والنبى يا ماما ، مش عاوز أروح المدرسة .. يارب يخليك ويخلى بابا .. أنا باكره المدرسة !!

ووددت ساعتها أن يسمع عالم النفس الكبير د. سيد عثمان هذا ليراجع ما كتبه فى كتيب طريف بعنوان ( بهجة التعلم ) !!

لا أريد أن أسترسل متابعا ما حدث ، لكن ما عرفته أنه - مثل آلاف غيره بطبيعة الحال - يخرج قبل شروق الشمس ، ويظل بالمدرسة حتى الثالثة والنصف بعد العصر ، ويصل إلى المنزل عندما تقترب الساعة من الخامسة ، ومطلوب منه أن يستريح ما لايقل عن الساعة ، ومطلوب منه أن يؤدى واجبات متعددة تحتاج إلى ما يقرب من الثلاث ساعات ، وهو فى حاجة بطبيعة الحال أن يروح عن نفسه بعض الوقت ويجلس مع أبويه ، ومطلوب منه أن يتناول وجبة العشاء ، لكن ضرورة أن يستيقظ فى السادسة صباحا كحد أقصى، واستمرار العمل ما يزيد على اثنى عشرة ساعة على الأقل ، يدفعه دفعا إلى أن يسقط فى الثامنة مساء فى غيابات النوم منهكا مكدودا ، لا حول له ولا قوة ، وما كان بكاؤه وصراخه إلا لأنه وجد أن طفولته قد سُرقت منه ، وأن بسمته قد تم تجميدها حتى إشعار آخر !

لا بأس أبدا من أن يطول اليوم المدرسى ، فهذه " نعمة " تربوية ، لكن منطق طول اليوم المدرسى له شروطه وتوابعه التى إن لم تراع تهاوى هذا المنطق ، وأصبح " نقمة " نفسية وتربوية وعائلية .

إن المشكلة أن معلم كل مقرر لا يضع فى اعتباره أن الواجبات التى يكلف التلميذ بها ، هناك معلمون آخرون يطالبونه بمثلها ، ليجد التلميذ نفسه أمام " تل " يومى من الواجبات ، وهو لم يزل بعد فى سن السادسة أو السابعة ، وفى أول خطوات التعليم ، لتنطبع لديه انطباعات سيئة عن التعليم ، ويتحول المنزل إلى " مدرسة ممتدة " مسائية !

إن من الممكن أن يقوم معلم كل مادة – فى مدرسة لغات مثل هذه التى نشير إليها – بتكليف التلاميذ بأن " يحلوا " الواجب المدرسى فى الحصة نفسها ، حتى ولو تطلب الأمر أن يزيد الوقت بعض الشئ ، بحيث يعود التلميذ إلى منزله فارغ البال من الواجبات المدرسية فيجد من الوقت ما يمكنه أن يستمتع فيه بطفولته ، وتعود البسمة إلى شفتيه ، ولا نستعجل تحميله بأكداس الهموم ، فالعمر أمامه – بإذن الله – طويل ، وبه ما لا يكاد يحصى من الهموم والمتاعب !

# سلافـــة النديم

" السلافة " من كل شئ : خالصه ..

وسلافة النديم ، مجموعة من أروع كتابات أشهر أديب مبدع ، وخطيب وطنى مفوه شهدته مصر فى أواخر القرن التاسع عشر ، ألا وهو عبد الله النديم ، والذى جمع هذه الكتابات صديق له كان كذلك كاتبا شهيرا اسمه " أحمد أفندى سمير " .

وكان النديم من مواليد الإسكندرية فى عام ١٨٤٣ ، وتأسس تأسيسا علميا دينيا ، مثله فى ذلك مثل الجمهرة الغالبة من مثقفى الأمة منذ أظل الله أرض الكنانة بنعمة الإسلام ، لكنه لم يكمل الطريق إلى نهايته ، وانتقل نقلة غريبة ، حيث عمل " بالتلغراف " وكان هذا أفقا جديدا على الحياة المصرية ، فى النصف الثانى من هذا القرن .

وكانت حياة النديم حافلة بالكثير من صور النضال والجهاد فى فترة من أصعب فترات تاريخ مصر الحديث ، أنشأ الجمعياتالخيرية ، وانضم إلى تنظيمات سرية ، وأنشأ صحفا ومجلات ، وشارك فى الثورة العرابية ، واستطاع أن يختفى عن أعين الحكومة فترة غير قصيرة ، وعندما عثروا عليه ، وصدر عفو عنه وعاد إلى نشاطه الثقافى ، لم يتحملوه ، فنفى خارج مصر ومات فى مقر الدولة العثمانية فى شهر أكتوبر عام ١٨٩٦ .

وقد جمع النديم فى النبوغ بين مجالات ثلاث : النثر ، والخطابة ، والشعر .

وكان الملاحظ على كتابته ، مثل كثيرين فى ذلك الوقت ، غلبة السجع ، ففى فترة من فترات بؤسه التى مر بها ، كتب إلى بعض أصدقائه مقالا بعنوان : " الساق على الساق ، فى مكابدة المشاق " ، يذم إليه سوء الحال ، ويشكو من ضياع الأدب بين أهله ، جاء فيها : " متى أدرك الحظوظ وهى سابقة . وكيف أجارى الخطوب وهى لاحقة . وأين السرور فقد أعياتى الطلب . ومن لى بالنصر على الهم وقد فاز بالغلب . تالله إن الشجاع فى هذا المضمار جبان . وقل أن يفوز مقتحمه بأمان ..." .

وعندما أصدر النديم مجلته ( التنكيت والتبكيت ) فى السادس من يونيو ١٨٨١ ، كان من الواضح كم ونوع الدوافع القومية التى دفعته إلى ذلك ، فى وقت كانت فيه ذئاب الرأسمالية العالمية قد بدأت تستعد للانقضاض على مصر .. الفريسة التى هيأوا من الأوضاع ، منذ نهاية امبراطورية محمد على ، ما يكفل أن تسقط لقمة سائغة بعد تكبيلها بالديون ، والتغلغل فى شرايين الاقتصاد ، وإحاطة رجال الدولة بالعيون المتجسسة ، والقيود المكبلة ، والسياسات الموجهة .

من هنا نفهم لماذا يوجه النديم خطابه إلى جمهور القراء بهذا النداء : ( أيها النطق بالضاد !)

ولأنه يريد من المجلة أن تقوم بمهمة " إيقاظ الأمة " ، فقد فرض هذا على سياستها أن تتوجه توجها فريدا حقا ، لم يكن مألوفا ، عنوانها البساطة ، وموضوعها هو هموم الأمة ولهذا يصف أسلوب عباراتها بأنها : " لا يحتقرها العالم ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير " ، والمنحى العام لها : " هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيت ، ليست منمقة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة برقة قلم محررها وفخامة لفظه وبلاغة عبارته ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ولغة ألفنا المسامرة بها " .

وقراءة المجلة ، توقف القارئ على مقدار ما كان عليه النديم من الوعى ببدايات التغريب وذوبان الذات القومية ، ويا ليت الأمر انتهى إلى أن نصير مثل الدول الغربية علما وقوة واقتصادا ، ولكننا سرنا على طريقها فى إضاعة اللغة العربية ، وفى التخلق ببعض الأخلاقيات المرسخة للتفكك الأسرى والابتذال والتبعية ، فها هو يكتب مقالا بعنوان : ( عربى تفرنج ) فى صورة حكاية بها حوار ، مطبقا العهد الذى قطعه على نفسه فى تحرير المجلة ، أن تكون لعموم الناس فتخاطبهم بما يفهمون ، وبطريق غير مباشر ، فهو هنا يوجه سهام النقد للتعليم الذى كان قائما ، وكيف أنه لم يحرص على تأكيد الذات الوطنية ، وإنما صنع بين المصرى والدول الغربية جسرا للتواصل ، بينما تقطعت الخيوط التى تربطه بقومه ، وهو من خلال ذلك أيضا يدلى بدلوه فى قضية التعامل مع الآخر الحضارى ، بأى كيفية ؟ ووفق أى منطق ؟ ولأية غاية ؟

والحكاية التى يرويها هى أن فلاحا اسمه " معيط " رزقه الله ولدا سماه " زعيط " ، تمرس بالعمل الريفى الذى كان معروفا ، وبينما كان يسوق الساقية وأبوه جالس عنده ، مر بهما أحد التجار فقال لأبيه : لو أرسلت ابنك إلى المدرسة لتعلم وصار إنسانا ، فأخذه وسلمه إلى المدرسة ، فلما أتم علومه الابتدائية أرسلته الحكومة إلى أوربا لتعلم فن حددته له ، وبعد أربع سنوات عاد إلى مصر بحرا ، وجاء أبوه ليستقبله . وكعادتنا ، ومن شدة شوق الأب لابنه ، هجم عليه آخذا إياه فى حضنه ، مقبلا ، فإذا بالإبن يبدى ضيقه وضجره من هذا التصرف من الأب ، وجرت بينهما هذه المحادثة :

زعيط : سبحان الله عندكم يا مسلمين ، مسألة الحضن دى قبيحة جدا !

معيط : أمال يا بنى نسلم على بعض ازاى ؟

زعيط : قول : " بون أريفى " – بالفرنسية حيث تعنى : حمد الله على السلامة – وحط إيدك فى إيدى

مرة واحدة وخلاص .

( ووقعت كلمة " اريفى " فى أذن الأب وكأنها " ريفى " المألوفة لدينا ، فقال ردا على الإبن : )

معيط : لهو يا بنى أنا باقول منيش ريفى ؟

زعيط : موش ريفى يا شيخ . انتم يا أبناء العرب زى البهايم !!

معيط : الله يسترك يا زعيط ، والله جا خيرك يا ابنى فوت ، روح فوت .

فلما وصلا البلدة ، أرادت أمه أن تكرمه ، فعملت له طاجنا فى الفرن مملوءا لحما ببصل الذى كان يأكله كثيرا وهو صغير ، فإذا به يأنف منه ، ويحاول أن يتذكر اسمه ليؤكد احتجاجه ، فلم يجد إلا اسمه بالفرنسية " أونيون " !

وذهب الأب إلى أحد النبهاء يشكو له ما حصل من ابنه ، ويعبر النديم عن خلاصة فكره فى هذه القضية بحديث أجراه على لسان هذا النبيه :

" ولدك لم يتهذب صغيرا ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حق لغته ، ولا قدر شرف الأمة ، ولا ثمرة الحرص على عوائد الأهل ، ولا مزية الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوما ، إلا أنها لا تفيد وطنه شيئا ، فإنه لا يميل إلى إخوانه ولا يستحسن إلا من يعرف لغتهم على أنه أصبح كالغراب لما أراد أن يقلد الحجل فى مشيته وعجز عن التقليد واستحال عليه عوده إلى طبيعته الأولى فأصبح يقفز قفزا ، وقد خرج عن حد الجنسية وطباع النوعية ، ولا يفعل فعل ولدك إلا لئيم جاهل بوطنه ، فكم من شبان تعلمت فى أوربا وعادت محافظة على مذهبها وعوائدها ولغتها وصرفت علومها فى تقدم بلادها وأبنائها ولم ينطبق عليهم عنوان : ( عربى تفرنج ) " .

وإذا كان النديم لم يكمل تعليمه الأزهرى إلى نهاية مراحله ، إلا أنه استمر فى تعلمه " الذاتى " الذى كان سبيل كثيرين ، عندما لا تتيح لهم الظروف أن يستكملوه فى معاهد التعليم النظامية بشكلها المعروف ، ومن هنا رأيناه حريصا أشد ما يكون الحرص على طرق قناة تعليمية عرف بها الزمن القديم ، ألا وهى الصالونات والمنتديات الثقافية التى يتطارح فيها روادها من فرائد الأدب الكثير ، وكثيرا ما كانت مظاهر النبوغ والعبقرية لديه تفيض على الحضور ، فمن ذلك أنه حضر اجتماعا حافلا لدى شاهين باشا ، أحد كبار رجال الدولة فى عهد إسماعيل ، تحامل عليه فيه كل القوم ، فاقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبى المشهورة التى مطلعها :

أقل فعالى بله أكثره مجد وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جد

وقال : أنه لا يتأتى لشاعر أن يعارض قوله فى هذه القصيدة :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد !

فغضب النديم لهذا ، لأنه إنما يعنى انتقاصا من مواهبه الفذة ، فإذا به يمسك القلم وينشىء قصيدته الدالية التى أولها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد ومن سار فى نصرى تكفله الحمد

إلى أن قال معارضا ذلك البيت الذى ظنه المتعنت معجزا :

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا يعارضه غر ويفحمه وغد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتكفل أعراض تكفلها المجد

وتبدت مواهب النديم الفكرية ، نتيجة لهذا ، وارتفاع درجة حرارته الوطنية ، فى مقال نشره فى مجلته ( التنكيت والتبكيت ) أراد به أن يوجه سهام النقد إلى نفر من أهل البلاد ، تصوروا أن التقدم والتطور والتحديث ، يكون بطعام ولهو وشراب وملبس ، وتأنق فى الأبنية ، بينما الحقيقة عكس ذلك ، وهو كالعادة لا يلجأ إلى أسلوب المقال المباشر ، وإنما إلى " الحكاية " أسلوبا يبث من خلاله ما يريد أن يوصله من أفكار للقارئ .

كانت الحكاية بعنوان : ( سهرة الأنطاع ) ، روى من خلالها أن أحد المهذبين دخل بيتا من بيوت رجال الملاهى فوجد عشرة من الرجال جالسين على الأسرة ، مبهوتين ، ساكتين ، لا يتكلمون ، ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم : هذا واضع عنقه على كتفه ، وذا مكفى على المخدة ، وذاك يتمايل كالنائم ، وآخر واضع يده على خديه ، فظن المهذبَ أن رب الدار لابد أن يكون قد أصيب بمصيبة ، وبالتالى فإن هؤلاء متكدرون مما أصابه ، مشفقون عليه ، فجلس فى ناحية من المجلس ، وسأل رب الدار قائلا : لعلكم بخير . هل من أمر نزل بالأخ الكريم ؟ رد الرجل بالنفى ، مؤكدا أن من عادته مع صحبه أن يجتمعوا كل ليلة للأنس والمفاكهة ، ومن هنا يدير النديم الحوار التالى بين من أسماه " المهذب " ، ورب الدار :

المهذب : أظنكم تتذاكرون فى تقدم صنائع أوربا وانتشار تجارتها فى سائر الأقطار حتى عظمت ثروتها وتقوت شوكتها ؟

رب الدار : ما لنا علم بأوربا ، ولا أهلها ، فإننا ما خرجنا من مصر مدة حياتنا !

المهذب : عدم الخروج من البلاد ليس شرطا فى وقوف الإنسان على حقائق الأشياء وعلمه بأخبار من بعد عنه ، فإن التواريخ وصحف الأخبار تقص علينا أحاديث الأمم ونحن جلوس فى بيوتنا .

رب الدار : التواريخ لا يقرأها إلا العلماء ، والصحف ، لا يسأل عنها إلا الخواجات ، فإنها عبارة عن حكاية يتسلى بها الشبان !

المهذب : الصحف يا سيدى ألسنة الأمم ، وترجمان الملوك ، تنقل لك ما قاله هذا الرئيس وهو بأقصى الغرب ، وما أجاب هذا الأمير وهو فى أطراف الشرق ، وتخبرك بالمحاورات السياسية وأغراض الملوك وأحوال الأمم وسير التجارة وأعمال العقلاء وصنائع العلماء وخطب النبهاء وتاريخ الأذكياء ، وما قامت به هذه الأمة من عمار وطنها وحمايتها له وحفظه من امتداد أيدى الغير إليه ، وما أهملت فيه تلك الأمة حتى تدخل الغريب فى شأنها وحجر على أهلها عوائدهم ومذاهبهم !

رب الدار : هذا شئ يوجب وجع الدماغ ويشتت الفكر ، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل .

المهذب : أظنكم تتحدثون فى شؤونكم وتتذاكرون فى أشغالكم الخاصة بكم لعلكم تهتدون لأمر يزيد فى الثروة أكثر مما أنتم عليه لتفاخر بكم حكومتكم وتكافئكم على أتعابكم واجتهادكم بالرتب العالية ؟

رب الدار : لله الحمد كل منا له بيت عظيم بحوش واسع ومضيفة لطيفة ، وعنده من الخدم ما يقوم بإدارة أشغاله ، وقد تركت لنا أباؤنا أموالا لا تفنيها الأيام ، فنحن فى نعمة عظيمة ، ترى المسكين من الناس يقوم فى الفجر لأشغاله ويبيت يكتب ويحسب ، ونحن لا نخرج من البيوت إلا قبل الظهر بقليل ، ونعود إليها وقت العصر للمسامرة بالمضحكات والنكات اللطيفة !

هنا ، ينطلق النديم ، على لسان " المهذب " منددا بهذه المفاهيم ، وتلك الأحوال !

عندما تخمرت فكرة المقال فى ذهنى ، حادثت بها صديقا أستأنس برأيه ، فإذا بعلامات أسى ترتسم على وجهه ، فسألته ، فإذا به يقول ما معناه : كيف يطاوعنى ضميرى ، على أن أتغافل عن تلك الأعاصير المدمرة التى تحيط بالأمة من كل جانب : المجازر النازية الصهيونية فى فلسطين ، التهديدات المتتالية لشيطان العصر ، الولايات المتحدة الأمريكية ، لكل من تسول له نفسه بالوقوف فى وجه أهدافها فى الهيمنة على مقدرات الشعوب .. هذا التردى الاقتصادى المفزع الذى تشهده بلادنا ، وغير هذا وذاك مما يصعب حصره ، كيف أترك كل هذا وأتحدث عن أمور مما حدث فى أواخر القرن التاسع عشر ؟ أليس هذا صورة أخرى من صور المأساة الثقافية ؟

وبكثير من البراهين والأدلة ، اقتنع صديقى بأننى ، على عكس ما تصور ، لم أكن بعيدا أبدا عن هموم الأمة التى تحاصرنا وتأخذ بخناقنا ، وعلى سبيل المثال ، فإذا كانوا فى عهد

ثورة يوليو قد تحدثوا عمن سموهم " بالعاطلين بالوراثة " من أبناء الإقطاعيين والأسرة المالكة ، وهم من نسميهم " المولودون وفى فمهم ملعقة ذهب " ، فها نحن اليوم نعيد المشهد فى مئات الشباب من أبناء الأغنياء الجدد ، الذين يثرون بقروض ينهبونها من بنوكنا العامة ، يصولون ويجولون فى الملاهى والمراقص وفى الشوارع بغير ضابط أخلاقى ولا خوف من توقيع جزاء ، فالحماية قائمة !

فما قصدت إذا ، مجرد " حكى " عن أيام مضت ، وما قصدت هروبا إلى الماضى ، ولكننى ألفت النظر إلى أن المأساة أشد مما نتصور ، وأخطر مما نتوقع ، عندما نغفل عن قراءة التاريخ القريب الذى حدث فيه ما يشير ويؤكد إلى ما يجب أن نتحسب له ونتوقاه ، وما يجب أن نفعله ونتحداه ، ومع ذلك فنحن عن هذا غافلون ، فمتى يعود الوعى الحقيقى ، حتى لا يصدق علينا قوله عز من قال : " ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ٠ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون " الأعراف /١٧٩

# أزمة نظام أم أزمة حكومة ؟!

أعترف مقدما بأنى لست خبيرا فى المسائل الاقتصادية ...

لكنى فى الوقت نفسه إنسان يعيش اقتصادا يحيط به من كل جانب : فى لقمة عيشه التى تحتل موقعا متميزا فى تفكيره بحكم كونه كائنا حيا أولا وبحكم مسئوليته عن أسرة ثانيا ، وفى بعض مدخراته التى يراها تتآكل أما عينيه يوما بعد يوم ، وفى هذا التدهور المستمر فى قيمة ما يملك – حتى على فرط ضآلته – ، وفى ملبسه الذى أصبحت سنون طوال تمر دون تغييره من فرط الارتفاع الجنونى المتواصل لأسعاره ، وفى حسرة أوجعته أشد ما يكون الوجع عندما يجد نفسه لأول مرة فى حياته ، لا يزور معرض القاهرة الدولى للكتاب ، بعد ما رأى لهيب أسعار الكتب يمكن أن تحرق كل ما يضعه فى جيبه !

من هنا كان لابد أن تؤرقنى الأزمة الاقتصادية فى مصر ، فأروح متأملا ، مفكرا فى بعض ما يجرى حولى من أحداث وما ألمسه من أوضاع :

أمر على أسواق داخلية ، فأجد أصحاب المحال التجارية قد تعبوا من طول جلوسهم وهم فى غير حركة بيع وشراء ، ويحسبوننى زبونا فيسرعون نحوى مغرين لى بكل السبل ، ثم يكتشفون أنى – مثل كثيرين غيرى – سراب ، يحسبه صاحب المحل زبونا ، ثم إذا به مجرد متفرج !

وتمل أذناى من تليفونات من أصدقاء وأقارب ، تسبق دموعهم أصواتهم ، وبكلمات كلها توسل ورجاء ، متصورين أن لى شأنا كبيرا بحيث أتوسط لهم فى تشغيل أبنائهم الذين أنفقوا عليهم " دم قلوبهم " سنوات طوال عسى أن يرونهم قد وقفوا على أقدامهم يكسبون ويعولون أنفسهم ، ويكون الرد المؤسف منى : لا أملك سبيلا إلى ذلك !

ويحيط بى عشرات وعشرات سنويا من شباب الخريجين الذين " يتسلون " بالدراسات العليا ، ما دام العمل قد أصبح سرابا ، فأجد بينهم عشرات الفتيات ، والسنون تتسرب بين أيديهن ، حتى بدأوا يتجاوزن سن الثلاثين ، وهم لا يجدون " عريسا " ، فأسأل الدارسين الذكور : لماذا لا يتزوجون ، وها نحن أمام فتيات عرائس طيبات ، محاولا أن أتوسط فى حل مشكلة العنوسة المزمنة ، فتكون الإجابة أنهم يعجزون عن إيجاد شقة الزوجية بأى مستوى ، والأهم : كيف يفتحون بيتا ، وهم ، إن عملوا ، فلن يحصلوا إلا على بضعة عشرات من الجنيهات تسد رمق فرد واحد بالكاد !

وأدخل متجرا بسيطا ، أحاول أن أشترى لأحفادى بعض الحلوى ، فإذا بى أرى أكداسا من الكراتين ، وما يصعب حصره من أنواع هذه المأكولات التى يتسلى بها الصغار أكلا ، وطبعا كل نوع منها ، ينتجه مصنع ، ولو صغير ، فأجد أن هذا معناه عشرات المصانع المنتشرة فى البلاد توحى بأن هناك صناعات ، فإذا بها لبسكويتات وشيكولاتات وشبسى ، وأيس كريم !!

وأمر بأى شارع ، فأرى عشرات الصغار ، كل منهم يمسك فى يده " تليفونا محمولا " و " هات يا كلام " ، وأسأل فيقولون لى أن المالكين الآن لهذه الأداة العصرية ، أصبحوا مئات ألوف ، ينفقون يوميا مئات الألوف من الجنيهات ، معظمها مكالمات " تسالى " ، ومواعيد ، وتبادل أخبار شخصية ، وتعليقات كروية ، وآراء حول أغانى مما يسمى " هبابية " ، وفى الوقت نفسه ، نقر أو نسمع ونشاهد مئات ألوف من أبناء مصر أيضا يكادون لا يجدون لقمة عيش يومهم !

وإذا كان الجميع يتحدث عن مشكلة " السيولة " النقدية فى مصر ، لكننا ولله الحمد نكاد نغرق فيما يمكن تسميته ب " سيولة " من التصريحات الوردية ، فأروح أسمع لها وأنصت ، فأجد أن " الدنيا ربيع والجو بديع " ومن ثم دعوة إلى أن " أقفل على كل المواضيع " !! فاقتصادنا بخير ، ومعدلات البطالة قليلة ، ولا خوف من هبوط قيمة العملة الوطنية ، فكل العملات فى العالم تهبط أحيانا ، وينسى الذين يقولون هذا أنها تعاود أحيانا أخرى الارتفاع ، أو العودة إلى ما كانت عليه إلا الجنيه ، فما رأيته أبدا ، بعد أن ينخفض إلى هذا القدر أو ذاك ، يعاود الارتفاع مرة أخرى ، أو حتى العودة إلى ما كان عليه !

ويدفعنى كل هذا ، وهناك غيره بطبيعة الحال ، إلى أن أفتش بين ما يكتبه خبراء عظام فى الاقتصاد علنى أفهم حقيقة ما يحدث ، وعلنى أجد بصيصا من نور ،وتتعدد الآراء والكتابات المتاحة أمامى ، فإذا بى أعود بعد أن أصبت بصورة من صور الاكتئاب القومى ، الذى يدفعنى إلى أن أدعو الله أن يجنب أحفادى من هذا البلاء العظيم – بعد عمر طويل – حيث أشعر ب ( استحالة ) أن أرى انفراجة فيما تبقى من عمرى وهو بالطبع قليل ، وأشعر ( باحتمال ) أن يرى ابنى بوادر انفراج بعد عمر بسيط !!

وأنا إذا أنقل للقارئ بعضا من هذه الآراء ، لا أقصد أبدا أن أنقل إليهم عدوى الاكتئاب الذى أصبت به ، ولكن ، لعلهم يفهمون خيرا مما فهمت ، فلا يجزعون مثل ما جزعت ، ويعيدون إلينا الأمل والرجاء ، فنشعر بأننا ما زلنا على أرض مصر ( المحروسة ) من كل رضى !!

فعندما نتأمل فى أهم مواردنا المالية ، سوف نجد أن المصادر الرئيسية لها هى مصادر تجئ لنا بالمال من الخارج ، بحيث لا يكون هذا المال نتيجة عمل إنتاجى بالداخل ، وذلك مثل : قناة السويس ، والسياحة ، وتحويلات العاملين فى الخارج ، وخطورة مثل هذه المصادر أن أحولها ليست بيدنا ، وتخضع بالضرورة لأى تقلبات أو أحداث طارئة تحدث بالخارج ، ولا نريد أن نشير إلى أحداث ١١سبتمبر ، وإنما نشير إلى بضعة طلقات رصاص أطلقات على سياح فى الأقصر عام ١٩٩٧ وما ترتب على ذلك من خسارة مئات الملايين من الدولارات ٠ ومن قبل ، وفى أغسطس ١٩٩٠ ، عندما وقع غزو عراقى للكويت وما ترتب عليه من عودة آلاف من العاملين المصريين ٠

وإذا كانوا قد فشروا لنا الطريق ورودا تمهيدا لدخول جنة الرأسمالية التى يعيشها الغربيون فى بلدانهم ، وأدى غيابها عن دول المنظومة الاشتراكية سابقا إلى أن تفشل نظمها وتنهار ، فإنهم نسوا أن " آلية السوق " التى هى عصب النظام الرأسمالى من الصعب أن تعمل فى سوقنا مثلما فعلت وتفعل فى السوق الغربى ، ذلك أن مؤسسات السوق فى البلدان الرأسمالية المتقدمة ، فيما يؤكد محمود عبد الفضيل هى وليدة عملية تاريخية طويلة امتدت لبضعة قرون حتى استقرت قواعدها وآلياتها ، وليس من السهل استيراد تلك " الأسواق " بنفس درجة التنظيم وأسلوب الكفاءة لزرعها فى وسط تاريخى واقتصادى مغاير تماما ، لكى تقوم بنفس الدور والوظائف !

إنهم هنا فى مصر يتحدثون عن السوق كأنه ذو شخصية اعتبارية وأنه يحدد سعر أى سلعة أو خدمة أو عمل بالسعر الذى يستحقه ، لكن فات عليهم أن الدولة ، مهما كان البلد الذى تتولاه ، هى التى تقوم بالدور البارز فى حركة السوق ، بما تحدده من سياسات ، وما تشرعه من قوانين ، وما تتخذه من إجراءات ، وخاصة فى مجالات الائتمان والنقد والضرائب والجمارك ، وكذلك بما تحدده من أنواع معينة من الاستثمارات سعيا نحو ترسيخ سياسات اجتماعية تؤدى غلى توفير العدل فى توزيع الدخول ٠

وبخصوص هذا نبه " جوزيف ستيجلتز " وهو أحد علماء الاقتصاد المتميزين ، وكان ، حتى وقت قريب نائبا لرئيس البنك الدولى ، إلى أن " المؤسسات المالية الدولية أخطأت فى السنوات العشر الماضية عندما دفعت العديد من دول العالم النامى إلى التحول إلى اقتصاد السوق قسرا قبل أن توفر الهياكل والمقومات الأساسية اللازمة لذلك التحول " !

ومن هنا فالدكتور إسماعيل صبرى عبد الله يذكرنا بالتقرير الذى كان البنك الدولى قد أعده منذ عامين أكد فيه أن نجاح عملية الإصلاح الاقتصادى لا بأس به ، بيد أن هذا التقرير نبه إلى أن هذا النجاح لا يؤدى بالضرورة إلى تنمية حقيقية ، ذلك أن فاعليته

تقتصر على تمهيد الطريق إليها لا على إيجادها، وأن معدلات التنمية فى مصر مفروض ألا تقل عن ٧أو ٦٪ ، مما يحتم ألا تقل معدلات الادخار عن ٢٥ ٪ ، وألا تقل معدلات الاستثمار عن ٣٠٪ ، وتتم تغطية الفرق بين المعدلين بالاقتراض الخارجى ٠

وندد تقرير البنك الدولى بالاستثمارات العقارية فى الساحل الشمالى وشرم الشيخ ، وأنه ما دام هناك عجز كبير فى ميزان مصر التجارى ، فإن هذا يفرض أن تتجه الاستثمارات بنسبة أكبر إلى المجال الصناعى وليس المجال العقارى كما هو حادث الآن ٠

ولعل ما شاب سياسة ما أسموه بالإصلاح الاقتصادى هو ما لاحظه د٠إبراهيم العيسوى من رغبة سياسية من جانب الحكومة فى إثبات نجاح برنامج الإصلاح الاقتصادى ، وفى إشاعة جو من الثقة والطمأنينة لدى المستثمرين فى الداخل والخارج ، مما قد يدفعهم إلى زيادة استثماراتهم فى مصر ، وإلى جانب ذلك كانت هناك رغبة سياسية فى طمأنة الجماهير التى ازدادت وطأة الفقر والبطالة عليها من جراء السياسات الانكماشية وسياسات تقييد الانفاق الاجتماعى العام وعمليات الخصصة ، وإشعارها أن ما تحملته من ضغوط ومعاناة لم يكن بلا جدوى ، وتمثلت سياسة " الطمأنة " فى صورة أرقام مبالغ فيها عن معدلات مرتفعة للنمو الاقتصادى ، لكن ، لأننا نعيش عالما " شفافا " انكشف زيف المعدلات المعلنة والتى تراوحت بين ٥,٥٪ و ٦,٥٪ ، وخاصة والجميع يشهد أن البلاد تعيش حالة ركود حادة منذ عام ١٩٩٩ ، وقبل أحداث سبتمبر بعامين ، تلك الأحداث التى وجدت فيه الحكومة " شماعة " جيدة تعلق عليها صور فشل سياساتها الاقتصادية ، فإذا بمعدلات التنمية المعلنة تنخفض من ٦,٥٪ عام ٩٩/٢٠٠٠ إلى ٥,١٪ ، وإن كانت التقديرات غير الرسية تؤكد أنه لا يزيد عن ٤٪ !

ثم إننا نجد أن أزمة الديون المحلية التى قدرها رئيس الوزراء فى ندوته مع كتاب الأهرام ، بمبلغ ١٩٧ مليار جنيه ، يكشف السفير محمود شكرى النقاب عن حجمها الحقيقى والذى هو ٣١٤,٢٣٥ مليار جنيه مصرى ، وفقا لما نشرته وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية فى أكتوبر ٢٠٠١ !!، هذا علاوة على الديون الخارجية التى وصلت إلى ٢٥ مليار دولار أمريكى ، وتزداد الصورة سوادا بالنظر إلى موضوع السندات المصرية الدولارية التى بلغت قيمتها ١,٥مليار دولار ، بعائد سنوى ٨٪ من قيمة السند بينما لا يتجاوز سعر العائد على الدولار الآن نسبة ١,٧٥٪ ، هذا علاوة على أن الفوائد التى استحقت الدفع فى ١١ يناير عام قدرت ب ٦٢ مليون دولار أمريكى !

إننى أشفق على القارئ حقا من المضى قدما فى الكشف عن مثل هذه الجوانب ، فهناك أكثر منها ، يضيق المقام عن الإشارة إليها ، وجميعها تنطق بما لا يدع مجالا للشك أن

الأزمة الاقتصادية التى تعانيها مصر الآن هى أزمة نظام اقتصادى أصيب بعدد من صور الخلل الهيكلى الذى يفرض استنفار كافة الجهود ، أهلية وحكومة ، لسرعة عقد مؤتمر قومى للنظر فى كيفية النهوض من هذه العثرات التى تكاد أن تودى بنا إلى حال لا يعلم مداها إلا الله وحده ، وكفانا تزييفا وضحكا على الدقون ، فليس المصريون " عيالا " لا يفهمون ، وإنما " العيال كبرت " ، ويبقى أن " يكبر العقل الحكومى " ، قبل أن يجئ علينا " يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى " !

# ( الويلات ) المتحدة الأمريكية !!

ليس هناك خطأ فى العنوان ، ولكنها عبقرية اللغة العربية تظهر عندما يمكن أن يؤدى اختلاف وضع حرف فى كلمة إلى أن تشير الكلمة إلى معنى آخر مختلف تماما ، وإن كان الوضع الجديد للكلمة قد اقتضى حذف حرف "ا" من الكلمة الأصلية " الولايات " !

الحق أنه لم يتكون الوعى لدى بكم " الويلات " التى جاءت إلينا بها " الولايات " المتحدة الأمريكية نتاج الفترة الحالية ، وإنما بدأ منذ أن كنت أجمع مادة علمية لرسالتى للدكتوراه التى كانت عن الفكر التربوى فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ، فقد تبين لى أن عداء الولايات المتحدة للعرب والمسلمين عداء له تاريخ ، وأن اللغة المستخدمة ، والمنطق الحاكم ، يكاد يكون واحدا ، وإن اختلفت الأشكال والرسوم وألوان الطلاء !

فعندما جاء روزفلت الأكبر سنة ١٩١٠ فى زيارة إلى مصر ، وألقى خطبة ، وعدت لقراءتها اليوم خيل إلى أننى أقرأ صورة أخرى من ورقة " ميتشل " أو " خطة تينيت " أو مقترحات " زينى " التى قدمها الأمريكيون للفلسطينيين ! ولتقرأ معى هذه الخطوط العريضة لخطبة روزفلت :

١- أن مركز انجلترا فى مصر هو مركز الموجه لما فيه خير الحضارة .

٢- أن الوضع الحالى فى مصر ، بما فيه من قلاقل واضطرابات ( الاسم القديم الذى أطلقوه على الحركة الوطنية ، تماما مثلما يفعلون الآن فيسمونها " إرهابا " ) تهديد للامبراطورية وللحضارة .

٣- أن أخطاء تكمن فى أنهم ( أى الإنجليز ) منحوا الوطنيين أكثر مما يستحقون !

٤- تدخلت انجلترا فى مصر منذ ٢٨ عاما ( حيث بدأ الاحتلال عام ١٨٨٢ )، ومساعدتنا لها ضرورية مطلقة !!

٥- الشعب المصرى استفاد من الحكم البريطانى ، وهناك استحالة فى أن يتمتع المصريون بالاستقلال إلى الأبد .

كل هذا مع أن أمريكا كانت تعيش حالة العزلة عن السياسة الدولية ، ولم تكن بهذا الجبروت فى الانفراد بالقوة فى العالم ، وكانت بريطانيا هى الدولة التى استعمرتها وأذاقتها ويلات الاستعمار .

بل إن روزفلت ألقى خطبة فى نفس العام يوم ٣٠ أبريل فى قصر بلدية لندن ، كان مما جاء فيها " ... لقد أعطيتم مصر أحسن حكومة حكمت عليها منذ ألفى سنة على الأقل ، بل أعطيتموها أحسن حكومة حكمت عليها طول دهرها " .

وهو لا يتوقف عن ذلك بل يحرض الإنجليز على بذل المزيد من العنف ضد المصريين ، بل ويتهمهم بمعاملتنا بعطف ورقة ، فيقول : " .. على أنه ينبغى .. لكل من قيض له منا أن يعامل أقواما غير متمدينة ، وخصوصا الأقوام المتعصبة ، أن يتذكر أن الضعف والتهيب ورقة القلب والعواطف فى مركز كمركزكم فى مصر يمكن أن تؤدى إلى ضرر أعظم من الظلم والجور .."!!

وهو يتهم بريطانيا بأنها أخطأت فى سياستها فى مصر ، ووجه الخطأ : " ...نتج عن سعيكم فى أن تعملوا لخير المصريين أنفسهم أكثر مما يلزم لا أقل مما يلزم " !

ومن هنا وقف حافظ إبراهيم مهاجما روزفلت شعرا :

أنت تطريهم وتثنى عليهـــم ... نائما آمنا وراء البحـــور
ليت شعرى أكنت تدعو إليهم ... يوم كانوا على تخوم الثغـــور ؟
يوم كانوا قذى بعين " نيويور ... ك " وداء مستحكما فى الصدور

أما الشاعر أحمد نسيم فقد قال :

برح الخفاء وبان روزفلت لنا ... من أبغض الأعداء لا الأحباب

أما على الغاياتى فقال :

لعمرك لست بالرجل الهمام ... إذا عد الهمام من الكرام
كرام الناس أصدقهم حديثا ... وأبعد عن أكاذيب اللئام
فما لك لم تقم بالفعل إلا ... لتسمعنا أباطيل الكـــلام ؟

ولم يعلم هؤلاء الشعراء الوطنيون ، أنه سيمر ما يقرب من قرن كامل ، ويظل قادة وزعماء عرب يثقون فى أمريكا ، رغم أن هذا الذى كان ، مجرد خطبة ، أما الآن ، فحدث ولا حرج !

وفى ٨ يناير من عام ١٩١٨ ، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أعلن الرئيس الأمريكى ويلسون مبادئه الأربعة عشر للسلام العالمى ، ومع ذلك فقد نشرت دار الحماية الإنجليزية فى مصر فى ٢٢ أبريل سنة ١٩١٩ ، فى ذروة اشتعال الثورة الوطنية ، أنهم تلقوا من جناب المعتمد السياسى والقنصلى العام للولايات المتحدة خطابا يقول فيه : " .. أتشرف بأن أقول لكم أن حكومتى أمرتنى أن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعترف بالحماية البريطانية على القطر المصرى .. " ؟!

هذا فى الوقت الذى يقرر فيه ويلسون فى المبدأ ١٢ : " حق تقرير المصير للشعوب الخاضعة لحكم الأتراك " ! إنها والله اللغة نفسها التى يستخدمونها الآن ، لماذا حق تقرير المصير للشعوب التى كانت تركيا تحكمها ، وليس للدول التى تحكمها انجلترا وفرنسا ؟

حتى هذه الدول التى يشير إليها عنى بها تلك التى تقع على الأرض الأوربية وحدها ، بدليل أن سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، أقرت الولايات المتحدة بأن تخضع للانتدابين الإنجليزى والفرنسى !

أما طوفان ، وأعاصير " الويلات " الأمريكية منذ إعلان دولة الكيان الصهيونى ١٩٤٨ ، فهو أشهر من أن نضيع فيه وقت القارئ ، ومع كل هذا فالذى أريد أن أفهمه حقا هو كيف يستمر قادة وزعماء اعرب فى طلب العون والمساعدة من أمريكا فى حل الصراع العربى الإسرائيلى ؟ وأصارح القارئ بأننى أهرب من التفكير بعمق بحثا عن الإجابة عن هذا التساؤل ، خوفا من أن تصيبنى الحقيقة بسكتة قلبية !

وانظر إلى الموقف من العراق على سبيل المثال ...

فحتى عندما تقوم محادثات بين وزير الخارجية العراق والأمم المتحدة حول عودة مفتشيها إلى العراق ، تعلن الولايات المتحدة أنها لا ترى جدوى منها ، لماذا ؟ لأنها تريد معاودة ضرب العراق ، هذه المرة ، ضربة لا يكون هناك معها أمل فى أن يعود العراق سليما معافيا .

وتسأل : التفتيش على ماذا ؟ يقول " على جناح التبريزى " - حسب تعبير ألفريد فرج - على أسلحة الدمار الشامل ، وينبرى " تابعه قفة " - تونى بلير - ليعلن أن لديه " زكيبة " أدلة على أن العراق طور من أسلحته ، وتسأل : أو ليس فى إسرائيل أكثر مما لدى العراق؟

وقد لا يكون عجيبا أن يصدر العيب من أهل العيب ، لكن أن تسمع تصريحات من مسئولين عرب بأنهم ينتظرون من العراق تطبيق الشرعية الدولية ، ويقاطعونها من أجل ذلك ، فهذا هو العار بعينه ، وها هى إسرائيل ، بملء الفم تعلن أنها لا توافق على أن تجئ لجنة " تقصى الحقائق " عن أحداث جنين ، ويصمت الجميع عن ذلك ! فعن أى شرعية دولية تتحدثون ؟

ومنذ أسابيع قليلة كانت الأنباء قد حملت إلينا أن الدول الأعضاء فى منظمة حظر الأسلحة الكيميائية في لاهاى مع اقتراح أمريكى لإقالة المدير العام للمنظمة ، البرازيلى ذا الأصل اللبنانى ، جوزيه بستانى ، وقال المتحدث باسم المنظمة بيترْ قيصر أن " مؤتمر الدول الأعضاء وافق على الاقتراح الأمريكى لإقالة المدير العام للمنظمة " ، موضحا أن ٤٨

من الدول ال ١٤٥ الأعضاء فى المنظمة ، وافقت على الاقتراح الأمريكى ، بينما رفضته سبع دول أخرى ، وامتنعت ٤٣ دولة عضو عن التصويت .

وقد اعتبر هذا التصويت فوزا لواشنطن التى تطالب منذ فترة برحيل بستانى ، وبعد أن دعت ، بدون جدوى ، برحيل بستانى ، قررت الولايات المتحدة طرح اقتراح بإقالته على التصويت .

وكانت واشنطن قد اتهمت بستانى بأنه " خان الثقة " التى وضعتها فيه الدول الأعضاء وسوء الإدارة و " نقص الشفافية " ، كما نددت بممارساته الشخصية التى وصفتها " بالاعتباطية " .

ولكى تؤكد الولايات المتحدة على مشاعرها تجاه الرجل ، قالت المتحدة باسم وزارة الخارجية لين كاسل أن " الولايات المتحدة مرتاحة لقرار الدول الأعضاء فى المنظمة بإقالة المدير العام بستانى من منصبه ، مضيفة أن "هذا القرار يمثل خطوة أولى أساسية لإعادة الاستقرار وحسن الإدارة إلى هذه المنظمة المهمة"

لكن يظل السؤال : لماذا هذا الغضب الأمريكى على بستانى ؟ هل لأصله العربى ؟ قد يكون هذا سببا ، ، ولكن الأهم أنه لم يسر على الصراط الأمريكى غير المستقيم ، فقد كان يريد إدخال العراق إلى المنظمة !

وهو نفس الموقف الذى حدث لبطرس غالى ، فقد ساندته ليكون أمينا عاما ، فلما نشر تقرير مذبحة قانا الذى يظهر الفظائع الإسرائيلية ، كان لابد أن يسقط ، وهو الدرس الذى وعيه عنان ، الأمين الحالى ، ومن ثم فهو لا تفزعه مذابح جنين ، ويرضخ للشروط الإسرائيلية ، ويعلن حل اللجنة التى كان قد شكلها ، ما دامت إسرائيل غير راضية عنها !

إننا نعلم أن المنافسة مستعرة بين " نتنياهو " و " شارون " على زعامة الليكود ، ومع ذلك فالأول يذهب إلى أمريكا ليزرعها طولا وعرضا ناسيا خصومته مع شارون .. إنه يطبق مثلنا الذى نسيناه : " أنا وأخويا على ابنى عمى وأنا وابن عمى على الغريب " ! وهو لا يلهث للذهاب إلى أبينا الذى فى واشنطن ، وإنما يقتحم مختلف التجمعات صاحبة التأثير .

وعلى سبيل المثال ، فهو يخطب فى مجلس الشيوخ الأمريكى مؤكدا ضرورة طرد عرفات من الشرق الأوسط ، وضرورة حل السلطة الوطنية ، ويزيف الحقائق ، فيخوف الأمريكيين من العمليات الاستشهادية التى يقوم بها الفلسطينيون على أرضهم المحتلة ، بأنهم يمكن أن يغرقوا أمريكا بعمليات مماثلة إذا لم تغلق مصانع القنابل البشرية التى يرعاها عرفات حاليا ، فإنه واضح وضوح الشمس - هكذا زعم - أن هذه القنابل البشرية

سوف تصل فى نهاية المطاف إلى الولايات المتحدة بقوة شديدة وفى النهاية سوف تكون مدمرة ! : " ستبدأ الحوادث فى المقاهى ومطاعم البيتزا والأماكن العامة ، ولا نستبعد أن يحصلوا على حقائب تحوى أسلحة دمار شامل وسيستعملونها فى أرض الولايات المتحدة نفسها كهجمات تفوق ما وقع يوم ١١ أيلول " !

فهل فكر عدد من السياسيين والمفكرين والمثقفين العرب أن يقوموا بحملة للتنوير بالقضية الفلسطينية على وجه الخصوص ، وصورة الإسلام على وجه العموم فى أمريكا وأوربا ، بدلا من ترك المسألة للسياسيين الرسميين ، ونحن نعلم علم اليقين أن ما يصرحون به لنا يختلف غالبا عما يُسمعوه للولايات المتحدة خلف الجدران ويسمعوه ؟

لا نأمل بطبيعة الحال فى " عدل أمريكى " رسمى ، لكن هناك قطاعات كثيرة فى المجتمع الأمريكى يمكن أن تسمع الحقيقة منا ، فلربما كان لهذا أثره فى تغيرات فى الرأى العام هناك ، يضطر الحكومة إلى أن تخفف من غلوائها وانحيازها الشهير لإسرائيل .

والغريب حقا أن اليهود الأمريكيين لا يكتفون بصور الدعم اللامحدود ، وبالتحيز الصارخ ، فيرسلون العديد من الرسائل إلى صحف مختلفة يشكون فيها من انتشار الاتجاه المعادى للسامية ، وهو التعبير الكاذب الذى يصفون به كل انتقاد لإسرائيل ، ويعتبرون أنفسهم هم وحدهم ممثلى السامية ، مع أن العرب هم أيضا من الساميين ، مع أن المفروض أن ناحية الأعراق هذه مفروض أن تكون من مخلفات الماضى ، لأن مؤشرات الواقع تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن التفاعل والتزاوج والتشابك بين الأعراق قد أزال الكثير مما كان قائما من مميزات خاصة لكل عرق ، فضلا عن التنامى المستمر للمؤثرات الحضارية والتى أصبحت بدورها صاحبة الدور الأكبر فى تشكيل الشخصية .

ولقد دعت الشكوى اليهودية هذه الكاتب " روبرت شير " أن يكتب فى صحيفة لوس أنجليوس تايمز " قائلا أنه لا يمكن أن يصدق أحد الإدعاءات التى وردت فى ألوف الرسائل الهستيرية الغاضبة التى تقول بأن الإعلام الأمريكى معاد لإسرائيل مما دفع بعضهم إلى إلغاء إشتراكاتهم فى صحف يعتقدون أنها معادية

وتساءل الكاتب : فهل ينكر اليهود الأمريكيون الأعمال الوحشية التى قامت بها إسرائيل مؤخرا ويلعنون بالتالى من يقول الحقيقة ؟ ثم يؤكد أن وسائل الإعلام الأمريكية ذهبت بعيدا جدا فى تعاطفها مع إسرائيل أكثر من أية وسيلة إعلام أخرى فى العالم ، إذ تشير استطلاعات الرأى العام إلى تعاطف واسع من الدول الغربية ( يقصد الأوربية ) مع الفلسطينيين : " إن تجاهل وسائل الإعلام الأمريكية التاريخى والتقليدى للضحايا

الفلسطينيين الذين يسقطون على أيدى الإسرائيليين منذ نصف قرن من الزمان أمر مريع أخلاقيا "

ويسوق الكاتب مظاهر أخرى متعددة ، فالجمعية الأمريكية لمحررى الصحف تخلو ممن أى عربى أو مسلم ، معقبا أن من المؤكد أن وجود عدد من العرب يعملون فى صياغة الأخبار ويستمعون من أقاربهم من جنين ورام الله عما يجرى هناك سيؤثر على الطريقة التى تفسر بها الأحداث .

وأكثر من ذلك فإنه لا يوجد مجموعة سيئة الصيت والسمعة فى وسائل الإعلام الأمريكية ، خاصة فى الأفلام السينمائية ، مثل العرب الذين أصبحوا فى فترة ما بعد الحرب الباردة أعداء الصفوة كما يصورهم فيلم " الأكاذيب الصادقة " ! ، كما أن العرب لا يحظون بتمثيل كاف فى وسائل الإعلام يتناسب مع عددهم ، خاصة وأنه يوجد ثلاثة ملايين عربى أمريكى ، لإذ من النادر جدا أن تجد من يعمل منهم فى صحيفة أو محطة تلفزيونية .

ولأن التحيز صارخ ، والظلم يكاد يفقأ عين الجاحدين ، صرح الكاتب ، وهو للعلم يهودى ، بأنه أمر غير مسؤول لوسائل الإعلام ، سواء أكانت يهودية أو غير يهودية أن تتجاهل الأعمال المسيئة والأعمال العنيفة التى تقوم بها إسرائيل والتى تستهدف تدمير كل دلائل الحياة المدنية !

أليست هى إذن " الويلات الأمريكية " ، لا " الولايات الأمريكية " ؟

وإلى متى سيتمر حكام وزعماء عرب فى الحج المستمر إلى أباتا الذى فى وشانطن طلبا للعون والإنقاذ ؟ لقد كان أحدهم صريحا أكثر من اللازم – على غير العادة – عندما صرح بأن ليس أماما إلا أن " نتوسل " إلى الولايات المتحدة " ، ولو شاء دقة أكثر ، وصراحة أكثر لبدل كلمة " نتوسل " إلى " نتسول " !!

كنا جماعة من أصدقاء نحضر مؤتمرا فى إحدى العواصم العربية ، وفى مثل هذه المؤتمرات تكون الفائدة الأساسية هى " التلاقى " مع الأصدقاء والزملاء وتبادل أطراف الحديث ، أما موضوع المؤتمر نفسه فنكون على يقين م أنه مناسبة خطابة ومظهر " وتفريغ " شحنات مكبوتة من الكلام ، ما دام الكلام محبوسا عن أن يتعلق بشأن من هموم الأمة الحقيقية ، والغالب على المؤتمرات العربية ألا تحدث تحركا يذكر على أرض الواقع ، لأن العلماء ولامفكرين – غالبا – فى واد ، وأولوا الأمر فى واد آخر !!

كان مكان التلاقى مع هذا العدد المحدود من الأصدقاء فى منزل واحد منهم من أهل البلد ، فى فترة راحة من جلسات المؤتمر ، وكانت فرصة لمجرد " الفضفضة " حقا حيث لا رقيب ولا محاسب ! وكان من الطبيعى أن يستأثر هم الأمة بالحديث ...

أخذ أول متحدث يحكى عن حال المصار الذى يعيشه طلاب الجامعات فى بلده بالسيارات المصفحة والجنود المدججين بأدوات الضرب المبرح ، للحيلولة بين الطلاب وبين الخروج إلى الشارع تعبيرا عن غضبهم لما يحدث .

وراح ثان يحكى عن فصل عدد من أعضاء هيئة التدريس فى عدد من الكليات بدون تحقيق أو محاكمة ، وحارالمفصولون فى معرفة الأسباب التى دفعت إلى ذلك ، فلم يجدوا من مسئولى جامعاتهم إلا بأن ذلك تم " لدواع أمنية " ، ومسئولو الجامعات أمام شبح " الدواعى الأمنية " لا حول لهم ولا قوة ، عليهم أن يطيعوا وينفذوا دون أن يسألوا : لماذا ؟!

وأخذ ثالث يروى عن محاولات مكشوفة تشهدها بلده لتلفيق تهم لأناس يحتلون مواقع موضع تقدير من جمهرة الناس ، ويأليت هؤلاء يحاكمون أمام محاكم عادية ولكنها دائما محاكم من النوع الاستثنائى ، حتى ينفذ السهم القاضى برميهم فى غيابات السجن بغير احتمال يمكن أن يكون للتبرئة أو الطعن والنقض .

وأخذ رابع يقدم لحديثه بأنه على الرغم مما سمعه من الأول والثانى والثالث ، إلا أنه يغبطهم على كل حال ، فلديهم مساحة ما للتنفس ، لكن ما يشاهده فى بلده هو أشد وطأة ، فلا يفكر أحد من الأصل أن يخرج إلى الشارع متظاهرا ، ولا متحدثا فى السياسة هنا أو هناك ، فالسياسة هى مهمة الحاكمين وحدهم لا شريك لهم ، وما على المحكومين إلا أن يسيروا مغمضى العيون ، على آذانهم وقر وأمام أفئدتهم حجاب !

وكان من المفروض على أن أسوق مثلا على غرار ما ساقوه من الأمثلة . والحق أننى أثناء سماعى ما تحدثوا به ، كنت قلقا بعض الشئ مما قد يحدث لى من حرج نتيجة عزوفى

عن رواية مثل مما فى بلادنا ، ذلك أننى لا أميل عادة إلى التحدث بسوء عن مصر عندما أكون خارجها ، فهذا ليس مظهر شجاعة ، إلا إذا كان بين مصريين ، والحمد لله ، أكون عادة فى مأمن من سوء الظن بى ، ذلك أن الجميع يعرفون أننى أكتب وأتحدث داخل البلاد بكثير من صور النقد .

ومن حسن الحظ ، أن طارئا أسريا فاجأ مضيفنا فاضطررنا إلى الانصراف ...

لكن ما سمعته - وأدرك أن هناك غيره كثير - أخذ يمر أمام ناظرى كشريط سينمائى ، وأنا أسمع وأقرأ عن تلك التعليقات المتعددة التى تشير بخجل واضح إلى ما يسمى بحالة الصمت العربى ، بعد أن كانت الإشارة دائما بأن العرب " ظاهرة صوتية " ، نقد لهم حيث يتكلمون ، ولا يفعلون ، فإذا بنا اليوم نحلم بهذا الذى كان يؤخذ عيبا علينا !!

وفى الوقت نفسه ، تداعت إلى ذهنى صور التدمير والقتل والتجريف والمطاردة والحصار التى يعيشها الفلسطينيون دون أن يصدر فعل عربى ما يعكس احتجاجا . كانت المظاهرات تموج بها الشوارع العربية ، فى كثير من بلدانها ، وتصدر تصريحات من هنا وهناك معلنة " شجبا " و " تنديدا " ، فإذا بهذا الحد الأدنى الذى كنا نتندر عليه ونطمع فى أكثر منه ، يختفى ، ويصبح أملا نحلم به ، وتمر الأحداث وكأنها " قدر " لا فكاك منه ، وما علينا إلا أن " نتفرج " على تلك المشاهد وكأنه مشاهد فيلم سينمائى ، لا واقع حال .

وتداعت إلى ذهنى صور هؤلاء الجنود المرتزقة من متمردى جنوب السودان وشرقه تنهش فى لحمة مهددة إياها بالتمزيق ، وأيدى الأعداء " إياهم " واضحة تحرضهم وتمدهم بالمال والسلاح ، ولا أحد يتحرك فى هذا العالم العربى الملقى على قارعة طريق العالم !

وقفزت إلى ذهنى حالة التدهور الذى يعيشه الصوماليون ، ولا مغيث ولا معين ...

أما حالة العراق ، فحدث عنها ولا حرج : زعيم يُسأل : فيقول بأنهم لا يوافقون على ضربه ، فلما قيل له : والقاعدة الأمريكية التى فى بلدك ، سوف ينطلق منها الجنود الأمريكيون وطائراتهم لضرب العراق ؟ فيرد بكل استهانة وبرود ، بأن ليس لهم قبل بمنع الأمريكيين من استخدام قواعدهم التى فى أراضيهم ، ويكاد السائل يصرح بما يكتمه : فأى كيان هذا يحترم نفسه الذى يشعر بأنه يعجز عن التحكم فى جزء من أراضيه ؟ وكيف رضى وما زال بهذا الاحتلال الأمريكى وهذا الهوان المعلن ؟

وتخرج من ذئاب الإمبراطورية الجديدة الأمريكية تصريحات تمتلئ بالإذلال والإهانة ، والرغبة المحمومة فى " مرمطة " العرب ، من حيث الحرص على وضع شروط تكاد أن تكون مستحيلة ، ومع ذلك تصدر تصريحات عربية ترى أملا فى خطابات الذئب الأمريكى ، الذى يسن أسنانه استعدادا لالتهام الفريسة المنتظرة ، وتطالب الفريسة المحطمة المحاصرة

منذ إحدى عشر عاما ، بأن تصغى لصوت العقل ، أما صـوت العقل هذا فهو أن تستجيب لشروط الذئب !!

تقابلت الصور الأخيرة ، مع الحكايات السابقة ، فإذا بهذه الحقيقة الصارخة المشيرة إلـى قبضة فولاذية فى التعامل مع المواطنين ، ويد رخـوة أمـام ذئـاب التـاريخ المعاصرالكبـار ، والأمر لله من قبل ومن بعد !!

# رأس المال والثقافة

مما هو معروف ومشهور عن المجتمع الرأسمالى أنه إذ يتيح الفرصة للقطاع الخاص أن يتحرك ويستثمر وينتج وينتشر ، فهو فى ذات الوقت يجرص على النهج نفسه بالنسبة للثقافة ، إيمانا بأن حرية الحركة لكل من الاقتصاد والثقافة وجهان لعملة واحدة ، ذلك أن الثقافة إذا افتقدت الحرية ، أمكن لرأس المال أن " يتوحش " فينهب ويسرق ويستغل ويحتكر ، آمنا على أن كل ما يفعله ، ما دام يتم بعيدا عن " النشر " والمناقشة ، يمكن له أن يستمر ، فيتضخم فعله ويستشرى ويصعب السيطرة عليه بعد ذلك ، بل ويتحقق له قدر من السطوة التى يمكن أن تمتد إلى الكثير من مرافق المجتمع ، إن لم يملك أمرها مباشرة ، فهناك ما يشبه تقنية " الريموت كنترول " يمكن بها أن يوجه إلى ما يريد ، ويُسير فى الطريق الذى يهوى ويرغب !

ومن المفارقات العجيبة فى كثير من دول العالم النامى ، وفى مقدمتها الدول العربية ، أنك تجد النظام الحاكم يسرع الخطى فى السنوات الأخيرة نحو تسييد اقتصاد السوق ، لكنه فى نفس الوقت يشدد قبضته يوما بعد يوم على صناعة الثقافة ، وبصفة عامة على قنوات إنتاج الفكر ، وبالتالى فلا بأس من أن يكون النظام " رأسماليا " من الناحية الاقتصادية ، لكنه " اشتراكى " من الناحية الثقافية ، لا بمعنى إتاحة الثقافة لكافة المواطنين بغير أن تحول بينهم وبينها معوقات اقتصادية ، ولكن بمعنى أن تكون للدولة الهيمنة والسيطرة على أجهزة الإعلام والتثقيف والتعليم .

وإذا كان معروفا أن كلا من الفلسفتين كل متكامل إلا أن البعض لا يرى بأسا من الاستفادة من كليهما ، لكن ، بأى معيار؟ هنا يبرز سلم الأولويات الذى يمكن أن يكشف عن حقيقة النظام القائم ، فهو عندما يختار الرأسمالية الاقتصادية ، وفى نفس الوقت الهيمنة على إنتاج الثقافة وأجهزة الإعلام ، فكأنه بذلك يزيح عن كاهله مسئولية القيام بمشروعات الإنتاج والتنمية ، والعديد من المشكلات الاقتصادية لكى يتحكم ويسيطر على العقول والقلوب ، وبالتالى تنكشف سوأته لتشير إلى أن سلم الأولويات عنده هى أن يكون النظام الحاكم نفسه هو صاحب المصلحة وليس المواطن!

ومن بين العديد من الأمثلة التى يمكن أن تساق هنا ، هذه الأنباء المتوالية كل فترة عن جهود حثيثة لإزالة معوقات الاستثمار ، فالعمل " س " -مثلا- بعد أن كانت الموافقة عليه تحتاج إلى ثلاثين إجراء ، تختصر إلى عشر .. وهكذا ، وهى خطوات لا يستطيع الإنسان إلا أن يسعد بها ، لكن تأمل فى مسألة هامة على الجانب الآخر : مثل عقد المؤتمرات العلمية ..لقد كنت أعقد مؤتمرا تربويا كل عام منذ فترة ، فلا أقوم بأى خطوة لاستئذان أحد إلا الجهة التى نقيم المؤتمر بها ، فإذا بالدولة فى الفترة الأخيرة تشدد على ضرورة أخذ موافقات من وزارة الخارجية والشئون الاجتماعية والتعليم ، بل ورئيس مجلس الوزراء ، فمباحث أمن الدولة ، ولابد من إرسال قائمة بأسماء المشتركين !! لقد حضرتنى فى التو واللحظة مقولة لشيخ أزهر سابق " عبد المجيد سليم " عندما وجد الملك فاروق يبذر ويسرف فى إنفاق سفيه عام ١٩٥٠، بينما لم يكن الأزهر يجد ما هو بحاجة إليه من أموال للتعليم والدعوة ، فقال قولته المشهورة : تقتير هنا وإسراف هناك !!

فى يوم الأحد السابع من يوليو دق جرس الهاتف فى مكتبى وإذا بصوت الأخت السكرتيرة بالجريدة تخطرنى بأن ليس لديهم مقال لى للعدد التالى ، واحترت : بماذا أرد عليها ؟

لقد كنت أعلم بطبيعة الحال أن السلسلة القصيرة الماضية عن " النظام عندما يشيخ " قد انتهت مما لابد معه من كتابة موضوع جديد ، وقد شرعت بالفعل فى صباح الجمعة ، الخامس من يوليو فى محاولة الكتابة ، فإذا بالقلم فى يدى عصيا ، وإذا بتفكيرى كما سار فى طريق فوجده مسدودا فلا يستطيع المسير ، فهل أصابت قلمى بدوره الشيخوخة فلم يعد قادرا على الكتابة ؟ أم هل أصاب تفكيرى إفلاس فلم يعد مستطيعا طرق موضوع جديد؟

وأقوم لعمل آخر ، ثم أعاود المحاولة فى اليوم التالى ، لكن الحال ظل على ما هو عليه ! فما كان منى إلا أن أجبت السكرتيرة بأنى معتذر لعذر مرضى ، وكأنى تلميذ خائب لم ينجز " الواجب المدرسى " ، فأخطر أبواه بأنه لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة لأنه يشعر بالمرض !!

وعن لى أن أخطر الأخ الفاضل ( بدر ) بأنى أشكر للجريدة أنها فتحت صدرها لى طوال الفترة الماضية ، وأننى أتذر عن عدم الكتابة كلية !

فلما فتحت العدد الماضى ، نظرت فى مكانى فإذا بى أجد اعتذارى منشورا ، لكن الجريدة تستكمله واعدة بأنى سوف أعاود الكتابة فى الأسبوع التالى ، واسقط فى يدى حقا !

وأمام هذا الوعد المنشور شعرت بحرج بالغ ، فما زال القلم عصيا على الكتابة ، ثم إذا بى أدخل فى حوار معه مستفسرا عما أصابه من توقف ؟

– عن ماذا تريدنى أن أكتب ؟

– وهل هذا سؤال ؟ الساحة " حبلى " بالعديد من القضايا والمشكلات التى تستنفر الأقلام والعقول لتفكر وتكتب وتناقش !

– قل لى ، مثلا ؟

– التعليم ، فجميع الصحف والمجلات ، وأجهزة الإعلام مشغولة ليل نهار بانقلاب يوشك أن يحدث فى الثانوية العامة ، فما الرأى فى هذا المطروح ؟ وكيف يعقل ونحن من نحن فى عالم التربية والتعليم الا يكون لنا حضور فى " سوق عكاظ " التعليمى ؟

– وهل نسيت وعدك الذى أخذته على نفسك فى نفس هذا المكان فى آفاق ، منذ عدة شهور، وشعارك : " إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا " ؟ وشرحت الأسباب التى تجعلك لا تقرب قضايا التعليم ومشكلاته على صفحات الصحف ؟

– نعم ما زلت أذكر ، لكن أمانة الكلمة تقضى بأن أقول رأيى فيما يجرى أو سوف يجرى .

– إن جسدك لم يعد فيه مكان خال من كثرة ما نالك من سهام وطعون تصدر من " كتبة السلطان " ، سواء المكلفين أو المتطوعين ، والمناخ الآن على مستوى العالم كله ، بعد سبتمبر ٢٠٠١ ، مسموم أو شبه مسموم ، فلربما يتجه السهم التالى إلى اعتبارك على صلة بتنظيم القاعدة وتروج لأفكار بن لادن !!

– وقضايا الفساد الكبرى التى " كشف " عن بعضها ، تنادى أصحاب الأقلام أن يحللوا ويعللوا ما يحدث ويعلقوا ويشرحوا ويقترحوا !

–.....؟!!

– وقضايا الديموقراطية فى مصر ...منشيتات مستمرة عن أننا نعيش أزهى عصور الديموقراطية ، وهناك فى المقابل عشرات الوقائع التى تنبئ بحال آخر ولعل أبرزها موقعة رمل الإسكندرية ، وقانون الجمعيات الأهلية ، وعودة جريدة عرفت بالفضائح ، واستمرار منع جريدة الشعب ؟

– ألم تنس ، أنك لمجرد الكتابة فى آفاق ، كتب صحفى كبير مدافعا عن سياسة التعليم بأنك تهاجمها على صفحات جريدة توجهها إخوانى ، ملمحا بذلك بتصنيفك فى معسكر التطرف والإرهاب ، أو المساندين لهذا وذاك ؟ فماذا لو كتبت فى مثل هذه الموضوعات ؟

– فهل أنت فى حاجة إلى التذكير بهذه الجريمة التاريخية الكبرى التى تجرى على أرض فلسطين المحتلة من اقتحامات وتدمير واغتيال وقتل وتجريف ، طوال اربعة وعشرين ساعة يوميا ؟

– لست فى حاجة إلى التذكير بها ، بل إنى أصارحك ، أن هذه القضية أكثر من كل ما ذكرت هى التى تشلنى عن الاستجابة لك فى الكتابة !

– كيف ؟

– كنت سعيد فرحا منذ اندلاع الانتفاضة حتى انعقاد مؤتمر القمة فى بيروت ، على الرغم من كثرة الشهداء وحجم التدمير ! بل أكاد أقول ، أه لم تمر على فترة امتلأت فيها بالأمل ، مثل هذه الفترة !

– هذا تناقض ، هل سعدت بكثرة القتلى من الفلسطينيين وما أصابهم من خراب ؟

- كلا ، فالأنباء التى كانت تتوالى من معظم البلدان العربية ، عن حشود شعبية خرجت إلى الشوارع فتحت أمام قلبى طريق أمل فى أن تسارع الأنظمة العربية لتنتهز فرصة عمر لها ، فالكثرة الغالبة منها تفتقد الشرعية الشعبية الحقيقية ، فتتجاوب ، ولو بدرجة ما مع هذه الأنهار المتدفقة للجماهير وتكتسب بذلك الشرعية المفقودة .

- فما أطفأ جذوة الأمل فى قلبك بعد مؤتمر قمة بيروت ؟

- منذ ذلك الوقت ، وأنت تلاحظ أن ما يرتكب منذ شهور على الأرض الفلسطينية ، وما يتم ترتيبه " لتفصيل " كيان ممسوخ ذيلى تابع ، أشد بشاعة ، وأفظع من كل ما كان يحدث من قبل ، ومع ذلك ، فحالة الصمت العام أصبحت هى السمة العامة ..كانت الجماهير تصرخ فى الشوارع ، ونتساءل : ولماذا الأنظمة صامتة ؟ فأصبحت الجماهير نفسها تشارك الأنظمة صمتها .. إلا من صرخات على صفحات الصحف ، وصرخات عبر الأثير على شاشات التلفاز !

- هذه قضية خطيرة حقا ، مفروض أن تثيرك للكتابة !

- لكنك لو أنعمت التفكير فيها يا صاحبى فسوف تشاركنى فى الصمت ، لأنك سوف تفجع بالوقوف مباشرة أمام حقائق مفزعة ، وسوف تجد نفسك على حدود جهنم الفعلية . هل تذكر ما يجرى على ألسنة البعض عندما يقولون : دى سكة السلامة ، ودى سكتة الندامة ، ودى سكة اللى يروح ما يرجعش ؟

-.....؟

- ها أنا ذا ألمح أن الطريق قد وضح أمامك : أنا لست عاجزا عن الاستجابة للكتابة ، ولست مفلسا ، وأنا لا أتمرد عليك ، ولكنى أستحلفك بالله ألا تسئ الظن ، وانقل إلى القراء اعتذارى عن اضطرارى لطلب أجازة مفتوحة من الكتابة : " لا تدرى ، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا " !

- " ...ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا " ، فقط سوف أجعل هذا الحوار نفسه موضوعا لمقال ، ما دامت الجريدة العزيزة قد أعلنت للقراء أننى سوف أعود للكتابة فى هذا الأسبوع ، ولا أجد ما يعبر عن " وجيعتك " - قلمى - إلا هذا العنوان الذى يتصدر المقال !

# النظام عندما يشيخ !

سألتنى حفيدتى مرة بعد أن أتعسها الحظ بالجلوس بجوارى وأنا أشاهد الأخبار عدة مرات فى عدة قنوات فضائية مختلفة ، حيث معظم ما فيها محزن مؤسف ،عن الفرق بين هذه الألقاب التى لاحظتها : ملك ، أمير ، رئيس جمهورية ، سلطان ، امبراطور ( حيث حمل تعليق إحدى النشرات ذكرا لهيلاسلاسى عندما كان امبراطورا لإثيوبيا ) ؟ وتوقفت لحظات وأن أشعر بقدر من الحيرة ، فإذا بها تفزع وتسأل مندهشة : إيه ، مش عارف ؟ حسأل " الميس " – تقصد مدرستها – فأسرعت بنفى الجهل ، لكنى لم أستطع أن أخبرها عن سبب حيرتى وبطئى فى الإجابة .

أما السبب فهو أن هناك إجابتين حقيقة ، إجابة تتصل بما يقول به القانون الدستورى ، وأخرى تتصل بما يتصل به الواقع العربى ، والإجابة المستمدة من كتب القانون الدستورى معروفة ، لكن الواقع العربى حقيقة لا نرى فيه فرقا جوهريا بين مثل هذه النظم إلا فى بعض الشكليات وخاصة مسألة الانتخاب ، فالشكل الخارجى يقول أن رئيس الجمهورية يكون منتخبا ، لكن واقع الحال لا يقول بذلك .وإذا كنا قد درجنا على أن نزين لأبنائنا – ولأنفسنا – أفضلية النظام الجمهورى ، إلا أننا ننسى ميزة هامة فى نظم الحكم الملكية العربية ألا وهى أنها تقول الصدق فى وصف نفسها ، فالملكى ملكى لا زيف فى هذا ، بينما هؤلاء الذين يقولون بالجمهورى لا يصدقون ، حتى أطلق عليه بعض الظرفاء اسما جديدا مركبا ألا وهو النظام " الجملكى " ! على أساس أنه يجمع بين الأمرين .

وتطبيقا لذلك انظر ماذا يحدث عندنا على سبيل المثال ، فأكثر من ثلاثة أرباع أعضاء مجلس الشعب هم الذين يرشحون من يعرض للانتخاب العام كرئيس للجمهورية ، لكن هؤلاء الأعضاء أنفسهم ، يرشحهم الحزب الوطنى الذى رئيسه هو رئيس الجمهورية ، وقبل أن يستقر الرأى عليهم تعرض أسماؤهم على سيادته ، فكأنه يختار الذين سوف يرشحونه ، ولا يجيز الدستور أن يرشح أحد آخر إلا بناء على موافقة ثلثى الأعضاء الذين يستحيل أن يرشحوا غير الرئيس القائم بالفعل ، وبالتالى فلا منافسة ، وتصبح عملية الانتخابات على الرياسة عملية شكلية لا تغير – ولو مجرد احتمال – من أمر الواقع شيئا ، ولم يعرف حالة واحدة فى النظم الشبيهة أن سار السيناريو المرسوم على غير ما هو مطلوب ، ويصبح السؤال بعد هذا : ولم كل هذا العناء ؟ وهذه التكاليف ؟ وهذا الوقت الضائع ؟ فكلنا يعرف النتيجة مسبقا ، والذين يصنعونها يعرفون هذا مسبقا ؟!!

إن النظم السياسية مثلها مثل الكائن الحية تنمو وتتطور وتسرى عليها قوانين النمو الحيوى التى فى مقدمتها التغيير والتجديد ، ولا نقصد بطبيعة الحال تغيير الأسس والقواعد العامة ، فلقد استقر الرأى لدينا على النظام الجمهورى منذ عام ١٩٥٣ ، ولكن مدة الرئاسة وطريقة اختيار رئيس الجمهورية قد تجاوزته السنون والأعوام وأصبح نظاما مثيرا للشفقة حقا . وإذا كانت جملة الظروف العام قد اقتضت منذ فترة نظاما ما ، فإن مجمل الظروف التى استجدت تتطلب النظر بعين الاعتبار إلى أن جماهير الناس قد نضجت ولم تعد تقتنع أبدا بمثل هذا الهراء القائم الذى يفترض سذاجة فى الجميع .

إن الأمر لا يتعلق أبدا بأشخاص ، ولا بالتقليل أبدا من كفاءات ربما أثبتت الأيام أنها عالية وتستحق التقدير ، لكنها سنة الحياة التى تفرض التغيير ...

كلنا يعرف مقدار ما بذله تشرشل على سبيل المثال للإنجليز .. كان قائدا للمسيرة فى أحلك الظروف ، ظروف الحرب العالمية الثانية ما يقرب من ست سنوات ، وقاد بريطانيا إلى النصر ، ومع ذلك فقد اختار الإنجليز غيره كى يقودهم بعد الحرب ، اختاروا " آتلى " زعيم حزب العمال ، ولم يكن اختيارهم لآتلى وإسقاطهم لتشرشل تخليا عن تقديرهم للرجل ، وإنما هى مرحلة رأوا أنه صلح لقيادتهم فيها ، وجاءت مرحلة أخرى لابد أن يقودهم فيها شخص آخر .

ومنذ وقت قريب ، فى الولايات المتحدة الأمريكية حدث فى عهد " بوش " الأب انتصار تاريخى غير مسبوق على الساحة الدولية ، ألا وهو سقوط الاتحاد السوفيتى ، وتآكل الكتلة الشرقية بغير طلقة رصاص واحدة ، وهى المواجهة التى تكرست لها كل جهود الولايات المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية . وبغض النظر عن مشاعرنا ورأينا فى هذا التحالف الذى حرر الكويت ، وهو أمر مطلوب ، وكيف تحول إلى تحالف قذر ساهم فى تدمير العراق ، فإنه بالنسبة للولايات المتحدة نفسها كان فرصة عمر لأن تعيد احتلال منطقة الخليج إلى ما شاء الله وأن تنتصر فى تلك الحرب المحزنة المؤسفة ، و " تلهف " المليارات ، ومع ذلك فإن الأمريكان أسقطوا بوش ولم يمكنوه من أن يسعد بولاية ثانية ، علما بأن مدة الولاية الواحدة كما هو معروف لا تزيد على أربع سنوات .

لكن عندنا لا حدود لإعادة اختيار رئيس الجمهورية .. إنها تبدأ بهذا الأمر الشائع وهو إجازة التجديد لمرة واحدة ، كما كان الأمر فى دستور ١٩٧١ ، ثم إذا بمتطوعين ( أو قل ، ممثلين يدفعون لأداء دور لهم مرسوم ) فى عهد السادات يبرزون وينادون بتلك الحجج المكشوفة الساذجة ... أن البلاد تمر بظروف صعبة تقتضى لم الشمل والاستقرار ( أسمع هذا منذ أن بدات أعى فى أواسط الأربعينيات ولم تنته الظروف الصعبة حتى الآن ولم تستقر

البلاد ) مما يقتضى أن يكون التجديد لمدد مفتوحة ، ويتم تصفيق وموافقة وتصبح المسألة قاعدة ، فلم لا نسمى إذن الأمور بأسمائها ؟ وهل حقا يعتبر هذا نظاما جمهوريا؟

ثم إذا بالنهج نفسه يمتد ليطول معظم مؤسسات الدولة وعلى رأسها الوزارة ...

كانت الشكوى دائما من كثرة التغيير الوزارى بحيث لم تكن تتاح الفرصة أحيانا لبعض الوزراء أن يسير بالسياسة التى وضعوها إلى طريقها المرسوم ، لكن هل يكون البديل أسوأ فإذا بنا نرى لأول مرة فى التاريخ وزراء يستمرون رغم انتهاء عمرهم الافتراضى فى العمل ، فيصلون إلى العشرين عاما مما يقتضى أن يحتلوا موقعا فى موسوعة الأرقام القياسية فى العالم ! هل هذا الوزير أو ذاك فلتة لم تنجب مصر مثله ؟

ومرة أخرى ، ليس الأشخاص هم الذين نقصدهم ، ولكنا نقصد فلسفة نظام وطريقة تفكير حاكم . هل هى تلك الأقوال المرسلة :" اللى نعرفه أحسن من اللى منعرفهوش ؟ " أو: " طالما هو ماشى كويس نغيره ليه ؟ " وما يدرينا أن يكون الجديد أفضل ؟ وكيف نعثر على قيادات جديدة إذا كان هذا وذاك مستمرا " على قلبها " كما يقولون ؟ إن هذا يقتل طموح كثيرين فى الصفوف الثانية والثالثة والرابعة من حقها أن تتحرك إلى الأمام . أرجو ألا يسارع البعض باتهام كاتب هذه السطور بأنه يقول هذا لأنه " عبده مشتاق " ، فالسن قد تجاوز الخامسة والستين ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا مما لا يتيح له فرصة التطلع لذلك ، والحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه !

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، ويمتد التقليد بكل الأسف وبكل الأسى إلى جوانب ومواقع كثيرة ...

فهذه دور الصحف الحكومية ، على رأسها قيادات ، بعضها بالفعل لا جدال فى كفاءاتهم ، وليست هذه هى القضية ، لكن أن يستمر هذا أو ذاك هذه الفترات الطويلة غير المسبوقة من شأنه أن يقتل طموح العديد من شباب الصحفيين الذين من حقهم أن يتطلعوا إلى أن يحتلوا مواقع متقدمة قيادية ، وهل نسينا فى أى سن تولى محمد حسنين هيكل رئاسة تحرير آخر ساعة ؟ وفى أى سن تولى إحسان عبد القدوس رئاسة تحرير روز اليوسف ؟ وفى أى سن تولى أحمد بهاء الدين رئاسة تحرير صباح الخير ... وهكذا؟

وهذه الهيئة المصرية للكتاب .. منذ كم سنة يتولى رئاستها د.سمير سرحان ؟ ومصر للطيران ، منذ كم سنة يتولى أمر قيادتها ريان ؟

بل وفى داخل الوزارات نفسها نجد العدوى قد سرت ، فإذا ببعض الوزراء ، بعد أن يصل هذا أو ذاك من معاونيهم إلى سن الستين يجدد له عدة مرات تحت مسميات مختلفة على

أساس أنه خبرة ضخمة لا يمكن التفريط فيها ، وهو منطق له بعض الوجاهة ، لكن على ألا يحتل نفس الموقع الإدارى ، ويصبح "مستشارا " !

الغريب أن هذا النظام " الشايخ " قد شمر عن ساعديه منذ عامين ، ولم يجد لتطوير التعليم الجامعى إلا هذا القانون الذى " سرح " عددا من خيرة العلماء الذين تجاوزوا السبعين ، مع أن المنطق هنا مختلف ، فالعلم ليس له عمر زمنى ، والقانون السابق كان يحرم شغل أى منصب إدارى لمن تجاوز الستين ٠

ومن المعروف أن صاحب المنصب عندما يطول به العمر فى العمل تتربى بالقرب منه شخصيات تتحول إلى ديناصورات إدارية وقوى نفوذ وجبروت ، كثيرا ما يزرع الإحباط فى القلوب عندما يشعر الآخرون بأن صاحب الموقع لا يتحرك ، وتعود الحياة مرات ومرات إلى هذه المقولة المؤسفة بأنه : مفيش فايدة " !

وعندما " عرت " الانتخابات النيابية الأخيرة سواءات النظام القائم ومدى هشاشة حزب الحكومة ، وخطورة المتاريس المذهلة التى تكاد تقتل النشاط الحزبى غير الحكومى ، تصورنا جميعا أن شدة الضربة وعمق الحدث لابد وأن يكونا بمثابة " جردل " ماء بارد على رأس النظام ، من المفروض أن يفيقه ويسرع بالتجديد والتغيير ٠ ويتعلق الناس بآمال التغيير ، وتروح الصحف والمجلات تضرب أخماسا فى أسداس ، هذا الوزير سوف يذهب ، هذه الوزارة سوف يأتيها وزير جديد ٠٠ إلخ ، لكن النظام يخرج للجميع لسانه ، ويسعد بأن تخيب كل التوقعات ويستمر الحال على ما هو عليه !

إن هناك بعض التلاميذ والأقرباء ممن يتفضلون على كاتب هذه السطور بالدعاء له بأن يطيل الله عمره ، فأسرع بالرد بأنه مع شكرى الجزيل على هذه المشاعر الطيبة لكنى أتمنى من الله ألا يمد فى عمرى طويلا حتى لا أعيش معانيا من أمراض الشيخوخة وضعف الذاكرة وأدخل فى مرحلة أصبح فيها مثار شفقة ، وربما سخرية !

وشئ من هذا نرجوه للنظام القائم ٠٠٠ إنه بحاجة إلى تغييرات سياسية أساسية ٠٠ وبحاجة إلى بث دماء جديدة فى قياداته حتى لا تصيبه أمراض الشيخوخة التى بدأت بعض أعراضها تظهر عليه !

# المحتويـــات


١- الأبعاد الثقافية للموروث والوافد فى التعليم العربى ---------- ٧

٢- المسيح معلما ---------- ١٥

٣- فأنذرتكم نارا تلظى ---------- ١٨

٤- هذا السيناريو المخزى ---------- ٢٣

٥- ديفوس بين الناس اللى فوق والناس اللى تحت ---------- ٢٧

٦- الإمبريالية من بعد ---------- ٣١

٧- تحذير لا تخويف ----------٣٥

٨- ليست من أساطير الأولين ---------- ٣٩

٩- كيف نقدم التاريخ لأبنائنا ؟---------- ٤٢

١٠- اليمين المتطرف والعنصرية ---------- ٤٤

١١- العروبة والعرب وخلط الأوراق ----------٤٦

١٢- تحيا القوة ---------- ٥٠

١٣- وهم السلام بين " المواجع " و " الفواجع " ----------٥٣

١٤- يا دكتور عاطف : إذا كان هذا هو القط فأين اللحم ؟ ---------- ٥٧

١٥- الفقر خطر يهدد التنمية البشرية ----------٦٠

١٦- البعثات التعليمية فى عهد محمد على ----------٦٩

١٧- حوار حول عصر الخطابة ---------- ٨١

١٨- السينما المصرية بعيون تربوية ----------٨٧

١٩- أصداء العولمة فى عالم التعليم ----------٩٣

٢٠- هل خدع الرجل المرأة ؟ ---------- ١٠١

٢١- أستاذى الذى كان يبيع الجرائد ----------١٠٥

٢٢- التعددية اثقافية بين الشرائح الاجتماعية ---------- ١٠٨

٢٣- التعليم المصرى عاملا من عوامل التوحيد فى الثقافة العربية -------- ١١٥

٢٤- أبعاد سياسية واجتماعية لسياسة الخصخصة ----------١٢٣

٢٥- كتاتيب ----------١٢٧

٢٦- آثار الحكيم بعيون تربوية ----------١٢٩

٢٧- بين الوجد والوغد ---------- ١٣٥
٢٨- رحيل عالم نفس عظيم ---------- ١٣٩
٢٩- العقل العشوائى ---------- ١٤٢
٣٠- ويل للمطففين ---------- ١٤٥
٣١- " أليس منكم رجل رشيد ؟ ---------- ١٥٠
٣٢- عولمة التعذيب ---------- ١٥٣
٣٣- كليات الطب فى الجامعات المصرية ---------- ١٥٥
٣٤- صناعة الطغيان ---------- ١٦١
٣٥- إمبريالية وليست صليبية ---------- ١٦٤
٣٦- أنا والغريب على أخويا وابن عمى ----------١٦٦
٣٧- تحديد إقامة الإسلام ----------١٦٨
٣٨- المسلمون ٠٠بقر مجنون ---------- ١٧١
٣٩- المكافأة ---------- ١٧٤
٤٠- لماذا ننجح فرادى ونفشل مجتمعين ؟ ----------١٧٦
٤١- أبناؤنا والمسألة الجنسية ---------- ١٧٩
٤٢- الحج/ العمرة وأزمة الدولار ----------١٨٢
٤٣- أنا ٠٠والإرهاب ---------- ١٨٥
٤٤- فى إسرائيل وليس فى أفغانستان ----------١٨٨
٤٥- الخوف من الحرية ---------- ١٩٠
٤٦- القنبلة السكانية الفلسطينية ---------- ١٩٢
٤٧- موت مجلة ---------- ١٩٥
٤٨- الغزو المضاد ----------١٩٧
٤٩- مناظرة : مصرية أو عروبة ؟ ---------- ٢٠٠
٥٠- المستقبل الغامض ---------- ٢٠٥
٥١- ٢٨ سبتمبر ---------- ٢٠٨
٥٢- ماذا فعل الساسة باللغة العربية ؟ ----------٢١١
٥٣- الشوكة الإسلامية فى أوربا ---------- ٢١٣
٥٤- تجريف العقول ---------- ٢١٥
٥٥- تسطيح العقول ---------- ٢١٧

٥٦- رسالة إلى المندوب السامى الأمريكى ---------- ٢١٩
٥٧- العقاد يتهم الخولى ----------٢٢٢
٥٨- شعلة لا تنطفئ ----------٢٢٨
٥٩- ..حتى بروتس !----------٢٣٤
٦٠- الأمريكان يعلمون المسلمين الدين الإسلامى ---------- ٢٣٨
٦١- من ينقذ هذه الأم ؟ ---------- ٢٤٢
٦٢- المهزومون ---------- ٢٤٥
٦٣- من المحاصر ؟ ---------- ٢٤٨
٦٤- مثل الحمار يحمل أسفارا !---------- ٢٥٠
٦٥- " أنا بكره المدرسة " !---------- ٢٥٢
٦٦- سلافة النديم ---------- ٢٥٤
٦٧- أزمة نظام أم أزمة حكومة ؟ ---------- ٢٦٠
٦٨- يريدون اغتيال عقولنا ---------- ٢٦٥
٦٩- أسود علينا ، وفى الحروب ؟ ---------- ٢٧١
٧٠- رأس المال والثقافة ----------٢٧٤
٧١- " إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " ---------- ٢٧٦
٧٢- النظام عندما يشيخ ---------- ٢٧٩

رقم الإيداع بدار الكتب : ١٨٢٨٣ لسنة ٢٠٠٣
الترقيم الدولى : I.S.B.N : 977-232 - 382 -6